

﴿أَنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾
﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعِ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ
نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(١).
﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾

قال رسول الله ﷺ :

«عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض .
«عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ» .

«أنا مدينة الحكمة وعليّ بابها، فمن أراد الحكمة فليأت الباب» .
«مثل عليّ فيكم - أو قال : في هذه الأمة - كمثل الكعبة المستورة، النظر إليها عبادة، والحجّ إليها فريضة» .

«إنما مثلك في الأمة مثل الكعبة نصبها الله علماً، وإنما تؤتى من كلّ فجّ عميق،
ونادٍ سحيق، وإنما أنت العلم علم الهدى ونور الدين، وهو نور الله»^(١) .
قال الإمام عليّ عليه السلام وقوله الحقّ وفعله الصدق :

«يا دنيا غرّي غيري، إليّ تعرّضت، أم إليّ تشوّقت، هيهات هيهات . لقد
طلّقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كبير، وعيشك حقير، آه، آه
من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق» .

«... على أئمة الحقّ أن يتأسّوا بأضعف رعيّتهم حالاً في الأكل واللباس، ولا
يتميّزون عليهم بشيء لا يقدرّون عليه، ليراهم الفقير فيرضى عن الله تعالى بما هو
فيه، ويراهم الغني فيزداد شكراً وتواضعاً» .

الهوامش :

(١) النساء : ٦١ .

(٢) أنظر : ذخائر العقبى : ١٤٢، تاريخ بغداد : ١١ : ٢٠٤، كفاية الطالب : ١٦١، المناقب لابن شهر آشوب : ٣ / ٢،
كلّها عن أبي زر، خصائص الأئمة : ٧٣ عن أبي موسى الضرير البجلي عن أبي الحسن عن أبيه عن الإمام عليّ

عَلَيْهِمْ وَغَيْرَهَا.

من أحاديث الإمام الخميني

إنَّ ممَّا يجب أن نأسف له أن أيادي الغدر والخيانة لم تمنح شخصية الإمام علي عليه السلام الفرصة لتتبلور وتظهر إلى حيِّز الوجود بأبعادها المختلفة وزواياها المتعددة؛ بسبب ما افتعلته تلك الأيدي من حروب ومعارك خلال فترة خلافته القصيرة. إن لشخصية الإمام علي عليه السلام أبعاداً ليست لغيره فشخصيته تجمع صفات وخصائص خلقت منه شخصيّة ربّانيّة وإذا قدر للصفات الربّانيّة أن تتجلّى في شخص فإنّ علياً كان مظهرًا لها كلّ ذلك بفضل رسول الله الأكرم ﷺ. وما خفي من صفات تلك الشخصية وأبعادها، كان أعظم ممّا ظهر منها. إن ما تعرفت عليه البشريّة وستتعرف عليه من صفات وأبعاد متناقضة ومتضادة كلّها تجمّعت في رجل واحد، ألا وهو أمير المؤمنين علي عليه السلام، الزاهد العابد والمقاتل المجاهد... وهي صفات لا يمكن اجتماعها في رجل واحد، فالزاهد لا يستطيع بطبيعة الحال أن يكون محارباً أو مقاتلاً صنديداً، والعكس صحيح. فمع كون علي بن أبي طالب عليه السلام كان قوي الساعدين شديد البنية قويّ الجسم، لكنه كان يعيش في زهد وقناعة كاملتين في مأكله ومشربه وطريقة معيشته، وفي الوقت الذي كان فيه يمتلك من

العلوم المعنوية والروحانية وسائر العلوم الإسلامية الأخرى ما لم يحظَ أحد غيره ولو بجزء ضئيل منها، كانت كل ملّة تصنّفه على أنه منها وأنه ينتمي إليها. فالأبطال والبواسل يعتبرونه منهم بطلاً مغواراً، والفلاسفة تعدّه واحداً منها، والعرفاء ينسبونه ﷺ إليهم، والفقهاء يدّعون أنه ينتمي إلى مذهبهم، وهكذا الحال مع باقي الملل والنحل الأخرى، والحق أن أمير المؤمنين ﷺ هو واحد من كلّ تلك الطوائف وفرد من كلّ ملّة من تلك الملل.

إنّ بعض كمالات أمير المؤمنين ﷺ وصفاته المتميزة التي لا زالت غير معروفة للكثير يمكننا الاطلاع عليها من خلال قراءة لبعض أدعيته ﷺ الماثورة. فدعاء كميل هو أحد تلك الأدعية العجيبة، وأقول عجيبة لأن بعض الفقرات الواردة فيه لا يمكن أن تكون صادرة من إنسان عادي على الإطلاق. فلاحظ مثلاً عبارة: «إلهي وسيدي ومولاي وربّي هبني صبرتُ على عذابك فكيف أصبر على فراقك؟»؛ مَنْ مِنَ البشر له القدرة على التفوّه بمثل هذا الكلام؟ مَنْ مِنَ يحبّ الله تعالى بهذه الكيفيّة كما يحبّه عليّ ﷺ؟ فهو يصرّح بأنه لا يخاف من جهنّم ولا يخشى نارها، بل إنّ جلّ ما يخشاه هو أن يؤدي دخوله إلى جهنّم إلى إنزال مرتبته ومكانته بحيث يكون ذلك سبباً في حرمانه من حبّ الله تعالى والقرب منه. إنه ﷺ ينوح بسبب فراقه عن بارئيه واحتمال ابتعاده عنه سبحانه. وليس لنا والحال هذه أن نتعجب أو نشك في أن أعماله وأفعاله وكل تصرفاته نابعة من صميم حبّه لله عزّ وجلّ، ذلك الحبّ الذي ملك زمام قلبه، وسيطر على كيانه وهيكله في كلّ مكان وزمان. إن المعيار الذي يعتمد عليه الإمام عليّ ﷺ هو حبّه لله سبحانه والفناء في ذلك الحبّ من أجله تعالى، وهو ما صرّح به الرسول الأعظم ﷺ حينما قال: «ضربة علي يوم الحندق أفضل من عبادة الثقلين»...

من أحاديث الإمام الخامنّي (مدّ ظله)

من محاسن الصدف أنّ عيد الغدير تكرر مرتين في سنة ١٣٧٩ الشمسية^(١)، وعلى هذا فليس هناك أجمل ولا أبهى من تسمية هذا العام بـ(عام الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام). فلنحاول إذن الاقتراب من هذا الرجل العظيم والاقتراء به، فهو القدوة الحسنة لجميع الناس، فشبابه المليئ بالحماسة الجياشة والبطولة الفذة خير أسوة لكلّ الشباب. وحكومته التي كانت مليئة بالعدل والإنصاف هي أنموذج صالح لكلّ المؤمنين، ومبادئه الحرّة كانت مناراً لكلّ الأحرار في العالم، وكلماته الحكيمة ودروسه الخالدة ظلت مشعل هداية لجميع العلماء والمفكرين والمثقفين..

لقد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يدير دفة الحكم ويطبّق أركان العدل والمساواة، بحزم وصلابة، ويأخذ بحقوق الضعفاء والمساكين والمحتاجين بقوة ولا تأخذه في الله لومة لائم، لكنه كان عليه السلام متسامحاً في حقه وحقوقه الخاصّة به، فلا يأبه بضياعها ما دامت حقوق الآخرين محفوظة مصانة. لقد كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام مثلاً رائعاً ونموذجاً عالياً للعبد الصالح، وشخصية فذة تتمتع بكل

الصفات المعنوية والجهادية العالية . فيا حبذا لو سرنا على هذا النهج القويم والمثل
السليم ، وبهما نستطيع تحقيق أملنا المنشود وهدفنا المقصود في إرساء أسس العدالة
الاجتماعية وتثبيت قواعدها وهو ما ينشده بلدنا العظيم وشعبنا الغالي ...

الهوامش :

(١) السنة الشمسية أكثر من السنة القمرية بعشرة أيام؛ ولهذا وقع عيد الغدير في أول هذه السنة وفي آخرها .

بين يديك، سيدي أبا تراب

محسن الأسدي

يا من كنت مصباحاً يتلأل بل مشكاةً فيها مصباح، المصباح في زجاجة،
الزجاجة كأنها كوكب دري.

ها هي بين يديك المباركتين، مجلّة ميقات الحجّ في عامها السابع وفي عددٍ
خاصّ جاء تيمناً بذكرى مولدك المبارك، وإطالةً على عامك هذا (عام الإمام
أمير المؤمنين عليه السلام) الذي تشرف بإعلانه قائد الثورة الإسلامية الإمام الخامني
حفظه الله .

لهذا راحت مجلّتنا تعلن عن مشاركتها، فجاءت ببضاعتها المزجاة هذه رمز ولاءٍ
وشكرٍ وحبٍّ ووفاءٍ..

وتمشياً مع اختصاصها ارتأينا أن تدور مضامينها حول ما أفردناه وأسميناه
بالمرحلة الأولى من حياتك المباركة؛ التي قضيتها في الحجاز - إلا إذا اقتضت
الضرورة تجاوزها - بما انطوت عليه من صناعة ربّانية نبويّة صاغت لك مناقب
وفضائل وصفاتٍ، تركت بصماتها على شخصيتك الفريدة، وارتسمت معالمها

وآثارها على سيرتك المفعممة بأحداث عظام وأمور جسام ومواقف عظيمة ومبادرات كريمة...

ومع أنني واكبتُ جميع أعداد المجلة هذه محرراً.. وسعيداً بها، إلا أن تلك السعادة لم تغمر قلبي ولم أذق شربةً أنقع لغليلي من هذا العدد - على بساطته - الذي يعيش ذكراك ويتقيًا ظلالك...

بدءاً نقول: لعل الحكمة - سيدي - في إعلان هذا العام عاماً خاصاً، هي تجميع للجهود المحبة والمتفانية فيك، وتذكير للغافلين، وفرصة للمناوئين... وإلا فإن من يقصد وجه الله تعالى الذي أحببته وأمنت به وآثرته وسكنت إليه، وأفانيت عمرك الشريف فيه مؤمناً مجاهداً... حتى قضيت نحبك في سبيله، وفاضت روحك إليه، مضرباً بدمك في محراب عبادته، في بيت من بيوت الله تعالى، في مسجد الكوفة، وقد انطلق صوتك، ودوى صدهاء عالياً في جنبات المسجد وفي سمائه.. فزت ورب الكعبة، فزت ورب الكعبة..

نعم، إن من يقصد ذلك الوجه الكريم ويرجو لقاءه بقلب سليم ويأمل أجره وفضله ويخشى حسابه ويخاف عقابه، يجب أن تبقى ذكراك ماثلة أمامه، حية في سيرته، فاعلة في حياته، شجرة خضراء ينعم بظلالها الوارفة ويشم عطرها ويستنشق عبيرها، ويرتشف من معينها قيماً جميلةً ومعاني عظيمة ومفاهيم جليلة، وأن يقرأك إنساناً وإيماناً وتقوى وزهداً وجهاداً وعلماً وأدباً وفكراً..

إذن، أن يبقى كل منا يعيشك دائماً قدوةً صالحةً وأسوةً حسنةً، وهو الذي يجب أن نعوذ أنفسنا عليه ونتبناه في حياتنا الدينية والاجتماعية بكل مفاصلها. لا ذكرى فقط تمر مرور الكرام..

ولعل الحكمة في أن يكون مولدك في جوف الكعبة؛ القبلة، لتكون قبلةً للأنام، للمؤمنين رعاةً كانوا أو رعيةً مهما بعدت بهم البقاع ونأى بهم الزمن، يستقبلونك مبادئ وقيماً ومثلاً علياً كلما توجهوا إليها في فرض أو مستحب أو دعاء..

لذاك قبلة من صلى لخالقه غداً ومقصد من للحج يأتيه

حقاً لتبقى بل لبقى عليّ شاخصاً أمامنا بكلّ ما يحمله من قيم السماء ومبادئ الدين الحنيف، وبكلّ ما يتحلّى به من إيمانٍ ثابت وإسلام وثيق، وجهادٍ مرير وتضحياتٍ جسّام، ومن علمٍ غزير وأدبٍ جميل وسيرةٍ عطرة حسنة، تمنّاها كلّ من حولك والذين جاءوا من بعدهم.. فعصت عليهم جميعاً، ولم تجد غيرك إناءً صالحاً، وبوقّةٍ تصهرها، فتنتج عليّاً إسلاماً يتحرّك وقرآناً ناطقاً، وإيماناً حياً يجسّد كلّ معاني السماء.

لقد كنت - سيدي - بين محرابي الولادة والشهادة محراباً لا يدانيك أحدٌ أبداً، وكيف لا تكون كذلك وأنت أكثرهم جهاداً وأمضاهم عزيمةً وأشدّهم توثباً حتّى قال فيك تلميذك حبرُ الأُمّة عبد الله بن عباس: ما رأيتُ محراباً مثله؟! كنت جريئاً على الموت مقتحماً لميادينه، لا تخشى ولا تهاب أحداً بالغاً ما بلغ من القوّة والشجاعة والاقدام، بل لا تجد هيبة هؤلاء الأبطال من قلبك شيئاً. فقد نزل عمرو بن ودّ المعروف بقوّته وصلابته وصولته وبأنّه يعدل ألف فارس، وقد لفّه الحديد من هامته إلى أخمص قدمه، ينادي بصوتٍ مخيف هل من مبارز؟ أين جنتكم التي زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم؟.. ولا مجيب إلاّ صوتك «أنا له يا رسول الله» فوثبت إليه، وصوت رسول الله ﷺ يلاحقك: «برز الإيمان كلّهُ إلى الشرك كلّهُ» فإذا هو مجدل بين يديك بضربة تعدل عبادة الثقلين، ولا ذت الأحزاب بالفرار.

وأنت في عبادتك الأبواب المتبتّل الواله برّبّه، الذي عبد الله كأنّه يراه، وأنت القائل: أفأعبد ما لا أرى^(١)؟

وأنت القلب الطاهر المطمئن الذي لا يخفق إلاّ بحبّ الله وحبّ رسوله... وأنت القمّة السامقة في تسليمك وانقيادك إلى الله سبحانه وتعالى، فكنت الإيمان كلّهُ، وكنت الغاية في الإخلاص والغاية في الصدق. وأنت في فصاحتك الخطيب الأوّل الغنيّ ببدايع الخطابة وألوان البيان وضروب الحكمة وفنون الكلام.

وأنت الذي اتسمت بالثراء والفراة في إيمانك وفي صدقك وعدلك وورعك وفي علمك وعبقريتك وحصافتك وفي زهدك وقناعتك وفي نهجك وطريقتك ، فخصائصك ما أعظمها وأخلاقك وما أسماها وفضائلك ما أكثرها !
وهذه كتب التاريخ والحديث عند الفريقين .. وقد ملئت بخصالك ومناقبك وفضائلك وآثارك وجهودك ومواقفك ولم يذكر فيها لغيرك ما ذكر لك .
يقول أحمد بن حنبل وإسماعيل القاضي وأحمد بن شعيب بن علي النسائي وأبو علي النيسابوري : « لم يرو في فضائل أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان ما روي في فضائل علي بن أبي طالب (عليه السلام) » .
وليس هذا فحسب ، بل كان الأوحد في صفاته وفضائله . دلني على فضيلة لم يكن علي فيها الأشهر ولم يكن المتفرد بها دون غيره سواء أكانوا في زمنه أو الأزمان المتعاقبة الأخرى !

وهكذا أنت - سيدي - في عطائك الذي كاد أن يبلغ حد الاسطورة ، أثريت به تراثنا الديني والأخلاقي والإنساني ... وما أحوجنا إلى تراثك الخالد خاصة في عالمنا الصاخب المليء بمختلف الأفكار والأمواج والأعاصير ...
وإن الإحاطة بكل ما قدمته في حياتك المباركة أمر صعب ، كما أن محاولة التعمق فيه وسبر أغواره هو الآخر أمر عسير فالرجل مهما أوتي من القدرة والاستعداد والصبر فإنه يتخصص بفن واحد أو فنين ، إلا أنت - سيدي - فقد جمعت مناقب كثيرة ، وفنوناً وعبقریات هي الأخرى متعددة .

ما فرق الله شيئاً في خليقته من الفضائل إلا عندك اجتماعاً
لقد اصطنعتك السماء وأفاضت عليك خصائص وفضائل خلقت منك إنساناً ربانياً في كل ما حملته واتسمت به . وأقحمتك عالماً آخر غير ما ألفوه فتحيرت عقولهم وأذهلت نفوسهم ، فراحوا يتنازعون أمرهم فيك ؛ تعددت آراؤهم وتنوعت فيك اجتهاداتهم ، وتقاطعت فيك مواقفهم ، ولما أدحضتهم حججك وألجمت ألسنتهم وخيبت أدلتهم وكشفت افتراءاتهم .. لم تطاوعهم أنفسهم المقيمة

على الرضوخ للحق والانصياع للعدل فأبت إلا نفوراً واستكباراً. وركن شائوك
ومن نصبوا لك العداة إلى سيوفهم فلعل آمالهم وأطماعهم تتحقق، فما اشتبكت
الأسنة على أحدٍ كما اشتبكت عليك، ولا اختلفت الألسن والأقلام في أحدٍ كما
اختلفت فيك.. فظلمك قومٌ وأنصفك آخرون، وختاماً تركوك وحيداً - وإن كنت
حقاً الوحيد بينهم بنعم ظلت حسرةً عليهم - إلا أنهم لم يتركوك حباً لغيرك وتفضيلاً
له عليك، وهم يعرفون أن ليس هناك من يدانيك إيماناً وعلماً وفضلاً... بل
تركوك؛ لأنهم لم يتحملوا صدقك ولم يطبقوا عدلك.. خافوك على دنياهم
وخفتهم على آخرتك.

إن تاريخك لحافل وإن حياتك لصالحة وإن ميراثك لعظيم وإنك لفي مقام
كريم.. استوقفت هيبتك الجميع، وبهرتهم صفاتك وأذهلتهم فضائلك حتى لم
يجدوا شيئاً منها في بشرٍ سواك.. فكانوا طوائف ثلاث:
○ فطائفة منهم أحببتك حتى ذابت فيك، وأنت القائل: «لو أحببني جبل لتهافت»
وذلك هو الفوز العظيم.

○ وأخرى أحببتك حتى العبادة، فيما بغى عليك قومٌ آخرون حسداً لما آتاك الله
من فضله، وكلاهما من أصحاب النار هم فيها خالدون.
حقاً ما قلت: «هلك فيّ اثنان، محبٌ غالٍ ومبغضٌ قال»!
يقول الدكتور الجميلي:

«الرجل الذي هلك في حبه نفرٌ كثيرٌ، وهو ذات الرجل الذي أهلكت عداوته نفراً
كثيراً، فإن من الذين غالوا في حبه هلكى، ومن الذين قلوه ونفسوا عليه هلكى
أيضاً؛ لأن حبه جدير بالتفاني فيه، وقلاه أجدر على أن يسحت أعداءه ومبغضيه»^(٢).

لقد راح - سيدي - قوم عاصروك وآخرون جاءوا من بعدهم يتتهلون من علمك
ويتعلمون من حلمك ويقلدون شجاعتك.. إلا أنهم - وإن تمنوا - لا يكونون مثلك
أبداً.. وأنى لهم وخصالك صنعتها يد الغيب، وسمات شخصيتك أفردتها لك

السماء، ومناقبك صاغتها مبادئ الدين الحنيف تحت ظلال النبوة المباركة.. كما راحت أمتنا وأمم أخرى، من ديانات أخر ومذاهب شتى بمفكراتها وعلمائها وأدبائها وشعرائها.. يقفون أمام تراثك مبهورين وإزاء عبقرتك متحيرين.. وقد عرفوا ذلك كله، إلا أنهم أبوا إلا أن يقولوا فيك شيئاً. فراحت أفكارهم وأقلامهم ومع سموها لا تستطيع كشف إلا ما ظهر من عظمتك ولا تذكر إلا ما بان من شخصيتك، وهو غني ثري عظيم.. أمّا ما خفي فالله ورسوله أعلم به.

وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «يا علي ما عرفك إلا الله وأنا وما عرفني إلا الله وأنت».

حقاً - سيدي - إنك نعمة كبرى أنعمتها علينا السماء، إنك كنز عظيم غفلنا عنه، وينبوع لا ينضب جهلنا قدره، وصورة مضيئة للإسلام والإنسانية بكل معانيها الجميلة، لم نعطيها حقها..

لقد أكبرنا - سيدي - الإسلام الذي تجسّد فيك، وفضائلك الرائعة ومناقبك الجميلة ومواقفك الشجاعة والجريئة.. التي باتت رصيد كل خير وعطاء، وثورة وإباء، وعدل ورحمة، وغدوت حياة لأولي الألباب..

إن اسمك - سيدي - شفاء للنفوس، وذكرائك ضياء للعقول، وهدى للقلوب، وحافز للثورة والثوار مهما كانت صولة الباطل مريرة وقسوته شديدة..

إن كل ما حولنا يستضيء بنورك ويستهدي بهداك، وكل ما عندنا مدين لمبادئك وقيمك، التي هي قيم السماء، فذكراك لا يحدها حد ولا يختصرها زمن. وكيف يكون ذلك وعلي بين الولادة والشهادة تجده شمساً مضيئة لا يحجبها شيء، وقمرأ منيراً لا يحبسها سحاب؟!

وتجده إيماناً لا يشوبه شك ولا يعتريه ريب، وكيف يخالط إيمانه ذلك وهو القائل: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً».

وتجده علماً لا جهل معه ولا نقص يعتريه، أليس هو القائل: «سلوني قبل أن تفقدوني» ولم يقلها غيره؟

كل ذلك وغيره بفضل النبوة التي راحت تشرق عليه منذ نعمة أظفاره، وبنعمة

الرسالة التي احتضنته فأسبغت عليه حللها، وببركة ما أودعه رسول الله ﷺ في صدر هذا الفتى حتى يضحى امتداداً طبيعياً للرسالة والنبوة يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام..

لقد كان رسول الله ﷺ يعلمه مبادئ السماء ويثبه علمه ويغذيه أخلاقه طيلة طفولته وصباه، فتخلق بأخلاقه ﷺ التي قالت عنها السماء: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ واتصف بجميع صفاته وتحلى بجميع شمائله، كما راح يستقي منه علماً جماً مما جعله بلا ريب ولا شك أفضل أصحابه ﷺ وأعلمهم وأفقههم وأورعهم وأزهدهم وأشجعهم وأكثرهم عطاءً للإسلام ومبادئه..

فصاغ لنا تاريخاً مليئاً بالخير والعطاء وحاضراً مشرقاً بالحب ومستقبلاً زاهراً بالأمل، فسيرته المباركة الحافلة بمناقبها وفضائلها وما فيها من أحداث مريرة ووقائع عظام، ومواقف جليلة، والبعيدة عن كل وسائل اللهو والزيف والانحراف.. المطبوعة بالاستقامة والتقوى.. خير دليل على عظمته.. بل كانت ولا زالت آيةً للحق والعدل والإنسانية والصدق والإخلاص والصلابة والثبات والشجاعة والفداء.

فقد قضى عمره الشريف كله في طاعة الله وعبادته راجياً رضاه محارباً لأعدائه هادفاً تثبيت أركان دين الله بكل ما عنده من قدرة وشجاعة.

يقول فيه رسول الله ﷺ: «لولا أن يقول فيك الغالون من أمتي ما قالت النصراري في عيسى بن مريم: لقلت فيك قولاً لا تمرُّ بملا من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك يستشفون به».

الهوامش :

(١) انظر إجابته ذعلب اليماني حينما سأله: هل رأيت ربك...؟ ١٧٩ - من كلامه عليه السلام في نهج البلاغة: ٢٨٥، صبحي الصالح.

(٢) انظر الدكتور السيد الجميلي في كتابه، صحابة النبي ﷺ: ٦٢.

إِطْلَالَةٌ عَلَى حَيَاةِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ

ذُرِّيَّةُ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ

كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِنْ سَلَالَةِ ذُرِّيَّةِ طَيْبَةٍ وَعَائِلَةٍ كَرِيمَةٍ فِي صِفَاتِهَا، صَالِحَةٍ فِي أَخْلَاقِهَا وَسِيرَتِهَا، مَحْمُودَةٌ فِي خَصَالِهَا، رَفِيعَةٌ فِي شَمَائِلِهَا، مُمْتَرِزَةٌ فِي رَجَالِهَا وَسِيَادَتِهَا، فَبَنُو هَاشِمٍ، سَادَةُ قَرِيشٍ بَلْ سَادَةُ الدُّنْيَا، «مِلْحُ الْأَرْضِ، وَزِينَةُ الدُّنْيَا، وَحُلَى الْعَالَمِ، وَالسَّنَامُ الْأَضْحَمُ، وَالكَاهِلُ الْأَعْظَمُ، وَلِبَابُ كُلِّ جَوْهَرٍ كَرِيمٍ، وَسِرٌّ كُلِّ عُنْصُرٍ شَرِيفٍ، وَالطِّينَةُ الْبَيْضَاءُ، وَالْمَغْرَسُ الْمُبَارَكُ، وَالنَّصَابُ الْوَثِيقُ، وَالْمَعْدَنُ الْفَهْمُ، وَيَنْبُوعُ الْعِلْمِ...»^(١).

فَقَدْ كَانَ مِنْهَا أَكْرَمُ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْإِطْلَاقِ، مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَكَانَ مِنْهُمْ آلُهُ الطَّاهِرُونَ، وَأَعْظَمُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ سَيِّدُهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْخِصَالِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لغيرِهِ، وَمِنَ الْمَكَارِمِ مَا لَمْ يَحْظَ بِهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَمِنَ السَّجَايَا مَا لَمْ يَحْظَ بِهَا الْآخَرُونَ، فَحَسَبُ شَرِيفٍ، وَخَلْقُ عَالٍ، وَفَطْرَةُ سَلِيمَةٍ لَمْ تَتَلَوَّثْ بِهَرَاثِنِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَعَقِيدَةُ صَافِيَةٍ، وَعِلْمُ جَمٍّ، وَشَجَاعَةٌ لَا مِثِيلَ لَهَا...

فأبوه: شيبه بن هاشم شيخ قريش وزعيمها وسيد قومه أبو طالب، الذي انطوت نفسه على خصال كريمة كلها شموخ وعزة وفضائل... وهو الكافل المدافع الذاب عن رسول الله ﷺ، والذي أحاط رسول الله بعناية عظيمة ورعاية قل نظيرها خصوصاً إذا عرفنا مكاتته في قريش وبين زعمائها وما سببه ذلك من إخراج له وضيق وأذى، ومع هذا كله فقد صبر أيما صبر دفاعاً عن محمد ورسالته حتى إن قريشاً لم تكن قادرة على أذى رسول الله ﷺ مع رغبتها في ذلك حتى توفي أبو طالب فراحت تكيد له.. يقول رسول الله ﷺ: «والله ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبوطالب».

ولم يهاجر إلى المدينة إلا بعد وفاة عمه رضوان الله عليه. هذا أبوه. وأما جدّه: فهو عبد المطلب شيبه الحمد أمير مكة وسيد البطحاء له ولاية البيت الحرام من السقاية والرفادة.. وكان ذا مهابة ووقار وميل إلى الدين والنسك، وهو الذي قام بحفر بئر زمزم التي تفجرت تحت قدمي جدّه إسماعيل من قبل، بعد أن غاب أثرها ولم يهتد إليها أحد حتى هتف به هاتف في منامه، فراح يحفر حتى اهتدى إليها مستعيناً بابنه الحارث الذي كان وحيداً وقتذاك.

ثم هو الذي خذل الله على يديه ابرهة الحبشي وجنده الذين جاؤوا لهدم الكعبة وصرف الحاج عنها إلى بيت بناه في اليمن، ولما التقى ابرهة بعبد المطلب أراد أن يستميله إلى جنبه، فما وجد منه إلا الرفض، وإلا الثقة العالية بالله، مكتفياً بأن يرد إليه إبله وشويهاته التي أخذها جنده.

فقال ابرهة: كنت في نفسي كبيراً وسمعت أنك وجيه في قومك، فلما سألتك عن حاجتك وذكرت الإبل والشياه ونسيت بلدك وأهلك وبيتك المقدس سقطت من عيني.

فقال عبد المطلب: الإبل لي، وللبيت ربّ يحميه.

فقال ابرهة: ما كان ليمتنع مني.

فقال عبد المطلب: أنت وذلك، وصعد على الجبل وتضرّع إلى الله وأنشد:

يارب عادٍ من عاداك وامنعهموا أن يهدموا حماك

ثمّ راح يستحثّ قومه على ترك مكّة واللجوء إلى الجبل خشية بطش ابرهة وجيشه، والتوجّه إلى الله بالدعاء. فحلّت الكارثة بابرهة وجنده... وهناك سورة الفيل تحكي هذه الحادثة..

أمّه: فاطمة بنت أسد بن هاشم فهي ابنة عمّ أبي طالب وهي أوّل هاشمية تزوّجها هاشمي، وعليّ أوّل مولود (مع اخوته) ولد لها شمين فقد تعود بنو هاشم أن يصهروا إلى أسر أخرى. كانت ذات منزلة رفيعة، جعلتها من اللائي امتازت حياتهنّ بمواقف جليّة في حركة الأنبياء ومسيرتهم عبر التاريخ، فقد أثني عليها رسول الله ﷺ وكان شاكراً لها ولمعروفها ورعايتها له، فكان يدعوها «أمّي بعد أمّي التي ولدتنّي»^(٢) وراحت هي الأخرى تفضّله على جميع أولادها الأربعة، فقد كان طالب أكبر أولادها ثمّ عقيل، ثمّ جعفر ثمّ عليّ، وكلّ واحد أكبر من الذي بعده بعشر سنوات، وكان عليّ أصغر أولادها.

حظيت هذه السيّدة والمرأة المؤمنة الطاهرة بمكانة عظيمة في قلب رسول الله، وتركت في نفسه آثاراً طيّبة راح يذكرها طيلة حياته، ويترحم عليها ويدعو لها.. تقول الرواية:

لما ماتت فاطمة بنت أسد أمّ عليّ - وكانت قد أوصت لرسول الله ﷺ وقيل وصيتها - ألبسها النبي ﷺ قميصه واضطجع معها في قبرها، فقالوا: ما رأيناك يا رسول الله صنعت هذا!

فقال: إنّه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها، إنّما ألبستها قميصي لتكسى من حلّ الجنة واضطجعت معها ليهُوّن عليها.

وفي دعاءٍ خاص لها قال: اللهم اغفر لأُمِّي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجَّتها، ووسَّع عليها مدخلها. وخرج من قبرها وعيناه تذرفان. لقد كانت رضوان الله عليها لرسول الله ﷺ بمنزلة الأُمِّ، بل كانت أُمًّا بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، وقد كانت بارَّة برسول الله ﷺ «لم يكن بعد أبي طالب أبرَّ بي منها»^(٣)، فحنانها وشفقتها ورعايتها له بلغت مبلغاً عظيماً حتَّى فاقت رعايتها لأبنائها وكأَنَّها تعلم أنَّ له مكانة عظيمة وشأناً جميلاً، تقول بعض الروايات كان أولادها يصبحون شعثاً رمصاً ويصبح رسول الله ﷺ كحياًلأدهينا. هذا في مداراتها لرسول الله ﷺ وحبِّها له. أُمَّا في إيمانها فقد كانت بدرجة عظيمة، ومن السابقات إلى الإسلام والمهاجرات الأول إلى المدينة وهي بدرية^(٤).

فذاك أبوه وجدّه وهذه أُمّه، فهو وليد هذه الأسرة الهاشمية المباركة. ثمّ بعد هذا كان عليّ عليه السلام قد اختصّ بقرابة من رسول الله ﷺ فهو إضافة إلى كونه ابن عمّه وقد ربّاه في حجره تربية الوالد لولده... كان زوجاً لابنته الزهراء التي كانت بضعة منه ﷺ، وأباً لريحانتيه المباركتين الحسن والحسين عليهما السلام وكان أخاه يوم المؤاخاة، وكان خليفته ووصيه ووزيره وعيبة علمه...

بين يدي النبوة

لقد كنت سيّدي شجرة طيبة توسّطت روضة فيحاء وباحة خضراء ودوحة معطاء، فكان أصلها ثابتاً وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها. ففي ربي النبوة أبصرت النور بعد أن انبرى رسول الرحمة لرعايتك وتربيتك، ومن نسيمها العذب وأريجها الفوّاح تنشقت الحياة، ومن غير ساقيتها الصافي الذي كانت النبوة نبعه الدافق ارتشفت أوّل قطرة ماء، وعلى أديمها الأخضر كانت أوّل خطواتك. كان حضن النبوة يركاك فكنت في جنّة عالية، قطوفها دانية. شممت رائحة النبوة في مراحل حياتك الأولى، ورأيت نور الوحي والرسالة

بعد أن وضعك رسول الله ﷺ في حجره وضمك إلى صدره وكنفك في فراشه ومسك جسده الطاهر وأشمك عرّفه.. فجئيت بروض النبوة ورداً وذقت بكأسها شهداً . وكيف لا تحني ذلك كله وقد اختارتك السماء برعماً تحتضنك شجرة النبوة والرسالة، ثم لتكون بعد ذلك بقية النبوة والامتداد الطبيعي للرسالة..؟! روت فاطمة بنت أسد «أم علي»: بينا أنا أسوق هدياً إذ استقبلني رسول الله ﷺ، وهو يومئذ غلام شاب قبل البعثة فقال لي: يا أمّاه إنّي أعلمك شيئاً فهل تكتمينه عليّ؟ قلت: نعم.

قال: اذهبي بهذا القربان فقولي: كفرت بهبل (كبير آلهة المشركين وهو أول صنم نصب بمكة) وآمنت بالله وحده لا شريك له. فقلت: أعمل ذلك لما أعلمه من صدقك يا محمد، ففعلت ذلك. فلما كان بعد أربعة أشهر، ومحمد يأكل معي ومع عمّه أبي طالب، إذ نظر إليّ وقال: يا أمّ ما لك! مالي أراك حائلة اللون؟! ثم قال لأبي طالب: إن كانت حاملاً أنثى فزوجنيها. فقال أبو طالب: إن كان ذكراً فهو لك عبد، وإن كان أنثى فهو لك جارية وزوجة.

فلما وضعته - في الكعبة - جعلته في غشاوة، فقال أبو طالب: لا تفتحوها حتى يجيء محمد فيأخذ حقه. فجاء محمد ففتح الغشاوة فأخرج منها غلاماً حسناً فشاله بيده، وسمّاه عليّاً، وأصلح أمره، ثم إنّه لقمه لسانه فما زال يمصّه حتى نام. وقد سمّته أول الأمر حيدرة بمعنى أسد على اسم أبيها، فغلب عليه اسم عليّ الذي سمّاه به محمد ﷺ.

ثمّ راح عليّ (عليه السلام) الذي ما إن فتح عينيه في بيت أبي طالب حتى وجد محمّداً (صلى الله عليه وآله) يضمّه إلى صدره ويبثّه كلماته ويعلمه خطواته...

ولمّا تزوّج خديجة رضوان الله عليها انتقل إلى بيته الجديد، ففارق بيت عمّه أبي طالب ولكنّه لم يترك برّه لعمّه ورعايته لابن عمّه عليّ (عليه السلام)، ومنذ ذلك اليوم راح يتعهده رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويرعاه رعاية خاصّة ومنذ نعمة أظفاره..

وبدأ عليّ (عليه السلام) يلتهم زاده الوحيد مبادئ السماء وقيمها حتّى شحن بها فكره الثاقب، وغدت نفسه الطاهرة ترتشف الايمان وتستنشق عقيدته وعبرها؛ لتسمو نفسه ولتصبح مصباحاً يستضيء به من حوله.

اخترت من اختاره الله

ولمّا مرّ أبو طالب في سنة أصابته بل أصابت قريشاً وقحط حلّ بهم وهو ذو عيال كثيرة، ويبدو أنّ الابتلاء هذا كان عامّاً لقريش بسبب ما عانته من الجفاف. تقول الرواية: إنّ قريشاً أصابها أزمة وقحط، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعمّيه حمزة والعبّاس: ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المحلّ؟

فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم، فقال: دَعُوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم - وكان شديد الحبّ لعقيل - فأخذ العبّاس طالباً، وأخذ حمزة جعفرًا، وأخذ محمّد (صلى الله عليه وآله) عليّاً، وقال لهم: «قد اخترت من اختاره الله لي عليكم، عليّاً».

فكان عليّ (عليه السلام) في حجر رسول الله (صلى الله عليه وآله) منذ كان عمره ستّ سنين^(٥).

والذي أميل إليه أنّ عليّاً (عليه السلام) لم يكن ذلك القحط وهذا الجفاف هما السبب في ملازمته لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، بل إنّ الأمر سبق هذا كلّه وسبق هذا العمر الذي يحدّدونه لبداية هذه الملازمة (٦ سنوات) نعم الانتقال من بيت أبي طالب إلى بيت رسول الله قد يكون تمّ وعليّ له ٦ سنوات، إلّا أنّ تلك الرعاية من رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعليّ وذلك الاهتمام كان منذ اليوم الأوّل لولادته (عليه السلام) فرسول الله (صلى الله عليه وآله) حينما عاد من

غار حراء وقد بشر بولادة علي راحت يده المباركة تتوسّده وتضفي عليه بركات انعكست ثمارها على حياته ﷺ في كلّ الميادين...

تقول الرواية عن يزيد بن قعنب: ولدت (فاطمة بنت أسد) عليّاً... في بيت الله الحرام، إكراماً من الله عزّ اسمه وإجلالاً لمحلّه في التعظيم...، فأحبّه رسول الله ﷺ حبّاً شديداً وقال لها: «اجعلي مهده بقرب فراشي»، وكان يتولى أكثر تربيته، وكان يطهر عليّاً في وقت غسله، ويوجره اللبن عند شربه، ويحرّك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته، ويحمله على صدره^(٦).

وهنا نعيش لحظات جميلة مع عليّ ﷺ نفسه، وهو يصوّر لنا منزلته من رسول الله ﷺ ويصف رعايته له وتعلّقه به وملازمته له حتّى يمكن وصفها بأنّها ملازمة الظلّ لصاحبه لا يفارقه إلّا في أوقاته المخصوصة، فتواشجت روحه مع أجواء ذلك البيت الطاهر وهي أجواء الرسالة والنبوة والوحي، انظره في خطبة القاصعة حيث يصف تلك الملازمة والمواشجة بشكل دقيق طفاً وصبيّاً وفقى..

«ولقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقربة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا وليد، يضمّني إلى صدره، ويكنّني في فراشه، ويمسّني جسده ويضمّني عِزّفه، وكان يمضغ الشيء، ثمّ يلقمني، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل، ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل إثر أمّه، يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاعتداء به. ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري».

ولدت على الفطرة

من اللافت الذي أدهش من تتبّع حياته أنّ ولادته ﷺ - التي كانت في الكعبة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب على قول الأكثر - كانت في اليوم الأوّل لدخول رسول الله ﷺ غار حراء للتعبّد والمناجاة، وللتدبّر والتفكير في

ملكوت السماوات والأرض وما بينهما وما فيها .. وكان هذا بعد عام الفيل بثلاثين سنة، حقاً أنه أمر يثير العجب، أن السماء راحت تعدّ أمرين في آن واحد ووظيفتين في وقت واحد؛ ففي غار حراء على بعد من الحرم المكي أعدت رسولاً نبياً، وفي داخل الحرم المكي راحت تعدّ إماماً ووزيراً وخليلاً وفتياً؛ ليكمل الشوط ويملاً الفراغ «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي أو لا نبوة بعدي» «أنت أخي ووصيي وخليفتي...».

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه القيم لنهج البلاغة في قوله ﷺ: «فإني ولدت على الفطرة» وفي جوابه عن قول من يقول: كيف علل نهيهِ عن البراءة منه ﷺ، بقوله: «فإني ولدت على الفطرة»؛ فإنّ هذا التعليل لا يختص به ﷺ؛ لأنّ كلّ أحد (واحد) يولد على الفطرة، قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة؛ وإنما أبواه يهودانه وينصرانه»؟

فكان أحد أجوبته الثلاثة: بأنّه ﷺ علل نهيهِ لهم عن البراءة منه بمجموع أمور وعلل وهي كونه ولد على الفطرة، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة، ولم يعملّ بآحاد هذا المجموع، ومراده هاهنا بالولادة على الفطرة أنه لم يولد في الجاهلية؛ لأنّه ولد ﷺ لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل، والنبي ﷺ أرسل لأربعين سنة مضت من عام الفيل؛ وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنه ﷺ مكث قبل الرسالة سنين عشرّاً يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد، وكان ذلك إرهاباً لرسالته ﷺ فحكم تلك السنين العشر حكم أيام رسالته ﷺ فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولي لتربيته مولود في أيام كأيام النبوة، وليس بمولود في جاهلية محضة، ففارقت حاله حال من يدّعي له من الصحابة مماثلته في الفضل.

وقد روي أنّ السنة التي ولد فيها عليٌّ ﷺ هي السنة التي بدئ فيها برسالة رسول الله ﷺ، فأسمع الهمّات من الأحجار والأشجار، وكشف عن بصره، فشاهد أنواراً وأشخاصاً ولم يخاطب فيها بشيء. وهذه السنة هي السنة التي ابتدأ فيها

بالتبَّتل والانقطاع والعزلة في جبل حراء، فلم يزل حتى كوشف بالرسالة وأنزل عليه الوحي. وكان رسول الله ﷺ يتيمَّن بتلك السنة، وبولادة علي عليه السلام فيها، ويسمِّيها سنة الخير وسنة البركة، وقال لأهله ليلة ولادته، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية ولم يكن من قبلها شاهد من ذلك شيئاً: «لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة».

وهنا يقول ابن أبي الحديد: وكان كما قال ﷺ فإنه عليه السلام كان ناصره والمحامي عنه، وكاشف الغم عن وجهه، وبسيفه ثبت دين الإسلام وأرست قواعده. كما يذكر تفسيراً آخر: بأنَّه عليه السلام أراد بالفطرة العصمة، وأنه منذ أن ولد لم يواقع قبيحاً ولا كان كافراً طرفه عين قط ولا مخطئاً ولا غالطاً في شيء من الأشياء المتعلقة بالدين وهذا تفسير الإمامية (٧).

فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن سُبَّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا طرفه عين: علي بن أبي طالب وصاحب ياسين ومؤمن آل فرعون فهم الصديقون وعلي أفضلهم» (٨).

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاثة لم يكفروا بالله قط: مؤمن آل ياسين وعلي بن أبي طالب وآسية امرأة فرعون» (٩).
لم يسجد لصنم قط

بعد نعمة تربية رسول الله ﷺ له وصناعته كما تريدها السماء، راحت نعم الله تترى على هذا العبد الصالح، وتواكبه فلم تنجسه الجاهلية بأنجاسها، لم يعبد صنماً قط بل لم تمل نفسه إليها أبداً، وهذا أمر ليس سهلاً خاصة وهو يعيش في مجتمع حالك متسربل برداء الشرك يعيش ركماً من الجهل والعبودية والطغيان، في بيئة أتى اتجهت وجدت صنماً يُعبد وتمثالاً يركع له ويسجد، ومن حوله كبار قريش وزعماءؤها وقد ملئت بيوتهم بهذه التماثيل وكانوا لها عاكفين. في مجتمع فاسد كهذا تمت صياغة علي عليه السلام لأن رسول الله ﷺ أحسن غذاءه

وتنشئته وإعداده، وراحت يده المباركتان ترعاه أحسن رعاية وتحفظه من كل تحديات مجتمعه وانحرافات، فولد وعاش طفولته وصباه وقد كرم الله وجهه من أن يسجد للآت أو يركع للعرى أو يشطط به قدم هنا وهناك، ومثل هذا ما نراه في كلام العقاد الآتي فيما بعد.

وكيف يسجد لصنم أو ينحرف به السير.. ولحمه لحم رسول الله ودمه دمه وهو وعلي من نور واحد ومن شجرة واحدة وفي صلبه ذرية رسول الله ﷺ وهو من رسول الله ورسول الله منه (١٠)؟!

ثم كيف يسجد لصنم وهو يكرها صغيراً بل وهو جنين - فبغضه لها من بغض رسول الله ﷺ لها - وهو الذي راح يقلعها كبيراً ويطهر الأرض منها والقلوب؟! يقول عليه السلام: انطلق رسول الله ﷺ إلى الكعبة فقال لي: اجلس.

فجلست، فصعد على منكبي.

فقال لي: انهض.

فنهضت فعرف ضعفي تحته.

قال لي: اجلس.

فجلست، ثم نهض بي رسول الله ﷺ فخيّل إلي أنني لو شئت نلت أفق السماء، فصعدت إلى الكعبة.

وتنحى رسول الله ﷺ وقال: ألق صنمهم الأكبر، صنم قريش. وكان من نحاس مؤتدٍ بأوتاد من حديد في الأرض.

فقال رسول الله ﷺ: عالجها.

فجعلت أعالجها، حتى استمكنت منه. فقال: اقذفه، فقدفته حتى انكسر. ونزلت من فوق الكعبة، وانطلقت أنا والنبي ﷺ نسعى وخشيناً أن يرانا أحد من قريش وغيرهم.

وهناك مصادر تقول: إن هذه القصة مع بعض التغيير وقعت بعد فتح مكة.

إسلامه

وقد تعددت واختلفت أقوال المؤرخين في عمره الشريف حين إسلامه وتصديقه بالنبوة، بين من يقول كان له ثمان سنين وبين من يقول له تسع وآخر يقول له عشر، ورابع يقول له إحدى عشرة سنة وخامس يقول له اثنتا عشرة سنة وسادس يقول له ثلاث عشرة سنة وهناك من يقول: له خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة، وكلّ هذا إنما يدلّ على تحديد عمره المبارك وقت أن أعلن الرسول رسالته للخاصّة من مريديه وموقفه الرسمي إن صحّ التعبير منها، وإلاّ فإنّ روحه لم تتلوّث بالشرك فهو الذي لم يكفر بالله قط. وهذا ما نجده في الروايات أعلاه وفي قول الإمام زين العابدين جواباً عن سؤال من سأله عن عمر الإمام عليّ عليه السلام عند إيمانه، فقال عليه السلام: «أو كان كافراً؟! إنما كان لعلي حين بعث الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ عشر سنين ولم يكن كافراً»^(١١).

والذي يؤيّد أن عمره كان عشر سنوات أن عمر الدعوة الإسلامية في مكة ثلاث عشرة سنة وهاجر إلى المدينة وله ثلاث وعشرون سنة وأنه استشهد سنة ٤٠ هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة.

ويميل ابن أبي الحديد إلى أن عمره الشريف كان ثلاث عشرة سنة، متقيداً من قوله عليه السلام: «لقد عبدت الله قبل أن يعبدني أحد من هذه الأمة سبع سنين»، وقوله عليه السلام: «كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سبع سنين سبعا، ورسول الله ﷺ حينئذ صامت ما أدن له في الإنذار والتبليغ».

وذلك - والقول ما زال لابن أبي الحديد - لأنّه إذا كان عمره يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة، وتسليمه إلى رسول الله ﷺ من أبيه وهو ابن ستّ، فقد صحّ أنّه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين، وابن ستّ تصحّ منه العبادة، إذا كان ذا تمييز، على أن عبادة مثله هي التعظيم والإجلال وخشوع القلب...^(١٢) وقد جاء في ترجمة الإمام علي عليه السلام في الاستيعاب أن: المروي عن سلمان وأبي

ذر والمقداد وخبّاب وأبي سعيد الخدري وزيد بن أسلمه أن علياً عليه السلام أول من أسلم وفضله هؤلاء على غيره .

وقال ابن إسحاق : أول من آمن بالله وبمحمد رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام وهو قول ابن شهر آشوب إلا أنه قال : من الرجال بعد خديجة .

وعن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب وعنده جماعة فتذاكروا السابقين إلى الإسلام فقال عمر : أمّا عليّ ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول فيه ثلاث خصال لوددت أن لي واحدة منهنّ ، فكان أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس ، كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة من الصحابة إذ ضرب النبي ﷺ بيده على منكب عليّ فقال له : يا عليّ أنت أول المؤمنين إيماناً وأول المسلمين إسلاماً وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى (١٣) .

يقول جورج جرداق عن إسلام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام :

وإذا أسلم بعض الوجوه من قريش منذ أول الدعوة احتكاماً للعقل وتخصّصاً من الوثنية ، وإذا أسلم كثير من العبيد والأرقاء والمضطهدين طلباً للعدالة التي تتدفّق بها رسالة محمد واستنكاراً للجور الذي يلهب ظهورهم بسياطه ، وإذا أسلم قوم بعد انتصار النبي امتثالاً للواقع وتزلفاً للمتصر كما هي الحال بالنسبة لأكثر الأمويين . إذا أسلم هؤلاء جميعاً في ظروف تتفاوت من حيث قيمتها ومعانيها الإنسانية وتتحد في خضوعها للمنطق أو للواقع الراهن فإنّ علي بن أبي طالب قد ولد مسلماً؛ لأنّه من معدن الرسالة مولداً ونشأة وفي ذاته خلقاً وفطرةً ، ثمّ إنّ الظرف الذي أعلن فيه عمّا يكمن في كيانه من روح الإسلام ومن حقيقته لم يكن شيئاً من ظروف الآخرين ولم يرتبط بموجبات العمر؛ لأنّ إسلام عليّ كان أعمق من ضرورة الارتباط بالظروف ، إذ كان جارياً في روحه كما تجري الأشياء من معادنها والمياه من ينابيعها ، فإنّ الصبي ما كاد يستطيع التعبير عن خلجات نفسه حتى أدّى فرض الصلاة وشهد بالله ورسوله دون أن يستأذن أو يستشير .

لقد كان أوّل سجود المسلمين الأوّل لآلهة قريش ، وكان أوّل سجود عليّ لإله محمد! إلّا أنّه إسلام الرجل الذي أُتيح له أن ينشأ على حبّ الخير وينمو في رعاية النبي ويصبح إمام العادلين من بعده وربّان السفينة في غمرة العواصف والأمواج^(١٤).

كما أنّ العقاد يقول عن إسلام عليّ :

ولد عليّ في داخل الكعبة ، وكرّم الله وجهه عن السجود لأصنامها ، فكأنّما كان ميلاده إيذاناً بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها . وكاد عليّ أن يولد مسلماً .. بل لقد ولد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح؛ لأنّه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام...^(١٥).

الذبيح الثالث

إنّ من قدر له أن يتصفّح حياته ﷺ لا يجد فيها شيئاً من الخوف أو التردّد من الموت ، إنّ قاموس حياته المباركة خالٍ من ذلك كلّهُ . إنّ عليّاً ﷺ قهر الموت وقضى عليه فن أي شيء يا ترى يخاف؟!

ولهذا تراه يستسلم ويطيع رسول الله ﷺ حينما يُلقى به في لهوات الحرب ويرمي به في أحلك الأمور وأعسرّها .

حان الوقت ، وجاء اليوم الموعود وتشابكت خيوط المؤامرة وتسابق القوم من هنا وهناك ، واجتمع زعماء القبائل في دار الندوة في مكة ، وكان فيهم أبو جهل وعروة بن هشام وأبو البختری ، وقرّروا أن يضعوا لهذا الأمر نهاية وأن يطوّوا صفحته إلى الأبد . فجمعوا شجعانهم ليضربوا محمّداً ضربة رجل واحد فيتوزّع دمه هنا وهناك على جميع القبائل فيضيع وتضيع المطالبة به ، وحدّدوا لمكرهم هذا وقتاً وموعداً .

هاجر رسول الله ﷺ خفيةً وأمر عليّاً بالمبيت تلك الليلة في فراشه ، ليعتمّ عليهم هجرته ، إنّهُ فراش الموت ، فما كان من عليّ إلّا التسليم والانقياد وهو يعلم

جَيِّدًا أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ تَأَمَّرُوا عَلَى ابْنِ عَمِّهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّهُمْ قَاتَلُوهُ فِي فَرَاشِهِ ، وَأَنَّهُمْ مَبَاغَتْوهُ لَا مُحَالَةً ، وَلَا يَنْجُو مِنْهُمْ إِلَّا وَهُوَ أَشْلَاءٌ مَمْرُقَةٌ وَأَعْضَاءٌ مَقْطُوعَةٌ ، مُؤَامِرَةٌ نَافِذَةٌ وَاقِعَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا وَلَا رَيْبَ .

اخْتَارَهُ الرَّسُولُ ﷺ لِهَذِهِ الْمَهْمَةِ وَهُوَ شَابٌ يَافِعٌ فِي مُقْتَبِلِ الْعُمَرِ ! إِنَّهُ ثَالِثُ قَرْبَانٍ يَقْدَمُ بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ وَعَبْدَ اللَّهِ وَالِدِ النَّبِيِّ ﷺ وَشَتَّانَ بَيْنَ الذَّبِيحَيْنِ عَلِيٍّ وَإِسْمَاعِيلَ ، وَعَلِيٍّ وَعَبْدَ اللَّهِ ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا بِيَدِ أَبِي شَفِيقٍ رَحِيمٍ يَرْقُ قَلْبُهُ وَتَرْجُفُ يَدُهُ ، وَهُوَ بِسَيْفٍ عَدُوٍّ نَزَعَتِ الرَّحْمَةُ مِنْ قَلْبِهِ ، وَبِخَنْجَرٍ يَمْسُكُ بِقُوَّةٍ حَاقِدٍ بَغِيضٍ ، وَبِيَدٍ صَلْبَةٍ لَا يَنْتَابُهَا الْخَوْفُ وَلَا تَرْبِكُهَا الرَّحْمَةُ ..

إِنَّهُ امْتِحَانٌ عَصِيبٌ لَهُمْ جَمِيعًا ، وَلَكِنْ أَيْ الثَّلَاثَةِ أَشَدُّ مُحَنَّةً وَأَقْسَى؟! وَأَيُّ امْتِحَانٍ هَذَا لِإِيْمَانِهِ وَانْقِيَادِهِ وَاسْتِسْلَامِهِ؟!!

لَقَدْ تَيَقَّنَ فَتَى بَنِي هَاشِمٍ أَنَّهُ مَا إِنْ يَغْمُضُ عَيْنِيهِ حَتَّى تَنْهَالَ عَلَيْهِ مَدْيِهِمُ الَّتِي امْتَشَطُوهَا وَسَيُوفُهُمُ الَّتِي حَمَلُوهَا وَتَبْضَعُهُ خَنَاجِرُهُمْ ... فَلَا تَرَدُّدٌ وَلَا خَوْفٌ بَلْ لِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ : نَعَمْ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ..

فَأَنْجَاهُمَا اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ مِنْ كَيْدِ الْمُشْرِكِينَ وَمَكْرِهِمْ ، وَأَنْزَلَ فِي ذَلِكَ : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (١٦) .

زَوَاجُهُ الْمُبَارَكُ

كَانَ عُمُرُهُ ﷺ حِينَهَا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ هِجْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَهَنَاكَ كَانَتْ بَضْعَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ ﷺ الَّتِي طَالَمَا تَمَنَّى التَّشَرُّفَ بِهَا كِبَارُ الصَّحَابَةِ ؛ وَمِنْ أَهْلِ السَّابِقَةِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْفَضْلِ وَالشَّرَفِ وَالْمَالِ ؛ لِأَنَّهَا بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَكثَرَةُ مَا كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْهُ ﷺ فِي ثَنَائِهِ عَلَيْهَا وَاحْتِرَامِهَا وَتَقْدِيرِهَا ، وَلَمَوْقِعِهَا الْعَظِيمِ مِنْهُ ﷺ . رَاحَتْ نَفْسُهُمْ تَطْمَحُ لِلْإِقْتِرَانِ بِهَا ، وَكَانُوا كُلُّهَا تَقَدَّمَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ ﷺ إِلَّا أَنْ يُعْرَضَ بِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ حَتَّى يُخْرِجَ مِنْهُ

القادم وهو يظنّ أنّه ﷺ ساخط عليه وغير راضٍ عنه، وإلاّ الرّفض، وأنّه ينتظر في زواجها أمر الله وقضاه (١٧).

تقدّم عليّ عليه السلام بخطوات يكتنفها الحياء، وراحت نظراته تتوزع هنا وهناك، نظرة إلى وجه رسول الله ﷺ وأخرى يرسلها بعيداً، وثالثة إلى ما بين يديه، ماذا يقول ويده خالية.

حانت نظرة من رسول الله ﷺ إليه فعرف ما يريد: إنّ علياً جاء لحاجة، وحاجة عليّ يمنعه حياؤه من التحدّث بها، فبادره رسول الله ﷺ مشجعاً حتّى ينطق، وما إنّ نطق حتّى كان ذلك البيت من أمهى وأزهى وأزكى وأعظم بيوت الدنيا بل وأغناها إيماناً وطهارةً وأثراها أخلاقاً وعلماً... إنّ بيت عليّ وفاطمة ثمّ ريحانتي رسول الله ﷺ الحسن والحسين عليهما السلام والذرّية الصالحة!

وفي السنن الكبرى يقول عليّ عليه السلام: «لقد خطبت فاطمة بنت النبي ﷺ فقالت لي مولاة: هل علمت أنّ فاطمة تخطب؟

قلت: لا - أو نعم -

قالت: فاخطبها إليك.

قال: قلت: وهل عندي شيء أخطبها عليه؟! قال: فوالله ما زالت ترجيني حتّى دخلت عليه، - وكنا نجلّه ونعظّمه - فلمّا جلسْتُ بين يديه أجمت حتّى ما استطعت الكلام.

قال: هل لك من حاجة؟ فسكتُ فقالها ثلاث مرّات.

قال: لعنك جيئت تخطب فاطمة!

قلت: نعم يا رسول الله.

قال: هل عندك من شيء تستحلّها به؟

قال: قلت: لا والله يا رسول الله.

قال: فما فعلت بالدرع التي كنتُ سلّحتكها؟

قال عليّ: والله إنّها درع حُطمية ما ثمنها إلا أربعمئة درهم.
قال: اذهب فقد زوّجتكها، وابعث بها إليها فاستحلّها به»^(١٨).
وقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله أمرني أن أزوّج فاطمة من عليّ»^(١٩).
وقال ﷺ أيضاً: «والله ما ألوت (أي ما قصّرت في أمرك وأمري) أن أزوجك خير أهلي»^(٢٠).

وعن عائشة وأمّ سلمة: أمرنا رسول الله ﷺ أن نجهّز فاطمة حتّى ندخلها على عليّ، فعمدنا إلى البيت ففرشناه تراباً لَبِيباً من أعراض البطحاء، ثمّ حشونا مرفقتين ليفاً فنفضناه بأيدينا ثمّ أطعمنا تمرّاً وزبيباً وسقينا ماءً عذباً، وعمدنا إلى عود فعرّضناه في جانب البيت ليلقى عليه الثوب، ويعلّق عليه السقاء، فمارأينا عرساً أحسن من عرس فاطمة^(٢١).

العبادة عند عليّ عليه السلام

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٢٢)

العبادة كانت عنده عليه السلام وقفة مع السماء يتأمل فيها، ويتدبّر حياته وسيرته، ويربّي فيها نفسه ويبعدها عن كلّ مزلق الشيطان، ويقوّي فيها إيمانه، ويكسب فيها مزيداً من التقوى.

العبادة عنده عليه السلام عبادة الأحرار لا عبادة التجّار أو العبيد «وجدته أهلاً للعبادة فعبدته» إذن لا طمع في جنّة وثواب ولا خوف من نار وعذاب.
العبادة عنده عليه السلام نموّ مستمر وسمو متواصل واستلھام واع لكلّ معاني العزّ والفخر والخير والعطاء. «إلهي كفّ بي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفّ بي فخراً أن تكون لي ربّاً، أنت كما أحبّ فاجعلني كما تحبّ».

العبادة عند عليّ عليه السلام خشوع وتواضع لخالق السماوات والأرض.
العبادة عند أمير المؤمنين عليه السلام شكر لنعمه تعالى المتواصلة على العباد.
العبادة عنده عليه السلام اعتراف بخالق الكون ورضا بقضائه وتسليم لقدره.

العبادة عنده ﷺ تحمّل لأمانة السماء ، ومسؤولية كبرى أمام الله سبحانه وتعالى من جهة وإزاء المجتمع من جهة أخرى .
إذن فهي ليست عبارات جوفاء ومفردات لا معنى لها و حركات منتظمة وحسب .

هكذا يؤدّي عليّ ﷺ عبادته بخشوع عظيم وبصوت حزين ونغمة شجي .
فيما رواه عروة بن الزبير : كنّا جلوساً في مسجد رسول الله ﷺ فتذاكرنا أهل بدر وبيعة الرضوان ، فقال أبو الدرداء : يا قوم ألا أخبركم بأقلّ القوم مالاً وأكثرهم ورعاً وأشدّهم اجتهاداً في العبادة؟
قالوا : مَنْ هو؟

قال : علي بن أبي طالب .
قال : فوالله لقد رأيت كلّ من كان في المجلس إلّا أعرض بوجهه عني . فقال : يا عويمر لقد تكلمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها .
فقال أبو الدرداء : يا قوم إني قائل ما رأيته . وليقلّ كلّ قوم ما رأى . شهدت علي بن أبي طالب ﷺ بسويحات بني النجار ، وقد اعتزل عن مواليه واختفى ممّن يليه ، واستتر ببيعات النخل فافتقدته وبعُدَ عليّ مكانه ، فقلت لحق بمنزله . فإذا بصوت حزين ، ونغمة شجي وهو يقول :

«إلهي كم من موبقة حملتها فقابلتها بنعمتك . وكم من جريرة تكرّمت عن كشفها بكرمك . إلهي إن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي ، فما أنا بغير غفرانك طامع ، ولا أنا براج غير رضوانك» .

فشغلني الصوت واقتفيت الأثر . فإذا هو عليّ بن أبي طالب ﷺ بعينه .
فاستترت له لأسمع كلامه ، فركع ركعات في جوف الليل ، ثمّ فزع إلى الدعاء والتضرّع والبكاء والبتّ والشكوى . فكان ممّا ناجى به الله أن قال :
«إلهي أفكّر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي ، ثمّ أذكر العظيم من أخذك ، فتعظم

عَلِيٍّ بَلِيَّتِي» .

ثُمَّ قَالَ :

«آهٍ إِن أَنَا قَرَأْتُ فِي الصَّحْفِ سَيِّئَةً أَنَا نَاسِيهَا، وَأَنْتَ مُحْصِيهَا، فَتَقُولُ خُذْهُ فَيَا لَهُ مِنْ مَأْخُودٍ لَا تَنْجِيهِ عَشِيرَتَهُ وَلَا تَنْفَعُهُ قَبِيلَتُهُ. يَرْحَمُهُ الْمَلَأُ إِذَا أَدَّيْنُ فِيهِ النَّدَاءَ» .
ثُمَّ قَالَ :

«آهٍ مِنْ نَارٍ تَنْضَحُ الْأَكْبَادَ وَالْكُلَى. آهٍ مِنْ نَارٍ نَزَّاعَةٌ لِلشَّوَى. آهٍ مِنْ غَمْرَةٍ مِنْ مَلْهَبَاتٍ لَطَى» . ثُمَّ انْفَجَرَ فِي الْبَكَاءِ ، فَلَمْ أَسْمَعْ لَهُ حَسًّا وَلَا حَرَكَةً فَقُلْتُ غَلَبَ عَلَيْهِ النَّوْمُ لَطُولُ السَّهْرِ ، أَوْ قَطْعُهُ لَصَلَاةِ الْفَجْرِ (قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ) فَأَتَيْتُهُ فَإِذَا هُوَ كَالْخَشْبَةِ الْمُلَقَاةِ ، فَحَرَّكَتُهُ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ ، وَزَوَيْتُهُ فَلَمْ يَنْزُو ، قُلْتُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . مَاتَ وَاللَّهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ . فَأَتَيْتُ مَنْزِلَهُ مُبَادِرًا أَنْعَاهُ إِلَيْهِمْ .

فَقَالَتْ فَاطِمَةُ (عَلَيْهَا السَّلَامُ) : «يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ ، مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ وَمِنْ قِصَّتِهِ؟» ، فَأَخْبَرْتُهَا الْخَبَرَ . فَقَالَتْ : «هِيَ وَاللَّهُ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ الْغَشِيَّةُ الَّتِي تَأْخُذُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» ، ثُمَّ أَتَوْهُ بِمَاءٍ فَنَضَحُوهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَأَفَاقَ وَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا أَبْكِي .

فَقَالَ : مَمَّ بَكَاءُكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ؟

فَقُلْتُ : مِمَّا أَرَاهُ تَنْزِلُهُ بِنَفْسِكَ .

فَقَالَ : يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَنِي وَدُعَيْتَنِي إِلَى الْحِسَابِ ، وَأَيُّقِنُ أَهْلَ الْجَرَائِمِ بِالْعَذَابِ ، وَاحْتَوَشْتَنِي مَلَائِكَةُ غَلَاظٍ ، وَزَبَانِيَةُ حِفَافٍ ، فَوَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ ، قَدْ أَسْلَمَنِي الْأَحْبَاءَ ، وَرَحِمَنِي أَهْلُ الدُّنْيَا ، لَكُنْتُ أَشَدَّ رَحْمَةً لِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ .

فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ ذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٢٣)

مِمَّا قَالُوهُ

مَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)؟

سُؤَالُ أَجَابَ عَنْهُ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ .

«فقال : هو إمام الكلّ .

قالوا : ما دليلك عليه؟

قال : استغناؤه عن الكلّ واحتياج الكلّ إليه ، دليل على أنّه إمام الكلّ» .
حقاً سيّدي إنّك لم تكن نبياً ولكنك كنت إماماً ووصياً ، لم تكن رسولاً
ولكنك كنت أخاً ووزيراً ، وكنت قدوةً ، وكنت جوهرةً يتيمةً ، خلقها الله وصاغها
محمد ﷺ وضيّعها الناس ، كلمة ما أعظمها نطق بها جورج جرداق حينما سئل عن
الإمام عليّ عليه السلام : «ما عساني أن أقول في جوهرة يتيمة ، خلقها الله وصاغها
محمد ﷺ»

إذن ما عسانا أن نقول فيك - وأنت إمام الكلّ - وفي فضائلك ومناقبك وفي
إيمانك وتقواك وجهادك وشجاعتك ، وفي علمك وأدبك وفي فصاحتك وبلاغتك ،
أنستطيع أن نصوغ معانيها البليغة والجميلة والعظيمة؟ وكيف نجرؤ أن نفرغ منقبة
من مناقبك سيدي في قوالب حروف وكلمات لا نراها إلا ميتة؟ اللهم إلا أن نقول
وهو الحقّ: إنّها تبعث حيّة بذكر خصالك وفضائلك...

وحقاً ما يقوله أبو إسحاق النظام: «عليّ بن أبي طالب محنة على المتكلم، إن
وفاه حقّه غلا وإن بخسه حقّه أساء!».

وحقاً أيضاً ما يقوله المتنبي في جواب من اعترض عليه في عدم مدحك على
كثرة أشعاره وقصائده..

وتركتُ مدحي للوصي تعمّداً إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً
وإذا استطال الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً

حقاً كلمة يتيمة ولدت في غير زمنها ولكنها مشيئة الله .
مسك كلما حاول أعداؤه إخفاءه انتشر عَرفه ، وكلّما بذلوا جهودهم لأن
يكتُموا تَضَوُّع نشره ، فشمسك يا سيدي لا تخفيها أكفُ الظالمين والحاسدين

والمبغضين ...

نعم كانوا لا يُطبقون ظهور فضائلك ولا الإصغاء إليها فضلاً عن الارتواء من غيرها.

لقد عثرتُ على قول آخر للخليل بن أحمد الفراهيدي :
«ما أقول في حقِّ امرئٍ كتمت مناقبه أولياؤه خوفاً وأعداؤه حسداً، ثمَّ ظهر ما بين الكتمين ما ملأ الخافقين . بل ظهر نزر يسير فكان له كلُّ هذا» .

مما فعلوه

لقد كنت سيّدي فريداً نأت عنه هذه الأمة بسوء حظّها، ووحيداً جفته لسوء طالعها .

كم دأب الأعداء على محو آثارك ومعالمك، فلعلّ ذاكرة التاريخ تنساها، فخاب كيدهم، وأنصفك التاريخ، فهذه كتب التاريخ والحديث والآثار تحكي لنا أنّ الذي زيّن صفحاتها كان ذكرك، وأنّ الذي لوّن لوحاتها كانت مناقبك وفضائلك، فقد بهر ما ظهر منها العيون وحيّر العقول خاصة إذا تتبعنا ما أفرغه الأعداء من جهود وما بذلوه من أموالٍ لشراء الذمم وما سخّروه من وسائلهم الإعلامية - بعد أن عقد حبّك وولأوك على قلوب محبّيك ومريديك - على مدى سبعين سنة أو تزيد : منابر تشتمك، وألسن تتبرأ منك، وأخرى تلعنك .. وفي قبالها نفوس تزهب، وألسن قطعت؛ لأنّها لا تقول فيك شيئاً نكراً لطمس فضائلك ودفنها، فخابت جهودهم وبطلت أحلامهم .

لم يكتفوا بالحسد «فكلّ ذي نعمة محسود» ونعمتك ما أعظمها : فآيات نزلت بحقّك، وروايات تواترت بفضلك، وأقوال لرسول الله ﷺ أخذت تشيد بك، ومواقف رسالية راحت تتباهى بك .. هذا فضلاً عن الصياغة الربّانية لك : قدرات عجيبة، وصفات فريدة، ومناقب جليّة ... فكيف لا يحسدوك وكلّ منهم خال الوفاض منها؟!

﴿يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

إن يحسدوك على علاك فإنما متسافل الدرجات يحسد من علا

بل مزجوا حسدهم بحقد دفين وثارات عقيمة، في حصيلتها النهائية كانت بغضاً لله ولرسوله وعداءً للدين الذي حلّ بين ظهرائهم، فلم يستطيعوا الكيد له، رغم كلّ جهودهم، فكادوك لأنّ سيفك كان على رؤوسهم لينطقوا بالحقّ، وما كانوا ليهدتوا فقالوها مرغمين، ولم يستطيعوا شتم الرسول ﷺ فشتموك..

فهذا عبدالله بن عباس حبر الأئمة وترجمان القرآن، كان يقوده سعيد بن جبير - وقد كفّ بصره - فرّ على زمزم فإذا بقوم من أهل الشام يسبون عليّاً كرم الله وجهه، فسمعهم عبدالله بن عباس، فقال لسعيد: ردّني إليهم، فردّه إليهم فقال: أيّكم السابّ لله عزّ وجلّ؟

فقالوا: سبحان الله ما فينا من سبّ الله عزّ وجلّ!

فقال: أيّكم السابّ لرسول الله ﷺ؟

فقالوا: ما فينا من سبّ رسول الله ﷺ!

فقال: أيّكم السابّ لعليّ بن أبي طالب؟

فقالوا: أما هذا فكان منه شيء.

فقال: شهدت على رسول الله ﷺ بما سمعته يقول لعليّ بن أبي طالب: «يا عليّ من سبّك فقد سبّني، ومن سبّني فقد سبّ الله، ومن سبّ الله، أكبه الله على منخريه في النار». ثمّ تولّى عنهم... (٢٤)

يقول عبدالله بن أحمد بن حنبل: «سألت أبي عن عليّ وأعدائه، فقال: يا بني إنّ عليّاً كان كثير الأعداء، ففتش عليه أعداؤه شيئاً مكروهاً ولم يجدوا، وجاءوا إليه وحاربوه وقتلوه وخلعوه كيداً منهم له».

نعم، حاربوك فكانت حربهم ظالمة، كادوا لك فردّ كيدهم إلى نحورهم،

افتروا عليك فكانت افتراءاتهم جائزة.

لم يجدوا عيباً فيك سيدي فلاذوا بطمس معالمك وفضائلك وألجموا الألسنة الناطقة بمناقبك، لقد بنوا كيانهم على شتمك وسبك وطمس آثارك.. وكان حكمهم ليس له هدف إلا إنهاء ذكرك، وكان ليس لهم هم إلا إخفاء فضلك... أما أن لك - يا معاوية - أن تترك علياً وشأنه، وتأمر بترك مسبته على المنابر؟ قال: لا، حتى يموت عليها الكبير ويربو عليها الصغير.

فقد أبت نفوس هؤلاء الطلقاء قبول عليّ بفضائله ومناقبه ومواقفه الجليلة التي كانت دفاعاً عن الرسالة والرسول، وعن كلمة الحق والعدل.. أبت قلوبهم ذلك كله، فراحت سياستهم تقوم على نبذ هذه المناقب والفضائل بل التصدي لها بكل حزم حتى صارت أساس سياستهم والبناء الذي تقوم عليه، فأصدر زعيم هؤلاء القوم وعميدهم معاوية بن أبي سفيان أمراً سلطانياً: برئت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته.

ولم يكتف بهذا بل عمم كتاباً آخر إلى جميع عماله يقول فيه:

إذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب، إلا وتأتونني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إليّ وأقرّ لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته (٢٥).

وبسبب هذا كله وتشجيعاً من السلطان الظالم ظهر الوضّاعون وكثروا، وظهر البهتان وانتشر وشاعت المختلقات من الروايات وذاعت بين الآفاق، وتجراً أعداء الدين على تشويه معالمه والكيد له..

معاوية يقدم قومه

ولكن هيهات هيهات! فالزوابع بغبارها لا تخفي الحقيقة التي علت ناصعةً تتحدّاهم جميعاً، فقد ذاع صيتك وعطر الخافقين عبرك، وحتى هؤلاء الأعداء

راحت ألسنتهم تنطق بالحقّ، نطقت بصفاتك، ونشرت مجالسهم عظيم مناقبك...
فلسان مناوئيك أنطقه الله الذي أنطق كلّ شيء، لتكون الحجّة عليهم أقوى،
فالفضل ما شهدت به الأعداء.

● جاء ابن أحمور التميمي إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين جئتك من عند
الأمّ الناس، وأبجل الناس، وأعيا الناس، وأجبن الناس.

فقال: ويلك وأنى أتاه اللؤم، ولكننا نتحدّث أن لو كان لعلّي بيت من تب
وآخر من تبر، لأنفد التبر قبل التبن، وأنى أتاه العي وإن كنا نتحدّث أنه ما جرت
المواسي على رأس رجل من قريش أفصح من عليّ، ويلك وأنى أتاه الجبن؟ وما
برز له رجل قطّ إلا صرعه، والله يا ابن أحمور، لولا أنّ الحرب خدعة لضربت
عنقك، اخرج فلا تقيم في بلدي^(٢٦).

● وله أيضاً: فوالله لو أنّ ألسن الناس جمعت فجعلت لساناً واحداً لكفأها
لسان عليّ^(٢٧). ولو لم يكن للأمة إلا لسان علي لكفأها^(٢٨).

● ولما جاء ابن أبي محفن معاوية قال له: جئتك من عند أعيا الناس.
قال له: ويحك! كيف يكون أعيا الناس؟! فوالله ما سنّ الفصاحة لقريش
غيره^(٢٩).

● قال معاوية لضرار بن ضمرة من أصحاب عليّ رضي الله عنه بعد مصرعه:
صِف لي عليّاً.

فقال لضرار: اعفني.

قال معاوية: لتصفّه.

قال: أمّا إذ لا بدّ من وصفه، فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول
فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطلق الحكمة من نواحيه،
ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته.
وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام

ما خشن .

وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه . ونحن والله - مع تقريبه إيانا وقربه منا - لا نكاد نكلّمه هيبةً له .
ويعظّم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا يئس الضعيف من عدله .

وأشهد أنّي لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضاً على لحيته، يتململ تملل السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول :
يا دنيا غُري غيري! أليّ تعرّضت أم إليّ تشوّقت؟!
هيهات هيهات!

قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك قليل .
آه من قلّة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق!
ولما انتهى ضرار من وصفه هذا يقول الخبر: فبكى معاوية حتّى اخضلت لحيته وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك .

فكيف حزنك عليه يا ضرار؟

قال: حزن من ذُبِحَ وحيدُها في حجرها .

● ولما بلغ معاوية قتل عليّ (عَلَيْهِ السَّلَام) قال:

ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب .

فقال له أخوه عتبة بن أبي سفيان: لا يسمع هذا منك أهل الشام .

فقال له: دعك منّي (٣٠) .

وكان يقول عن علم عليّ (عَلَيْهِ السَّلَام): كان رسول الله ﷺ يغره العلم غراً (٣١) رحم الله أبا الحسن فلقد سبق من كان قبله، وأعجز من يأتي بعده (٣٢) .

... هيهات هيهات! عقلت النساء أن يلدن مثله (٣٣)

● وهذا عمرو بن العاص العدوّ اللدود لعليّ (عَلَيْهِ السَّلَام) حينما راح يخير نفسه بين

علي ومعاوية :

أما عليٌّ فدين ليس يشركه دنيا وذاك له دنيا وسلطان .
وفما كتبه إلى معاوية قبل التحاقه به : ويحك يا معاوية! أما علمت أنَّ
أبا الحسن بذل نفسه بين رسول الله ﷺ وقد قال فيه يوم غدیر خم : ألا من كنت
مولاه فعليّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ... (٣٤)
... حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقربته ، ولكنّا إنّما أردنا هذه
الدنيا ...

وراح يخاطب معاوية ... ومهما نسيت فلا تنسى أنّك على باطل ...

أوهل يستغنون عنك؟!

فوجئ عليٌّ ﷺ يوماً بجمع من صحابة رسول الله ﷺ وكان فيهم حبر الأمة
عبدالله بن عباس والخليفة أبو بكر ورجل يهودي يقرعون عليه باب داره .
ذلك أنّ مالك بن أنس روى أنّ يهودياً دخل المسجد فسأل الناس :
أين وصيّ رسول الله؟ فأشار القوم إلى أبي بكر .
فقال الرجل : أريد أن أسألك عن أشياء لا يعلمها إلا وصيّ أو نبي ... قال
أبو بكر : سل عما بدا لك .

قال اليهودي : اخبرني عما ليس لله ، وعما ليس عند الله .. وعما لا يعلمه الله ...
قال أبو بكر : هذه مسائل الزنادقة يا يهودي!

هم أبو بكر والمسلمون رضي الله عنهم باليهودي ، فقال ابن عباس ﷺ : ما
أنصفت الرجل! ... فقال أبو بكر : أما سمعت ما تكلم به؟

فقال ابن عباس : إن كان عندكم جوابه ، وإلا فاذهبوا إلى علي ﷺ يجيبه ، فإنّي
سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب : «اللهم اهد قلبه وثبت لسانه» .

فقام أبو بكر ﷺ ، ومن حضره ، فأتوا علي بن أبي طالب في داره ،
فاستأذنوا عليه .

فقال أبو بكر: يا أبا الحسن إن هذا اليهودي سألني مسائل الزندقة!
فقال عليّ كرم الله وجهه: «ما تقوله يا يهودي؟»
قال: أسألك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي أو وصي نبي.
فقال له: قل.
فأعاد اليهودي الأسئلة.
فقال عليّ عليه السلام:

أما ما لا يعلمه الله فذلك قولكم معشر اليهود أن عزيزاً ابن الله، والله لا يعلم
أن له ولداً (إذ لو كان له ولد لكان يعلمه).
وأما قولك: أخبرني بما ليس عند الله.
فليس عنده ظلمٌ للعباد.
وأما قولك: أخبرني بما ليس لله.
فليس لله شريك.

فقال اليهودي: أشهد أن محمداً رسول الله وأنتك وصي رسول الله.
فارتاح أبو بكر والمسلمون من جواب عليّ، وقالوا: يا مفرج الكرب! (٣٥).
وهكذا كان يفعل الخليفان الثاني والثالث فهم جميعاً لم يستغنوا عن
آراء الإمام عليّ عليه السلام في الفقه والقضاء والجهاد والسياسة والإدارة.. وكان
يبدّ لهم يد العون والرشد ما دامت هناك مصلحة إسلامية، والشواهد كثيرة
على هذا.

مع بعض أقواله عليه السلام

«لا يقيم أمر الله سبحانه وتعالى إلا من لا يصانع ولا يتبع المطامع..»
ومما كان يعظ به من يتولّى أمراً من أمور المسلمين صغر هذا الأمر أو كبر:
«لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة
المسلمين البخيل، فتكون أموالهم نهمة، ولا الجاهل فيضللهم بجهله، ولا الجافي

فيقطعهم بجفائهم، ولا الخائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة. ومن نصب نفسه للناس فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تهذيبه بسيرته قبل تهذيبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم».

ولما رأى الثراء فاحشاً في الناس وأخلاق السوء قد دبّت فيهم، ولما رآهم يتزاحمون على نيل المناصب والجاه، ولما رآهم يتصفون بالتفاخر والتكاثف بالأموال والأنفس، ولما رآهم وقد عادت العصبية إلى سيرتهم والقومية تنهش بهم وقد نهى رسول الله ﷺ وقال:

«دعوها إنّها نتنة»، و«ليس منّا من دعا إلى عصبية».

راح عليّ عليه السلام يعظهم ويحذّرهم ممّا يتركه ذلك على نفوسهم وعواقب ما هم

فيه :

«أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

«من أصبح على الدنيا حزيناً، فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً».

«ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به، فقد أصبح يشكو ربّه».

«ومن أتى غنياً فتواضع لغناه ذهب ثلثا دينه».

«ما بال ابن آدم والفخر؟ أوله نطفة، وآخره جيفة، لا يرزق نفسه ولا يدفع

حقفه».

«يا ابن آدم؛ كن وصي نفسك في مالك، واعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من

بعدك».

«ظلم الضعيف أفحش الظلم».

«لا تظلم كما لا تحب أن تُظلم».

«من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجّته،

وكان الله حرباً عليه حتّى ينزع عن ظلمه ويتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير

نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله يسمع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد.

«لا يغرنكم ما أصبح فيه أهل الغرور، فإنما هو ظلٌ ممدود إلى أجلٍ محدود».

مداخلات

وختاماً نكتفي بما ذكره بعض كبار الكتاب والمفكرين:

□ عباس محمود العقاد

تدلّ أخباره - كما تدلّ صفاته - على قوة جسدية بالغة في المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فرمى رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلا صرعه، ولم يبارز أحداً إلا قتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلا رجال، ويحمل الباب الكبير يعيى بقلبه الأشداء، ويصبح الصيحة فتتخلع لها قلوب الشجعان... لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت...

ويزيد شجاعته تشريفاً أنها ازدانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقوياء.. فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها عليّ بغير كلفة ولا مجاهدة رأي. وهي التورّع عن البغي، والمروءة مع الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال.

أمّا مروءته في هذا الباب فكانت أندر بين ذوي المروءة من شجاعته بين الشجعان. فأبى على جنده وهم ناقون أن يقتلوا مدبراً أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا ستراً أو يأخذوا مالا. وصلى في وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء، وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص

وهم ألد أعدائه المؤلّبين عليه فعفا عنهم ولم يتعقّبهم بسوء، وظفر بعمر وبن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذي عدّة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سواته اتقاءً لضربته.. وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفّين وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشاً.. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوّغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وزار السيّدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: أيتّم الله منك أولادك كما أيتّم أولادي. فلم يرد عليها شيئاً، ثمّ خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها. قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين! أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فانتهره وهو يقول: ويحك؟ إنّنا أمرنا أن نكفّ عن النساء وهن مشركات أفلا نكفّ عنهنّ وهن مسلمات؟ وإنّني لفي طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة. ثمّ ودّع السيّدة عائشة أكرم وداع وسار في ركاها أميالاً وأرسل معها من يخدمها ويحفّ بها. قيل: إنّّه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمّهن بالعمائم وقلّدهن السيوف.. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأقّفت وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلّهم بي.. فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهنّ وقلن لها: إنّنا نحن نسوة. [وهنا تقول عائشة: ما ازددت والله يا ابن أبي طالب إلّا كرمًا.]

وكانت هذه المروءة سنّته مع خصومه، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان في حرمة عائشة رضي الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة، وهي أندر مروءة عرفت من مقاتل في وغر القتال..

وتعدّها في النبل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرّهم به وأشهرهم بالضغن عليه. فنهى أهله وصحبه أن يمثّلوا بقاتله وأن يقتلوا أحداً غيره، ورثى طلحة الذي خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاءً محزون يفيض كلامه بالألم والمودّة، وأوصى أتباعه ألا يقتلوا الخوارج الذين شقوا

صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرّاً عليه من معاوية وجنده، لأنّه رآهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرّين ..

وعن صفة الثقة والاعتزاز بالنفس في المواقف الحرجة والعلم ... يقول العقاد: فما منعت الطفولة الباكّة يوماً أن يعلم أنّه شيء في هذه الدنيا وأنّه قوّة لها جوار يركن إليه المستجير. ولقد كان في العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبيّ عليه السلام يندرونه وينكرونه وهو يقلب عينيه في وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير .. لو كان بعلي أن يرتاع في مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الحشية والخشوع. ولكنّه كان عليّاً في تلك السن الباكّة كما كان عليّاً وهو في الخمسين أو الستين .. فما تردّد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب: أنا نصيرك .. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار، وعلم القدر وحده في تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم ..

عليّ هذا هو الذي نام في فراش النبيّ ليلة الهجرة، وقد علم ما تأتمر به مكّة كلّها من قتل الراقد على ذلك الفراش.

وعليّ هذا هو الذي تصدّى لعمر بن ود مرّة بعد مرّة والنبيّ يجلسه ويحذّره العاقبة التي حذرهما فرسان العرب من غير تحذير، يقول النبيّ: اجلس. إنّ عمرو. فيقول: وإن كان عمراً .. كأنّه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف، ولا يعرف إلا الشجاعة التي هو ممتلئ بها واثق فيها في غير كلفة ولا اكتراث.

أن يعتصم المرء منه بثقة لا تنخل، وأنفة لا تلين. فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنّه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأي حين كان يقول: «اسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدى مائة وتضلّ مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها

وسائقها، ومناخ ركايبها ومحط رحالها».

ومن شواهدا أنه كان يقول والخارجون عليه يرجونه بالمروق: «ما أعرف أحداً من هذه الأمة عَبَدَ الله بعد نبيِّنا غيري، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذا الأمة تسع سنين».

وزاده اتهام من حوله معتصماً بالثقة بنفسه، فلما عتب عليه خصماه طلحة والزبير أنه ترك مشورتها قال: «نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته. وما استنَّ النبيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم فاقتديته. فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما...».

ومن أقوال العقاد الأخرى: كان مثلاً يخرج إلى مبارزیه حاسر الرأس ومبارزوه مقتنعون بالحديد. أفعجيب منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقتنعون بالحيلة والرياء؟ وكان يغفل الخضاب أحياناً ويرسل الشيب ناصعاً وهو لا يجرم خضابه في غير ذلك من الأحيان. أفعجيب منه، مع هذا، أن يقلل اكترائه لكل خضاب ساتراً ما ستر، أو كاشفاً ما كشف، من رأي وخليقة؟

وعن صدقه وزهده فيقول العقاد: ... فما استطاع أحد قط أن يحصي عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح في سلمه وحربه، وبين صحبه أو بين أعدائه، ولعله كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء، لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف. فما عدا معهم قول الصدق في شدة ولا رخاء، حتى قال فيه أقرب الناس إليه: إنه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكنّه لا يعرف خدعتها. وكان أبداً عند قوله: «علامة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون في حديثك فضل على علمك، وأن تتقي الله في حديث غيرك».

وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقالة لسانه. فلم يعرف أحد

من الخلفاء أزهده منه في لذة دنيا أو سيب دولة، وكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير فيقول: «لا أحب أن يدخل بطني ما لا أعلم».. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أمية التي تبغض علياً وتخلق له السيئات وتُخفي ما توافر له من الحسنات: «أزهده الناس في الدنيا علي بن أبي طالب». وقال سفيان: «إن علياً لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة» وقد أبي أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثاراً للخصاص التي يسكنها الفقراء. وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام. وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال: «دخلت على علي عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذنتي حموضته وكسر يابسة. فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا؟ فقال لي: يا أبا الجنوب، كان رسول الله يأكل أبيض من هذا ويلبس أخشن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به»..

... هذه صفات تنتظم في نسق موصول: رجل شجاع لأنه قوي، وصادق لأنه شجاع، وزاهد مستقيم لأنه صادق، ومثار للخلاف؛ لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أن الناس قد أثبتوا له في حياته أجمل صفاته المثلى، فلم يختلفوا على شيء منها إلا الذي اصطدم بالمطامع...

□ عبد الفتاح عبد المقصود:

أجل لقد واجه أبو طالب دنياه فقيراً، ومات عبد المطلب عنه وهو بعد في نحو من السن لم يكن كدحه قد أفاء عليه من الخير ما يشتهي. ولم يورثه أيضاً سيادة القوم لأنه أوصى لآخر من بنيهِ هو الزبير. فلئن أقبلت الدنيا على هذا الفقير فحبته بمكرمة هي آية المكرمات فقد كان هذا من القدر غاية المرتجى عند ذي رجاء...

... فإذا تمّ لأبي طالب الفقير المعسر بعض أمره في جوار كعبة الحرم، فإنّ أمره هذا لجليل في عيون القوم لأنّه اكتسب أبلغ شرف بأشرف جوار في أقدس دار، فكيف لو تمّ له أمره ذاك بغير سابق ترتيب منه، بل بصدقة هي عند أولئك الناس منّة منّ الله وحظوة أراد أن يشرف بها ابن عبد المطلب كما لم يشرف بمثلها قبله أو بعده من الرجال كثير ولا قليل؟

تلك ليلة فذة في الليالي، أضاء نجمها على الدنيا مرّه ثمّ لم يقدر بعدها لضوئه أن يبرز ثانية كمثّل بزوغه لأنّ مثيلاتها لا تعود. ولكن ضياء أشدّ لمعاناً من نور النجم توهّج، ثمّ سطع، ثمّ فاض بنوره على الآفاق سيرة كوجه الشمس رفاقة الإشراق.. سيرة إن فاتها أن تنفرد وحدها بالمبنى الساحر فقليل سواها ضمّ ما كان لها من معنى قاهر، بل أقلّ القليل، بل الأندر منه. ولو أنّك استطعت أن تتحلّل من شباك الزمن وتنفض خيوطها عنك، وسبحت عائداً إلى الماضي لرأيت ابنة أسد - فاطمة - تجول بالبيت الحرام تلتمس البركة، لأنّها سيّدة تجمّعت فيها مزايا آله الكرام وامتلاً - كمثالهم - قلبها طهراً. ثمّ لرأيتها تأتي الكعبة فتطوف بها مرّة فرّات متمسّحة بأستارها آونة مقبّلتها أخرى. ولكنك لا تلبث حتى تشهدها وقد أوشك أن يصيبها أعياء تكاد أن تنوء به، وتنكر هي - بادي الأمر - ما تحسّسه، ثمّ تمضي متجلّدة تستحثّ نفسها وتستنهضها. ولكنّها رغم هذا لا تقوى، ولا تستطيع أن تقوم عودها. وإذا هي تشبّث أصابعها بأستار الكعبة تستعين بها وقد أخذت تحسّ شيئاً غاب عن ذهنها، وتقف مجهودة لا يستقرّ بها موطئ القدمين، كمن على طرف كثيب رخو من الرمال. وتجيل فيما حولها عيناً حائرة لعلّها تبصر زوجها أبا طالب يسعى هنا أو هناك فتجد لديه عوناً على ما تلقى، ولكنّها لا تراه لأنّ ما حضرها في هذه اللحظة غاب عن حسابه..

ثمّ لعلّك تتبعها وقد خشيت هي أن تلقفها الأبصار المتطلّعة ممّن حضر من

أناس كان دأبهم الاجتماع في أروقة البيت وفي أفنائه فإذا رأيتها قد انحازت ناحية، ودلفت إلى أستار الكعبة فتوارت خلفها عن عيون القوم فكفاك ما شهدت. وقف منها على ملقط السمع دون مرمى العين لأنها شاءت أن تتخذ من الستر المقدس رداءً. واسمع بعد هذا حسيماً خافتاً يأتبك من لديها. وأنيناً يحكمه الجلد واصطناع الاحتمال، وصرخات مكتومة تكاد أن تضللها الأذن كأنها تأتي من مهوى سحيق بعيد القرار. ثم اسمع نبرة بكاء تخالط هذه الصرخات، لها غير جرسها وغير رنتها، رقيقة، رنانة في غير حدة، كأنها شذو طائر تفتحت عيناه على شعاع فجر أسفر أو أوشك على أسفار. وقد يأخذك العجب، وتملكك الدهشة، ولكنه عجب قصير أجله، ودهشة لن يطول بك مداها ما دامت فاطمة قد بدت ثانية لناظريك، واهنة، وأشدّ ضعفاً مما رأيتها من قبل، كسا وجهها الشحوب ومشت في أوصالها رجفة الاعياء، وقد احتملت - مدثراً بستر الكعبة الشريف - وليدها بين صدرها وكفّيتها.

تلك ولادة لم تكن قبل طفلها هذا الوليد ولم يحز فخرها بعده وليد أكرمها بها الله وأكرم أمه وأباه، فكان تكريماً لفرعي هاشم الذي انحدر منه الطفل عن فاطمة وعن أبي طالب حفيدي الأصل الثابت الكريم.

وأقبل القوم - حين انتبهوا - يستبقون إلى السيّدة، يعاونونها: ويأخذون بيدها، ويملاؤن الأبصار بطلعة ذلك الذي كان بيت الله مولده، وستر الكعبة ثوبه، كأنما أوسع له في الشرف باجتماعه في كلا المولد والمحتد وهم لو استطاعوا أن يسبقوا زمانهم كما تأخرت أنت لرأوه أيضاً يجتمع له نفس هذا الشرف حين يقبل عليه الموت فيلقاه في بيت الله بهم أن يقوم بالصلاة...

أمّا فاطمة فقد أحبّت أن تحي في وليدها اسم أبيها فدعته بمعناه وان لم تدعه بلفظه، وقالت لزوجها وهي تحاوره:

«هو حيدرة».

وأما أبو طالب فقد كان أكثر توفيقاً حين اختار . رأى وليده قد علا شرفاً
بكان مولده كما علا من قبل بأصله الرفيع فقال :
«بل علي» .

وبدأت عند هذا حياة الرجل الذي سائر أخطر الأحداث في هذه الدنيا ،
وعاشر أظهر الخلق وسيد النبيين ، واحتمل نصيبه من عبء كبير ألقاه الله على
مختاره الأمين ، الذي خصّه بوحيه ورسالته الإلهية لهداية العالم .
وعاش عليّ عمره لغيره من المثل ومن الرجال ، فكان في صباه القريب
المقتدي ، وفي شبابه الصديق المقتدي بالنبي الكريم ، وبين هذا وذاك من أطوار
العمر وما جاء في أعقابها من فترات ، التزم غايات الكمال في الفعل والحلال ، فلمّا
انطوى بعض أجله ، ومضى من الدنيا وعن هاديه ، كان المعقب له وقد ذهب
العقب . وأجل من أخذ عنه فأجاد ، وركب جادته فما حاد .

□ محمود أبو ريّه

عليّ أوّل من أسلم وتربّى في حجر النبي وعاش تحت كنفه من قبل البعثة
وظلّ معه إلى أن انتقل النبيّ إلى الرفيق الأعلى ، لم يفارقه لا في سفر ولا في حضر ،
وهو ابن عمّه وزوج ابنته فاطمة الزهراء ، شهد المشاهد كلّها سوى تبوك ، فقد
استخلفه النبيّ ﷺ فيها على المدينة فقال : يا رسول الله ، أتخلفني في النساء
والصبيان ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من
موسى إلا أنّه لا نبيّ بعدي؟» .

هذا الإمام الذي لا يكاد يضارعه أحد من الصحابة جميعاً في العلم ...
ثمّ واصل أبورية حديثه تحت عنوان : غريبة توجب الحيرة :
من أغرب الأمور ، ومما يدعو إلى الحيرة أنّهم لم يذكروا اسم عليّ ﷺ فيمن
عهد إليهم بجمع القرآن وكتابته ، لا في عهد أبي بكر ولا في عهد عثمان ! ويذكرون
غيره ممّن هم أقلّ منه درجة في العلم والفقّه !

فهل كان علي لا يُحسن شيئاً من هذا الأمر، أو كان من غير الموثوق بهم، أو ممن لا يصحّ استشارتهم أو إشراكهم في هذا الأمر؟! اللهم إنَّ العقل والمنطق ليقضيان بأن يكون عليّ أوّل من يعهد إليه بهذا الأمر، وأعظم من يشارك فيه، وذلك بما أُتيح له من صفات ومزايا لم تنهياً لغيره من بين الصحابة جميعاً، فقد ربّاه النبي ﷺ على عينه، وعاش زمناً طويلاً تحت كنفه، وشهد الوحي من أوّل نزوله إلى يوم انقطاعه، بحيث لم يند عنه آية من آياته!! فإذا لم يدع إلى هذا الأمر الخطير فإلى أيّ شيء يدعى؟! وإذا كانوا قد انتحلوا معاذير ليسوغوا بها تخطيطهم إياه في أمر خلافة أبي بكر، فلم يسألوه عنها ولم يستشيروه فيها؛ فبأيّ شيء يعتذرون من عدم دعوته لأمر كتابة القرآن؟

فماذا نعلل ذلك؟ وبماذا يحكم القاضي العادل فيه؟
حقاً إنّ الأمر لعجيب، وما علينا إلّا أن نقول كلمة لا نملك غيرها وهي:
لك الله يا عليّ! ما أنصفوك في شيء! (٣٦)

□ فتحي يكن في رحاب نهج البلاغة:

يصعب جداً الإحاطة بما تضمّنه كتاب نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه وأرضاه، من موضوعات تتعلّق بمختلف شؤون الحياة، سائرة أغوارها، مستكشفة أبعادها، مقدمة المواعظ والعبر والدروس والحكم النافعة الجليلة من خلالها.

سأتناول من (نهج البلاغة) سفرّاً من أسفاره، وقبساً من قبساته، والذي يلفت فيه ببلاغة العالم، وعلم الرسالي، وإحاطة الداعية، وسرّ نجاح وفلاح الإمام حيث يقول: «من نصب نفسه للناس إماماً، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تهذيبه بسيرته قبل تهذيبه بلسانه، ومعلم نفسه ومهذبها أحقّ بالاجلال من معلم الناس ومهذبهم».

إنَّه سرّ نجاح الإمامة، وخلفية تألق الإمام... سواء كانت إمامة دعوة، أو إمامة ولاية، وسواء كانت إمامة صغرى أو كبرى..

فسبب النجاح يبقى هو هو، وسرّ الأثر لا يتبدّل ولا يتغيّر... إنَّه تأكيد للسنة الإلهية الثابتة الماضية: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تلکم هي (سنة التغير) التي تتجلّى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

فمن يتصدّى للإمامة.. للقيادة.. للدعوة.. للرسالة.. للإمامة... لا بدّ وأن يكون تمكّن من إمامة نفسه، وقيادة ذاته برسالة الإسلام، كما لا بدّ وأن يكون قد أحكم قياد حياته وفق أمر الله وأمر رسوله ﷺ. وهذا مناط قوله ﷺ: «فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره».

ومن يفعل ذلك يكن ماضياً وفق السنة الإلهية.. ومن التزم السنن الإلهية لا يضلّ ولا يشقى، وإنّما يبقى مسدّداً مهتدياً راشداً مسترشداً.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

فالذي يُطلّ على الناس بحال الإسلام غير الذي يطلّ عليهم بمقال الإسلام.. والذي يترجم الإسلام بأعماله غير الذي يترجمه بلسانه.. وهذا مناط قوله ﷺ: «وليكن تهذيبه بسيرته قبل تهذيبه بلسانه».

إنّ حالة الانفصام بين الادّعاء والواقع، وبين القول والعمل، وبين الشعار والمضمون حالة مرضية ومذمومة، وقبيحة ومقبوحة، ورذيلة ومردولة، ويجب أن لا ترى النور ضمن الدائرة الإسلامية التي تفرض التجانس والوئام بين النظرية والتطبيق؛ ليتحقّق الفوز والفلاح في الحياة الدنيا «ومعلّم نفسه ومهذبها أحقّ بالإجلال من معلّم الناس ومهذبهم». فضلاً عن الفوز برضا الله تعالى، وذلك هو الفوز العظيم.

من هنا كان الخطاب القرآني يتهدّد ويتوعّد أولئك المصابين بداء انفصام

الشخصية فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

□ سليمان كتاني

... آتياً إلينا من فضاء لا ينتهي أفقه، ولا ينتهي لألاؤه، إنه الإمام عليّ: أنسوجة بكر - كأنها أبداً - بكر.. سبحان الله، وقد نسله من فسحات المعاني، كأن الفضائل كلها فيه، إنما هي من أجل صفوات المباني، شدت إليه ليكون بها المثال، في بنية الإنسان، وكل مجتمعات الإنسان. ولست أظن فضائله تُحصى برقم، فهي الوسيعة، والرفيعة، والمديدة... يوسعها الحجى، ويرفعها الصدق، ويمددها الجمال... أما آفاقها - في نعيم انصباباتها - فهي الله - جل شأنه - في اتصافه الوجودي المطلق، تمنطق بها الإمام عليّ، من أجل أن يفسر جلالات الرسالة النازلة سوراً في قرآن نبي الإسلام ﷺ... وكلها لبناء مجتمعات الإنسان أكان هناك في الغرب أم هنا في الشرق..

يا للإمام عليّ! كيف له أن يدرك في معانيه الأنيقة وفي مبانيه الوثيقة... إن المعاني كلها عند الإمام، لا تزل تثير فينا المحجات، وتوسع لنا المسافات، وتشدد بنا الخطوات...

الهوامش :

(١) الجاحظ، زهرة الآداب: ٥٩.

(٢) كنز العمال ١٣: ٦٣٦، ٣٧٦٠٧.

(٣) الاستيعاب ٤: ٤٤٦، ٣٤٨٦، سير أعلام النبلاء ٢: ١١٨.

- (٤) انظر مقالتنا (جعفر الطيّار) في العدد ٨ مجلّة مِيقَاتُ الْحَجَّ مع بعض التغيير.
- (٥) انظر شرح نهج البلاغة ١: ١٥، وانظر المستدرك على الصحيحين ٣: ٦٦٦، ٦٤٦٣، وسيرة ابن هشام ١: ٢٦٢، والطبري ٢: ٣١٣.
- (٦) انظر: ارشاد القلوب: ٢١١، كشف اليقين: ٣٢.
- (٧) شرح نهج البلاغة ٤: ١١٤-١١٥.
- (٨) المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٦١.
- (٩) تاريخ دمشق ٤٢: ٣١٣، ٨٨٦٤.
- (١٠) مضامين لأحاديث رسول الله ﷺ وأقواله في عليّ عليه السلام. انظر الخصال ٣: ١٠٨ وآمال الصدوق: ٣٠٧، ٣٥١، وشرح الأخبار ١: ٢٢٠، ٢٠٠، والفضائل: ٨٢ و١٠٨.
- (١١) الكافي ٨.
- (١٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١: ١٤.
- (١٣) تاريخ دمشق ٤٢: ١٦٧، ٨٥٨١.
- (١٤) الإمام علي، صوت العدالة الإنسانية: ٣٨.
- (١٥) المجموعة الكاملة ٢: ٣٥.
- (١٦) الأنفال: ٣٠.
- (١٧) انظر ذخائر العقبى: ٧٠، تاريخ يعقوبي ٢: ٤١، المعجم الكبير ١٠: ١٥٦، ١٠٣٥٠، تاريخ دمشق ٤٢: ١٢٥، ٨٤٩٤.
- (١٨) السنن الكبرى ٧: ٣٨٣، ١٤٣٥١، البداية والنهاية ٣: ٣٤٦، الطبقات الكبرى ٨: ٢٠...
- (١٩) المعجم الكبير ١٠: ١٥٦، ١٠٣٠٥.
- (٢٠) الطبقات الكبرى ٨: ٢٤، كنز العمال ١١: ٦٠٥، ٣٢٩٢٦.
- (٢١) انظر سنن ابن ماجه ١: ٦١٦، ١٩١١.
- (٢٢) البيهقي: ٥.
- (٢٣) الأموال للصدوق: ١٣٦-١٣٧ وغيره.
- (٢٤) نور الأبصار للشبلنجي: ١١٠.
- (٢٥) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١١: ٤٤-٤٦.
- (٢٦) تاريخ دمشق ٤٢: ٤١٤.
- (٢٧) الإمامة والسياسة ١: ١٣٤.
- (٢٨) شرح الأخبار ٢: ٩٩.
- (٢٩) شرح نهج البلاغة ١: ٢٤.
- (٣٠) انظر «علي إمام المتقين» لعبد الرحمن الشرقاوي: ٢٠.

- (٣١) فضائل الصحابة لابن حنبل ٢: ٦٧٥.
- (٣٢) شرح نهج البلاغة ١١: ٢٥٣.
- (٣٣) شرح نهج البلاغة ١١: ٢٥٣.
- (٣٤) المناقب للخوارزمي: ١٩٩.
- (٣٥) أنظر إمام المتقين، لعبد الرحمن الشرقاوي: ٧٦-٧٧.
- (٣٦) أضواء على السنة المحمدية أو دفاع عن الحديث: ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٤٩.

القرآن مع عليّ عليه السلام

حسن الحاج

ماذا ينقمون منك؟ وهل ينقمون إلا صدق إيمانك وسابقة ولائك وعظيم منزلتك وجهادك وخصالك ومناقبك الكثيرة؟! إضافة إلى أحاديث رسول الله التي وردت فيك وأقوال عظيمة تشيد بمكانتك وعلو قدرك... هناك آيات نزلت بحقك وتفردت بها وأخرى وقد انضمت إليك فيها نفوس طاهرة: سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء وولداك سيّدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين عليهما السلام، نأتي على ذكر بعض هذه الآيات بما يتناسب وهذه المقالة المختصرة جداً البعيدة عن الإطالة والتفصيل الذي يتطلبه الخوض في هذه الآيات وفي موردها وما أثير حولها من إيرادات وإشكالات والإجابة عنها، التي تكفلت بها كتب ومصادر مطولة. ومن شبهات، غرضها إبعاد أي فضيلة للإمام عليه السلام تحملها آيات كريمة أو روايات شريفة أو مواقف جريئة أو أقوال صادقة، فراحت أقلامهم وأفكارهم تختلق منهجاً آخر في محاربتك فغدوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه ويبدلون قولاً غير الذي سمعوه وعقلوه... وهو أمر ورثوه من آبائهم وتعبدوا به.. وراحوا يلتزمون روايات مختلقة أو ضعيفة للوصول إلى

أهدافهم في تقويض فضائلك وإلغاء أو تهيمش دورك ومواقفك الرسالية...
فبعيداً عن كل هذا، نشير إلى بعض تلك الآيات:

● ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(١)

هناك حيث راح علي عليه السلام يؤدي صلاته، إذ جاءه سائل يطلب شيئاً، فما كان من الإمام عليه السلام وهو في ركوعه وقد أوجع السائل قلبه، إلا أن مد إليه يده متصدقاً بخاتم كان في إصبعه.

«وقد ذكرت روايات يقوي بعضها بعضاً - وهذا القول للدكتور وهبة الزحيلي - أنها نزلت في علي بن أبي طالب، الذي سأله السائل وهو راكع في تطوع، فتصدق عليه بخاتمه...»^(٢)

الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس أنه قال:

أقبل عبدالله بن سلام ومعه نفر من قومه قد آمنوا، فقالوا: يا رسول الله، إن منازلنا بعيدة، وليس لنا مجلس ولا متحدّث، وإن قومنا لما رأونا آمنّا بالله ورسوله وصدقناه، رفضونا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا، ولا يناكحونا ولا يكلمونا، فشق ذلك علينا. فقال لهم النبي: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآية.

ثم إن النبي صلى الله عليه وآله خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع، فنظر سائلاً، فقال: هل أعطاك أحد شيئاً؟

قال: نعم خاتم من ذهب [فضّة].

قال: من أعطاكه؟

قال: ذلك القائم، وأوماً بيده إلى علي بن أبي طالب.

فقال: علي أي حال أعطاك؟

قال : أعطاني وهو راع .
فكبر النبي ﷺ ثم قرأ : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٣) .

وفي هذا يقول حسان بن ثابت :

أبا حَسَنٍ تفديك نفسي ومهجتي وكلّ بطيءٍ في الهدى ومُسارعٍ
فأنت الذي أعطيت إذ كنتَ راعاً فدتك نفوس الخلق يا خير راعٍ
بخاتمك الميمون يا خير سيد ويا خير شارٍ ثمَّ يا خير بايعٍ
فأنزل فيك الله خير ولاية وبَيَّنَّها في محكمات الشرايع
وهناك مصادر كثيرة من الفريقين أكدت هذا المورد لهذه الآية المباركة (٤) .

● ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ
وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى
الْكَاذِبِينَ ﴾ (٥) .

قد ينتهي الجدال إلى باب أو طريق مسدود ، فيقف كلا الطرفين متمسكاً بما عنده ، وهنا قد يبادر أحدهما حرصاً منه على الثمرة ، فيعلن شيئاً - بعيداً عن أدلة كل منهما ؛ لأنّ الحجج والأدلة لم تؤدِّ إلى نتيجة - يحسم ذلك النزاع ، وهو ما فعله رسول الله ﷺ - المتيقن للحق الذي بين يديه - في نقاشه الحاد مع نصارى نجران ، الذين راحوا يتمسكون بباطلهم ، وحتى يكشف القناع عن وجوههم وعنادهم ، فدعاهم إلى المباهلة بأن يدعو كل فريق أحباءه الخُلص ، ثم يدعو الله تعالى أن يصبّ لعنته وغضبه على الكاذب منها وأن يطرده من رحمته .

الواحد في أسباب النزول عن جابر بن عبد الله أنّه قال : قدم وفد أهل نجران على النبي ﷺ : العاقب والسيد ، فدعاهما إلى الإسلام ، فقالا : أسلمنا قبلك ،

قال : كذبتما ، إن شئتما أخبرتكما بما يمنعكما من الإسلام ، فقالا : هات أنبئنا ، قال : حبّ الصليب ، وشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير [وفي رواية أخرى عن الحسن أنه عليه السلام قال لهما : كذبتما يمنعكما من الإسلام [ثلاث] : سجودكما للصليب ، وقولكما : اتخذ الله ولداً ، وشربكما الخمر ، فقالا : ما تقول في عيسى ؟

قال : فسكت النبي ﷺ ونزل القرآن : ﴿ ذَلِكْ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ - إلى قوله - فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ... ﴿١﴾ فدعاهما رسول الله ﷺ إلى الملاعنة ، فوعدها إلى الملاعنة على أن يغادياه بالغداة ، فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي وفاطمة ، وبيد الحسن والحسين ، ثم أرسل إليهما ، فأبيا أن يجيبا ، فأقرأ له بالخراج ، فقال النبي ﷺ : «والذي بعثني بالحق لو فعلا لمطر الوادي ناراً» .

قال جابر : فنزلت فيهم هذه الآية : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ .

قال الشعبي : أبناءنا : الحسن والحسين ، ونساءنا : فاطمة ، وأنفسنا : علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٦) .

وفي الكشف ... فقال أسقف نجران : يا معشر النصارى ! إني لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ، ولا يبق على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة (٧) .

ولما سئل أبو عبد الرحمن محمد بن عائشة عن أفضل أصحاب رسول الله ﷺ ، راح يعدد أصحاب رسول الله ﷺ فقال : أبوبكر ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسعيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح .

فقال له السائل : فأين علي بن أبي طالب عليه السلام ؟

قال : يا هذا ! تستفتي عن أصحابه أم عن نفسه ؟

قال : بل عن أصحابه .

قال: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ فكيف يكون أصحابه مثل نفسه؟! (٨) وهناك مصادر أخرى (٩).

● ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (١٠).
إنَّ مسألة طهارة (الإمام علي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين عليهم السلام) أمر متفق عليه عند جميع المسلمين، بل حتَّى عند أعدائهم يعدُّ أمراً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض، ولا شكَّ يعتريه، وأمامك التاريخ والتراجم، فلا تجد شخصاً إلا ويقول بتزكيتهم وطهارتهم بل لم يذكر لنا التاريخ عيباً فيهم أو خطأ ارتكبه أو شططاً وقعوا فيه فيما كثرت زلات غيرهم وعظمت أخطاؤهم ومعاصيهم سواء أكانوا رجالاً أو نساء... فسيرتهم عليهم السلام صالحة، ونفوسهم طاهرة، وحياتهم مباركة... نعم اختلفوا معهم، ناصبوهم العدا، ثاروا عليهم، تمردوا عليهم، افتروا عليهم... ولكن لا شك في طهارتهم وإِنَّمَا هي الدنيا ومطامعها و«إِنَّهُ الْمَلِكُ لَوْ نَازَعْتَنِي عَلَيْهِ لَأَخَذْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاكَ» (١١).
ثمَّ إِنَّ عدل القرآن كالقرآن في طهارته وصفائه: «... إِنِّي تَارِكُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ: كتاب الله وعترتي أهل بيتي...».

فقد راح رسول الله صلى الله عليه وآله يعدِّهم ليكونوا منهاً عذباً تنتهل منه الأُمَّة، ومصدر خير وعطاء للناس ومنبع تبليغ لدين الله وأحكامه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، ومرجعاً للأُمَّة تعود إليهم دائماً في تلقي الأحكام وفي اتِّخاذ المواقف... فلا بدَّ من أن يكونوا عليهم السلام على درجة عالية من تزكية النفوس وطهارتها وعلى يقين وبصيرة بدين الله وسنة نبيه الأكرم، فطهارتهم وبالتالي عصمتهم هبة إلهية اختصَّهم بها الله تعالى دون الآخرين. وكانت أم المؤمنين أم سلمة تتمنى أن تكون من أهل البيت عليهم السلام الذين كانوا في بيتها مجتمعين تحت كساء واحد.

فقد جمع رسول الله ﷺ علياً وفاطمة والحسن والحسين تحت كساء واحد وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». فتقول أم سلمة لرسول الله ﷺ: فأنا معهم يا نبي الله؟! فيقول لها: «أنتِ علي مكانك، وأنتِ علي خير».

انظر الواحد في أسباب النزول: بسنده عن أم سلمة: أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأنته فاطمة رضي الله عنها بمرمة فيها خزيرة، فدخلت بها عليه، فقال لها: ادعي لي زوجك وابنك، قالت: فجاء علي والحسن والحسين، فدخلوا فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو علي منامة له، وكان تحت كساء خيري، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فأنزل الله تعالى هذه الآية: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

قالت: فأخذ فضل الكساء فغشاهم به، ثم أخرج يديه فألوى بهما إلى السماء ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي [وحاميتي] فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

قالت: فأدخلت رأسي البيت فقلت: وأنا معكم يا رسول الله، قال: إنك إلى خير إنك إلى خير، ونقل أيضاً عن أبي سعيد أن هذه الآية «نزلت في خمسة: في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم أجمعين» (١٢). وأنظر غيره من المصادر (١٣).

● «أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ» (١٤).

الطبري في تفسيره عن عطاء بن يسار؛ نزلت بالمدينة في علي بن أبي طالب عليه السلام والوليد بن عقبة بن أبي معيط، كان بين الوليد وبين علي عليه السلام كلام، فقال الوليد بن عقبة: أنا أبسط منك لساناً، وأحد منك سناناً، وأرد منك للكتيبة. فقال علي عليه السلام: اسكت، فإنك فاسق.

فأنزل الله فيها: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ - إِلَى قَوْلِهِ - بِهِ تُكْذِبُونَ﴾.

وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: يعني بالمؤمن علياً وبالفاسق الوليد بن عقبة^(١٥).

وختاماً لهذا الإيجاز نقول: إن هذه بعض الآيات التي حظي علياً بها كاملة وإمّا بنصيب وافر منها فعن حلية الأولياء أن رسول الله ﷺ قال: «ما أنزل الله آية فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا وعلياً رأسها وأميرها»^(١٦).

وعن عبدالله بن عباس أنه قال: «ليس من آية في القرآن فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا وعلياً رأسها وأميرها وشريفها، [وعن حذيفة بن اليمان... إلا وكان علياً لبها ولبابها. كما في شواهد التنزيل ١: ٦٣، ٦٧] وقد عاتب الله أصحاب محمد في القرآن، وما ذكر علياً إلا بخير»^(١٧).
وعنه أيضاً: «ما نزل في أحد من كتاب الله تعالى ما نزل في علي»^(١٨).

الهوامش :

- (١) المائة: ٥٥.
- (٢) التفسير المنير ٦: ٢٣٢.
- (٣) المائة: ٥٦؛ أسباب نزول القرآن: ٢٠٢.
- (٤) شواهد التنزيل ١: ٢٢٣، ٢٣١، الدر المنثور ٣: ١٠٥، تفسير الطبري ٤: الجزء السادس، ٢٨٩، سبط بن الجوزي في تذكروته وتفسير بن كثير ٣: ١٣٠ وتفسير الفخر الرازي ١٢: ٢٨، تذكرة الخواص ١٥، تاريخ دمشق ٤٢: ٣٥٧، المعجم الوسيط ٦: ٢١٨، ٦٢٣٢ والخوارزمي في مناقبه: ١٨٦ ونص عليه الحافظ البلخي الحنفي في ينابيعه... إضافة إلى مصادر الإمامية.
- (٥) آل عمران: ٦١.
- (٦) أسباب النزول: ١٠٨.
- (٧) الكشف: ١: ١٩٣.
- (٨) أنظر المحاسن والمساوي: ٤٢.

- (٩) الفخر الرازي ٨: ٨٨، تفسير الطبري ٣: ٣٠٠، تذكرة الخواص: ١٤، الصواعق المحرقة: ١٤٥، ١٥٥، التفسير المنير ٣: ٢٤٨، دلائل النبوة لابن نعيم: ٣٥٤، ٣٤٤، تفسير ابن كثير ٢: ٤٥، شواهد التنزيل ١: ١٦٣، ١٧٣. الدر المنثور ٢: ٢٣١... ومصادر الإمامية.
- (١٠) الأحزاب: ٣٣.
- (١١) من كلام هارون الرشيد لابنه المأمون.
- (١٢) أسباب نزول القرآن: ٣٦٨ - ٣٦٩.
- (١٣) ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان، والسيوطي في تفسيره الدر المنثور، والترمذي في تفسيره والحاكم عن عطاء بن يسار عن أم سلمة.. وقد صححه ووافقه الذهبي، وغيرها من كتب التفسير والحديث والتاريخ كالاستيعاب وأسد الغابة... إضافة إلى روايات الإمامية.
- (١٤) السجدة: ١٨.
- (١٥) تفسير الطبري ١١، الجزء ٢١: ١٠٧، وأنساب الأشراف ٢: ٣٨٠ وتاريخ بغداد ١٣، ٣٢١، ٧١٩١، الأغاني ٥: ١٥٣، فضائل الصحابة لابن حنبل ٢: ٦١١، ١٠٤٣ تاريخ دمشق ٦٣: ٢٣٥...
- (١٦) حلية الأولياء: ١: ٦٤.
- (١٧) فضائل الصحابة لابن حنبل ٢: ٦٥٤، ١١١٤، المعجم الكبير ١١: ٢١١، ١١٦٨٧ تاريخ دمشق، ترجمة علي عليه السلام. تاريخ الخلفاء: ٢٠٣ شواهد التنزيل ١: ٦٤، ٧٠... ومصادر الإمامية.
- (١٨) شواهد التنزيل ١: ٥٢، ٤٩ وتاريخ الخلفاء: ٢٠٣.

نظرة موجزة حول كتاب «الولاية» لمحمد بن جرير الطبري رسول جعفریان

تمهید:

قُلْ مَنْ لَا يَعْرِفُ مُحَمَّدَ بْنَ جَرِيرِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ كَثِيرٍ بْنِ غَالِبِ الطَّبْرِيِّ الْأَمَلِيِّ (٢٢٤ - ٢٨ شوال ٣١٠هـ) المحدث والمفسر والفقيه والمؤرخ المشهور، من أهل السنة الذي وُلِدَ في القرن الثالث وتوفي في أوائل القرن الرابع الهجري. وقد تمّ تأليف الكثير من كتب التحقيق والدراسات حول هذه الشخصية العلمية البارزة، وعلى هذا فلا حاجة بنا هنا إلى تكرار ذلك أو التذكير به^(١). وعند مقارنتنا بين مؤلفات الطبري وبين ما أفرزته قريحة علماء آخرين من بغداد في القرن نفسه لا نشك بتقدّم منزلته عليهم في كثير من العلوم كاللغة^(٢) والحديث والتفسير، وخصوصاً في مجال التاريخ الذي تناول فيه معظم معاصريه في تلك الفترة. ويمكن اعتبار الطبري في عداد كبار المؤرخين من أهل السنة من أمثال الخطيب البغدادي وابن الجوزي وشمس الدين الذهبي وابن حجر، وذلك لما خلفه من آثار قيّمة في تاريخ الفكر السنيّ ومن تأليف جيّدة وخالدة - خصوصاً كتابيه المشهورين في التاريخ والتفسير - ويعرّف شخصيته الفريدة، ما ولّده تلك الكتب من تأثير كبير على

التأليفات التي كتبها كلٌّ من جاء بعده.

وقد تطرّقنا إلى معتقدات الطبري الدينية في مكان آخر وذكرنا الظروف العقائدية الغريبة التي كانت سائدة في بغداد في تلك الحقبة من التاريخ والتي قادت الطبري يومئذٍ إلى مواجهة مباشرة مع الحنابلة والمتطرفين^(٣). ويمكننا القول: إنّه ليس بمقدورنا الوقوف على الحافز الرئيس الذي دفع الطبري إلى تأليف كتاب (الولاية) والذي جمع فيه كلّ طرق الحديث الخاصة بحادثة الغدير، دون مطالعة تلك الكتابات ودراسة أبعادها. فقد كان حنابلة بغداد الذين ورثوا العداوة للإمام علي عليه السلام عن الأمويين ينكرون فضائله عليه السلام جهراً وعلانية، حتى بلغت تلك العداوة مبلغاً أثارت معها حفيظة ابن قتيبة (العالم والمحدث وهو من أهل السنة) وأشعلت نار الغضب والسخط في أعماقه^(٤). أضف إلى ذلك نظرة العثمانيين إلى الحديث والأخبار وانقيادهم الأعمى وراء بعض الأحاديث المختلقة والمنسوبة إلى الرسول الأعظم ﷺ ممّا تسببت في عدم إجازتهم علماء الإسلام، ولو للحظة واحدة، التخطّي عن ظهور تلك الأحاديث. وفي خضم تلك الأحداث انبرى الطبري الذي كان يرى في نفسه أنّه أعلى مرتبة من الجميع بما فيهم أحمد بن حنبل، انبرى للتصدي لتلك المجموعة وفي مختلف الصّعد كاسراً بذلك طوق الحصار الذي فرضته تلك العناصر.

وسنعالج لاحقاً السبب وراء تأليف الطبري كتاب (الولاية). وأمّا ما نودّ التنويه إليه هنا هو أنّ مؤلف الكتاب المذكور - والذي فُقدت نُسخته الأصلية حسب ما لدينا من المعلومات - لا محالة هو محمد بن جرير الطبري المؤرّخ المشهور الذي ذاع صيته في بغداد. ولحسن الحظّ توجد لدينا في هذا المجال مصادر قديمة يبدو أنّها دوّنت في الجيل الذي تلا الطبري وحتى القرن العاشر الهجري، وهي عبارة عن نصوص قيّمة تشير إلى ما نحن بصده، وسنحاول التعريف بها بعد حين.

صحيح أن هناك واحداً أو اثنين من الشخصيات سميت كذلك باسم (الطبري) وأن أحدهم هو الطبري الشيعي صاحب كتاب (المسترشد)^(٥) والآخر هو الطبري مؤلف كتاب (دلائل الإمامة)^(٦)، إلا أن نسبة ذلك الكتاب (وأعني كتاب الولاية) وهو كتاب يُبَيِّن فيه طُرُق حديث (الغدير) إلى ذلك العالم الشيعي لا يمكن أن يدل إلا على جهل تام بالمعلومات الواردة في النصوص التاريخية المتقنة؛ وباختصار ليس ذلك إلا رَجْماً بالغيب والظنون التي لا تستند إلى أي أساس تاريخي على الإطلاق^(٧).

عنوان الكتاب:

لقد أُطْلِقَتْ أسماء مختلفة على كتاب الطبري، كما جرت العادة على ذلك وكما هو الحال مع الكثير من الرسائل والكتب القديمة، ويمكننا تعليل ذلك في كون أن الأوائِل كانوا يطلقون على بعض الكتب تسميات متعددة وذلك حسب ميولهم وحسب ما يقتضيه الموضوع العام للكتاب نفسه معتقدين بتناسب تلك التسميات مع ما تتضمنه تلك الكتب من محتويات. إضافة إلى ذلك يبدو أن بعضاً من تلك التسميات يشير إلى مجموعة من الموضوعات المتنوعة والمكتوبة جنباً إلى جنب، وقد تشير تسميات أخرى إلى بعض أقسام أو فصول الكتاب نفسه والتي قد تُكْتَب أحياناً بصورة مستقلة. فعلى سبيل المثال العنوان الذي ذكره ابن طاووس على أنه عنوان الكتاب الذي ألفه الطبري هو عنوان يمكن أن يشمل كذلك موضوع حديث الولاية وهو الموضوع الذي غدا بعد ذلك كتاباً مستقلاً بحد ذاته، إضافة إلى استخدام عنوان كتاب (الولاية) وتكرار ذكره من قِبَل الدارسين والمطالعين لهذا الكتاب، فقد ذكره كذلك ابن شهر آشوب في كتاب ببلوغرافيّ معروف وأشار إليه بالحرف الواحد^(٨).

وورد عنوان آخر للكتاب نفسه في الرجال للنجاشي، وهو: (الرد على الحر قوصية) مؤكداً على أنه كتاب للطبري (المؤرخ السني المعروف) مشيراً إلى أنه

قد تناول في الكتاب المذكور مسألة (حديث الغدير) حيث قال: «له كتاب الردّ على الحرقوصية، ذكر (فيه) طرق خبر يوم الغدير»^(٩).

وصرح ابن طاووس كذلك أنّ الطبري سمّى كتابه (الردّ على الحرقوصية)^(١٠)، ويعتقد ابن طاووس أنّ السبب الذي دعا الطبري إلى تسمية كتابه بهذا الاسم هو كون أحمد بن حنبل ينحدر نسبه من حرقوص بن زهير زعيم الخوارج^(١١). وأما (روزنثال) فقد احتمل أن تكون تسمية الكتاب قد جاءت بسبب احتقار الطبري أبا بكر بن أبي داود السجستانيّ وازدراءه وهو الأمر الذي دعاه إلى تأليف كتاب (الولاية) كردّ على السجستانيّ هذا، مشيراً إلى أنّ كلمة (حرقوص) في اللغة تعني (ذبابة) أو (دويبة نحو البرغوث)^(١٢). وربما أمكننا إضافة الاحتمال التالي إلى ما سبق وهو أنّ الطبري في استخدامه لهذا الاسم أراد الإشارة إلى فلسفته في تصنيف هذا الكتاب للردّ على شخص ناصبيّ إذا ما علمنا أنّ الخوارج كانوا أعداء لعليّ عليه السلام وأنّ زعيمهم كان حرقوص بن زهير، ومن هنا استلهم الطبري اسم كتابه يريد بذلك إظهار الحنابلة المتطرفين بمظهر الخوارج والناصبين، وبذلك ينتفي الزعم القائل بكون الاسم مستوحى من نسب أحمد بن حنبل.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ العنوان (رسالة في طرق حديث الغدير) يتلاءم تماماً مع مضمون الكتاب الذي أطلقت عليه هذه التسمية ودون أيّ التباس أو إبهام^(١٣). وموازاة مع ما ذكر، فقد أورد (كالبرگ) عنوان كتاب (الولاية) وكتاب (المناقب) في موضعين، في حين يشير هو شخصياً إلى إمكانية كون كتاب (الولاية) جزءاً من كتاب أشمل يدعى كتاب (الفضائل) أو كتاباً آخر بعنوان (المناقب)^(١٤). وأما كلّ من استند إلى هذا الكتاب أو تدارسه أو اقتبس منه فقد أشار إليه تارةً على أنّه كتاب (فضائل عليّ عليه السلام) أو (المناقب) تارةً أخرى، لكنهم جميعاً قاموا بنقل حديث الغدير من هذا الكتاب تماماً، كما فعل البعض من أمثال ابن

شهر اشوب حين أورد اسم كتاب (الولاية) في مُصنّفه الموسوم بـ(المناقب) وقاموا بنقل الفضائل عنه. ومن هنا يتّضح لنا عدم مراعاة الدقة في هذه المسألة بالشكل الكافي.

من الذي كان يملك كتاب (الغدير) أو (المناقب)؟:

كلّ ما نعلمه هو أنّ كتاب (الغدير) أو (المناقب) كان بحيازة عدد قليل من المؤلفين والمؤرخين والمحدثين المسلمين والكبار منهم على الأخصّ وذلك حتى القرن التاسع^(١٥). وإليك أسماء بعض ممّن تداولوا الكتاب المذكور:

١- القاضي نعمان الإسماعيليّ (ت: ٣٦٣) وهو أكثر من نقل عن هذا الكتاب.

٢- النجاشي (٣٧٢ - ٤٥٠)؛ ذكر اسم الكتاب وأشار إلى أنّه اعتمد عليه في تثبيت طرق اسناده.

٣- الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠) أيضاً.

٤- ياقوت الحمويّ (ت: ٦٢٦) الذي نوّه بالتفصيل إلى كيفية تصنيف هذا الكتاب.

٥- ابن بطريق (ت: ٦٠٠) الذي أشار إلى عدد الطرق في نقل حديث الغدير الوارد في هذا الكتاب.

٦- ابن شهر اشوب (ت: ٥٨٨) والذي أورد اسم الكتاب خلال ترجمته للمصنّف، وأشار كذلك إلى عدد الطرق في نقل حديث الغدير الوارد في هذا الكتاب، وذكر أيضاً اسم هذا الكتاب في مواضع عديدة من كتابه (المناقب).

٧- ابن طاووس (ت: ٦٦٤)؛ فقد أورد اسم الكتاب وقام بالنقل عنه.

٨- شمس الدين الذهبيّ (ت: ٧٤٨) الذي قيل إنّه رأى الكتاب المذكور بأمّ عينه وقام كذلك بنقل أحاديث كثيرة عنه.

٩- ابن كثير (ت: ٧٧٤) وهو كذلك ممّن رأى الكتاب وقام بنقل عدة روايات عنه.

١٠- ابن حَجَر (ت: ٨٥٢) وهو أيضاً كان قد شاهد الكتاب بنفسه .
والواقع أنَّ هذا الأمر على قدر من الوضوح والجلء بحيث لا يحتاج إلى مزيد
إثبات من أحد . وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ أحداً لم يتطرَّق إلى التعريف بهذا
الكتاب النفيس مثلاً فعل الأستاذ العلامة المرحوم السيّد عبد العزيز الطباطبائيّ
الذي أوقف جلَّ عمره في التّحقيق فيما يخصّ الإمام أمير المؤمنين وأهل
البيت (عليهم السلام) عموماً^(١٦) .

والآن دعونا نطالع ما قيل في حقّ الكتاب الذي نحن بصدده :
إنّ القاضي نعمان - أبو حنيفة نعمان بن محمّد التميمي المغربيّ الكاتب العالم
والإسماعيليّ المذهب في عهد الدولة الفاطمية (ت: ٣٦٣) - أكثر من نقل عن
الكتاب المذكور (كتاب الولاية) وذلك في المجلد الأول من كتاب (شرح الأخبار في
فضائل الأئمة الأطهار)، وستحدّث عن ذلك بالتفصيل في السطور التالية .
كتب أبو العباس أحمد بن علي النّجاشي عن الطبري وكتابه (الغدير) يقول :
«أبو جعفر الطّبري عامي، له كتاب الردّ على الحرقوصية، ذكر طرق خبر يوم
الغدير، أخبرنا القاضي أبو إسحاق إبراهيم بن مخلّد، قال : حدّثنا أبي، قال : حدّثنا
محمد بن جرير بكتابه (الردّ على الحرقوصية)»^(١٧) .

وقال الشيخ الطوسي كذلك مشيراً إلى الكتاب المذكور :
«محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر، صاحب التاريخ، عامي المذهب . له
كتاب خبر غدير خمّ، تصنيفه وشرح أمره . أخبرنا أحمد بن عبدون، عن أبي بكر
الدوري، عن ابن كامل، عنه»^(١٨) .

وعلق يحيى بن الحسن المعروف بابن البطريق (٥٢٣ - ٦٠٠) بقوله :
«وقد ذكر محمد بن جرير الطبري، صاحب التاريخ خبر يوم الغدير وطرقه
من خمسة وسبعين طريقاً، وأفرد له كتاباً سمّاه كتاب (الولاية)»^(١٩) .
وأشار ابن شهر آشوب إلى كتاب (الولاية) للطبري أيضاً حيث قال :

«أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري صاحب التاريخ، عامي، له كتاب غدير خمّ وشرح أمره، وسمّاه كتاب (الولاية)»^(٢٠).

وسنرى كيف أنّه (أي ابن شهر آشوب) قام بنقل بعض الروايات عن هذا الكتاب في مصنّفه الموسوم بـ (مناقب آل أبي طالب).

وخلال إثباته لتواتر حديث الغدير، أشار الشيخ سديد الدين محمود الحمصي الرازي (من علماء القرن السابع الهجري) إلى مؤلفات أصحاب الحديث، ومن جملة ما قال معلقاً على ذلك:

«لأن أصحاب الحديث أوردوه من طرق كثيرة، كمحمد بن جرير الطبري فإنّه أوردّه من تيف وسبعين طريقاً في كتابه»^(٢١).

وكتب أحمد بن موسى بن طاووس (أحد العلماء الذين اشتهروا في منتصف القرن السابع الهجري) بهذا الصدد قائلاً:

«وساقه [أي حديث الغدير] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (صاحب التفسير والتاريخ الكبير) من خمسة وسبعين طريقاً»^(٢٢).

ونقل رضي الدين علي بن طاووس (٥٨٩ - ٦٦٤) بعض النصوص من كتاب (مناقب أهل البيت) للطبري^(٢٣) وفي مكان آخر أشار كذلك إلى كتاب (الولاية) أيضاً والذي سنأتي على تفصيله فيما بعد. وأما ما قاله ابن طاووس تعليقاً على كتاب (الولاية) للطبري فهو كالاتي:

«ومن ذلك ما رواه محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ الكبير صنّفه وسمّاه كتاب (الردّ على الحرقوصية)، روى فيه حديث يوم الغدير وما نصّ النبي على عليّ عليه السلام بالولاية والمقام الكبير، وروى ذلك من خمس وسبعين طريقاً»^(٢٤). وقال في مكان آخر:

«وأما الذي ذكره محمد بن جرير صاحب التاريخ فإنّه في مجلّد»^(٢٥). وكتب في موضع غيره:

«وقد روى الحديث في ذلك محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ من خمس وسبعين طريقاً وأفرد له كتاباً سَمَّاه (حديث الولاية)»^(٢٦).

وكتب شمس الدين الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨) يقول:

«ولمَّا بلغه أن ابن أبي داود تكلم في حديث غدير خم، عمل كتاب (الفضائل) وتكلم على تصحيح الحديث. قلت: رأيت مجلداً من طرق الحديث لابن جرير فاندھشتُ له لكثرة الطرق»^(٢٧).

وسرى أن الذهبي الذي نظنه لم ير من الكتاب إلا جزؤه الثاني، كيف ينقل بعض الروايات من هذا الكتاب في كتابه (طرق حديث - من كنت مولاه -). وقال الذهبي في موضع غير هذا:

«قال محمد بن جرير الطبري في المجلد الثاني من كتاب (غدير خم) له، وأظنه بمثل جمع هذا الكتاب نسب إلى التشيع، فقال: ...»^(٢٨).

وذكر ابن كثير (ت: ٧٧٤) في ترجمته للطبري في ذيل حوادث سنة (٣١٠)

مايلي:

«وقد رأيتُ له كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين»^(٢٩).

وكتب ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢) معلقاً على ما أورده المزي في

(تهذيب الكمال) بقوله:

«لم يزد على ما أتى به ابن عبد ربّه في الاستيعاب سوى نقله لحديث الموالة»^(٣٠) وقد جمعه ابن جرير الطبري في مؤلف فيه أضعاف من ذكر^(٣١) وصحّحه واعتنى بجمع طرقه أبو العبّاس بن عقدة فأخرجه من حديث سبعين صاحبياً أو أكثر»^(٣٢).

هدف الطبري من تأليف كتاب (الولاية):

أشار بعض المصادر إلى الهدف الذي توخاه الطبري وراء تأليفه لكتاب (الولاية). وخلاصة الأمر أن عالماً من سجستان (هو ابن السجستاني المعروف

صاحب السنن) قام بتنفيذ حديث الغدير ممّا حدا بالطبري إلى تأليف الكتاب المذكور (كردّ على تلك الصيحة). دعونا نتابع التقارير المدوّنة في المصادر القديمة فيما يخصّ هذا الأمر.

يعدّ القاضي نعمان أوّل من بيّن العلّة في تأليف كتاب (الولاية)، فهو القائل :
«فن ذلك أنّ كتابه الذي ذكرناه وهو كتاب لطيف بسيط ذكر فيه فضائل عليّ عليه السلام وذكر أنّ سبب بسطه إيّاه، إنّما كان لأنّ سائلاً سأله عن ذلك لأمر بلغه عن قائل زعم أنّ عليّاً عليه السلام لم يكن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله حجة الوداع التي قيل إنّها قام فيها بولاية عليّ بغدير خمّ ليدفع بذلك - بزعمه - عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله : «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه». فأكثر الطبري التّعجب من جهل هذا القائل واحتجّ على ذلك بالروايات الثابتة على قدوم عليّ من اليمن على رسول الله صلى الله عليه وآله» (٣٣).

وأما ياقوت الحمويّ فقد أخذ جلّ معلوماته من أبي بكر بن كامل بخصوص الطبري. فن جملة ما قال (عند إحصائه لعدد من مؤلفات الطبري):
«وكتاب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه تكلم في أوّل بصحة الأخبار الواردة في غدير خمّ، ثم تلاه بالفضائل ولم يتم» (٣٤).
وفي إشارة له على كون الطبري كان قد غفر لكلّ من أساء إليه إلاّ أولئك الذين اتّهموه بالبدعة، مدح ياقوت الحمويّ الطبري على سجيّته هذه، ثم ينقل ما قاله أبو بكر بن كامل:

«وكان إذا عرف من إنسان بدعة أبعد وأطرحه. وكان قد قال بعض الشيوخ ببغداد بتكذيب حديث غدير خمّ، وقال: إنّ عليّ بن أبي طالب كان باليمن في الوقت الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله بغدير خمّ. وقال هذا الإنسان في قصيدة مزدوجة يصف فيه بلداً بلداً ومنزلاً منزلاً يُلَوِّح فيها إلى معنى حديث

غدير خمّ فقال :

ثمّ مرّرنا بغدير خمّ كم قائل فيه بزور جمّ
على عليّ والنبيّ الأميّ

وبلغ أبا جعفر ذلك ، فابتدأ بالكلام في فضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام وذكر طريق حديث خمّ ، فكثّر الناس لاستماع ذلك واستمع [اجتمع] قوم من الرّوافض من بسط لسانه بما لا يصلح في الصحابة فابتدأ بفضائل أبي بكر وعمر ^(٣٥).

ويلاحظ في النصّ السابق عدم ذكر اسم الشخص الذي طرح هذا الإشكال ، لكنّ شمس الدين الذهبيّ يعطي صورة أوضح لهذه المسألة مقتبساً قوله من أبي محمد عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغانيّ (الذي اعتبره الذهبيّ صديقاً للطبريّ ^(٣٦)) وأنّه هو الذي قام بنقل أغلب ما نعلمه عن الطبريّ ، وهو الذي وشّح كتاب التاريخ للطبريّ بحاشيته ^(٣٧). يقول الذهبيّ :

«ولما بلغه [الطبريّ] أنّ ابن أبي داود تكلم في حديث غدير خمّ ، عمل كتاب الفضائل وتكلم على تصحيح الحديث» ^(٣٨).

وفي مكان آخر حينما عدّ ما ألفه الطبريّ من الكتب يقول الذهبيّ :
«ولما بلغه أنّ أبا بكر بن أبي داود تكلم في حديث غدير خمّ ، حمل كتاب الفضائل ، فبدأ بفضل الخلفاء الراشدين ، وتكلم على تصحيح حديث غدير خمّ ، واحتجّ لتصحيحه» ^(٣٩).

والفرغانيّ هو القائل لهذه الكلمات وابن عساكر هو الذي نقلها بكملها ، فقد كتب يقول بعد أن عدّ مؤلفات الطبريّ بالتفصيل :

«ولما بلغه أنّ أبا بكر بن أبي داود السجستانيّ [٣١٦] تكلم في حديث غدير خمّ عمل كتاب الفضائل ، فبدأ بفضل أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رحمة الله عليهم ، وتكلم على تصحيح حديث غدير خمّ واحتجّ لتصحيحه وأتى من فضائل

أمير المؤمنين عليّ بما انتهى إليه ولم يتم الكتاب، وكان ممن لا يأخذه في دين الله لومة لائم...»^(٤٠).

وهناك إشارات واضحة كذلك إلى الإشكال الذي صدر عن أبي بكر عبد الله ابن أبي داود سليمان السجستاني في مؤلفات الشيعة في مجال علم الكلام عند بحث مسألة حديث الغدير، وأشار أيضاً إلى تصدي الطبري للسجستاني هذا. فن جملة تلك الإشارات ما ورد عن السيد الشريف المرتضى في (الذخيرة) حيث أبطل كلام السجستاني مشيراً إلى مواجهة الطبري له^(٤١).

وعبر المرتضى كذلك في (الشافي) عما صدر عن السجستاني بأنه مجرد إشكال محض مشيراً إلى أن جميع الرواة من سنة وشيعة قاموا بنقل حديث الغدير المتنازع عليه. وإلى جانب ما ذكره من أن وجهة نظر السجستاني ليست إلا وجهة نظر شاذة وفريدة من نوعها، ونقل الشريف المرتضى كلام السجستاني الذي ينكر فيه حديث الغدير وذلك في خضم مواجهته للطبري ومنازعة في المسألة إياها^(٤٢).

وقد ورد في هذه المصادر أيضاً أن السجستاني فند هذه النسبة مصرحاً بأنه لا ينكر أصل الحديث وحسب، بل وينكر كذلك وجود مسجد باسم مسجد غدير خم حتى ذلك التاريخ.

وكتب أبو الصلاح الحلبي في (تقريب المعارف) مشيراً إلى تواتر حديث الغدير يقول:

«ولا يقدح في هذا ما حكاه الطبري عن ابن أبي داود السجستاني من انكار خبر الغدير... على أن المضاف إلى السجستاني من ذلك موقوف على حكاية الطبري، مع ما بينهما من الملاحاة والشنآن، وقد أكذب الطبري في حكايته عنه، وصرح بأنه لم ينكر الخبر وإنما أنكر أن يكون المسجد بغدير خم متقدماً وصنف كتاباً معروفاً يتعذر مما قرفه به الطبري ويتبرأ منه»^(٤٣).

كتاب (الولاية) وتهمة (التشيع):

ذكر الذهبي أنَّ السبب وراء اتهام الطبري بالتشيع هو تأليفه كتاب (الولاية)؛^(٤٤) وذلك لأنَّ أصحاب الحديث لا يؤيدون حديث (الغدير)، وحتى الذين يقبلون هذا الحديث (من أصحاب الحديث) لم يُميزوا لأحد على الإطلاق تأليف كتب في طرق الحديث المذكور حتى للطبري الذي كان يومها إماماً وعلماً مرهوب الجانب، ذلك أنَّ من شأن كتاب كهذا أن يكون حجة في يد الشيعة. بل ولم يجرؤ حتى البخاري على ذكر حديث الغدير واكتفى بنقل الأحاديث الموجودة في حوزة أهل الحديث مع أنَّ للحديث المذكور طرقاً كثيرة ومتعددة.

وإذا سلطنا الضوء على الكتاب الآخر الذي ألفه الطبري والمعروف بكتاب (حديث الطير) الذي بين فيه بالتفصيل أفضلية الإمام علي عليه السلام على باقي الصحابة، ستتضح لنا الأسباب التي حدت بالكثيرين إلى اتهامه بالتشيع.

وقد قال ابن كثير واصفاً الكتاب المشار إليه: «ورأيت فيه مجلداً في جمع طرقه وألفاظه لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المفسر صاحب التاريخ». ثم يستطرد قائلاً بأنَّ أبا بكر الباقلاني ألف كتاباً في تضعيف طرق ودلالات هذه الرواية وذلك في معرض رده على كتاب الطبري^(٤٥).

وبعد كلِّ ما ذكرنا، تبدو المسألة واضحة المعالم تماماً؛ فلم يكن أمام أعداء الطبري خيار آخر إلا اللجوء إلى اتهامه بالتشيع وخصوصاً في ظروف مثل تلك التي كانت سائدة في بغداد آنذاك حيث تتمركز قوَّة الحنابلة وثقلها الأكبر فيخرج عليهم الطبري بتأليفاته في (حديث الغدير) تارةً، وفي كتاباته التي يبين فيها فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام صراحة تارةً أخرى، على ذلك فلا بدَّ وأن يتَّهم بالتشيع.

وطريف هنا أن نذكر أنَّ ابن خزيمة (المحدث السنِّي المعروف وأحد رجال الحديث المشهورين وهو من المشبهة) نزيل نيسابور كتب يقول: «ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة»^(٤٦).

وتجدر الإشارة إلى أنّ حقد الحنابلة على ابن جرير الطبري^(٤٧) له أسباب أخرى غير التي ذكرت^(٤٨)، لكن هذه الواحدة تعتبر الأكبر بين أخواتها. والحقّ أنّه لم تكن بيد الحنابلة وسيلة أنجع من هذه ولا في جعبتهم حيلة أخرى غير تلك لاثّام الطبري بالتشيع.

وكتب ابن مسكويه بهذا الخصوص يقول:

«وفيها [سنة ٣١٠] تُوفّي محمد بن جرير الطبري، وله نحو تسعين سنة، ودفن ليلاً، لأنّ العامة اجتمعت ومنتعت من دفنه نهاراً. وادّعت عليه الرّفص، ثم ادّعت عليه الإلحاد»^(٤٩).

وقد نقل ياقوت الحمويّ كلاماً للخطيب البغداديّ حول الطبري، منه:

«قال غير الخطيب: ودُفِنَ ليلاً خوفاً من العامّة لأنّه كان يُتّهم بالتشيع»^(٥٠).

ونقل ابن الجوزيّ كذلك ما قاله ثابت بن سنان عن الطبريّ جاء فيه:

«وذكر ثابت بن سنان في تأريخه: أنّه إنّما أخفيت حاله؛ لأنّ العامّة اجتمعوا

ومنعوا من دفنه بالنّهار وادّعوا عليه الرّفص، ثم ادّعوا عليه الإلحاد»^(٥١).

ويضيف ابن الجوزيّ أنّ السبب الآخر في اثّام الحنابلة الطبري بالرّفص هو

الفتوى التي أصدرها الطبريّ في جواز مسح القدم في الوضوء واعتباره الغسل والشطف أمراً غير ذي ضرورة، بقوله «فلهذا نُسب إلى الرّفص»^(٥٢).

وكتب ابن الأثير، مقتبساً ذلك من كلام لابن مسكويه، يقول:

«وفي هذه السنة [٣١٠] تُوفّي محمد بن جرير الطبري، صاحب التاريخ

ببغداد، ومولده سنة أربع وعشرين ومئتين، ودفن ليلاً بداره، لأنّ العامّة

اجتمعت، ومنعت من دفنه نهاراً، وادّعوا عليه الرّفص، ثم ادّعوا عليه

الإلحاد»^(٥٣).

وتجدر الإشارة إلى أنّ ابن الأثير لا يوافق على استخدام لفظة (العامّة) كتعبير

عن أهل السنة، وبعد تأكّيده على عدم اتّيان المخالفة من قبل العامّة (أي أهل

السَّنة) يلقي باللَّوم والتقصير على الحنابلة فيقول: «وإنَّما بعض الحنابلة تعصَّبوا عليه ووقعوا فيه، فتَبِعَهم غيرهم»^(٥٤).

وكتب ابن كثير أيضاً حول المواجهة التي كانت بين الحنابلة والطبري حيث قال:

«وَدُفِنَ في داره؛ لأنَّ بعض عوام الحنابلة ورعاعهم منعوا دفنه نهراً ونسبوه إلى الرِّفض... وإنَّما تقلَّدوا ذلك عن أبي بكر محمد بن داود الفقيه الظاهري، حيث تكلم فيه ويرميه بالعظائم وبالرِّفض»^(٥٥).

وإذا أمعنا النَّظْرَ في عبارات ابن كثير السابقة نجد قد خلط (إن عمداً أو سهواً) بين أبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني (ت: ٣١٦) والمتهم بكونه ناصبياً وبين أبي بكر محمد بن علي بن داود الفقيه الظاهري^(٥٦). فالشخص الذي كان يَتَّهم الطبري بالتَّشيع هو السجستاني - ابن السجستاني صاحب السنن - والذي هو نفسه كان متَّهماً بأنَّه ناصبي، ولهذا فعندما وصل الخبر إلى الطبري بأنَّ السجستاني يروي فضائل علي عليه السلام علَّق على ذلك بقوله: تَكْثِيرُهُ من حارس^(٥٧). ثم يُشير الذهبي بعد ذلك إلى العداء القائم بينهما، وعن السجستاني بأنَّه ناصبي، حيث ينكر هو ذلك بالطَّبع^(٥٨). وخلال شرحه لحال السجستاني يُشير ابن التَّديم إلى قيامه بتصنيف كتاب في التفسير وكان الطبري قد سبقه بتأليف مُشابه^(٥٩)، وهذا شاهد آخر على شدَّة المنافسة بين هذين الرجلين.

وأما ناصبية السجستاني فقد أدَّت إلى قيام ابن فرات إلى نفيه إلى واسط وإبعاده عن بغداد إلى أن قيل عنه بأنَّه بدأ يُشيع فضائل الإمام علي عليه السلام وحينئذ سمح له علي بن عيسى بالرجوع إلى بغداد حتى أصبح شيخاً للحنابلة «ثم تَحَبَّلَ، فصار شيخاً فيهم وهو مقبول عند أهل الحديث. وقد وصل الأمر بالسجستاني حدّاً مزرياً حتى قال فيه أبوه: ابني عبد الله كذاب!»^(٦٠).

ونقل الذهبي في كتابه (ميزان الاعتدال) عند ترجمته للطبري كلام أحد

المحدثين من أهل السنة حوله قائلاً: «أفزع أحمد بن علي السليمان الحافظ فقال: كان يضع للروافض»^(٦١)، ثم قام بالردّ عليه مادحاً الطبري بقوله: «ثقةٌ صادقٌ فيه تشييعٌ يسير وموالةٌ لا تُضر»^(٦٢)، واحتمل أن يكون السليمان قاصداً الردّ على ابن جرير الشيعي الذي قام بتأليف كتاب (الرواة عن أهل البيت).

وبعد الأخذ بنظر الاعتبار النصوص الموجودة لدينا والخاصة باتّهام الطبري بالتشييع، يتأكد لنا من أنّ الشخص الذي قصده السليمان في كتابه هو الطبري لا غير، علاوةً على ذلك فإنّ ابن جرير الشيعي لم يكن معروفاً في الأوساط السنية. وفي كتابه (لسان الميزان) قام ابن حجر بنقل كلام الذهبي مؤيداً إيّاه ومدافعاً عن السليمان الذي اعتبره إماماً متقناً، ثم أكدّ أنّه إنّما عني بكلامه ابن جرير الثاني (أي الإمامي المذهب)! لكنّه مع ذلك يُشير إلى نقطة مهمّة تتعلق بالطبري بقوله: «وإنّما نيز بالتشييع لأنّه صحّ حديثٌ غدير خُم»^(٦٣).

تشيع الطبري^(٦٤)

قبل الشروع بالبحث في روايات الغدير في كتاب الطبري، لا بأس من طرح سؤال هنا على سبيل الاستدراك وهو: هل كان هذا هو السبب الوحيد الذي بواسطته اتّهم الطبري بالتشييع، أم كانت هناك أسباب أخرى؟ ثمّ لم يذكّر بل لم يُشر الطبري إلى حديثي (الغدير) و (الطير) المشهورين في كتابيه (التاريخ) و (التفسير) ولكنّه قام في سنيّ عمره الأخيرة بتأليف كتاب يتناول الحديثين المذكورين بشكل مفصّل وهو يعلم علم اليقين العواقب الخطيرة التي يمكن أن تترتب على تأليفه مثل ذلك الكتاب؟

هل يمكن أن نقول: إنّ تحوّلاً جذرياً قد طرأ على عقيدة الطبري الدينية؟ إنّ احتمالاً كهذا يبدو غير صحيح؛ وذلك إذا ما أخذنا شخصية الطبري وتأليفه المعروفة بنظر الاعتبار. الحقّ أنّ هذه المسألة تكمن وراءها أمور عديدة تعمل كلّها على تشويه الصورة الأصلية لها.

كلّ ما في الأمر أنّ أبا بكر محمد بن عباس الخوارزمي (٣١٦ - ٣٨٣) (٦٥) الأديب المعروف والشاعر الذائع الصيت في العصر البويهي والمعروف بتشيعه (٦٦) كان ابن أخت الطبري، وهو نفسه يُشير إلى ذلك في أبيات شعريّة ذاكراً أنّه أخذ تشيعه عن أخواله (أي عائلة ابن جرير الطبري هذا).

هذا وقد ثبتت نسبة الخوارزمي إلى الطبري بكون الأخير خاله وذلك في نصوص المصادر القديمة من جملتها ما كتبه السمعاني (ت: ٥٦٢) في ذيل مدخل الخوارزمي حيث قال: «... والشاعر المعروف أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الأديب، وقيل له: الطبري لأنّه ابن أخت محمد بن جرير بن يزيد الطبري» (٦٧). وذكر هذا المسألة كذلك كلّ من ابن خلكان (٦٨)، شمس الدين الذهبي (٦٩)، الصفدي (٧٠)، ابن عماد الحنبلي (٧١)، الياقعي (٧٢) وغيرهم.

وربما اقتبس هؤلاء هذه النكتة من بعضهم البعض، لكنّ النصّ الأهمّ والأقدم من كلّ ما سبق، حتى من نصّ السمعاني نفسه، هو النصّ الذي كتبه الحاكم النيسابوري (ربيع الأول من عام ٣٢١ - صفر عام ٤٠٥) في كتابه المفقود (تاريخ نيسابور) والذي ذكر فيه كلّ تلك الأمور (٧٣).

وكتب ابن فندق البيهقي في شرحه للتأليفات التاريخية يقول: «ثم صنّف بعده محمد بن جرير الطبري (وهو خال أبو بكر الخوارزمي الأديب) (التاريخ الكبير)، وقد قادني ذلك إلى معرفة نسب محمد بن جرير المؤرّخ كما ذكر هذا الحاكم أبو عبد الله الحافظ في (تاريخ نيسابور)» (٧٤). وكتب في مكان آخر أيضاً: «وكان الخواجة أبو القاسم الحسين بن أبي الحسن البيهقي رجلاً شجاعاً شهماً وكانت ملوك عصره تعزّه وتقدره. والدته هي بنت أبي الفضل بن الأستاذ العالم أبي بكر الخوارزمي. والأستاذ العالم الفاضل أبو بكر الخوارزمي هو ابن أخت محمد بن جرير الطبري والذي إليه يُنسبون كتابي (التاريخ) و(التفسير) وقد ذكر هذا الحاكم أبو عبد الله الحافظ في كتابه (تاريخ نيسابور)» (٧٥).

إذاً، ومع كلّ تلك التّصاريح لا يبقى بوسع أحد تنفيذها بأيّ شكل من الأشكال، إلّا ياقوت وحده حيث شكّك في هذا الأمر حين قال: «وكان يزعم أن أبا جعفر الطبريّ خاله»^(٧٦).

هذا وقد قام الأقا محمد علي الكرمانشاهي^(٧٧)، مؤلّف (روضات الجنّات)^(٧٨) وصاحب (أعيان الشيعة)^(٧٩) بمساعدة القاضي نور الله الشوشتريّ^(٨٠) بالردّ على ياقوت مبرهنّاً على كون الخوارزميّ هو ابن أخت الطبريّ الشيعيّ وهو لا ريب يناقض ما ورد في النّصوص التّاريخيّة^(٨١).

وأما محمد حسين الأعرجيّ فقد أورد إشكالاً في مقدمة كتاب (الأمثال) للخوارزميّ^(٨٢) حول تأريخ ولادة الخوارزميّ وتزامن ذلك مع فترة حياة الطبريّ المؤرخ، يريد بذلك دحض مسألة كون الخوارزميّ ابن أخت الطبريّ. وتجدد الإشارة إلى أنّه لو ثبتت معاصرة محمد بن جرير الشيعيّ للطبريّ المؤرخ فإنّ الإشكال عينه أيضاً سيبرز إلى السطح. إضافةً إلى ذلك فإنّ الفترة من وفاة الطبريّ المؤرخ (ت: ٣١٠) إلى الفترة التي عاش خلالها الخوارزميّ والتي تبلغ (٧٣) سنة تبدو نادرة بعض الشيء، لكنّها قد تصدق في نفس الوقت.

ثمّ ليس بالضرورة أن يكون الخوارزميّ ابن أخت الطبريّ مباشرةً، فقد يكون مثلاً حفيد أخت الطبريّ. على أيّة حال، المهمّ لدينا هنا هو النّصوص التّاريخيّة وخصوصاً تلك المدوّنة في كتاب (تاريخ نيسابور)، فمؤلّف هذا الكتاب أعلم من أن يكون قد جهل شخصية الطبريّ المؤرخ، أو أن يكون قد خلط بينه وبين غيره. ونتيجة لهذا لا يعقل أن يذكر الحاكم النيسابوريّ أمراً كهذا بالصدفة، ثمّ من ناحية أخرى يقوم أبو بكر الخوارزميّ بالإشارة إلى نفس الموضوع صراحةً في شعره. ومهما يكن من أمر، فبالرغم من كون مؤلفات الطبريّ المؤرخ لا تمتّ إلى الإمامية ولا التّشيع بصلّة، وبالرغم كذلك من عدم وجود نصّ تاريخيّ يثبت ولو بقدر ضئيل كون أبي بكر الخوارزميّ كان إماميّ المذهب^(٨٣) - برغم تشييعه الشديد

كما هو الحال مع صاحب بن عباد - فإنّ هذا الإشكال قائم وباقي .
وبعد تجاوز مسألة النسبة بين الخوارزمي والطبري ، نواجه أمراً آخر لا يقلّ
أهميّة عن سابقه ، وهو نسبة أبي بكر الخوارزمي نفسه إلى التشيع والرّفص من
خلال بيتين للشعر ثم يُرجع ذلك إلى كون أخواله هم من الشيعة أيضاً .
كتب ياقوت الحمويّ (ت : ٦٢٦) في مادة (آمل) ^(٨٤) ما نصّه :
«ولذلك قال أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ، وأصله من آمل أيضاً ،
وكان يزعم أن أبا جعفر الطبري خاله :

بأمل مولدي وبنو جرير فأخوالي ، ويحكي المرء خاله
فها أنا رافضي عن تراث وغيري رافضي عن كلاله

وكذب ، لم يكن أبو جعفر ، رحمه الله ، رافضياً ، وإنما حسدته الحنابلة فرموه
بذلك ، فاغتنمها الخوارزمي ، وكان سبّاباً رافضياً مجاهرّاً بذلك متبيحاً» .
وكتب عبد الجليل القزويني ^(٨٥) كذلك يقول :
«وأبو بكر الخوارزمي معروف بتشيعه ولا ينكر أحد من الفضلاء قدره
ومنزله وفضله . والبيتان التاليان يدلّان على حقيقة ذلك وإن كان المصنّف (ويعني
بذلك الشخص الذي ألف عبد الجليل كتابه - النّقض - للردّ عليه) يعتقد بعدم
تسمية الشيعي نفسه بـ (أبي بكر) :

بأمل مولدي وبنو جرير فأخوالي ، ويحكي المرء خاله
فمن يك رافضياً عن تراث فإنّي رافضي عن كلاله» .

والمصرع الأول للبيت الثاني هنا وإن كان يشبه مثيله الذي ذكره ياقوت
الحمويّ إلّا أنّه يبدو صحيحاً أكثر من سابقه . وأورد ابن فندق البيهقي كذلك البيت
الأول دون الثاني ^(٨٦) .

إضافةً إلى ذلك، فإنَّ ما ذكره الطبريَّ من نصوص في كتابه (مناقب أهل البيت عليهم السلام) رغم قوة شوكة الحنابلة في بغداد وقتئذٍ وتسَلَّطهم عليها، يمكن أن تكون خير شاهد على أنَّ الطبريَّ كان شيعياً وليس رافضياً. بل وهناك روايات تدلُّ صراحةً ودون أيِّ التباس على كونه شيعياً إمامياً اثني عشرياً. من جملة تلك الروايات، تلك التي ذكرها ابن طاووس في كتاب (اليقين) وفيها دلالة واضحة على أنَّ سلمان [الفارسي] نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «إنَّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام وصيِّي ووارثي وقاضي ديني وعدتي وهو الفاروق بين الحقِّ والباطل، وهو يعسوب المسلمين وإمام المتقين وقائد الغرِّ المحجلين والحامل غداً لواء ربِّ العالمين. هو وولده من بعده. ثمَّ من الحسين ابني، أئمة تسعة هداة مهديُّون إلى يوم القيامة. أشكو إلى الله جحود أمتي لأخي وتظاهروهم عليه وظلمهم له وأخذهم حقَّه».

ولأهميَّة النصِّ المذكور لديه ونقله على لسان الطبريِّ، كتب ابن طاووس يقول: «إذالم يكن في الإسلام حديث معتمد قد نُقل إلَّا هذا (الذي ينقله لنا الطبريُّ الذي ما علمناه إلَّا ممدوحاً موثقاً) لكان ذلك حَسْب عليَّ بن أبي طالب، والنبيِّ صلى الله عليه وآله الذي صرَّح باستقرار الإمامة في وُلد عليٍّ» (٨٧).

القاضي نُعمان وكتاب الولاية:

يُعتبر كتاب (شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار عليهم السلام) الذي صنَّفه القاضي نُعمان بن محمَّد التميميَّ المغربيَّ الإسماعيليَّ المذهب (ت: ٣٦٣) من أقدم المصادر التي تفرَّدت بحصة الأسد في الاقتباس عن كتابي (الولاية) و (مناقب أهل البيت) للطبريِّ. ولكن، وممَّا يُؤسَف له أنَّ الكتاب المذكور مع تصريحه بنقل معظم رواياته عن كتاب الطبريِّ إلَّا أنَّ مؤلفه أسقط اسناد الكثير من الروايات المنقولة سوى الزرِّ اليسير منها، الأمر الذي أفقد الكتابَ اعتباره وأهميَّته. فعلى سبيل المثال كتب القاضي نُعمان تعليقاً بعد نقله لخبر «أنتَ أخي ووصيِّي وخليفتي من بعدي» يقول فيه:

«وممن رواه وأدخله في كتاب ذكر فيه فضائل علي عليه السلام - غير من تقدّم ذكره - محمد بن جرير الطبري وهو أحد أهل بغداد من العامة عن قرب عهد في العلم والحديث والفقه عندهم»^(٨٨)، ثم يذكر الطرق المختلفة التي نقل الطبري عنها ذلك الحديث^(٨٩). ثم بعد نقله لعدد من الروايات عن كتاب الطبري، أشار في نهاية ذكره للكثير من الأحاديث بهذه العبارة: «وهو كتاب لطيف بسيط ذكر فيه فضائل علي عليه السلام». ويبين بعد ذلك القسم الخاص برواية الغدير في كتاب الطبري والغرض الذي توخاه في تصنيفه الكتاب المذكور والذي تقدّم شرحه^(٩٠).

ربما كان يقصد بكتاب (فضائل علي عليه السلام) كتاب (الولاية) أو كتاباً آخر في فضائل علي، والذي ربما كان قسم منه يتناول طرق حديث الغدير. وفي آخر نقله للأحاديث في باب الوصاية للإمام علي (عن الطبري) يشير مرة أخرى إلى البساطة التي استخدمها الطبري في كتابه في نقل فضائل الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «وما رواه وبسطه من فضائل علي عليه السلام...»^(٩١).

وعلى أي حال يمكن القول: إن القاضي نعمان هو الأكثر من بين الناقلين عن كتاب الطبري في مصنفه (شرح الأخبار) قياساً بغيره. لكنّه كما ذكرنا أسقط اسناد الأحاديث التي أوردها الطبري في نقله لها، ونتيجة لذلك فهو لم يأت بتفصيل الروايات التي جاءت عند نقل الطبري لحديث الغدير؛ وذلك أن أسناد تلك الروايات وحدها كانت مختلفة. لكنّه صرح مع ذلك بأن الطبري كان قد أفرد باباً خاصاً لرواية الغدير ردّاً على أبي بكر السجستاني.

وكان السجستاني قد ذكر بأن علياً عليه السلام لم يرافق النبي صلى الله عليه وآله في حجة الوداع وعلى هذا تكون رواية الغدير باطلة من أساسها. هذا الأمر هو الذي أثار حفيظة الطبري فقام بتأليف كتاب (الولاية). وكتب القاضي نعمان يقول: «واحتج [الطبري] على ذلك بالروايات الثابتة على قدوم علي - صلوات الله عليه - من اليمن على رسول الله صلى الله عليه وآله عند وصوله إلى مكة...»^(٩٢). ويستطرد

القاضي كذلك في بحثه عن كتاب (الولاية) الذي تناول جزءاً منه فضائل عليٍّ ثم عُرِفَ فيما بعد بشكله المستقلّ، بقوله: «ثم جاء أيضاً في هذا الكتاب بباب أفرد فيه الروايات الثابتة التي جاءت من رسول الله صلى الله عليه وآله بأنّه قال قبل حجّة الوداع وبعده: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مِنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مِنْ عَادَاهُ، وَاَنْصُرْ مِنْ نَصْرِهِ، وَاخْذِلْ مِنْ خِذْلِهِ». وقوله: «عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلِيٌّ أَخِي، وَعَلِيٌّ وَزِيرِي، وَعَلِيٌّ وَصِيِّي، وَعَلِيٌّ خَلِيفَتِي عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي، وَعَلِيٌّ أَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ مِنْ بَعْدِي».

وغير ذلك ممّا يوجب له مقامه من بعده، وتسليم الأئمة له ذلك، وأن لا يتقدّم عليه أحد منها، ولا يتأمر عليه، في كلام طويل ذكر ذلك فيه، واحتجاج أكيد أطاله على قائل حكى قوله ولا نعلم أحداً قال بمثله، وما حكاه عنه من دفع ما اجتمعت عليه الأئمة عليه ونفيه أن يكون عليٌّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع. وعامة أهل العلم، وأصحاب الحديث مجمعون على أنّه كان معه... فأشغل الطبري أكثر كتابه بالاحتجاج على هذا القائل الجاحد الشاذّ قوله الذي لم يثبت عند أحد من أهل العلم»^(٩٣).

وقد تعجّب القاضي نعمان من أن الطبري رغم نقله لتلك الأحاديث، لماذا عمل طبق مذهب العامة؟ حيث يقول: «وأغفل الطبري أو تجاهل خلافه، لما أثبتته ورواه وصحّحه ممّا قدمنا ذكره. وحكايته عنه في عليٍّ وذهب فيه إلى ما ذهب أصحابه من العامة إليه من تقديم أبي بكر وعمر وعثمان عليه»^(٩٤).

وبعد نقله لروايات الغدير قام القاضي نعمان بنقل روايات آخر في فضائل الإمام عليٍّ من كتاب الطبري، وأولّها حديث (الطير)، قائلاً: «ونحن بعد هذا نحكي ممّا رواه الطبري هذا من مناقب علي صلوات الله عليه وفضائله الموجبة لما خالفه هو لتوكّد بذلك ما ذكرناه عنه»^(٩٥). ثم قال (بعد نقله لحديث (الطير)): «وجاء الطبري بهذا الحديث بروايات كثيرة وطُرُق شتى»^(٩٦). ثم بعد أن يأتي بحديث

(الراية) يقول: «فجاء الطبري بهذا الخبر وما قبله من الأخبار من طرق كثيرة»^(٩٧). وعقب نقله للخبر الذي ذكر فيه أن الإمام علياً عليه السلام قال مخاطباً أصحابه: (سُجِّبَروْنَ عَلَى سَبِّي مِنْ بَعْدِي) قال: «وهذا مما أثبتناه في هذا الكتاب مما أثره الطبري الذي قدّمنا ذكره»^(٩٨)، وجاء ببقية حديث رسول الله ﷺ.

وأما الشخصية الأخرى التي اقتبست من كتاب (الولاية) للطبري بعد القاضي نعمان، هو ابن عبد البر الأندلسي (٣٦٨ - ٤٦٣). والأندلسي هذا قام بنقل ثلاثة أحاديث من كتاب الطبري في الجزء الشيق فيه الخاصّ بشرح حال الإمام علي عليه السلام^(٩٩) من كتابه «الاستيعاب»، لكن لا توجد دلائل تؤكد على أن الأندلسي قام بنقل الأحاديث أو الروايات عن كتاب الولاية أو كتاب الفضائل، إلا أنه من المؤكد أن الطبري قد أورد تلك الأحاديث في كتابه (فضائل علي عليه السلام).

ابن شهر آشوب وكتاب الولاية:

أبو جعفر رشيد الدين محمد بن علي المعروف بابن شهر آشوب (ت: ٥٨٨) هو الشخصية الأخرى التي أشارت إلى كتاب الولاية للطبري في كتاب «المناقب». فقد كتب يذكر جملة من الذين ذكروا حديث (الغدير) خلال مؤلفاتهم، ومنهم الطبري حيث يقول:

«ابن جرير الطبري من نيف وسبعين طريقاً في كتاب الولاية»^(١٠٠). وقام ابن شهر آشوب كذلك بالاعتباس عن كتاب (الولاية) في مواطن عديدة من كتابه المناقب، لكننا لا نعلم أنه قد فعل ذلك بصورة مباشرة، والمهم لدينا هو أنه قام بالاعتباس عن هذا الكتاب موضع لم تُذكر في مصادر أخرى. وقد اعتاد ابن شهر آشوب على ذكر المصادر في بداية كلّ جملة، كقوله: «حلية أبو نعيم وولاية الطبري، قال النبي...»^(١٠١)، أو قوله: «ابن مجاهد في التاريخ والطبري في الولاية»^(١٠٢)، أو قوله في موضع آخر: «الطبري في الولاية والمناقب»^(١٠٣). ولا ريب أنه قد قصد كتابي (الولاية) و(المناقب) للطبري. وقال في مكان

آخر: «والطبري في التاريخ والمناقب»^(١٠٤). ويبدو من خلال ذكره لعبارة: (أورد الطبري حديث الطير في كتابه - الولاية) أنّه كان يعتبر كتاب (الولاية)^(١٠٥) أعمّ وأشمل من كتاب (الفضائل). وكان يستعمل مرة هذه العبارة: (الطبري في الولاية) في كتابه الموسوم بـ (متشابه القرآن)^(١٠٦).

والنقطة المهمة الأخرى هي أنّ ابن شهر آشوب راوح بين نقله صراحةً من كتاب (الولاية) تارةً ومن كتاب (تاريخ الطبري) تارةً أخرى، لكننا نجد في مواطن أخرى يقوم بنقل الحديث عن الطبري دون أن يشير إلى أيّ كتاب من كتب الطبري، إلاّ أنّه وبعد التمعّن بفحوى بعض تلك الأحاديث التي يستشف منها فضائل الإمام عليّ عليه السلام، يمكننا الاستنتاج بأنّها منقولة لا محالة عن كتاب (الولاية).

ابن طاووس وكتاب (المناقب) وحديث (الولاية):

وأما ابن طاووس (ت: ٦٦٤) فقد ذكر كتابي الطبري معاً ثمّ قام بنقل بعض النصوص عن كتاب (المناقب) خاصة. يقول ابن طاووس في كتابه (اليقين): «فيما ذكره من كتاب المناقب لأهل البيت عليه السلام تأليف محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ، من تسمية ذي الفقار لعليّ عليه السلام بأمر المؤمنين»، ثمّ يبدأ في نقله عن الكتاب المذكور بالكلام التالي:

«قال في خطبته ما هذا لفظه: حدّثنا الشيخ الموفق [المدقق] محمد بن جرير الطبري ببغداد في مسجد الرصافة، قال: هذا ما ألفته من جميع الروايات من الكوفيين والبصريين والمكيين والشاميين وأهل الفضل كلّهم واختلافهم في أهل البيت عليه السلام، فجمعته وألفته أبواباً ومناقب ذكرت فيه باباً باباً وفصلت بينهم وبين فضائل غيرهم. وخصّصْتُ أهل هذا البيت بما خصّهم الله به من الفضل».

ونستنتج من عبارات ابن طاووس هذه أنّه يريد الإشارة إلى أنّ كتاب الطبري كان مصنّفاً على أبواب وفصول لقوله (فجمعته وألفته أبواباً ومناقب ذكرت فيه باباً باباً...)، لكنّه مع ذلك لم يوضّح الأساس الذي استند عليه في هذا

التبويب، إلا إشارة واحدة من خلال كلام ذكره ابن طاووس في مكان آخر حيث قال: «قال محمد بن جرير الطبري المذكور في كتاب مناقب أهل البيت عليه السلام في باب الهاء من حديث نذكر اسناده والمراد منه بلفظه»^(١٠٧). وقال كذلك في كتاب (الطُّرف) مشيراً إلى كتاب (المناقب) للطبري: «ورتبته أبواباً على حروف المعجم، فقال في باب الياء ما لفظه»^(١٠٨). وإذا أردنا تبيين المراد من (باب الهاء) أو (باب الياء) توجب علينا التركيز أكثر على بعض الأمور^(١٠٩). وعلى هذا تبدو إعادة ترتيب الكتاب بالشكل الذي كان قد رتبته هو بنفسه أمراً صعباً بعض الشيء.

ثم ينقل ابن طاووس كلاماً للخطيب البغدادي (بجذافيره) - كما هو موجود في كتاب (تاريخ بغداد، ١٦٢/٢) عند ترجمته لابن جرير الطبري^(١١٠). وضمن تأكيده على أنه لم يَقم بهذا النُّقل إلا ليوطد قاعدة استدلاله - قال ابن طاووس:

«وقد ذكر في كتاب المناقب المشار إليه من تسمية مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام بأمر المؤمنين ثلاثة أحاديث نذكرها في ثلاثة أبواب ما هذا لفظه»^(١١١)، ثم يأتي على ذكر نصوص تلك الأحاديث. ولابن طاووس أيضاً إشارات إلى كتاب (الولاية) والذي ذكرناه في مواضع أخرى نقلاً عن (الطرائف).

شمس الدين الذهبي وكتاب (الولاية):

ذكرنا آنفاً أنّ الذهبي كان قد اطلع على مجلد واحد من مجموع مجلدين لكتاب الطبري فيما يخص طرق حديث (الغدير) وأنه دهش لكثرة ما رأى من الطرق المذكورة لذلك الحديث. وقد قام الذهبي محاكاةً - كما يبدو - لمُصنّف الطبري بتأليف رسالة مستقلة في طرق حديث (الغدير) ونقل عدداً من الروايات من كتاب الطبري في مواضع كثيرة في كتابه. وقال في موضع ما من كتابه، بعد إيراد له رواية: «هكذا روى الحديث بتمامه محمد بن جرير الطبري»^(١١٢)، وقال أيضاً: «حدثنا ابن جرير في كتاب غدير خم»^(١١٣)، وفي موضع آخر كتب يقول: «قال محمد بن جرير الطبري في المجلد الثاني من كتاب (غدير خم) له وأظنه به

مثل جمع هذا الكتاب نسب إلى التشيع^(١١٤)، وله كذلك: «رواه محمد بن جرير في كتاب (الغدير)»^(١١٥).

ابن كثير وكتاب (الولاية):

وذكرنا أيضاً أن ابن كثير قد أشار هو الآخر إلى كتاب (الولاية). فقد تطرّق إلى حديث (الغدير) في موضعين في كتابه (البداية والنهاية)؛ الموضع الأول في حوادث سنة (١٠) للهجرة مشيراً إلى بعض طرقه^(١١٦). والموضع الثاني جاء به في آخر أيام أمير المؤمنين ﷺ وذلك خلال ذكره فضائله سلام الله عليه، وهنا كذلك أورد بعض طرق حديث (الغدير) إلا أنه لم يُشر، لا من قريب ولا من بعيد، إلى كتاب الطبري^(١١٧).

ففي الموضع الأول، وبعد التنويه إلى أن الرسول الأعظم ﷺ قام ببيان إحدى فضائل عليّ ﷺ على الملاّ بالقرب من غدير (خمّ) وذلك عند عودته من حجة الوداع، كتب ابن كثير يقول: «ولهذا لما تفرّغ ﷺ من بيان المناسك ورجع إلى المدينة بين ذلك في أثناء الطريق، فخطب خطبة عظيمة في اليوم (١٨) من ذي حجة عامئذ وكان يوم الأحد بغدير خمّ تحت شجرة هناك. فبين فيها أشياء. وذكر من فضل عليّ وأمانته وعدله وقربه إليه ما أراح به ما كان في نفوس كثير من الناس منه! ونحن نورد عيون الأحاديث الواردة في ذلك ونبيّن ما فيها من صحيح وضعيف بحول الله وقوّته وعونه. وقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتأريخ، فجمع فيه مجلّدين أورد فيهما طرقه وألفاظه وساق الغثّ والسمين والصحيح والسقيم، على ما جرت به عادة كثير من المحدثين يوردون ما وقع لهم في ذلك الباب من غير تمييز صحيحه وضعيفه»^(١١٨).

ثم يُشير بعد ذلك إلى أنه ينوي نقل بعض طرق الحديث المذكور، فقام بنقل ذلك.

وبإلقاء نظرة سريعة على الطرق التي قام بنقلها يتّضح لنا بأن النصّ هو في

الواقع جزءاً من كتاب الطبري. ويبدو ممّا جاء في كتاب (البداية والنهاية) أنّ الرسالة المذكورة (في طرق حديث الغدير) كانت بحوزة ابن كثير.

البياضي وكتاب (الولاية):

ذكر زين الدين علي بن يونس العاملي في مقدمة كتاب (الصراط المستقيم) فهرساً من مصادره، ومن جملتها اسم كتاب (الولاية) للطبري^(١١٩). وفي مكان آخر وخلال ذكره لمؤلفات أهل السنة حول أهل البيت عليه السلام، بدأ بذكر كتاب الطبري، حيث قال: «فصنّف ابن جرير كتاب الغدير وابن شاهين كتاب المناقب...»^(١٢٠)، وعلى هذا الأساس قام بنقل بعض النصوص من الكتاب المذكور مستنداً أغلب الظنّ إلى كتب لابن شهر آشوب وابن طاووس أو مصادر أخرى. ومن بين تلك المقتبسات، اقتباس مفصّل عن زيد بن أرقم نقلاً عن كتاب (الولاية) للطبري، والذي يبدو أنّ العلامة الأميني قد قام بنقل ذلك عن البياضي^(١٢١)، وذلك لأننا لا نجد عين هذا النصّ في مكان آخر غير هذا. وتجدد الإشارة هنا إلى أنّ البياضي يذكر تارةً كتاب (الولاية) للطبري بصريح العبارة، وتارةً أخرى يقوم بنقل نصّ عنه واضعاً اسمه إلى جانب أسماء الرواة الآخرين من أهل السنة ممّا يؤكّد كون الطبري هذا هو نفسه الطبري المؤرّخ المعروف.

هذا وقد أشار البياضي في كثير من المواطن إلى كتاب (التأريخ) للطبري^(١٢٢)، كما أشار أيضاً إلى الطبري الشيعي وكتابه (المسترشد)^(١٢٣) واقتطف منه مقاطع كذلك. وجدير بالذكر، أنّه يصعب علينا تحديد من هو المقصود بكلمة (الطبري) التي يذكرها البياضي في بعض المواضع التي لا يذكر فيها الاسم الكامل سوى ذكره لكلمة (الطبري) وحسب^(١٢٤).

وقد نقل عن كتاب الطبري (المناقب) مورداً يتعلّق بأبي بكر^(١٢٥).

ومن الشخصيات التي قامت بنقل بعض الروايات في فضائل الإمام علي عليه السلام

كذلك عن الطبري، هو العالم المحدث المشهور لدى أهل السنة علاء الدين علي المعروف بـ (المتقي الهندي) (ت: ٩٧٥)، حيث قام بنقل العديد من الروايات في كتابه (كنز العمال) (١٢٦) والخاصة بفضائل الإمام علي عليه السلام واضعاً اسم ابن جرير في آخر تلك الروايات. ويقول المتقي الهندي في مقدمة الكتاب ما شرحه: «إذا كان أورد اسم ابن جرير مطلقاً فحينئذ يقصد كتابه (تهذيب الآثار)، وأما إذا نقله عن كتاب (التفسير) أو كتاب (التأريخ) فإنه يذكر ذلك صراحةً. وهنا ننوه أنه لما كانت الروايات المنقولة عنه في باب فضائل أهل البيت كانت كذلك موجودة يقيناً في كتاب (مناقب أهل البيت)، ولما كان بعضها يتعلّق بطرق حديث (الغدير)، يمكن اعتبار هذه الأحاديث أيضاً بمثابة جزء من كتاب (الفضائل) أو كتاب (الولاية) اللذين للطبري.

وتجدر الإشارة إلى أنه لم يصل إلينا من كتاب (تهذيب الآثار) إلا قسم من أجزائه فقط، وعلى هذا فالقسم الأكبر من تلك الروايات غير موجود في النسخة المطبوعة منه والموجودة في أيدينا اليوم.

وأخيراً لوحظ اهتمام بالغ بهذا الكتاب في كتاب (الغدير) للعلامة الأميني (١٣٢٠ - ١٣٩٠ هجرية) الذي ذكر حديث (الغدير) برواية الطبري نقلاً عن (كنز العمال) و (البداية والنهاية) (١٢٧). ونشير إلى أن الأستاذ المرحوم السيد عبد العزيز الطباطبائي (ت: ١٤١٦) قد ذكر أيضاً كتاب (الولاية) ضمن مؤلفات أهل السنة عن أهل البيت عليه السلام (١٢٨).

الهوامش :

- (١) تاريخ الإسلام للذهبي : ٣١٠ - ٣٢٠، ٢٧٩ - ٢٨٦، حيث ذكرت هناك عشرات المصادر في شرح تلك الشخصية. راجع كذلك لسان العرب ٥: ٧٥٧، ش ٧١٩٠، إذ ذكرت هناك بالترتيب المصادر التي شرحت فيها استناداً إلى مصادر كثيرة أخرى. وقد عدّ السيوطي في رسالته الموسومة «التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة» الطبري بأنه جدير اعتباره شخصية متميزة رأس المئة الثانية للهجرة. - خلاصة عبقات الأنوار ٦: ٩٤ (طبعة قم ١٤٠٤هـ)، نقلاً عن الرسالة المذكورة.-
- (٢) يصف الطبراني (المتوفى ٣٦٠) المحدث الكبير وصاحب المعاجم الثلاثة الصغيرة المعروفة: الصغير والأوسط والكبير، الطبري بـ «الطبري الفقيه». راجع: المعجم الكبير ٩: ٢٩٢.
- (٣) راجع المقالة تحت عنوان «أهل الحديث وكتاب - السنة - للطبري» في قسم «المقالات التاريخية» المجلد الثاني؛ وكذلك مقالة «دور أحمد بن حنبل في تعديل مذهب أهل السنة» في قسم «المقالات التاريخية» أيضاً المجلد السادس.
- (٤) يشير ابن قتيبة إلى تقصير أهل الحديث في نقل الأحاديث الخاصة بفضائل الإمام علي عليه السلام تعليقا له على ردّ فعلهم في مقابل (الرافضة) الذين قيل عنهم أنهم يُغالون في رفع منزلة علي عليه السلام فوق كل منزلة، حيث يقول: «لقد أخرج هؤلاء علياً من زمرة أئمة الهدى مُدخلين إياه في جملة قادة الفتن ولا يثبتون له حقاً خلافة بحجة أنّ الناس لم يجتمعوا إليه لمبايعته، لكنهم ومن جهة أخرى يقبلون بيزيد كونه خليفةً لاجتماع الناس إليه ومبايعته». ثم يستطرد ابن قتيبة بقوله: «وتحامى كثير من المحدثين أن يحدثوا بفضائله كرم الله وجهه أو يظهرها ما يجب له، وكل تلك الأحاديث لها مخارج صحاح. وجعلوا ابنه الحسين عليه السلام خارجياً شاقاً لعصا المسلمين، حلال الدم، لقول النبي صلى الله عليه وسلم (من خرج على امتي وهم جميع، فاقتلوه كائناً من كان). و سؤوا بينه في الفضل وبين أهل الشورى لأن عمر لو تبين له فضله لقدّمه عليهم ولم يجعل الأمر شورى بينهم. وأهملوا من ذكره أو روى حديثاً من فضائله حتى تحامى كثير من المحدثين أن يتحدثوا بها وعنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص ومعاوية كأنهم لا يريدونهما بذلك وإنما يريدونه. فإن قال قائل: أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم علي وأبو سبطيه الحسن والحسين وأصحاب الكساء علي وفاطمة والحسن والحسين؛ تمعّرت الوجوه وتنكرت العيون وطرت حسائلك الصدور. وإن ذكر ذاكر قول النبي صلى الله عليه وسلم (من كنت مولاه فعليّ مولاه) و (أنت مني بمنزلة هارون من موسى)؛ وأشباه هذا، التمسوا لتلك الأحاديث المخارج لينقصوه ويبخسوا حقّه بفضاً منهم للرافضة والزاماً لعلي عليه السلام بسببهم ما لا يلزمه وهذا هو الجهل بعينه. والسلامة لك أن لا تهلك بمحبته ولا تهلك ببغضته وأن لا تحتل ضغناً عليه بجناية غيره، فإن فعلت فأنت جاهل مفرط في بغضه وإن تعرف له مكانة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتربية والأخوة والصهر والصبر في مجاهدة أعدائه وبذل مهجته في الحروب بين يديه مع مكانه في العلم والدين والبأس

والفضل من غير أن تتجاوز به الموضع الذي وضعه به خيار السلف لما تسمعه من كثير فضائله فهم كانوا أعلم به وبغيره ولأن ما أجمعوا عليه هو العيان الذي لا شك فيه، والأحاديث المنقولة قد يدخلها تحريف وشوب ولو كان إكرامك لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي دعاك إلى محبة من نازع عليك وحاربه ولعنه إذ صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخدمه وكنت قد سلكت في ذلك سبيل المستسلم لأنك في علي عليه السلام أولى لسابقته وفضله وخاصته وقرابته والدناوة التي جعلها الله بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عند المباهلة، حين قال تعالى: «قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم...» فدعا حسناً وحسيناً «ونساءنا ونساءكم» فدعا فاطمة عليها السلام «وأنفسنا وأنفسكم» فدعا علياً عليه السلام. ومن أراد الله تبصيره بصّره ومن أراد به غير ذلك حيّره». راجع: الاختلاف في اللفظ: ٤١-٤٣ (بيروت، دارالكتب العلمية).

(٥) تحقيق أحمد محمودي، قم، مؤسسة الثقافة الإسلامية لكوشانيور، ١٤١٥ (مقدمة المصحح).

(٦) تحقيق قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة، قم، ١٤١٣.

(٧) البداية والنهاية ١١-١٢: ١٦٧، ذيل حوادث سنة ٣١٠؛ والذريعة ١٦: ٣٥؛ وشرح الأخبار ١: ١٣١-١٣٢ (الهامش). وقال (كلبرگ)، مشيراً إلى اعتقاد (آقابزرگ الطهراني) في هذا المجال من أن كتاب (مناقب أهل البيت) والذي نسبته ابن طاووس إلى الطبري المؤرخ المعروف، إنما يعود إلى الطبري الشيعي، قال: «الظاهر هو عدم وجود أي مصدر موثوق يؤيد اعتقاد آقا بزرگ». مكتبة ابن طاووس: ٣٩٨، ش ٣٥٦.

(٨) معالم العلماء: ١٠٦، ش ٧١٥؛ راجع كذلك (عمدة عيون صحاح الاخبار) لابن بطريق: ١٥٧.

(٩) رجال النجاشي: ٣٢٢، ش ٨٧٩.

(١٠) إقبال الأعمال ٢: ٣٠ (قم ١٤١٥هـ).

(١١) الطرائف: ١٤٢.

(١٢) مكتبة ابن طاووس: ٢٨٨.

(١٣) للحصول على معلومات أكثر بهذا الخصوص راجع: مكتبة ابن طاووس: ٢٨٦.

(١٤) مكتبة ابن طاووس: ٢٨٦، ش ١٧١؛ ص ٣٩٨، ش ٣٥٦.

(١٥) الغريب أن (فؤاد سزگين) لم يُشر إلى أي من محتويات كتاب الطبري هذا لا من قريب ولا من بعيد (تاريخ التراث العربي المجلد الأول، التدوين التاريخي: ١٦٨، ولا حتى الإشارة إليه في فهرست أسماء الكتب بكونه من مصنفات الطبري سوى إلماعة بسيطة عن (رسالة الرد على الحرقوصية) في ذيل هامش تلك الصفحة نقلاً عن (بروكلمان) مشيراً إلى حديث النجاشي دون التنويه في كتبه اللاحقة إلى باقي محتويات هذا الكتاب القيم.

(١٦) الغدير في التراث الاسلامي: ٣٥-٣٧؛ أهل البيت في المكتبة العربية: ٦٦١-٦٦٤.

(١٧) رجال النجاشي، (تحقيق السيد موسى الشبيري، قم): ٣٢٢، ش ٨٧٩.

(١٨) كذا؛ وفي موضع آخر: كتاب خبر غدير خم وشرح أمره، تصنيفه. فهرسة كتب الشيعة وأصولها، تحقيق السيد

عبدالعزیز الطباطبائي، قم، ١٤٢٠: ٤٢٤، ش ٦٥٥.

(١٩) عمدة عيون صحاح الأخبار: ١٥٧ (قم، ١٤١٢هـ).

- (٢٠) معالم العلماء: ١٠٦، ش ٧١٥.
- (٢١) المنقذ من الضلال ١: ٣٣٤ (قم، مؤسسة النشر الاسلامي، ١٤١٤هـ).
- (٢٢) بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية، (مؤسسة آل البيت، قم، ١٤١١هـ): ٢٩٩ - ٣٠٠.
- (٢٣) اليقين: ٢١٥.
- (٢٤) إقبال الأعمال ٢: ٣٠ (قم ١٤١٥هـ).
- (٢٥) المصدر السابق ٢: ٢٤٨.
- (٢٦) الطرائف: ١٤٢؛ وانظر أيضاً: ١٥٤ (قم، ١٤٠٠هـ).
- (٢٧) تذكرة الحفاظ، (بيروت، دار الكتب العلمية) ٢: ٧١٣.
- (٢٨) «طرق حديث من كنت...»: ٦٢، ش ٦١.
- (٢٩) البداية والنهاية ١١-١٢: ١٦٧، ذيل حوادث سنة ٣١٠.
- (٣٠) تهذيب الكمال ٢٠: ٤٨٤.
- (٣١) كتب في (فتح الباري ٧: ٦١) دون الإشارة إلى كتاب الطبري يقول: «وأوعب من جمع مناقبه [يعني علياً] من الأحاديث الجياد النسائي في كتاب (الخصائص)؛ وأما حديث (من كنت مولاه فعلي مولاه)، فقد أخرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق جداً، وقد استودعها ابن عقدة في كتاب مفرد؛ وكثير من أسانيد صاحبها وحسان».
- (٣٢) «تهذيب التهذيب» ٧: ٢٩٧ (بيروت، دار الفكر). وكانت توجد نسخة من كتاب «جمع طرق حديث الغدير» لابن عقدة في حوزة ابن حجر. راجع: «المقالات التاريخية»، المجلد السادس، مقالة المصادر التاريخية لابن حجر في الإصابة: ٣٦٣.
- (٣٣) شرح الأخبار ١: ١٣٠-١٣٢.
- (٣٤) معجم الأدباء ١٨: ٨٠.
- (٣٥) المصدر السابق ١٨: ٨٤-٨٥.
- (٣٦) تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١٠-٣٢٠، ٢٨١.
- (٣٧) راجع بهذا الخصوص: سير أعلام النبلاء ١٦: ١٣٢.
- (٣٨) تذكرة الحفاظ ٢: ٧١٣.
- (٣٩) تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١٠-٣٢٠، ٢٨٣.
- (٤٠) تاريخ دمشق ٥٢: ١٩٨.
- (٤١) الذخيرة: ٤٤٢ (تصحیح السيد أحمد الحسيني الأشكوري). على الرغم من الإشارة في نسختي كليهما من أن المقصود بـ (أبي بكر) هو ابن أبي داود السجستاني صاحب السنن، فقد توهم المصحح وقام بتخطئة ذلك، فأورد اسم السجستاني نفسه في النص.
- (٤٢) الشافي في الإمامة ٢: ٢٦٤ (تصحیح السيد عبد الزهراء الخطيب، طهران، مؤسسة الصادق عليه السلام).

- (٤٣) تقريب المعارف، (تحقيق فارس حسون، قم، ١٤١٧هـ): ٢٠٧-٢٠٨.
- (٤٤) طرق حديث «من كنت...»: ٦٢؛ وأظنه بسبب جمع هذا الكتاب نسب إلى التشيع.
- (٤٥) البداية والنهاية ٧: ٣٩٠ (دار إحياء التراث العربي، ١٤١٣هـ).
- (٤٦) تاريخ بغداد ٢: ١٦٤؛ تاريخ دمشق ٥٢: ١٩٦؛ الأنساب ٤: ٤٦؛ معجم الأدباء ١٨: ٤٣؛ تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١٠-٣٢٠، ٢٨٢.
- (٤٧) قال: كانت الحنابلة تَمْنَعُ ولا تُتْرَكُ أحداً يَسْمَعُ عليه. معجم الأدباء ١٨: ٤٣.
- (٤٨) من جملة ذلك إنكار حديث (الجلوس على العرش) والذي كان عنه أنه محال وكان يردد البيت التالي:
- سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس
- (ياقوت الحموي، معجم الأدباء ١٨: ٥٨)؛ (الوافي بالوفيات ٢: ٢٨٧). ويضيف قائلاً: فلمّا سمع ذلك الحنابلة منه وأصحاب الحديث، وثبوا ورموه بمحابرهم وقيل كانت الوفا، فقام أبو جعفر بنفسه ودخل داره، فرموا داره بالحجارة حتى صار على بابه كالتلّ العظيم، وركب (نازوك) صاحب الشرطة في عشرات الألوف من الجند يمنع عنه العامة. ووقف على بابه يوماً إلى الليل وأمر برفع الحجارة عنه. وكان قد كتب على بابه:
- سبحان من ليس له انيس ولا له في عرشه جليس
- فأمر (نازوك) بمحو ذلك. وكتب مكانه بعض أصحاب الحديث...
- واستسلم الطبري أمام هذه الضغوط وكتب ما وافق ميل الحنابلة.
- وإضافة إلى ما ذكر، فقد ذكر ابن الجوزي قولاً حول وجود اختلافات أخرى في وجهات النظر بين الطبري وأبي بكر بن أبي داود فيما يخص المسائل العقائدية، وحول سعي ابن أبي داود في إيصال الأمر إلى السلطات آنئذ وجواب الطبري عن ذلك. راجع: المنتظم ١٣: ٢١٧.
- والسبب الآخر وراء عدا الحنابلة للطبري يكمن في أنه لم ير أهمية تذكر لفقه أحمد بن حنبل ولم يعتن به، فقد كتب ابن الوردي يقول: وصنّف كتاباً فيه اختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، ف قيل له في ذلك، فقال: إنما كان أحمد بن حنبل محدثاً. فاشتد ذلك على الحنابلة وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد، ورموه بالرّفْض تعصّباً وتشنيعاً عليه. [تاريخ ابن الوردي ١: ٣٥٦] (النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، ١٣٨٩ق)؛ المختصر في أخبار البشر ١: ٧١ (القاهرة، مكتبة المتنبّي).
- (٤٩) تجارب الأمم ٥: ١٤٢ (تصحیح الدكتور أبو القاسم الإمامي، طهران، سروش، ١٩٩٨م).
- (٥٠) معجم الأدباء ١٨: ٤٠ (دار الفكر).
- (٥١) المنتظم ١٣: ٢١٧.
- (٥٢) المصدر السابق.
- (٥٣) الكامل في التاريخ ٥: ٧٤ ذيل حوادث سنة (٣١٠) (بيروت، مؤسسة التاريخ العربي).
- (٥٤) المصدر السابق.
- (٥٥) البداية والنهاية ١١-١٢: ١٦٧ (بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ١٤١٣هـ).

(٥٦) لاشك في وجود اختلاف في وجهات النظر بين الطبري وبين علي بن داود الظاهري، والذي كان السبب في قيام ابن الظاهري (محمد بن علي بن داود الظاهري)، إلا أن تلك الحادثة لا علاقة لها فيما نحن بصدده وهو مسألة (الغدير). [راجع: معجم الأدياء ١٨: ٧٩ - ٨٠].

(٥٧) تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١٠ - ٣٢٠، ٥١٦.

(٥٨) المصدر السابق: ٥١٧.

(٥٩) الفهرست: ٢٨٨.

(٦٠) تاريخ الإسلام للذهبي: ٣١٠ - ٣٢٠، ٥١٨.

(٦١) ميزان الاعتدال: ٣: ٤٩٩.

(٦٢) المصدر السابق.

(٦٣) لسان الميزان ٥: ٧٥٨ (بيروت، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي).

(٦٤) إن هناك فرقاً بين الاتهام بالتشيع والاتهام بالرّفص. (راجع بهذا الخصوص البحوث الأولية في كتاب - تاريخ التشيع في إيران - المجلد الأول).

(٦٥) حول سنة ولادته، راجع: مقدمة ديوان أبي بكر الخوارزمي، للدكتور حامد صدقي: ١٠٧.

(٦٦) أنظر رسالته إلى الشيعة في نيسابور والمجموعة في كتاب (رسائل الخوارزمي)، طبعة بيروت: ١٦. وكان الأستاذ صدقي قد جمع كل عباراته التي يمكن من خلالها استشمام رائحة التشيع عند الرجل ووضعها في مقدمة ديوان أبي بكر الخوارزمي (طهران، التراث المكتوب، ١٩٩٧م: ١١٥ - ١١٧).

(٦٧) الأنساب ٢: ٤٠٨.

(٦٨) وفيات الأعيان ٤: ١٩٢ و ٤٠٠.

(٦٩) سير أعلام النبلاء ١٦: ٥٢٦.

(٧٠) الوافي بالوفيات ٢: ٢٨٤.

(٧١) شذرات الذهب ٣: ١٠٥.

(٧٢) مرآة الزمان ٢: ٤١٦.

(٧٣) تاريخ نيسابور، (تصحیح محمد رضا شفیعی کدکنی، طهران، ١٩٩٦م): ١٨٥. وردت هناك العبارة التالية: «محمد بن العباس، ابن أخت محمد بن جرير، أبو بكر الأديب الخوارزمي»: ١٨٥، ش ٢٤٤٥.

(٧٤) تاريخ بيهق: ١٦.

(٧٥) المصدر السابق: ١٦.

(٧٦) معجم البلدان ١: ٧٧.

(٧٧) مقام الفضل ١: ٤٦٤ - ٤٦٥ (قم، تحقيق ونشر مؤسسة العلامة الوحيد البهبهاني، ١٤٢١هـ).

(٧٨) المجلد السابع: ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٧٩) المجلد التاسع: ٣٧٧ - ٣٧٨.

- (٨٠) مجالس المؤمنين ١: ٩٨.
- (٨١) وعلى هذا استند المرحوم المحدث الأرموي في تعليقات النقص ٢: ٦٥٨؛ معتبراً الخوارزمي ابن أخت الطبري المؤرخ، وهو ما أيده الأستاذ حامد صدقي واعتبره مطابقاً لما ورد في المصادر التاريخية. راجع: مقدمة ديوان أبي بكر الخوارزمي: ١١١.
- (٨٢) مقدمة ديوان أبي بكر الخوارزمي: ١١٢-١١٣.
- (٨٣) سوى الآيات التي سنأتي على ذكرها فيما بعد.
- (٨٤) معجم البلدان ١: ٧٧؛ أورد القاضي نور الله البيتين المذكورين كذلك في كتابه (مجالس المؤمنين ١: ٩٨).
- (٨٥) النقص: ٢١٨.
- (٨٦) تاريخ بيهق: ١٠٨. بالرغم من أن هذين البيتين قد وردا في ثلاثة مصادر قديمة، إلا أن ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ٢: ٣٦ ذكر كلاماً غير هذا. فقد كتب مشيراً إلى كتاب (المسترشد) الذي صنفه محمد بن جرير الطبري، يقول: «ذاك ليس بمحمد بن جرير صاحب التاريخ بل هو من رجال الشيعة، وأعتقد أن أمه من بني جرير من مدينة (آمل) بطبرستان. بنو جرير الآمليون شيعة مستهترون بالتشيع، فنسب إلى أخواله». ثم يستطرد قائلاً: «وله بيتين من الشعر يؤكدان هذا الأمر». ثم أورد البيتين المذكورين مع تغيير طفيف:
- | | |
|------------------------|--------------------------|
| بأمل مولدي وبنو جرير | فأخوالي ويحكى المرء خاله |
| فمن يك رافضياً عن أبيه | فإني رافضٍ عن كلاله |
- ولا يُعرف السبب وراء نسبة ابن أبي الحديد تشيع محمد بن جرير الرافضي (وهو نفسه من بني جرير) إلى أخواله الذين نسبهم كذلك إلى بني جرير.
- (٨٧) اليقين: ٤٨٨.
- (٨٨) شرح الأخبار ١: ١١٦.
- (٨٩) المصدر السابق: ١١٧.
- (٩٠) المصدر السابق: ١٣٠-١٣١.
- (٩١) المصدر السابق ١: ١٢٨.
- (٩٢) المصدر السابق ١: ١٣٢.
- (٩٣) المصدر السابق: ١٣٥. ويقصد الكلام الذي قيل فيه: إِنَّ الإمام عليّاً عليه السلام كان موجوداً في اليمن وقت حجة الوداع.
- (٩٤) المصدر السابق ١: ١٣٦-١٣٧.
- (٩٥) المصدر السابق: ١٣٧.
- (٩٦) المصدر السابق: ١٣٨.
- (٩٧) المصدر السابق ١: ١٤٩.
- (٩٨) شرح الأخبار: ١٦٤.

- (٩٩) الاستيعاب ٣: ١٠٩٠، ١١١٨، ١١٢٦.
- (١٠٠) المناقب ٤: ٢٥.
- (١٠١) المصدر السابق ٣: ٤٨.
- (١٠٢) المصدر السابق ٣: ٦٧.
- (١٠٣) المصدر السابق ٣: ٧٠ و ٤: ٧٣.
- (١٠٤) المصدر السابق ٣: ١٢٩.
- (١٠٥) المصدر السابق ٢: ٢٨٢.
- (١٠٦) متشابه القرآن، (قم، منشورات «بيدار»، ١٤١٠هـ) ٢: ٤١.
- (١٠٧) اليقين: ٤٧٧.
- (١٠٨) الطُّرْف، (ميراث إسلامي إيران، المجلد الثالث): ١٨٦.
- (١٠٩) كتب (كليرج) - مكتبة ابن طاووس: ٣٩٨، ش ٣٥٦ - يقول: إنَّ المقصود من ذلك هو ترتيبه الأبواب بحسب أسماء الرواة. ومع ذلك لا يمكننا تأييد هذا القول بالكامل إذا ما علمنا أنَّه قام مثلاً بنقل حديث عن سلمان في (اليقين: ٤٧٧) لا يناسب وضعه في باب الهاء، وشبهه هذا الأمر موجود كذلك في كتاب (الطُّرْف).
- (١١٠) وقام كذلك بنقل نصوص أخرى لعلماء من أهل السنة يمدحون فيها الطبري ويشنون عليه. [اليقين باختصاص مولانا عليّ بأمير المؤمنين، تصحيح الأنصاري، قم دار الكتب، ١٤١٣هـ: ٤٨٧].
- (١١١) اليقين: ٢١٥-٢١٦.
- (١١٢) طرق حديث «من كنت مولاه...»: ٢٩.
- (١١٣) المصدر السابق: ٤١.
- (١١٤) المصدر السابق: ٦٢.
- (١١٥) المصدر السابق: ٩١.
- (١١٦) البداية والنهاية ٥: ٢٢٧-٢٣٣ بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ).
- (١١٧) المصدر السابق ٧: ٣٨٣-٣٨٧.
- (١١٨) المصدر السابق ٥: ٢٢٧.
- (١١٩) الصراط المستقيم ١: ٩.
- (١٢٠) المصدر السابق ١: ١٥٣.
- (١٢١) الغدير ١: ٢١٤؛ راجع: الصراط المستقيم ١: ٣٠١.
- (١٢٢) الصراط ٣: ٧٩، ٨١، و ١٦٢.
- (١٢٣) المصدر السابق ١: ٤، و ٣: ٢٥٥.
- (١٢٤) المصدر السابق ١: ٢٤٦. وفي ١: ٢٦١ يُدرج اسمه في عداد كتّاب الشيعة كإبن بطريق وإبن بابويه، ويحتمل أنَّه قد قصد من الطبري صاحب «المسترشد».

- (١٢٥) الصراط ١: ٢٣٣؛ وأسند ابن جرير الطبري في كتاب (المناقب) إلى النبي...
 (١٢٦) بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ.
 (١٢٧) حول كتاب (الولاية) راجع: الغدير ١: ١٥٢.
 (١٢٨) الغدير في التراث الاسلامي، (بيروت، دار المؤرخ العربي، ١٤١٤هـ): ٣٥-٣٧؛ أهل البيت في المكتبة العربية، (قم، مؤسسة آل البيت، ١٤١٧هـ): ٦٦١-٦٦٤، ش ٨٥٢.

فقه الحجّ عند الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

عبد الكريم آل نجف

ما كادت الفضائل تجتمع في إنسان اجتماعها في علي بن أبي طالب عليه السلام وما كادت فضائله تبرز بروز علمه وفقهه وإحاطته بالأحكام والسنن والقضايا. ويكفيه منقبة في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في حقّه: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(١). فهو المفسّر الأوّل والمتكلّم الأوّل والفقهاء الأوّل في الإسلام. رغم ما أبداه الزمان له من جفاء ومؤامرات وخيانة أدّت إلى إسدال الستار على الكثير من علومه وعطاءه الثرّ للإسلام والإنسانية، إلى الحدّ الذي يتقطّع معه المنصف المأّ وهو يرى صحيحى البخاري ومسلم في احتفاء تامّ بأسماء الضعفاء والنكرات في الموازين الصحيحة للدين والفقه بعيداً عن ضوضاء السياسة وصخبها، أمثال أبي هريرة وعكرمة وكعب الأحبار بينما لم يرَ في أسانيدهما اسم علي بن أبي طالب عليه السلام إلاّ بنحو عفو الخاطر، وعروض العارض الطارئ.

ومقتضى إمامته الفكرية على المسلمين الرجوع إليه فيما يعترض حياتهم من مشكلات فكرية ومطالب دينية، ومن جملتها المطالب الفقهية.

والدراسة التي بين أيدينا محاولة لتسليط الضوء على ما وصل إلينا من تراث الإمام عليه السلام الفقهي في كتاب الحج من أبوابه المختلفة، نأمل أن تكون موفقة في تحقيق ما نتوخاه من أغراض تتصل بتخليد تراث الإمام الفقهي من جهة، وتسليط أضواء علوية على فقه الحج من جهة ثانية.

ومصدر روايات وأحاديث هذه الدراسة يتمثل بشكل أساس في:

١ - ما ورد في وسائل الشيعة للحرّ العاملي من أخبار وروايات نُسبت إلى الإمام علي عليه السلام وعالجت جوانب الحج المختلفة.

٢ - ما جمعه الدكتور محمد رؤاس قلعه جي في كتابه «موسوعة فقه علي بن أبي طالب» من أخبار وروايات عن الإمام علي عليه السلام في أبواب الحج المختلفة، من مصادر الحديث والفقه والتفسير المختلفة لدى مذاهب الجمهور.

والمصدر الأول هو الأساس، والمصدر الثاني جيء به لغرض المقارنة والإضافة المناسبة لموضوع البحث. وقد قسّمنا هذه الدراسة إلى أبواب بحسب الأبواب الفقهية المتعارفة في كتاب الحج قدر الإمكان بعد حذف الأبواب التي لم يرد فيها أثر عن الإمام علي عليه السلام.

أولاً - مقدّمات الحجّ

وتشمل الأحكام الفقهية التمهيدية لفريضة الحجّ، ممّا له علاقة بمرحلة ما قبل الاحرام، وقد وردت عن الإمام علي عليه السلام آثار فقهية عن هذه المرحلة نوردّها في النقاط التالية:

١ - في وجوب الحجّ وفضيلته وأركانه

المعروف من شريعة الإسلام أنّ الحجّ هو من أعظم شعائر الإسلام، وأنّ من سوّف الحجّ حتى يموت بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً، هذا لمن كان مستطيعاً كما في المروي عن النبي صلى الله عليه وآله (٢).

وقد وردت في هذا المعنى آثار عديدة عن أمير المؤمنين عليه السلام منها ما قاله ضمن

خطبة له : «ألا ترون أنّ الله اختبر الأولين من لدن آدم إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار ما تضرّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع.... ثمّ أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه...»^(٣).

وقال عليه السلام في خطبة أخرى : «فرض عليكم حجّ بيته الذي جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزّته... فرض حجّه وأوجب حجّه وكتب عليكم وفادته...»^(٤)، وكان عليه السلام يخاطب أبناءه بقوله : «انظروا بيت ربكم فلا يخلونّ منكم فلا تناضروا»^(٥) كلّ هذا في الحجّ الواجب.

أمّا في فضيلة الحجّ واستحبابه فقد ورد عنه عليه السلام في خبر روي في العلل وعيون الأخبار والخصال بسند ينتهي إلى الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليه السلام أنّ رجلاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام : كم حجّ آدم من حجّة؟

فقال له : سبعائة حجّة ماشياً على قدميه ، وأوّل حجّة حجّها كان معه الصرد يدلّه على الماء وخرج معه من الجنة .. وسأله عن أوّل من حجّ من أهل السماء فقال : جبرئيل عليه السلام^(٦).

وروي عنه عليه السلام أنّه قال : «ضمنت لستّة الجنة، وعدّ منهم من خرج حاجّاً فمات»^(٧).

وكيف كان فضيلة الحجّ ممّا لا تحتاج إلى بيان ، وإنّما وقع البحث في تحديد النوع الأفضل ، فذهب مشهور السنّة إلى أفضلية الإفراد ، وذهبت الإمامية إلى أفضلية التمتع . قال في الجواهر : «لا خلاف أيضاً في أفضلية التمتع على قسميه لمن كان الحجّ مندوباً بالنسبة إليه لعدم استطاعته أو لحصول حجّة الإسلام منه . والنصوص مستفيضة فيه أو متواترة بل هو من قطعيات مذهب الشيعة ، بل في بعضها عن الصادق عليه السلام : لو حججت ألفي عام ما قدمتها إلّا متمتّعاً»^(٨).

وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن ذلك فأجاب عليه السلام : «إنّ عليّاً عليه السلام كان يقول لكلّ شهر عمرة، تمتّع فهو والله أفضل...»^(٩)، خلافاً لما ترويه المصادر السنيّة عنه من

أنّه ، كان يقول : «أفرد الحج فإنّه أفضل»^(١٠).

٢ - النية

من المعلوم في شريعة الإسلام أنّ النية شرط في كلّ عبادة ، والحجّ من جملة العبادات التي لا تتمّ إلاّ بالنية ، وهذا ممّا لا إشكال فيه ، ولا شكّ يعتريه ، إنّما وقع البحث بين الفقهاء في الجهة التي تنعقد لها النية ، هل هي نية الاحرام أم نية الخروج إلى مكّة أم نية النوع من تمتع أو أفراد أو قران ، أم الجمع بين النية للنوع والنية لكلّ فعل من أفعاله؟

وجوه متعدّدة ذكرها الفقهاء ، وأوردها صاحب الجواهر عنهم ، ثمّ اختار منها القول بأنّ النية هي نية النوع^(١١).

وفي موسوعة فقه علي بن أبي طالب أورد نصّاً عن الإمام عليه السلام نقله عن مسند زيد استفاد منه فقهاء السنّة أنّ النية تكون للنوع ، وهو قوله عليه السلام «من شاء ممّن لم يحجّ يتمتّع بالعمرة إلى الحجّ، ومن شاء قرنها جميعاً، ومن شاء أفرد»^(١٢). ولكن تخصيص الكلام بمن لم يحجّ يفيد أنّ الإمام عليه السلام بصدد أمر آخر غير النية ، فإنّ النية ثابتة في العبادة الواجبة والمستحبّة ، فيمن حجّ سابقاً وأراد حجة جديدة مستحبّة ومن لم يحجّ وأراد الصرورة.

٣ - يجب الحجّ على المرأة ولو لم يكن معها محرم

نقل عبدالله بن جعفر في قرب الاسناد ، بإسناده عن الحسين بن علوان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه نقل عن أبيه الباقر عليه السلام : «أنّ عليّاً كان يقول لا بأس أن تحجّ المرأة الصرورة مع قوم صالحين إذا لم يكن لها محرم ولا زوج»^(١٣). فيكفي في الوجوب عليها غلبة ظنّها بالسلامة على نفسها لصدق الاستطاعة عليها إذا كانت مأمونة وكان معها في الرفقة ثقات ، كما قال في الجواهر^(١٤) ، ومفهوم كلام علي عليه السلام وسائر الروايات في المقام أنّ الوجوب يرتفع إذا غلب عليها الخوف من الطريق .

٤ - حج الصبي والمملوك

المعروف من الفقه أن الحج لا يجب على الصبي والمملوك، ولو حج أحدهما لم يجزه ذلك عن حجة الإسلام عند حصول البلوغ بالنسبة إلى الصبي وتحقق العتق بالنسبة إلى المملوك، وفي ذلك روايات كثيرة عن الأئمة عليهم السلام منها ما عن الإمام الصادق عليه السلام «الصبي إذا حج به فقد قضى حجة الإسلام حتى يكبر، والعبد إذا حج به فقد قضى حجة الإسلام حتى يعتق»^(١٥).

ولم يستدل فقهاء الإمامية في هذا الباب بحديث عن الإمام علي عليه السلام، غير أن فقهاء السنة أوردوا عنه حديثاً يقول فيه: «إذا حج الصبي أجزأه ما دام صبيّاً، فإذا بلغ فعليه حجة الإسلام، وإذا حج العبد أجزأه ما دام عبداً، فإذا عتق فعليه حجة الإسلام»^(١٦).

٥ - حج القران

ينقسم الحج إلى تمتّع وافراد وقران، الأوّل فرض البعيد عن مكة، والثاني والثالث فرض أهل مكة، ولم يرد في مصادر الحديث والفقه الإمامي عن علي عليه السلام في هذا الباب شيء، بينما ذكرت المصادر السنيّة أن أبا نصر السلمي قال: «أهللت بالحج فأدركت عليّاً فقلت: أهللت بالحج أفأستطيع أن أضمّ إليه عمرة؟ قال: لا لو كنت أهللت بالعمرة ثم أردت أن تضمّ إليها الحجّ ضممته، فإذا بدأت بالحجّ فلا تضمّ إليه عمرة، قال: فما أصنع إذا أردت؟ قال: صب عليك ادواة من ماء ثم تحرم بهما جميعاً فتطوف لهما طوافين»^(١٧).

وروا أيضاً «أنّ المقداد دخل على عليّ بن أبي طالب بالسقيا وهو يسقي بكرات له دقيقاً وخبطاً فقال: هذا عثمان بن عفان ينهى عن أن يقرن بين الحجّ والعمرة، فخرج عليّ وعلى يديه أثر الدقيق والخبط حتى دخل على عثمان فقال: أنت تنهى عن أن يقرن بين الحجّ والعمرة؟ فقال عثمان: ذلك رأيي. فخرج عليّ مغضباً وهو يقول: لبيك اللهم لبيك بحجّ وعمرة معاً»^(١٨).

وروى ابن أبي شيبه عن مروان بن الحكم قال : «كنا نسير مع عثمان فسمع رجلاً يلبي بهما جميعاً فقال عثمان: من هذا؟ قالوا: عليّ، فأتاه عثمان فقال له: ألم تعلم أنّي نهيت عن هذا؟ فقال: بلى ولكن لم أكن لأدع فعل رسول الله بقولك»^(١٩). واضطربت رواياتهم عنه في كيفيته ففي رواية عنه عليه السلام أن القارن يطوف طوافاً واحداً وسعيّاً واحداً، وفي أخرى أنّه يطوف طوافين ويسعى سعيّاً واحداً^(٢٠). والمعروف في الفقه الإمامي أن القارن يتمّ بسعي واحد وطوافين^(٢١). ونقلوا عنه عليه السلام أنّه قال : «من شاء أن يجمع بين الحجّ والعمرة فليسق هديه معه»^(٢٢).

٦ - النيابة وأحكامها

وفي باب النيابة في الحجّ وردت عن الإمام علي عليه السلام روايات في نقطتين :
أولاهما - في استنابة الموسر في الحج إذا منعه مرض أو كبر أو عدوّ. فقد ورد أنّه عليه السلام رأى شيخاً لم يحجّ قط ولم يطق الحج في كبره، فأمره أن يجهر رجلاً فيحجّ عنه^(٢٣).

وردّ صاحب الجواهر دلالة هذا الحديث وأمثاله على الوجوب، خلافاً لما في الحدائق من دلالة على ذلك.

ونقلت المصادر السنيّة هذا المضمون عن الإمام عليّ، حيث روي عنه قوله عليه السلام : «الشيخ الفاني الذي لا يستطيع أن يحجّ يجهّز رجلاً على نفقته فيحجّ عنه»^(٢٤). وروي عنه أيضاً أنّه لم يكن يرى بأساً أن يحجّ الرجل عن الرجل ولم يحجّ قط^(٢٥). وهو الموافق للفقه الإمامي فيما إذا كان النائب مستكماً لشرائط الوجوب في ذلك العام^(٢٦).

وثانيتها - في وجوب أن يأتي النائب بما شرط عليه من تمتّع أو قران أو افراد فقد وردت في ذلك رواية نقلها صاحب الوسائل عن التهذيب والاستبصار عن الحسن بن محبوب عن عليّ عليه السلام «في رجل أعطى رجلاً دراهم يحجّ بها حجة بها حجة مفردة قال: ليس له أن يتمتّع بالعمرة إلى الحجّ لا يخالف صاحب الدراهم»^(٢٧).

ولم يعلم الإمام المسؤول في هذه الرواية لوضوح أنّ الحسن بن محبوب لا يروي عن الإمام عليّ عليه السلام، ففيها إرسال في أكثر من واسطة إذا كان المقصود بعليّ هو أمير المؤمنين عليه السلام وكانت الرواية منقولة عن الإمام الكاظم عليه السلام أو الإمام الرضا عليه السلام اللذين عاصرها الحسن بن محبوب وروى عنهما، ويحتمل أن يكون الإمام المقصود هو علي بن موسى الرضا عليه السلام الذي عرف الحسن بروايته عنه، ولأجل تردّد الرواية بين هذين الاحتمالين، فقد اعتبرها الشيخ الطوسي في التهذيب موقوفة غير مسندة إلى أحد من الأئمة^(٢٨). واعتبرها صاحب الجواهر مضمرة لم يُعرف الإمام المسؤول فيها^(٢٩)، ولكن اشتهار التعبير عن الإمام علي عليه السلام في لسان الروايات بما هو وارد في هذه الرواية، واشتهار التعبير عن أسمائه من الأئمة بالكنى أو بالألقاب أو بالاسم الثنائي أو الثلاثي بنحو جعل التعبير بالاسم المفرد وكأنّه من خواص الروايات عن الإمام علي عليه السلام يجعل احتمال كونها عنه قوياً، فتكون مرسلّة حينئذٍ.

٧ - مَنْ نذر الحجّ ماشياً

المعروف في مسألة من نذر الحجّ ماشياً وجوب ذلك عليه، وأدّعي الإجماع على ذلك، وكتفريع على ذلك ظهرت مسألة حكم مواضع العبور التي يضطرّ الحاج إلى ركوب السفينة فيها، ونحوها، وقد روي عن الباقر عليه السلام عن آبائه: أنّ عليّاً سئل عن ذلك فقال: «فليقم في المعبر قائماً حتّى يجوز»^(٣٠).

٨ - المواقيت

لم تورد مصادر الحديث والفقه الإمامي شيئاً مأثوراً عن الإمام علي عليه السلام في باب المواقيت، بينما ذكرت بعض المصادر السنيّة خبراً عنه عليه السلام يقول فيه: «ميقات من حجّ من المدينة أو اعتمر ذو الحليفة، فمن شاء استمتع بثيابه وأهله حتّى يبلغ ذو الحليفة، وميقات من حجّ أو اعتمر من أهل العراق العقيق، فمن شاء استمتع بثيابه وأهله حتّى يبلغ العقيق، وميقات من حجّ أو اعتمر من أهل الشام الجحفة، فمن

شاء استمتع بثيابه وأهله حتى يبلغ الجحفة ، وميقات من حج أو اعتمر من أهل اليمن يللمن فمن شاء استمتع بثيابه وأهله حتى يبلغ يللمن . وميقات من حج من أهل نجد واعتمر قرن المنازل ، وميقات من كان دون المواقيت من أهله»^(٣١) . وهذه المواقيت مطابقة لما عليه الفقه الإمامي سوى تفاوت طفيف^(٣٢) .

٩ - حكم الإحرام قبل الميقات

الميقات هو النقطة التي يجب عندها ارتداء ثوبي الإحرام ، أمّا إذا كان الحاج قد أحرم قبل الميقات فما هو حكمه؟

المعروف في الفقه السني جواز ذلك وكونه من تمام الحج ، ورووا في ذلك روايات عن الإمام علي عليه السلام أنه يفسر قوله تعالى : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ بأن : «إتمامها أن تحرم بهما من دويرة أهلك» ، وإن رجلاً أتى عمر فقال : إنني ركبت السفن والخيل والإبل فمن أين أحرم؟ فقال : أتت علياً فأسأله ، فسأل علياً فقال له : «من حيث بدأت أن تنسئها من بلادك» ، وأنه عليه السلام أحرم من المدينة المنورة^(٣٣) . . غير أن الفقه الإمامي قائم على عكس ذلك تماماً ، وهو أن الإحرام لا ينعقد قبل الميقات وأنه غير جائز^(٣٤) ، وفي ذلك روايات عديدة عن أئمة أهل البيت ، منها رواية عن الإمام الباقر وروايتان عن الإمام الصادق عليه السلام في تقض ما يرويه أهل السنة عن الإمام علي عليه السلام وفيها جميعاً الاستغراب من ذلك ، وأن الأمر لو كان كما يقولون لما ترك الرسول صلى الله عليه وسلم فضيلة ذلك ولأحرم من المدينة ، مع أنه قد أحرم من ذي الحليفة^(٣٥) .

ثانياً - محرمات الاحرام وجزاء مخالفتها

أمّا في باب محرمات الاحرام فقد وردت عنه عليه السلام الآثار التالية من مصادر الفريقين :

- ١ - عدم جواز صيد البر على المحرم وحرمة أكله على المحرم والمحل
- فقد ورد في صحيحة محمد بن مسلم عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال : «مرّ

علي عليه السلام على قوم يأكلون جراداً فقال: سبحان الله وأنتم محرمون؟ فقالوا: إنما هو من صيد البحر، فقال لهم: إرموه في الماء إذن» (٣٦).

ومقتضى شبهتهم في ذلك أنه يكون حلالاً؛ لأنَّ صيد البحر قد نصَّ القرآن على حلّيته قال تعالى: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ فقال الإمام عليه السلام لهم في مقام دحض شبهتهم: إرموه في الماء، أي لو كان بحرياً لعاش في الماء.

ونقل في الجواهر عن المنتهى والتذكرة للعلامة أنَّ كونه من صيد البر قول أكثر علمائنا وأكثر علماء العامة أيضاً، وعن المسالك أنه لا خلاف فيه عندنا، خلافاً لأبي سعيد الخدري والشافعي وأحمد في رواية (٣٧).

وجمع صاحب موسوعة فقه علي بن أبي طالب آثاراً عنه في هذا الباب وردت في المصادر السنية فكتب يقول:

يحرم على المحرم قتل الصيد، والإشارة إليه، والدلالة عليه، واتباعه، وأكله. قال علي: «لا يقتل المحرم الصيد ولا يشير إليه ولا يدلّ عليه ولا يتبعه» (٣٨) فإن فعل شيئاً من ذلك فقتله هو أو قتله الحلال فالمحرم ضامن لذلك (٣٩). ولا يحل للمحرم أكل لحم الصيد سواء أصاده الحلال أو المحرم وسواء أصيد للمحرم أو لم يُصدَّ له (٤٠).

فقد كان الحارث بن نوفل خليفة عثمان على مكة، فلما قدم عثمان مكة استقبله بقديد، فاصطاد أهل الماء حجلاً، فطبخ وقدم إلى عثمان وأصحابه، فأمسكوا، فقال عثمان: صيد لم نصده ولم نأمر بصيده، اصطاده قوم حل، فأطعمونا، فما بأس به، فبعث إلى علي فجاءه، فذكر له، فغضب علي وقال: «أنشد الله رجلاً شهد رسول الله حين أتى بقائمة حمار وحش، فقال رسول الله: إِنَّا قَوْمٌ حُرُمٌ فَأُطْعِمُوهُ أَهْلَ الْحِلِّ، فشهد اثنا عشر رجلاً من أصحاب رسول الله، ثُمَّ قَالَ عَلِيٌّ: أَنْشُدِ اللَّهَ رَجُلًا شَهِدَ رَسُولُ اللَّهِ حِينَ أَتَى بِبَيْضِ النَّعَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: إِنَّا قَوْمٌ حُرُمٌ فَأُطْعِمُوهُ أَهْلَ

الحل»، فشهد دونهم من العدة - من الاثني عشر - قال: فثنى عثمان وركه من الطعام، فدخل رحله وأكل الطعام أهل الماء^(٤١). وروى عبد الرزاق أن علياً كره الصيد وهو محرم وتلا هذه الآية ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْغِيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾^(٤٢).

ويعتبر قتل الضبع غير العادي صيداً يوجب الجزاء، أما إذا عدا على المحرم فقتله المحرم فلا شيء فيه، قال علي: «إذا عدا الضبع على المحرم فليقتله، فإن قتله قبل أن يعدو عليه فعليه شاة مسنة»^(٤٣).

ويحلّ للمحرم قتل الحية السوداء والأفعى، والعقرب، والكلب العقور، ويحلّ له أن يقتل من عدا عليه من الحيوان^(٤٤)، ويحلّ له قتل الغراب^(٤٥) ويحلّ له أن يقرد بعيره^(٤٦) (٤٧).

وقال في الجواهر: إن المحرم إذا ذبح صيده البري كان ميتة حراماً على المحل والمحرم، كما صرح به الشيخ والحلي والقاضي ويحيى بن سعيد والفاضلان وغيرهم على ما حكى عن بعضهم... بل في النهاية والمبسوط والتهذيب والوسيلة والجواهر على ما حكى عن بعضها أنه كالميتة، بل في الأخير الإجماع عليه أيضاً ثم استدلل على ذلك بـخبرين عن الإمام علي عليه السلام في هذا المورد وهما: «خبر وهب بن وهب عن جعفر عن أبيه عن علي عليه السلام: إذا ذبح المحرم الصيد لم يأكله الحرام والحلال، وهو كالميتة، وإذا ذبح الصيد في الحرم فهو ميتة حلال ذبحه أم حرام، وخبر إسحاق عن جعفر عليه السلام أيضاً: إن علياً عليه السلام كان يقول: إذا ذبح المحرم الصيد في غير الحرم فهو ميتة لا يأكله محل ولا محرم، وإذا ذبح المحل الصيد في جوف الحرم فهو ميتة لا يأكله محل ولا محرم»^(٤٨).

٢ - جواز الإدهان قبل الإحرام

المعروف في فقه الحج حرمة الادھان على الحاج بعد الاحرام، وكذا يحرم عليه ذلك قبل الاحرام إذا كان للطيب ریح تبقى إلى بعد الإحرام^(٤٩) ويجوز له ذلك

قبل الإحرام إذا لم يكن للطيب رائحة تبقى بعد الإحرام، وعلى ذلك يحمل الخبر الوارد عن محمد بن مسلم عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه: كان علي (عليه السلام) في هذا الباب يقول: «لا يدهن المحرم ولا يتطيّب، فإن أصابه شقاق دهنه ممّا يأكل، وإن اشتكى عينه اكتحل بالصبر، وليس بالزعفران»^(٥٠).

٣ - جواز الإحرام بثوب مصبوغ بالمشق

اشتهر بين الفقهاء القول بکراهة الإحرام بالثياب المصبوغة سوى ما استثنى من ذلك بدليل. وممّا ورد الدليل باستثنائه الثياب المصبوغة بالمشق، وهو طين أحمر كانوا يصبغون به الثياب، فقد ورد عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): «كان علي (عليه السلام) محرماً ومعه بعض صبيانته وعليه ثوبان مصبوغان فمرّ به عمر بن الخطّاب فقال: يا أبا الحسن ما هذان الثوبان المصبوغان؟

فقال (عليه السلام): ما نريد أحداً يعلمنا السنّة إنّما هما ثوبان صبغا بالمشق»^(٥١).
 وأورد صاحب موسوعة فقه علي بن أبي طالب مضمون هذا الخبر وأخباراً أخرى تحت عنوان «ما يحرم على المحرم من اللباس» فكتب يقول:
 وبإباح للرجل لبس المورد من الثياب إذا لم يكن تورده بزعفران أو ورس أو عصف^(٥٢)، فعن محمد بن علي بن الحسين قال: رأى عمر بن الخطّاب على عبد الله ابن جعفر ثوبين مضرّجين وهو محرم، فقال: ما هذا؟

فقال علي بن أبي طالب: «ما أخال أحداً يعلمنا السنّة»، فسكت عمر^(٥٣).
 ولا يجوز للمحرم أن يغطّي رأسه، قال علي: «إحرام الرجل في رأسه»^(٥٤)، أما المرأة فإنّها تلبس ما شاءت من الثياب غير ما صبغ بطيب، وتلبس الخفين والسراويل والجبّة^(٥٥) ولكنّها لا تتنقب - أي لا تتلثم - فإن أرادت أن تستر وجهها فلتسدل الثوب عليه سداً. فقد روى ابن أبي شبيب بسنده عن علي أنّه كان ينهى النساء عن النقاب وهن حرم، ولكن يسدن الثوب على وجوههن سداً^(٥٦)، كما نهاهن عن لبس القفازين^(٥٧)، وبإباح للمحرم لبس الخاتم، فعن إسماعيل بن

عبد الملك قال: رأيت عليّ علي خاتماً وهو محرم» (٥٨) (٥٩).

كما أورد أخباراً عنه عليه السلام وردت في المصادر السنية في أبواب حرمة النكاح على المحرم، وحرمة فصل شيء من جسده، وإباحة الحجامة له فكتب يقول:

٤ - النكاح ودواعيه: ولا يجوز للمحرم النكاح فإن فعل ردّ نكاحه، قال علي كرم الله وجهه: «المحرم لا ينكح ولا ينكح، فإن نكح فنكاحه باطل» ومن رواية أنه قال: «من تزوّج وهو محرم نزعنا منه امرأته» (٦٠) فإن وطئ زوجته فسد حجّه. فقد سئل عليّ عن رجل أصاب أهله وهو محرم بالحج فقال: «ينفذان، يمضيان لوجههما حتى يقضيا حجّهما، ثمّ عليهما حجّ قابل والهدي، وإذا أهلاً بالحج من عام قابل تفرّقا حتى يقضيا حجّهما» (٦١).

وكما يحرم الجماع في الحج يحرم دواعيه كالقبلة ونحوها، ولكنها لا تفسد الحج قال علي: «إذا قبل المحرم امرأته فعليه دم» (٦٢).

٥ - فصل شيء من أعضاء جسده: كالسن والظفر والشعر. قال علي: «لا ينزع المحرم سنه ولا ظفره إلا أن يؤذيه» (٦٣).

وخرج حسين بن علي مع عثمان في سفره إلى مكة ففرض في الطريق، فمر به عبدالله بن جعفر وهو مريض بالسقيا، فأقام عليه عبدالله بن جعفر، حتى إذا خاف فوات الحج خرج وبعث إلى علي بن أبي طالب وأسما بنت عميس وهما بالمدينة، فقدموا عليه، ثمّ إنّ حسيناً أشار إلى رأسه، فأمر علي برأسه فحلق، ثمّ نسك عنه بالسقيا فنحر عنه بعيراً (٦٤).

وبياح للمحرم: غسل بدنه ورأسه (٦٥)، وتباح له الحجامة، قال علي كرم الله وجهه: «يحتجم المحرم إن شاء» (٦٦) (٦٧).

هذا ما ورد عنه عليه السلام في باب محرّمات الإحرام، أمّا في جزاء مخالفة هذه المحرّمات فقد وردت عنه جملة أخرى من الآثار هي:

١ - حرمة وضمان صيد طير على فرع شجرة أصلها في الحرم وفرعها في الحلّ.

فقد روي أَنَّهُ ﷺ سئل عن ذلك فَأجاب ﷺ : «عليه جزاؤه إذا كان أصلها في الحرم» (٦٨).

٢ - في قتل الحمامة شاة

قال في الجواهر: «في قتلها شاة على المحرم في الحل على المشهور بين الأصحاب بل في التذكرة ومحكي الخلاف والمنتهى الإجماع عليه، بل في الأول أيضاً، وبه قال علي ﷺ وعمر وعثمان وابن عمر...» (٦٩) ولم أجد له خبراً يدل عليه في الوسائل، ولعل صاحب الجواهر نقله عن مصادر العامة كما سيأتي.

٣ - في قتل القطاة حمل

ورد عن الإمام الصادق ﷺ أَنَّهُ قال: «وجدنا في كتاب علي ﷺ في القطاة إذا أصابها المحرم حمل قد فطم من اللبن وأكل الشجر» ومثله خبر آخر عن الإمام الباقر ﷺ (٧٠)، وعلى ذلك فتوى الفقهاء (٧١).

٤ - حكم المحرم والمحل إذا قتل صيداً

ورد عن الإمام الباقر ﷺ أَنَّهُ يقول: «كان علي ﷺ يقول في محرم ومحل قتل صيداً فقال: على المحرم الفداء كاملاً وعلى المحل نصف الفداء» (٧٢) وفي المسألة خلاف بين الفقهاء (٧٣).

٥ - في كسر بيض النعام

وفي هذه المسألة صورتان، صورة ما إذا كان في البيض فرخ يتحرك، وفيها ورد عن الإمام الصادق ﷺ «أن في كتاب علي ﷺ في بيض القطا بكارة من الغنم إذا أصابه المحرم مثل ما في بيض النعام بكارة من الإبل» (٧٤) لكل بيضه. وصورة ما إذا كُسرت البيضة قبل أن يتحرك فيها الفرخ، أو مع عدم وجود فرخ فيها أصلاً، وفيها ورد أيضاً عن الإمام الصادق ﷺ أَنَّهُ: «قضى فيها أمير المؤمنين ﷺ أن يرسل الفحل في مثل عدد البيض من الإبل الإناث فما لقح وسلم كان النجاج هدياً بالغ الكعبة» (٧٥). وجرى على ذلك كلمة الفقهاء في صورتين (٧٦).

٦- لو جرح صيداً ولم يعلم حاله

لو جرح المحرم صيداً ومضى عنه ولم يعلم حاله بعد أن جرحه لزمه الفداء الكامل، وردت في ذلك رواية عن الإمام الباقر عن آبائه عن علي عليه السلام «في المحرم يصيب الصيد فيدميه ثم يرسله قال: عليه جزاؤه»^(٧٧).

٧- لو اضطرَّ المحرم إلى أكل صيد أو ميتة

ما حكم المحرم إذا اضطرَّ إلى تناول الصيد أو ميتة كانت عنده؟ ورد عن الإمام علي عليه السلام خبر في ذلك يقول فيه: «إذا اضطرَّ المحرم إلى الصيد والميتة فليأكل الميتة التي أحلَّ الله له»^(٧٨)، وهذه الرواية مخالفة لما استقرَّ عليه المذهب الإمامي من اختيار الصيد مع التمكن من الفداء، فإن لم يمكنه الفداء اجتنب الصيد وأكل من الميتة، ونقل صاحب الجواهر ادعاء السيّد المرتضى الإجماع عليه، كما احتمل صاحب الجواهر أن يكون مورد الرواية ما إذا لم يكن واجداً للصيد وإن اضطرَّ إليه^(٧٩).

أمّا ما أوردته المصادر السنيّة من آثار فقهية عن الإمام علي عليه السلام في جزاء مخالفات الإحرام فقد جمع صاحب موسوعة فقه علي بن أبي طالب عليه السلام ما نصّه: «لقد قضى علي في النعامة ببذنة - جمل -^(٨٠) وفي بيضها جنين ناقة، فعن ابن عبّاس قال: قضى علي بن أبي طالب في بيض النعامة يصيبها المحرم: ترسل الفحل على إبلك، فإذا تبين لقاحها سميت عدد ما أصبت من البيض فقلت: هذا هدي، ثمّ ليس عليك ضمان ما فسد، قال ابن عبّاس: فعجب معاوية من قضاء علي، قال ابن عبّاس: لم يعجب معاوية من عجب، ما هو إلّا ما يباع به البيض في السوق فيتصدّق به»^(٨١).

وفي سنن البيهقي أنّ هذا القضاء كان ممّا قضى به عليّ في حياة رسول الله، فانطلق الرجل إلى نبي الله فأخبره بما قال علي، فقال النبي صلى الله عليه وآله: «قد قال علي ما تسمع، ولكن هلم إلى الرخصة، عليك في كلّ بيضة صيام يوم أو إطعام مسكين»^(٨٢).

وقضى في الضبع يصيده المحرم دون أن يعدو عليه بكبش وإن عدا عليه فلا شيء فيه^(٨٣).

وفي الظبي شاة^(٨٤).

وفي حمام الحرم يحكم به ذوا عدل منكم، قال: شاة^(٨٥).

وفي كلّ بيضتين من بيوض الحمام درهم^(٨٦).

جزاء حلق الشعر: قال علي فيمن يصيبه أذى من رأسه فحلق: «يصوم ثلاثة أيام، وإن شاء أطعم ستّة مساكين لكلّ مسكين نصف صاع، وإن شاء نسك ذبح شاة^(٨٧)، ويفعل ذلك أين شاء، وفي الحرم أو في غيره. أما ذبح عليّ بدنة بالسقيا عندما حلق شعر ابنه حسين فهو تطوّع منه رضي الله عنه^(٨٨).

جزاء الوطء: قال علي في الرجل يقع على امرأته - وهو محرم -: «على كلّ واحد منهما بدنة^(٨٩)، وعليه الحج من قابل.

جزاء القبلة واللمس بشهوة: قال علي: «إذا قبّل المحرم امرأته فعليه دم^(٩٠)، أي شاة.

ولا يجوز لمن ذبح هدياً جزاءً أن يأكل شيئاً منه، قال علي: «لا يأكل من النذر ولا من جزاء الصيد ولا ممّا جعل للمساكين^{(٩١)(٩٢)}.

ثالثاً - أفعال الحجّ

الواجب في الحجّ من الأفعال اثنا عشر: الاحرام، والوقوف بعرفات، والوقوف بالمشعر، ونزول منى، والرمي، والذبح، والحلق بها أو التقصير، والطواف، وركعتاه، والسعي، وطواف النساء، وركعتاه.

وقد وردت آثار عن الإمام علي عليه السلام في أكثر هذه الأبواب. وعلى النحو التالي:

١ - من واجبات الاحرام التلبّيات الأربع

ولا ينعقد إحرام عمرة التمتع وحجّه إلّا بها، والواجب منها مرّة واحدة،

ويستحب الإكثار والتكرار للحاج حتى زوال يوم عرفة^(٩٣).
وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المورد خبران، أحدهما يدل على استحباب رفع الصوت بالتلبية بالنسبة إلى الرجل. وهو قوله عليه السلام «جاء جبرئيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال له: إِنَّ التلبية شعار المحرم فارع صوتك بالتلبية»^(٩٤)، وعلى ذلك مشهور الفقهاء، وقد استدّلوا عليه بأخبار أخرى ولم يوردوا هذا الخبر، ربّما لعلّ الإرسال فيه^(٩٥)، وثانيهما قوله عليه السلام: «تلبية الأخرس وتشهده وقراءته القرآن في الصلاة تحريك لسانه وإشارته بأصبعه»^(٩٦).

أمّا المصادر السنية فذكر صاحب موسوعة فقه علي بن أبي طالب: «روى كلّ من ابن أبي شيبة والبيهقي وابن حزم في المحلّ بأسانيدهم أنّ عليّاً رضي الله عنه ما زال يهلّ حتى انتهى إلى جمرة العقبة، فعن عكرمة قال: أفضت مع الحسين بن علي فما زال - أسمع - يُلبّي حتى رمى جمرة العقبة، وأخبرني أنّ رسول الله كان يفعل ذلك».

وذكر النووي في المجموع أنّ عليّاً كان يقطع التلبية قبل الوقوف بعرفات، ويعارض هذا ما رواه ابن أبي شيبة بسنده أنّه ذكر لابن عباس أنّ معاوية نهى عن التلبية يوم عرفة، فجاء حتى أخذ بعمودي الفسطاط ثمّ لبّي، ثمّ قال: «علم - معاوية - أنّ عليّاً كان يلبي في هذا اليوم فأحبّ أن يخالفه»، وذكر ابن قدامة في المغني أنّ عليّاً كان يلبي حتى تزول الشمس يوم عرفة^(٩٧).

٢ - الوقوف بعرفات

الوقوف بعرفات من أركان الحج، فمن فاتته الوقوف فيها عامداً من زوال يوم عرفة فقد فاتته الحج؛ ولذا فقد ورد في بعض الآثار أنّ يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة، وفي ذلك ورد عن الإمام الصادق عليه السلام «أنّ فضيل بن عياض سأله عن الحج الأكبر، فقال عليه السلام: أعندك فيه شيء؟ فقلت: نعم كان ابن عباس يقول: الحج الأكبر يوم عرفة، يعني أنّه من أدرك يوم عرفة إلى طلوع الفجر من يوم النحر فقد أدرك

الحج، ومن فاته ذلك فقد فاته الحج... فقال الإمام الصادق (عليه السلام) له: قال أمير المؤمنين (عليه السلام) الحج الأكبر يوم النحر، واحتج بقول الله عز وجل: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ فهي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من ربيع الآخر، ولو كان الحج الأكبر يوم عرفة لكان السبع أربعة أشهر ويوماً...»^(٩٨) وورد عنه (عليه السلام) في مسند زيد أنه قال: «من فاته الموقف بعرفة مع الناس أتاها ليلاً، ثم أدرك الناس في جمع قبل انصراف الإمام فقد أدرك الحج»^(٩٩).

٣ - أعمال منى

تجب في منى على الحاج ثلاثة أعمال هي: الرمي والهدي والحلق أو التقصير. وقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) آثار فقهية في الثاني والثالث، ولم أعثر على أثر له في الأول.

أما الهدي فوردت عنه فيه آثار عديدة نوردتها ضمن المسائل التالية:

● أقل ما يجزي في الهدي

ورد عنه أنه (عليه السلام) يقول: «الثنية في الإبل، والثنية في البقرة، والثنية من المعز، والجذعة من الضأن»^(١٠٠) والثني من الإبل ما كان له خمس سنوات ودخل في السادسة، ومن المعز والبقر ما له سنة ودخل في الثانية، على المشهور، أما الجذع ما أتم سنة ودخل في الثانية. هذا هو أقل ما يجزي في الهدي، وعلى ذلك رأي الفقهاء^(١٠١).

● ما يشترط في الهدي

ذكر الفقهاء شروطاً في الهدي، قال المحقق في الشرائع: «الثالث أن يكون تاماً، فلا تجزي العوراء ولا العرجاء البين عرجها ولا التي انكسر قرنهما الداخل، ولا المقطوعة الاذن، ولا الخصي من الفحول، ولا المهزومة وهي التي ليس على كليتيها شحم و.... والمستحب أن تكون سمينة تنظر في سواد وتبرك في سواد وتمشي في مثله...»^(١٠٢).

وقد وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك أخبار صحيحة كانت مورد استدلال الفقهاء، وأخرى ضعيفة استأنسوا بها لأدلتهم ^(١٠٣). مثل قوله عليه السلام «من تمام الأضحية استشراف عينها واذنها، وإذا سلمت العين والاذن تمت الأضحية، وإن كانت عضباء القرن أو تجر رجلها إلى المنسك فلا تجزي» ^(١٠٤).

وعنه عليه السلام : «إذا اشترى الرجل البدنة عجفاء فلا تجزي عنه، وإن اشتراها سمينة فوجدها عجفاء أجزأت عنه وفي هدي التمتع مثل ذلك» ^(١٠٥)، وعنه عليه السلام أيضاً «كان علي عليه السلام يكره التشريم في الاذان والخرم، ولا يرى بأساً إن كان ثغب في بعض المواسم..» ^(١٠٦).

● الهدي يجزي مع الضرورة عن خمسة وعن سبعة
الأصل أن الهدي الواحد لا يجزي عن أكثر من مكلف واحد، ووردت أخبار تفيد أن الهدي الواحد يجزي عند الضرورات عن أكثر من واحد إذا كانوا أهل خوان واحد، ومن ذلك ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : «البقرة الجذعة تجزي عن ثلاثة من أهل بيت واحد، والمسنة تجزي عن سبعة نفر متفرقين، والجزور تجزي عن عشرة متفرقين».

وقد حمل صاحب الجواهر هذا الخبر وأمثاله عن سائر الأئمة على الأضحية المندوبة، إذ لا تصريح فيها على الهدي الواجب ^(١٠٧).

● حكم نتاج الهدي والحمل عليه
وورد عنه عليه السلام ما يفيد جواز الانتفاع بحليب الهدي والحمل عليه، فقد روي عنه أنه كان : «يطلب البدنة ويحمل عليها غير مضر» ^(١٠٨) و«كان إذا رأى ناساً يمشون قد جهدهم المشي حملهم على بدنة، وقال: إن ضلّت راحلة الرجل أو هلكت ومعه هدي فليركب على هديه» ^(١٠٩)، وعلى ذلك كلمة الفقهاء ^(١١٠).

● أحكام الأضحية
من سنن الإسلام استحباب الأضحية حتى قال علي عليه السلام : «لو علم الناس ما

في الأضحية لأستدانوا وضحوا، إنّه ليغفر لصاحب الأضحية عند أوّل قطرة تقطر من دمها»^(١١١)، وكان عليه السلام يضحى عن رسول الله كلّ سنة بكبش، وعن نفسه بكبش آخر^(١١٢). وكان يقول: «ضح بثني فصاعداً وأشتره سليم الاذنين والعينين واستقبل القبلة...»^(١١٣)، ونقل عن الرسول ﷺ أنّه قال: «نهيتكم عن ثلاثة... ونهيتكم عن خروج لحوم الأضاحي من بعد ثلاثة أيّام فكلوا واذخروا...»^(١١٤)، وورد عنه أيضاً أنّه يقول: «الأضحى ثلاثة أيّام وأفضلها أوّلها»^(١١٥) وقد استدللّ الفقهاء على هذه المطالب الفقهيّة بأدلّة منها كلمات أمير المؤمنين عليه السلام هذه^(١١٦).

● من لم يجد الهدي فصيام عشرة أيّام

إذا عجز الحاج عن الهدي ودفع ثمنه وجب عليه بدلاً عن ذلك صيام عشرة أيّام، ثلاثة منها في الحجّ، وسبعة في موطنه، وثلاثة الحجّ يجب أن تكون متوالية لا متفرّقة، وقال الإمام علي عليه السلام في آية ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾: «قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة فمن فاتته هذه الأيّام فلينشئ يوم الحصة وهي ليلة النفر»^(١١٧) هذه جملة الآثار الواردة عن الإمام علي عليه السلام في الهدي.

أمّا الحلق وهو العمل الثالث في منى فقد ورد فيه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه يقول: «السنة في الحلق أن يبلغ العظمين»^(١١٨) وعلى ذلك فتوى الفقهاء^(١١٩).

هذا كلّ ما ورد عن أمير المؤمنين في أعمال منى من مصادر الإمامية، أمّا ما ورد عنه فيها من مصادر أهل السنة فقد جمعها صاحب موسوعة «فقّه علي بن أبي طالب» فكتب يقول:

«ومن مزدلفة يذهب الحجاج إلى منى وفي اليوم الأوّل من أيّام منى - وهو يوم النحر - يقوم الحجاج بعدّة أعمال مرتبة هي: رمي جمرة العقبة، فالذبح، فالحلق، فطواف الإفاضة. قال علي: «أوّل المناسك يوم النحر رمي الجمرة ثمّ الذبح ثمّ الحلق ثمّ طواف الزيارة»^(١٢٠).

□ رمي جمرة العقبة: قال علي: «في اليوم العاشر - من ذي الحجة - يرمي جمرة العقبة بعد طلوع الشمس، بسبع حصيات، ويكبر مع كل حصاة، ولا يرمي يومئذ من الجمار غيرها» (١٢١).

□ ذبح الهدي: إذا وجب على الحاج دم لكونه قارناً أو متمتعاً، أو جزاءً على مخالفة ارتكبتها، فإن هذا هو وقت الذبح وإذا ذبح تحلل التحلل الأول.

□ الحلق أو التقصير: بعد الذبح يتحلل بحلق شعره أو تقصيره ولا يجزئ التقصير عمّن لبّد أو عقص أو ضفر شعره، ولكن لا بدّ له من الحلق (١٢٢). أمّا المرأة فإنّها تقصر شعرها ولا تحلقه، فقد روى الترمذي والنسائي عن علي رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله أن تحلق المرأة رأسها» (١٢٣).

وكتب عن صيام بدل الهدي في فقه الإمام عليه السلام يقول:

«وهذه الأيام الثلاثة التي عليه أن يصومها في الحج آخرها يوم عرفة قال علي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾: «آخرها يوم عرفة»، وقال: «صم قبل يوم التروية بيوم، ويوم التروية، ويوم عرفة» (١٢٤).

فإن لم يصم الأيام الثلاثة حتى يوم عرفة، فهل يصومها بعد ذلك؟ يرى علي أنه لا يجوز له أن يصومها أيام منى؛ لأنها أيام تشريق، وأيام التشريق أيام أكل وشرب، وفي ذلك يقول علي: «يصوم بعد أيام التشريق إن فاتته الصوم» (١٢٥) ويقول: «يصوم بعد ذلك ثلاثة أيام في الحرم، وسبعة إذا رجع» (١٢٦).

٤ - الطواف

وبعد أعمال منى يجب على الحاج خمسة أعمال هي:

طواف الحجّ وركعتاه، والسعي بين الصفا والمروة، وطواف النساء وركعتاه.

وقد وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام في الطواف آثار فقهية نوردها ضمن النقاط التالية:

○ استحباب اختيار الطواف المندوب على الصلاة المندوبة في الكعبة وذلك

في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ مَائَةٌ وَعِشْرِينَ رَحْمَةً عِنْدَ بَيْتِهِ الْحَرَامِ، مِنْهَا سِتُّونَ لِلطَّائِفِينَ، وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ، وَعِشْرُونَ لِلنَّازِرِينَ» (١٢٧).

○ استحباب استلام الحجر الأسود عند الطواف
وورد عن الإمام الصادق ﷺ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مَرَّ عَلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا حَجْرُ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا أَنَّا رَأَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّكَ فَحَنَّا نَحْبُكَ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ: «كَيْفَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! فَوَاللَّهِ لَيُبْعَثَنَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ لِسَانٌ وَشَفَتَانِ فَيَشْهَدُ لِمَنْ وَافَاهُ، وَهُوَ يَمِينُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي أَرْضِهِ يَبَايِعُ بِهَا خَلْقَهُ»، فَقَالَ عُمَرُ: لَا أَبْقَانَا اللَّهُ فِي بَلَدٍ لَا يَكُونُ فِيهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ (١٢٨).

وهذا من جملة ما يدلّ على استحباب الوقوف عند الحجر ورفع اليدين بالدعاء عنده، واستلامه وتقبيله وذلك أثناء الطواف، وقد أورده صاحب الجواهر لدى بحثه هذه المسألة (١٢٩).

○ الأقطع يستلم الحجر من موضع القطع
روى الإمام الصادق ﷺ: «أَنَّ عَلِيًّا ﷺ سَأَلَ كَيْفَ يَسْتَلِمُ الْأَقْطَعُ الْحَجَرَ؟ قَالَ: يَسْتَلِمُ الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ الْقَطْعُ، فَإِنْ كَانَتْ مَقْطُوعَةً مِنَ الْمَرْفَقِ اسْتَلِمَ الْحَجَرَ بِشِمَالِهِ» (١٣٠). وقد اعتمد الفقهاء على هذه الرواية في الإفتاء بهذه المسألة (١٣١).

○ من زاد شوطاً أكمل اسبوعين
الواجب في الطواف سبعة أشواط، والمستحبّ لا حدّ له، وإذا كان في طواف واجب وزاد شوطاً وجب عليه الاتيان بستّة أشواط أخرى ليكمل بذلك اسبوعين من الطواف (١٣٢).

وعمدة الدليل في ذلك روايات عن أمير المؤمنين ﷺ كصحيحة محمد بن مسلم عن أحدهما ﷺ قال: «إِنَّ فِي كِتَابِ عَلِيٍّ ﷺ إِذَا طَافَ الرَّجُلُ بِالْبَيْتِ ثَمَانِيَةَ أَشْوَاطٍ الْفَرِيضَةُ فَاسْتَيْقَنَ ثَمَانِيَةَ أَضَافٍ إِلَيْهَا سِتًّا..» (١٣٣)، وعن الصادق ﷺ قال:

«إِنَّ عَلِيًّا طَافَ ثَمَانِيَةَ أَشْوَاطٍ فَزَادَ سِتَّةَ رُكْعٍ أَرْبَعَ رُكْعَاتٍ» (١٣٤).

هذا ما أورده المصادر الإمامية عنه عليه السلام في باب الطواف .

وذكرت المصادر السنية عنه في هذا الباب آثاراً أخرى مثل قوله عليه السلام : «يرجع من نسي الطواف ولو من خراسان» وقوله عليه السلام : «من حجَّ فليكن آخر عهده بالبيت إلا النساء في الحيض فإنَّ رسول الله رخص لهن في ذلك» وقوله عليه السلام : «الحائض تعرّف - أي تقف بعرفات - وتنسك المناسك كلّها وتأتي المشعر الحرام وترمي الجمار وتسعى بين الصفا والمروة ولا تطوف بالبيت حتّى تطهر» (١٣٥).

وقوله عليه السلام : «إذا طفت في البيت فلم تدر أتممت أو لم تتم، فأتم ما شككت، فإنَّ الله لا يعذب على الزيادة».

وقوله عليه السلام في الرجل ينسى فيطوف ثمانية : «فليرد عليها ستة حتّى تكون أربعة عشر، ويصلي أربع ركعات».

وروا عنه أنّه كان عليه السلام إذا استلم الحجر الأسود يقول : «اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاءً بعهدك، واتباعاً لسنة نبيك محمد صلّى الله عليه وآله» (١٣٦).

الهوامش :

(١) انظر مصادر ونصوص هذا الحديث في كتب الفريقين في هوامش الشيخ حسين الراضي على الفقرة التاسعة من المراجعة ٤٨ من كتاب المراجعات للإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين قدس سرّه.

(٢) وسائل الشيعة ١١: ٣٢ ط مؤسسة آل البيت عليه السلام.

(٣) الوسائل ١١: ١١ - ١٢.

(٤) الوسائل ١١: ١٥.

(٥) الوسائل ١١: ٢١.

(٦) الوسائل ١١: ١٢٨ ح ٢٠.

(٧) الوسائل ١١: ١٠٢ ح ٢٩.

- (٨) جواهر الكلام، محمد حسن النجفي ٦: ٤٤٢.
- (٩) الوسائل ١١: ٢٥١ ح ١٨.
- (١٠) موسوعة فقهِ علي بن أبي طالب، د. رواية قلعه چي: ٢٠٥، نقلاً عن سنن البيهقي، وكنز العمال، والمجموع للنووي.
- (١١) الجواهر ٦: ٤٤٢.
- (١٢) الموسوعة: ٢٠٥.
- (١٣) الوسائل ١١: ١٥٥.
- (١٤) الجواهر ٦: ٣٩٣.
- (١٥) الوسائل، الباب ١٦، من أبواب وجوب الحج، ح ٢.
- (١٦) الموسوعة: ٢٤، نقلاً عن الروض النضير ٣: ٢٩٦.
- (١٧) سنن البيهقي ٤: ٣٤٨، والمغني ٣: ٤٨٤.
- (١٨) الموطأ ١: ٣٣٦ وكنز العمال ح ١٢٤٦٥.
- (١٩) الموسوعة: ٢٠٧.
- (٢٠) الموسوعة: ٢٠٧ نقلاً عن ابن أبي شيبة ١: ١٨٣، والمحلى ٧: ١٧٤، وسنن البيهقي ٥: ١٠٨ وكنز العمال: ح ١٤٤٦٤.
- (٢١) الجواهر ٦: ٤٦٢ - ٤٦٣.
- (٢٢) الموسوعة: ٢٠٨ نقلاً عن المحلى ٧: ١٠ والمغني ٣: ٤٦٨.
- (٢٣) الوسائل ١١: ٦٣، ح ١، ومثله الحديث الثالث والخامس والسادس من الباب نفسه.
- (٢٤) الموسوعة: ٢٠٤ نقلاً عن مصنف ابن أبي شيبة ١: ١٩٤، والمحلى ٧: ٦١ والمجموع ٧: ٨٠ والمغني ٣: ٢٢٨.
- (٢٥) المصدر نفسه.
- (٢٦) الجواهر ٦: ٤١٠.
- (٢٧) الوسائل ١١: ١٨٢، ح ٢.
- (٢٨) الوسائل ١١: ٩٢.
- (٢٩) الجواهر ٦: ٤١٠.
- (٣٠) الوسائل ١١: ٩٢.
- (٣١) الموسوعة: ٢٠٤ نقلاً عن الروض النضير ٣: ١٣٨.
- (٣٢) الجواهر ٦: ٤٨٩ - ٤٩٨.
- (٣٣) الموسوعة: ٢٠٨ نقلاً عن المغني ٣: ٢٦٦، المحلى ٧: ٧٥، وسنن البيهقي ٥: ٣٠، ٤: ٣٤١، ومسند زيد ٣: ١٤٤ والمجموع ٧: ٢٠١ وآثار أبي يوسف: ٤٨٤، وابن أبي شيبة ١: ١٦٢ - ١٦٤، وتفسير ابن كثير ٢: ١٠٣.

- (٣٤) الجواهر ٦: ٥٠٠.
- (٣٥) الوسائل ١١: ٣٢١ ح ٥، ص ٣٢٣ ح ٢، ص ٣٢٤ ح ٤.
- (٣٦) الوسائل ١٢: ٤٢٨، ح ١.
- (٣٧) الجواهر ٦: ٥٩٠.
- (٣٨) الروض النضير ٣: ٢٢١.
- (٣٩) المغني ٣: ٣٠٩ والمجموع ٧: ٣٣٧.
- (٤٠) المحلى ٧: ٢٥٠ والمغني ٣: ٣١٢ والمجموع ٧: ٣٣١.
- (٤١) سنن البيهقي ٥: ١٨٢ وسنن أبي داود في المناسك باب لحم الصيد للمحرم، والمغني ٣: ٣١٢ ورواه ابن أبي شيبة مختصراً ١: ١٨٥ والأم ٧: ١٧٠.
- (٤٢) عبد الرزاق ٤: ٤٢٧ وتفسير الطبري ٧: ٧٠ الطبعة الثالثة.
- (٤٣) ابن أبي شيبة ١: ٢٠٣ و ١: ١٩١ والأم ٧: ١٧١ والأوسط ٢: ٣١٢ والإشراف ٢: ٣١٩.
- (٤٤) الروض النضير ٣: ٢٦٩.
- (٤٥) ابن أبي شيبة ١: ٢٠٤ ب والروض النضير ٣: ٢٦٩.
- (٤٦) ابن أبي شيبة ١: ١٩٨ والمحلى ٧: ٢٤٤.
- (٤٧) الموسوعة: ٢٠٨ - ٢٠٩.
- (٤٨) الجواهر ٦: ٥٨٨ والخبران مذكوران في الوسائل ١١: ٤٣٢، ح ٤ و ٥.
- (٤٩) الجواهر ٦: ٦٣٣.
- (٥٠) الموسوعة: ٢١٠ نقلاً عن الروض النضير ٣: ٢٥٧، ٢٦٥.
- (٥١) الوسائل ١٢: ٤٨٢.
- (٥٢) المحلى ٢: ٨٢.
- (٥٣) المحلى ٧: ٢٦٠.
- (٥٤) الروض النضير ٣: ٢١٧.
- (٥٥) الروض النضير ٣: ٢١٦.
- (٥٦) ابن أبي شيبة ١٢: ١٨٣ و ١٨١ ب.
- (٥٧) المحلى ٧: ٨٢ و ر: المغني ٣: ٣٢٩.
- (٥٨) ابن أبي شيبة ١: ١٨١ ب.
- (٥٩) الموسوعة: ٢١٠.
- (٦٠) ابن أبي شيبة ١: ١٦٤ والمحلى ٧: ١٩٩ وسنن البيهقي ٥: ٦٦ و ٧: ٢١٣ وكنز العمال ١٢٨٤٥ والمجموع ٧: ٢٩٠.
- (٦١) الموطأ ١: ٣٨١ والمحلى ٧: ١٨٠ وابن أبي شيبة ١: ١٦٥ ب وسنن البيهقي ٥: ١٦٧ والروض النضير ٣: ٢٥٠.

- وكنز العمال ١٢٨١٥ والمجموع ٣٨٠ : ٧ والمغني ٣ : ٣٦٥ وكشف الغمة ٢ : ٢٢٠ .
- (٦٢) ابن أبي شيبة ١ : ١٦٣ ب وسنن البيهقي ٥ : ١٦٨ وكنز العمال ١٢٧٩٨ .
- (٦٣) الروض النضير ٣ : ٢٦٥ .
- (٦٤) الموطأ ١ : ٣٨٨ وابن أبي شيبة ١ : ١٦٧ ب والمحلى ٧ : ٢١٣ و ٢٠٥ وسنن البيهقي ٥ : ٢١٨ والمغني ٣ : ٤٩٨ و ٥٤٥ .
- (٦٥) المغني ٣ : ٢٩٩ .
- (٦٦) الروض النضير ٣ : ٢٦٧ .
- (٦٧) الموسوعة : ٢١١ .
- (٦٨) الوسائل ١٢ : ٥٦١ .
- (٦٩) الجواهر ٧ : ٣٦١ .
- (٧٠) الوسائل ١٣ : ١٨ ، ح ١ و ٢ .
- (٧١) الجواهر ٧ : ٣٦٨ .
- (٧٢) الوسائل ١٣ : ٥٠ .
- (٧٣) الجواهر ٧ : ٣٨٢ - ٣٨٣ .
- (٧٤) الوسائل ١٣ : ٥٥ ، ح ٢ و ٤ .
- (٧٥) الوسائل ١٣ : ٥٢ ، ح ٢ ومثله : ٥٤ ، ح ٦ ومثله : ٥٣ ح ٤ .
- (٧٦) الجواهر ٧ : ٣٥٢ - ٣٥٣ .
- (٧٧) الوسائل ١٣ : ٦٣ .
- (٧٨) الوسائل ١٣ : ٨٧ .
- (٧٩) الجواهر ٧ : ٤١٩ - ٤٢٠ .
- (٨٠) المجموع ٧ : ٤٠٣ و ٤٢١ والمغني ٣ : ٥٠٩ و ٥١٧ والمحلى ٧ : ٢٢٧ والروض النضير ٣ : ٢٦٦ .
- (٨١) عبد الرزاق ٤ : ٤٢٢ والمحلى ٧ : ٢٣٤ .
- (٨٢) سنن البيهقي ٥ : ٢٠٨ .
- (٨٣) ابن أبي شيبة ١ : ١٧٧ و ١٩١ و ٢٠٣ وعبد الرزاق ٤ : ٤٠٣ والمحلى ٧ : ٢٢٧ والروض النضير ٣ : ٢٢٦ والمجموع ٧ : ٤٠١ والمغني ٣ : ٥١٠ .
- (٨٤) المغني ٣ : ٥٠٩ و ٥١١ والروض النضير ٣ : ٢٢٦ .
- (٨٥) عبد الرزاق ٤ : ٤١٨ .
- (٨٦) عبد الرزاق ٤ : ٤٢٠ و ٤١٨ والمجموع ٧ : ٣٣٩ .
- (٨٧) الروض النضير ٣ : ٢٤٨ وتفسير الطبري ٢ : ٢٣٥ .
- (٨٨) تفسير الطبري ٢ : ٢٣٩ .

- (٨٩) ابن أبي شيبة ١: ١٦٥ ب.
- (٩٠) ابن أبي شيبة ١: ١٦٣ ب وسنن البيهقي ٥: ١٦٨ وكنز العمال ١٢٧٩٨.
- (٩١) ابن أبي شيبة ١: ١٦٦ ب.
- (٩٢) الموسوعة / ص ٢١٢ - ٢١٣.
- (٩٣) تحرير الوسيلة ١: ٤١٦.
- (٩٤) الوسائل ١٢: ٣٧٩.
- (٩٥) الجواهر ٦: ٥٧٩.
- (٩٦) الوسائل ١٢: ٣٨١.
- (٩٧) الموسوعة: ٢١٣ - ٢١٤.
- (٩٨) الوسائل ١٤: ٤٤.
- (٩٩) الموسوعة: ٢١٥ نقلًا عن مسند زيد ٣: ١٨٣.
- (١٠٠) الوسائل ٤: ١٠٣، وتكرر هذا المعنى منه عليه السلام في روايتين أخريين في ص ١٠٥.
- (١٠١) الجواهر ٧: ٧٧.
- (١٠٢) الجواهر ٧: ٧٩ - ٨٤، انظر كلام المحقق واستدلال صاحب الجواهر عليه.
- (١٠٣) انظر: المصدر السابق.
- (١٠٤) الوسائل ١٤: ١١٠ - ١١١.
- (١٠٥) الوسائل ١٤: ١١٥.
- (١٠٦) الوسائل ١٤: ١٢٩.
- (١٠٧) الجواهر ٧: ٧٠.
- (١٠٨) الوسائل ١٤: ١٤٦.
- (١٠٩) الوسائل ١٤: ١٤٧.
- (١١٠) الجواهر ٧: ١١٥.
- (١١١) الوسائل ١٤: ٢١٠.
- (١١٢) الوسائل ١٤: ٢٠٦.
- (١١٣) الوسائل ١٤: ٢٠٧.
- (١١٤) الوسائل ١٤: ١٧٠.
- (١١٥) الوسائل ١٤: ٩٣.
- (١١٦) انظر: الجواهر ٧: ١٢١ - ١٢٤.
- (١١٧) الوسائل ١٤: ١٨٣ وبهذا المعنى أخبار أخرى وردت عنه عليه السلام في ص ١٨٤.
- (١١٨) الوسائل ١٤: ٢٢٩.

- (١١٩) الجواهر ٧: ١٣٤.
(١٢٠) مسند زيد ٣: ٢٤٤.
(١٢١) مسند زيد بن علي ٣: ١٩٤.
(١٢٢) كنز العمال ١٢٧٣٣.
(١٢٣) الموسوعة: ٢١٦.
(١٢٤) ابن أبي شيبة ١: ١٩٦ وتفسير الطبري ٢: ٢٤٧.
(١٢٥) سنن البيهقي ٥: ٢٥ والمغني ٩: ٤٧٩.
(١٢٦) الموسوعة: ٢٠٦.
(١٢٧) الوسائل ١٣: ٣١٢.
(١٢٨) الوسائل ١٣: ٣٢٠.
(١٢٩) الجواهر ٧: ١٨٤.
(١٣٠) الوسائل ١٣: ٣٤٣.
(١٣١) الجواهر ٧: ١٨٧.
(١٣٢) الجواهر ٧: ١٩٧-١٩٩.
(١٣٣) الوسائل ١٣: ٣٦٦.
(١٣٤) الوسائل ١٣: ٣٦٥.
(١٣٥) الموسوعة: ٢١٧ نقلاً عن: مسند زيد ٣: ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٧٥ وابن أبي شيبة ١: ١٦٥.
(١٣٦) الموسوعة: ١١٤ نقلاً عن: ابن أبي شيبة ١: ١٦٨ و ٢٠٥- ومسند زيد ٣: ١٦٩ ومصنف عبد الرزاق ٥: ٥٠١،
والمجموع ٨: ٣٤ وكنز العمال ح ١٢٥١٩.

الإمام علي عليه السلام ... والرأي الآخر

حسن السعيد

البعث إلى عهد الرسول ﷺ، عبر تصنيف اليهود والمنافقين كمعارضة دينية سياسية داخل دولة المدينة^(١). والملاحظ أنّ التعامل العام مع هذه المعارضة، كان تعاملًا سلميًّا هادئًا، فلم يخسر اليهود مواطنتهم وحقوقهم في الدولة إلا بعد أن تحرّكوا عسكريًّا، كما أنّ المنافقين واصلوا نهجهم ولم يتمّ التعامل معهم بسلبهم حقوق المواطنة، ولكن قد يُسجّل على هذه المعارضة بأنّها كانت مختلفة في الانتماء العقائدي أو ما يمكن تسميته مجازاً معارضة أقلّية دينية بالنسبة لليهود لا تلتقي مع

حفلة الممارسة التاريخية الحضارية للإسلام في مسألة العلاقة مع «الآخر».. بنّادج إنسانية رفيعة... وهناك شواهد كثيرة تزخر بها صفحات التاريخ، وكلّها تدعم الاتجاه المنفتح على «الآخر» والمتفهم له والمعاش معه، رغم ما اعتور التجربة الإسلامية من انحرافات وخروقات.

فلئن كان الشيعة والخوارج هما العنوانان الأكثر ضجّة في تاريخ المعارضة والثورات على امتداد التاريخ الإسلامي، إلا أنّ الجذور التاريخية للمعارضة في الإسلام يرجعها

القاعدة الفكرية للدولة، وإن شاركت مجتمع الدولة في حقوق المواطنة^(٢).

ويطول المقام لو سمحنا لأنفسنا استعراض الشواهد المؤكدة على هذا المنحى، بيد أننا سنقتصر، لأسباب منهجية، على نموذج واحد، هو الإمام علي (عليه السلام)، لما يمثله من موقع متقدم في الدعوة؛ سابقة، وريادة، وأسوة، وما يعزّز ذلك شهادات الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بحق الإمام علي (عليه السلام) : «أنا وأنت يا عليّ أبوا هذه الأئمة»، «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»^(٣).

وقد أرسى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا النهج الرسالي، بكلّ ما يتّسم به من سعة صدر، وامتداد أفق، واستعداد للاستيعاب، وفيما يرويه الصحابي جابر ابن عبد الله : «لما قسّم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غنائم هوازن بين الناس بالجعرانة، قام رجل من بني تميم فقال: - إعدل يا محمّد!

- فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : «ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟! لقد خبت وخسرت إن لم أعدل!»، فقال عمر بن الخطّاب: يا رسول الله، ألا أقوم فأقتل هذا

المنافق؟!

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : معاذ الله أن تتسامع الأمم أن محمّداً يقتل أصحابه»^(٤).

وجاء الإمام علي (عليه السلام) ليكرّس هذا المنهج الربّاني والخصال النبوية، في حقبة هبّت عليها أعاصير الأهواء ولواحق الفتن، وهو ما سنستعرض بعض جوانبه:

● الإمام علي (عليه السلام) النموذج المتألق

ولئن كان بعض الصحابة يعدّون مشايخ الإسلام «فإنّ علي بن أبي طالب هو ابن الإسلام البار، والوريث للشريعة، وهو أفضى الصحابة، وأقدرهم على الحكم بما أنزل الله، نشأ علي في بيت النبوة وتفتح في صباه على الإسلام، وقد أتاحه الله عقلاً ذا ملكات فريدة، فشرب الإسلام وتكوّن عقله على فهمه ومعرفة أحكامه وخبائاه. وكان شأنه شأن نبي الله يحيى حيث أتاحه الله الحكم صبيّاً. فكان رغم صغر سنّه بين الصحابة أقدرهم على معرفة أحكام الإسلام. وقد قال ابن الخطّاب: «لولا علي لهلك عمر»، حيث كان إذا استشكل عليه أمر من أمور الدين لجأ

ثالثاً: موقفه من «الآخر» غير المسلم.

● موقفه معارضاً

يقول عباس محمود العقاد: «في كل ناحية من نواحي النفوس الإنسانية ملتحق بسيرة علي بن أبي طالب رضوان الله عليه..»^(٦)، وليس ثمة شك في خصوصيته المتميزة، إذ «اجتمع للإمام علي بن أبي طالب من صفات الكمال، ومحمود الشائل والحلال، وسناء الحسب وباذخ الشرف؛ مع الفطرة النقية، والنفوس المرضية، ما لم يتهياً لغيره من أفاضال الرجال»^(٧).

إن الحديث عن أبعاد شخصية الإمام علي عليه السلام ليس بالأمر اليسير أبداً، إن لم يعجز عنه الفطاحل، أو يهابون الخوض فيه. ونحن إذ نسمح لأنفسنا أن نمس جانباً محدداً من مواقفه، «لا نقصد انجاز مشروع صياغة وتحديد كامل فكر الإمام.. (في هذه الإثارة)، وإنما نهدف من هذا العمل المتواضع الإطلالة على بعض ملامح وصور هذا الفكر العملاق»^(٨) ليس إلّا.

فعلى صعيد الحكم وتحمل تبعاته، لم

إلى علي فاستشاره فيه. وكان علي أشبه بما نطلق عليه اليوم فيلسوف الدين الجديد، فقد كان حريصاً في كل موقف أن يظهر حكم الإسلام، وافقه الناس على رأيه أم خالفوه. فالنتائج ليست مهمة عنده، بل المهم هو أداء الواجب. وكان يرى أن واجبه يحتم عليه أن يظهر حكم الشريعة، فهي عنده السيد الذي يجب احترامه وطاعته..^(٥)

وظل الإمام علي عليه السلام ملتصقاً بهذا المنهج لا يحدد عنه، سواء قبل استلامه الخلافة أو بعدها. داخل الصف المسلم أو خارجه «ما شككت في الحق مُدَّ أريته» لذا كان سلام الله عليه النموذج الفذ للشخصية الإسلامية، بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، والتي يجب أن يحتذيها المسلمون اليوم، وهم يخوضون المعركة الضارية، لكي يستأنف الإسلام دوره من جديد.

وبالإمكان رصد موقف الإمام علي عليه السلام من «الآخر» على ثلاثة أصعدة:

أولاً: موقفه معارضاً من السلطة.

ثانياً: موقفه حاكماً من المعارضة.

يكن الإمام علي (عليه السلام) طارئاً أو هامشياً، «فقد كان (عليه السلام) على تمام الأهبة لولاية الحكم، كان قد خبر المجتمع الإسلامي في أقطاره، وخالط كافة طبقاته، وراقب حياتها عن كشب، ونفذ إلى أعماقها، وتعرّف على الوجدان الطبعي الذي يشدها ويجمعها.

وقد مكّنه من ذلك كله المركز الفريد الذي كان يتمتع به من النبي (صلى الله عليه وآله)، فهو وزيره ونجيبه، وأمين سرّه، وقائد جيوشه، ومنفّذ خططه، ومعلن بلاغاته.. هذه المنزلة الفريدة التي لم يكن أحد من الصحابة يتمتع بها أعدته إعداداً تاماً لمهمة الحكم.

وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) يبتغي من وراء إناطة هذه المهام كلّها به إعداداً للمنصب الإسلامي، ليصل إليه وهو على أتمّ ما يكون أهليّة واستعداداً.

ولقد غدا من نافلة القول أن يُقال: «إنّه (عليه السلام) هو الخليفة الذي كان يجب أن يلي حكومة النبي (صلى الله عليه وآله) في المجتمع الإسلامي. وإذا لم يُقدّر له أن يصل إلى الحكم بعد النبي فإنّه لم ينقطع عن الحياة العامّة، بل ساهم فيها مساهمة خصبة»^(٩)، وإنّ

فسحة الربع قرن التي مرّت على علي ابن أبي طالب، منذ رحيل الرسول حتّى تسلّمه الخلافة «لم تكن بالفسحة البسيطة، لا بطول مداها ولا بقيمة الأحداث التي مرّت عليها. وهي وإنّ تكن تعتبر فراغاً بالنسبة لعدم تحمّله فيها أيّة مسؤولية إدارية، فإنّها بالحقيقة كانت فراغاً يمتلأ. وليس يفهم من كلمة «فراغ» أن ابن أبي طالب غاب في هذا الوقت الطويل عن الساحة، بل بالعكس، كان فيها ملء السمع والبصر، غير أنّه كان يحتلّ فيها برج المراقبة»^(١٠)، فقد كان أبو بكر ثمّ عمر ومن بعدهما عثمان لا يسعهم الاستغناء عن آرائه في السياسة والقضاء والحرب، وخاصّة في خلافة عثمان فقد كان فيها على أتمّ الصلة بالتيارات التي تمخر المجتمع الإسلامي، لكن عثمان لم ينتفع كثيراً بالتوجيه الذي كان الإمام يقدّمه إليه لأنّ بطانة متعفّنة كانت تحيط بهذا الخليفة^(١١).

ورغم ما لقيه من جحود وإقصاء وتهميش، من لدن العقلية الحاكمة فإنّه لم يقابل ذلك بالمثل، وإنّما كان ينطلق،

وفق الموقف الشرعي، من منطلق الحرص على وحدة الموقف وما تتطلبه المصلحة العليا، ولهذا نجده - على طول الخط - «قد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله. ولم يبدر منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم.. ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا رُمي بها كما يأنف العزيز الكريم. وفي ذلك يقول في خطابه إلى معاوية: «ذكرت ابطائي عن الخلفاء وحسدي إياهم والبغي عليهم، فأما البغي فمعاذ الله أن يكون، وأما الكراهية لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك».

وأولى أن يقال: إن دلائل وفائه في حياتهم، وبعد ذهابهم، كانت أظهر من دلائل جفائه. فإنه احتضن ابن أبي بكر محمداً وكفله بالرعاية ورشحه للولاية، حتى حُسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله...» (١٢).

ورغم انفتاحه الإيجابي على مجمل الحياة الإسلامية، وبمختلف مشاربها، إلا أن ذلك لا يلغي معارضة الإمام علي عليه السلام للنهج القائم، مع حرص شديد

على الطابع السلمي لمعارضته تلك. وهكذا بدأت أول معارضة من داخل الصف الإسلامي نفسه تتبلور بعد وفاة الرسول ﷺ، حينما تخلف العديد من الصحابة الكبار عن بيعة أبي بكر وآزروا الإمام علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة عليها السلام في معارضتهم لمنطق السقيفة عندما تولّى أبو بكر الخلافة بدون إجماع إسلامي (١٣) وكانت خطبة فاطمة عليها السلام في مسجد الرسول واحتجاجها العلني الصريح على الخليفة الأول معارضة فكرية - سياسية امتدّت لفترة من الزمن، وانتهت بمبايعة الإمام علي ومن تخلف معه من الصحابة (١٤).

ويبقى موقف الإمام علي عليه السلام من مسألة «السقيفة» أول موقف معارض له، وظلّت القضية موضع إدانته، لأنّه أمر دُبّر في ليل. ومن المعروف تاريخياً أن نفس رسول الله ﷺ فاضت في حجر علي عليه السلام، وما إن انتقل ﷺ إلى ربه الأعلى، حتى اشتغل علي عليه السلام وأهل بيته بتجهيزه من أجل مواراة جسده الطاهر في مثواه الأخير، حتى عقدت الأنصار وبعض المهاجرين اجتماعاً في سقيفة

الاستنتاجات السطحية التي حاولت إظهار هذا الموقف وكأنه انتصار للذات، فإنّ قراءة متأنّية للموقف وتداعياته تقودنا إلى تحليل آخر، وهو ما قام به باحث إسلامي معاصر، حين قال: «نظنّ أنّ اعتراضه كان لثلاثة أمور:

الأوّل: لكي يثبت حقّ المعارضة للمسلمين، حتّى لو كانوا أقلّية، وحتّى لو كانت المعارضة لما استقرّ عليه رأي الأغلبية، وكذلك حتّى لو كانت المعارضة لأكثر الأمور حسّاسية وهي اختيار الحاكم.

الثاني: اعتراضه على طريقة اختيار الحاكم، لكي لا يثبت في ذهن الناس أنّ ما تمّ هو النموذج الأوحد أو الأمثل الذي يجب أن يسير عليه المسلمون، ولكي يفرّق الناس بين ما تمّ وما كان يجب أن يكون عليه الأمر. فالبيعة التي تمّت في سقيفة بني ساعدة هي أمر قضي بلبيل ولا تصحّ أن تكون غوذجاً لاختيار المسلمين لحاكمهم.

الثالث: أنّه كان يرى في نفسه أقدر الناس على الحكم، ولو حكم لحمل الناس على الجادة، وأظهر النموذج

بني ساعدة لتنصيب مَنْ يخلف النبي ﷺ في قيادة المسلمين.

وبعد مناقشات حادّة وطويلة سادها جوّ من التوتر والقلق والعنف والخلاف بادر عمر بن الخطّاب إلى بيعة أبي بكر بالخلافة، وطلب من الحاضرين ذلك، ولم يكن علي عليه السلام على علم بما حدث، ولكن النبا قد انساب إلى مسامعه من خلال الضجيج الذي أحدثه خروج القوم من السقيفة، وهم في طريق توجّههم للمسجد النبوي.

وحتّى تلك الساعة ما زال علي وأهل البيت عليه السلام مشغولين بتجهيز فقيد الأمة العظيم رسول الله ﷺ إذ ظلّ جثثانه الطاهر ثلاثة أيّام دون دفن ليتسنّى للمسلمين توديعه والصلاة عليه.

ولعدم قناعة الإمام عليه السلام بما جرى ظلّ مؤمناً بحقه في الخلافة واعتزل الناس وما هم ستّة شهور، ولم يسمع له صوت فيما يسمّى بحروب الردّة ولا سواها^(١٥).

ومن الواضح أنّ هذا الاعتزال لم يكن سوى احتجاج سياسي على ما حدث تحت خيمة السقيفة. وبعيداً عن

الإسلامي الصحيح الذي كان يؤمن به هو، وهو يخالف منهج أبو بكر وعمر^(١٦).

وبذا يكون الإمام علي أول مؤسس للمعارضة المسؤولة التي لم تحرق القاعدة الفكرية للدولة، وحرصت على وحدة الجماعة واستقرار التنظيم الاجتماعي السياسي (الدولة). فقد تحدّث بصراحة في خطبة له عن السبب الذي حدا به إلى رفض كلّ عروض الانشقاق السياسي مقدّماً المصلحة العامة ووحدة الأمّة والدولة^(١٧) مؤثراً أمور المسلمين على ما سواها، بما في ذلك شأنه الخاص وحقّه الشخصي: «لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلّا عليّ خاصّة»^(١٨).

وقد هدرت منه، ذات مرّة، شقشقته المعروفة، متعرّضاً إلى ما لحق به من جور وحيف: «أما والله لقد تقمّصها ابن أبي قحافة»^(١٩) وإنّه ليعلم أنّ محليّ منها محلّ القطب من الرحا؛ ينحدر عنيّ السيل، ولا يرقى إليّ الطير. فسدلتُ دونها ثوباً، وطويتُ عنها كشحاً، وطفقت ارتئي بين أن أصول

بيدٍ جذاء، أو أصبر على طخيّة عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتّى يلقي ربّه!

فرأيتُ أنّ الصبر على هاتا أحجى، فصبرتُ وفي العين قذى، وفي الحلق شجاً، أرى ثراثي نهباً، حتّى مضى الأوّل لسبيله، فأدلى بها إلى فلان بعده (ثمّ تتلّ بقول الأعشي):

شَتَان ما يومي على كُورها
ويومُ حيّان أخي جابر

فياعجباً!! بينا هو يستقيّلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته! لشدّ ما تشطّرا ضرعيّها! فصيرّها في حوزة خشناء يغلظ كلمها، ويخشن مسّها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم، وإنّ أسلس لها تقحّم، فمُني الناس - لعمرُ الله - بخبطٍ وشماس، وتلَوّنٍ واعتراضٍ، فصبرتُ على طول المدة، وشدّة المحنة، حتّى إذا مضى لسبيله جعلها في جماعة زعم أنّي أحدهم، فيا لله وللشورى! متى

● في عهد الخلافة الراشدة

فلم يمضِ إلّا وقت قصير على رحيل رسول الله ﷺ، حتّى استجدّت أمور وأحداث خطيرة تهتّد الإسلام وأمّته بالفناء، فقد قوي أمر المتنبئين بعد وفاة رسول الله ﷺ واشتدّ خطرهم في الجزيرة العربية من أمثال: مسيلمة الكذاب، وطلحة بن خويلد الأفاك، وسجاح بنت الحرث الدجّالة.. وغيرهم، وصار وجودهم يشكّل خطراً حقيقياً على الدولة الإسلامية. واشتد ساعد المنافقين وقويت شوكتهم في داخل المدينة، وكان الروم والفرس للمسلمين بالمرصاد. هذا عدا ظهور التكتلات السياسية في المجتمع الإسلامي على أثر بيعة السقيفة.

ولقد تعامل الإمام عليّ مع الخلافة حسب ما تحكم به المصلحة الإسلامية حفظاً للإسلام وحماية للجامعة الإسلامية من التمزّق والضياع، وتحقيقاً للمصالح العليا الإسلامية التي جاهد من أجلها.

وللإمام عليّ كتاب جاء فيه - بهذا الصدد - ما نصّه: «... فأمسكت

اعترض الرئيب فيّ مع الأوّل منهم، حتّى صيرت أقرن إلى هذه النظائر! لكنني أسففت إذ أسقوا، وطرت إذ طاروا، فصغا رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هنّ وهنّ، إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه، بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه فتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته» (٢٠).

بهذه النبرة المشحونة بالأسى والمرارة.. اختزل الإمام علي محنته المريرة مع مَنْ سبقوه في الخلافة.. ورغم كلّ ذلك وما رافقه من محاولات الاقصاء الدائبة والعمل على إبقائه في الظلّ، فإنّ هذا لم ينعكس سلباً على موقفه العام، ولم تفلح تلك الممارسات في تحقيق مآرب أصحابها، إذ لم تجعله بمنأى عن هموم الأمة، إنّ لم يندك في عمق حركتها، ولم تشغله عن وعي التحدّيات التي تواجهها، فلم يعزف طرفة عين عن رصد خيوطها وقراءة نتائجها.

يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد ﷺ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ظمأ أو هدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهت». بيد أن صوت علي عليه السلام كان يعلو عندما يستشار ويجهر عندما يستفتي، وقد تصدّى - في هذا المضمار - لتوجيه الحياة الإسلامية، وفقاً لما تقتضيه رسالة الله تعالى في الحقول التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ومن أجل ذلك فإنّ الباحث التاريخي في حياة الإمام علي عليه السلام لا يلبث إلا أن يلتقي مع مئات المواقع والأحداث - في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان - التي لا تجد غير علي عليه السلام مدبراً لها ومعالجاً وقاضياً بأمر الشريعة فيها^(٢١).

وطيلة هذا العهد مارس الإمام مهمّة

النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقديم المشورة - رغم اختلافه مع الحاكمين - حتى في ذروة الثورة على الخليفة الثالث عثمان بن عفان^(٢٢).

والخلفاء الثلاثة لم يروا بداً من استشارته إذا التبست عليهم الأمور، وهكذا نجده - مرّة - مرشداً إلى الحكم الإسلامي الصحيح في أمر ما، ومرّة نجده قاضياً في شأن من شؤون الأمة، وأخرى موجّهاً للحاكم الوجهة التي تحقّق المصلحة الإسلامية العليا.

وبمقدورنا أن نلمس دوره الرسالي ذلك إذا طرحنا بعض مفردات منهجه المتبنى أيام الخلفاء الذين سبقوه:

● فكّر أبو بكر بغزو الروم، فاستشار جماعة من الصحابة فقدموا وأخروا، ولم يقطعوا برأي، فاستشار عليّاً عليه السلام في الأمر فقال عليه السلام: «إن فعلت ظفرت».

فقال أبو بكر: بشرت بخير. وأمر الناس بالخروج، بعد أن أمّر عليهم خالد بن سعيد^(٢٣).

● أراد أبو بكر أن يقيم الحدّ على شارب خمر... فقال الرجل: إني

أبو عبيدة بن الجراح المسلمين واستشارهم بالمسير إلى بيت المقدس أو إلى قيسارية، فقال له معاذ بن جبل: اكتب إلى أمير المؤمنين عمر، فحيث أمرك فامتثل، فكتب ابن الجراح إلى عمر بالأمر، فلما قرأ الكتاب، استشار المسلمين بالأمر.

فقال علي (عليه السلام): مر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس، فإذا فتح الله بيت المقدس، صرف وجهه إلى قيسارية، فإنها تفتح بعدها إن شاء الله تعالى، كذا أخبرنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

قال عمر: صدق المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم)، وصدقت أنت يا أبا الحسن.. ثم كتب إلى أبي عبيدة بالذي أشار به علي (عليه السلام) (٢٦).

● ورد إلى بيت مال المسلمين مال كثير من البحرين، فقسّمه عمر بين المسلمين، ففضل منه شيء، فجمع عمر المهاجرين والأنصار واستفتاهم بأمره قائلاً: ما ترون في فضل، فضل عندنا من هذا المال؟ قالوا: يا أمير المؤمنين إنّنا شغلناك

شربتها ولا علم لي بتحريمها، فأرسل إلى الإمام يسأله في ذلك، فقال (عليه السلام): «مر نقيبين من رجال المسلمين يطوفان به على المهاجرين والأنصار وينشدانهم: هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم أو أخبره بذلك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإن شهد بذلك رجلاً منهم فأقم الحدّ عليه، وإن لم يشهد أحد بذلك، فاستتبّه وخلّ سبيله» (٢٤).

● قدم جاثليق النصارى يصحبه مائة من قومه، فسأل أبا بكر أسئلة، فدعا علياً (عليه السلام) فأجابه عنها.. وأرسل ملك الروم رسولاً إلى أبي بكر يسأله أسئلة محيرة.. لم يجد غير علي حريّاً بالإجابة عنها.

● وحين أراد عمر بن الخطاب أن يغزو الروم راجع الإمام علياً (عليه السلام) في الأمر، فنصحه الإمام بالآ يقود الجيش بنفسه مبيّناً علّة ذلك قائلاً: «.. فابعث إليهم رجلاً مجرباً واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهره الله فذاك ما تحبّ، وإن تكن الأخرى كنت رداءً للناس، ومثابةً للمسلمين» (٢٥).

● بعد أن فتح المسلمون الشام جمع

بولاية أمورنا من أهلك وتجارتك
وضيعتك، فهو لك.

فالتفت عمر إلى علي قائلاً: ما تقول
أنت؟

قال الإمام: قد أشاروا عليك.
قال الخليفة: فقل أنت.

قال عليه السلام: لِمَ تجعل يقينك ظناً؟ ثم
حدّثه بواقعة مشابهة في عهد
رسول الله ﷺ.. وأخيراً أشار عليه
الإمام عليه السلام بتوزيعه على الفقراء، قائلاً:
«أشعر عليك أن لا تأخذ من هذا الفضل
وأن تفضّه على فقراء المسلمين».

فقال عمر: صدقت والله.

● وقد ورد أن عمر بن الخطاب
رأى ليلة رجلاً وامرأة على فاحشة،
فلما أصبح قال للناس: رأيتم أن إماماً
رأى رجلاً وامرأة على فاحشة، فأقام
عليها الحدّ ما كنتم فاعلين؟

قالوا: إنما أنت إمام.

فقال علي بن أبي طالب: «ليس ذلك
لك، اذن يُقام عليك الحدّ، إنّ الله لم يأمن
على هذا الأمر أقلّ من أربعة شهداء».

ثم إنّ عمر ترك الناس ما شاء الله، ثمّ
سألهم؛ فقال القوم مثل مقالته الأولى..

وقال علي عليه السلام مثل مقالته. فأخذ عمر
بقول الإمام عليه السلام.

● شاور ابن الخطّاب أصحاب
رسول الله ﷺ في سواد الكوفة، فقال
بعضهم: تقسمها بيننا، ثمّ شاور
عليّاً عليه السلام في الأمر، فقال: إنّ قسّمتها
اليوم لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء،
ولكن تقرّها في أيديهم يعملونها،
فتكون لنا ولمن بعدنا. فقال عمر
لعلي: وفّقك الله.. هذا الرأي.

● عن الطبري في تاريخه عن سعيد
ابن المسيب، قال: جمع عمر بن الخطّاب
الناس فسألهم: من أي يوم نكتب التاريخ؟
فقال علي عليه السلام: من يوم هاجر
رسول الله ﷺ وترك أرض الشرك،
ففعله عمر (٢٧)، وهكذا وجد التاريخ
الهجري ليؤرّخ به المسلمون.

● الفتنّة الكبرى

رغم ما مثلته مرحلة الخلافة من
معاناة فادحة للإمام علي عليه السلام، بيد أن
حقبة عثمان بن عفّان كانت من نوع
آخر؛ أشدّ وطأةً، وأنكى جراحاً،
وأمرض فجاجةً.

لقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ

عمر بن الخطّاب ولم يُقَمَّ عليه الحدّ. وقد كان عمر أمر بسجن ابنه عبيدالله ليحكم فيه الخليفة من بعده.

يقول ابن الأثير: «.. جلس عثمان في جانب المسجد بعد بيعته، ودعا عبيدالله بن عمر بن الخطّاب، وكان قتل قاتل أبيه أبا لؤلؤة، وقتل جُفَيْنَةَ رجلاً نصرانياً من أهل الحيرة كان ظهيراً لسعد بن مالك، وقتل الهرمزان، فلما ضربه بالسيف قال: لا إله إلا الله! فلما قتل هؤلاء أخذه سعد بن أبي وقاص وحبسه في داره وأخذ سيفه وأحضره عند عثمان، وكان عبيدالله يقول: والله لأقتلن رجلاً ممّن شرك في دم أبي، يعرض بالمهاجرين والأنصار، وإنما قتل هؤلاء النفر لأنّ عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة قتل عمر: رأيت عشيّة أمس الهرمزان وأبا لؤلؤة وجُفَيْنَةَ وهم يتناجون، فلما رأوني ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، وهو الخنجر الذي ضرب به عمر، فقتلهم عبيدالله. فلما أحضره عثمان قال: أشيروا عليّ في هذا الرجل الذي فثق في الإسلام ما فثق! فقال علي: أرى أن

كبير، ومن ورائه مروان بن الحكم يصرف الأمر بكثير من الانحراف عن الإسلام، على حدّ تعبير سيّد قطب، كما أنّ طبيعة عثمان الرخيّة، وحده الشديّد على أهله، قد أسهم كلاهما في صدور تصرّفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله، وكانت لها معقبات كثيرة، وآثار في الفتنة التي عانى الإسلام منها كثيراً^(٢٨).

ويبدو أنّ الفرع الأموي، بزعامة أبي سفيان، قد رأى في تولّي عثمان الخلافة فرصة طالما انتظروها كي تعود لهم المكانة الأولى التي فقدوها منذ ظهور الإسلام على يد محمّد بن عبدالله.. لقد سنحت لهم الفرصة، ورأوا في شخصية عثمان المناخ المناسب كي يحققوا ما يريدون..^(٢٩).

كان القلق يستبدّ بالصحابة الذين لم يجرفهم تيّار الترف، وهم يرون عثمان قد أطلق العنان لبني أمية في الاستئثار بالمواقع والامتيازات والخروج على الشرع الحنيف. بل إنّ عثمان قد دشّن خلافته بمخالفة صريحة للحكم الشرعي، حينما عفا عن عبيدالله بن

تقتله. فقال بعض المهاجرين: قُتل عمر أمس ويُقتل ابنه اليوم! فقال عمرو بن العاص: إنَّ الله قد أعفأك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان. فقال عثمان: أنا وليه وقد جعلتها دية واحتملها في مالي.. (٣٠).

غير أنَّ هذا الحلَّ الترقيعي كان بمثابة الثغرة الأولى في حقبة عثمان، ولتتوالى الثغرات لاحقاً، ويتسع الخرق على الرافع. دون أن يتمكن عثمان من دفع الشبهات عن حكمه، فلقد «أكثر الناس في دم الهرمزان وإمساك عثمان عبيدالله بن عمر، فصعد عثمان المنبر فخطب الناس، ثمَّ قال: ألا أيُّ وليٍّ دم الهرمزان، وقد وهبته لله ولعمر، وتركته لدم عمر.

فقام المقداد بن عمر فقال: إنَّ الهرمزان مولى الله ولرسوله، وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله. قال: فننظر وتنظرون. ثمَّ أخرج عثمان عبيدالله بن عمر من المدينة إلى الكوفة، وأنزله داراً، فنُسب الموضع إليه، كُويِّفة ابن عمر (٣١).

ما يجدر ذكره؛ أنَّ الغمازيان بن الهرمزان كان هو ولي الدم ولم يتنازل عن حقِّه، ولمَّا ولي عليُّ (عليه السلام) الخلافة أراد إقامة الحدِّ على عبيدالله بن عمر بقتله فهرب منه إلى معاوية بالشام، ولو كان إطلاقه بأمر ولي الدم لم يتعرَّض له علي (٣٢).

وحول هذه النقطة يعلِّق عبَّاس محمود العقَّاد على موقف الإمام (عليه السلام) منها قائلاً: «يُخطئ جدّاً من يتَّخذ فتواه في مقتل الهرمزان دليلاً على كراهيته لعمر أو نقمة منه في أبنائه.. فقد أسرع عبيدالله بن عمر إلى الهرمزان، فقتله انتقاماً لأبيه، ولم ينتظر حكم ولي الأمر فيه ولا أن تقوم البيِّنة القاطعة عليه. فلما أُستفتي في هذه القضية أفتى بالقصاص منه، ولم يغيِّر رأيه حين تغيَّر رأي عثمان، فأعفاه من جريرة عمله.. لأنَّه هو الرأي الذي استمدَّه من حكم الشريعة كما اعتقده وتحجَّاه، وبهذا الرأي دان قاتله عبدالرحمن بن ملجم، فأوصى وكرَّر الوصاية ألا يقتلوا أحداً غيره لمظنَّة المشاركة بينه وبين رفقاءه في التآمر عليه» (٣٣).

وطلب منه عبدالله بن خالد بن أسيد صلة، فأعطاه أربعمائة ألف درهم.

وأعاد الحكم بن أبي العاص، بعد أن كان رسول الله ﷺ قد سيره ثم لم يرده أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم.

وتصدق رسول الله ﷺ بموضع سوق بالمدينة يُعرف بمهزور على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

وأقطع مروان فدكاً، وقد كانت فاطمة (عليها السلام) طلبتها بعد وفاة أبيها صلوات الله عليها، تارةً بالميراث، وتارةً بالنحلة فدّفت عنها.

وحمل المراعي حول المدينة كلّها من مواشي المسلمين كلّهم إلا عن بني أمية. وأعطى عبدالله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب - وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة - من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، في اليوم الذي أمر

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب (الإمام) عليّ عليه؛ لأنّه أباح للعمال والولاة ما ليس بمباح في رأيه (٣٤)، ومن كلام له (عليه السلام)، حول تقييمه لسياسة عثمان: «... وأنا جامع لكم أمره، استأثر فأساء الأثرة» (٣٥).

ومن أسوأ أساليب الأثرة تلك اتخاذه أبناء عمومته من بني أمية بطانة سوء، إذ أوطأهم رقاب الناس، وولّاهم الولايات وأقطعهم القطائع، وأفتتحت إفريقية في أيامه، فأخذ الخمس كلّهُ فوهبه لمروان فقال عبدالرحمن بن حنبل الجمحي:

أحلف بالله ربّ الأناس
م ما ترك الله شيئاً سُدّي
ولكن خلقت لنا فتنةً
لكي نبتلي بك أو تُبتلى
فإنّ الأميين قد بيّنا
منار الطريق عليه الهدى
فما أخذنا درهماً غيلةً
ولا جعلنا درهماً في هوى
وأعطيت مروان خمس البلاد
فهيها سعيك ممّن سعى

العادية، والانتصاب لسياسة الرعية، وختم ذلك ما وجدوه من كتابه إلى معاوية يأمره فيه بقتل قوم من المسلمين^(٣٨).

وهكذا كثر الطعن على عثمان، وظهر عليه النكير^(٣٩) ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات الخطيرة العواقب، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ تقاليد الإسلام، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته لا يملك أمره من مروان^(٤٠).

وفي هذا الاتجاه أفاضت كتب التاريخ بالأحداث المؤلمة. وقد أُتيح لشاهد عيان أن يصوّر لنا جانباً من ذلك المشهد المفجع، فعن أبي كعب الحارثي (المعروف بذي الأدواة) قال: «أتيت عثمان بن عفان وهو الخليفة يومئذ فسألته عن شيء من أمر ديني، وقلت: يا أمير المؤمنين، إنني رجل من أهل اليمن من بني الحارث بن كعب، وإنني أريد أن أسألك فأمر حاجبك ألا يحجبني، فقال: يا وثاب، إذا جاءك هذا الحارثي فأذن له. قال: فكنت إذا جئت، فقرعت الباب، قال: مَنْ ذا؟

فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوجه ابنته أمّ أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال عثمان: أتبكي أن وصلت رحمي؟! قال: لا، ولكن أبكي لأنني أظنك أنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله ﷺ. والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً، فقال: ألق المفاتيح يا بن أرقم؛ فإننا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة، فقسّمها كلّها في بني أمية. وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنه.

وانضمّ إلى هذه الأمور أمور أخرى نقمها عليه المسلمون، كتسيير أبي ذرّ رحمه الله تعالى إلى الربذة؛ وضرب عبدالله بن مسعود حتى كسر أضلاعه^(٣٦) ومن ذلك ما نال عمّار بن ياسر من الفتن والضر^(٣٧) وما أظهر من الحجاب والعدول عن طريقة عمر في إقامة الحدود وردّ المظالم، وكفّ الأيدي

فقلت: الحارثي، فيقول: ادخل، فدخلت يوماً فإذا عثمان جالس، وحوله نفر سكوت لا يتكلمون، كأن علي رؤوسهم الطير، فسلمت ثم جلست، فلم أسأله عن شيء لما رأيته من حالهم وحاله، فبينما أنا كذلك إذ جاء نفر، فقالوا: أنه أبي أن يجيء. قال: فغضب وقال: أبي أن يجيء؟! اذهبوا فجيئوا به؛ فإن أبي فجرّوه جرّاً.

قال: فكثت قليلاً، فجاءوا ومعهم رجل آدم طوال أصلع، في مقدّم رأسه شعرات، وفي قفاه شعرات، فقلت: من هذا؟ قالوا: عمار بن ياسر، فقال له عثمان: أنت الذي تأتيتك رسلنا فتأبى أن تجيء؟! قال: فكلمته بشيء لم أدر ما هو، ثم خرج. فإزالوا ينفضون من عنده حتى ما بقي غيري، فقام، فقلت: والله لا أسأل عن هذا الأمر أحداً أقول حدّثني فلان حتى أدري ما يصنع. فتبعته حتى دخل المسجد، فإذا عمار جالس إلى سارية، وحوله نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يبكون، فقال عثمان: يا وثّاب علي بالشرط، فجاءوا، فقال: فرّقوا بين هؤلاء، وفرّقوا بينهم.

ثم أقيمت الصلاة، فتقدّم عثمان فصلّى بهم، فلما كبر قالت امرأة من حجرتها: يا أيها الناس. ثم تكلمت، وذكرت رسول الله ﷺ، وما بعثه الله به، ثم قالت: تركتم أمر الله وخالفتم عهده... ونحو هذا، ثم صمتت وتكلّمت امرأة أخرى بمثل ذلك، فإذا هما عائشة وحفصة.

قال: فسلم عثمان، ثم أقبل على الناس، وقال: إن هاتين لفئتان، يحلّ لي سبهما، وأنا بأصلهما عالم. فقال له سعد بن أبي وقاص: أتقول هذا لحبائب رسول الله ﷺ؟! فقال: وفيم أنت؟! وما هاهنا؟ ثم أقبل نحو سعد عامداً ليضربه، فانسلّ سعد.

فخرج من المسجد، فاتبعه عثمان، فلقي عليّاً باباب المسجد، فقال له عليّاً: أين تريد؟ قال: أريد هذا الذي كذا وكذا - يعني سعداً - يشتمه - فقال له عليّاً: أيها الرجل، دع عنك هذا، قال: فلم يزل بينهما كلام، حتى غضبا، فقال عثمان: أأست الذي خلفك رسول الله ﷺ يوم تبوك؟! فقال علي: أأست الفار عن رسول الله ﷺ يوم أحد؟!!

قال: ثم حجز الناس بينهما. قال: ثم خرجت من المدينة حتى انتهيت إلى الكوفة، فوجدت أهلها أيضاً وقع بينهم شرٌّ، ونشبو في الفتنة، وردّوا سعيد بن العاص فلم يدعوه يدخل إليهم، فلما رأيت ذلك رجعت حتى أتيت بلاد قومي»^(٤١).

ووقفه متألمة إزاء هذا المشهد الكاريكتيري تثير علامات الاستفهام حول طبيعة الوضع الذي كان يقوده عثمان، وهو يوزّع الشتائم والإهانات إلى الصحابة وحتى زوجات النبي ﷺ لم يسلمن منه، فأَيُّ حضيض آلت إليه الأمور؟!

وفيما كان عثمان يتعامل بهذا الأسلوب الفظّ الذي أبكى بعضاً من صحابة رسول الله، وجرح كبرياء بعض آخر.. فإنه - في الوقت نفسه - كان يحيط نفسه بمحنة من المنتفعين، ومعظم ولاته غلمان تتور حول تدينهم وحول أخلاقهم شبهات كثيرة، ولم يكن لهم شيء من الصلاحيات ينفعهم غير صلاتهم بالخليفة^(٤٢)، وفي مقدّمة هؤلاء عمّه الحكم بن أبي العاص - وهو

الذي طرده الرسول من المدينة - وولده مروان والحارث اللذان صاهرهما عثمان وجعل من الأوّل وزيره المتصرّف^(٤٣)، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، أخو عثمان من أمّه، والذي عيّنه والياً على الكوفة، وكان يشرب الخمر حتى صلاة الفجر، فيصلّي بالناس أربعاً! وهو ممّن أخبر النبي ﷺ أنه من أهل النار.. وعبدالله بن أبي سرح (أخوه من الرضاعة) الذي ولّاه مصر، ومعاوية على الشام (ويلتقيان في الجّد الثاني أميّة) وعبدالله بن عامر على البصرة (وهو ابن خاله).

ولقد لقي الإمام علي عليه السلام من عثمان وبطانته ما لقي من العنت، ونكتني هنا بإيراد نموذج واحد لهذا الأمر؛ روى الزبير بن بكار في «الموفقيات» عن رجال أسند بعضهم عن بعض، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: أرسل إليّ عثمان في المهاجرة (نصف النهار في القيظ)، فتقنعت بثوبي وأتيت، فدخلت عليه وهو على سرير، وفي يده قضيب، وبين يديه مال دثر (أي كثير): صُبرتان من ورق وذهب، فقال: دونك

وظيفته الشرعية، فإنه ليس بمقدوره إلا الخيار الأخير، وهو التأشير على مواطن الخلل بالنصيحة تارةً، والعقاب أخرى، والتحذير ثالثة، وقد كشف الإمام علي (عليه السلام) أهل الكوفة، في كتاب منه إليهم، جاء فيه: «من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة، جبهة الأنصار وسمام العرب، أمّا بعد، فإنّي أخبركم عن أمر عثمان حتّى يكون سمعُه كعيانه، إنّ الناس طعنوا عليه، فكنت رجلاً من المهاجرين أكثر استعتابه (أي استرضاءه)، وأقلّ عتابه...» (٤٥).

ولم يكف الإمام علي (عليه السلام) عن نصيحة عثمان ولم يهتبل فرصة متاحة إلاّ وحاول إنقاذ عثمان ممّا هو في مأزق، ولكن دون جدوى، فرأينا كيف كان عثمان يقابل ذلك بمزيد من الانفعال الذي لا يخلو من مظنة السوء. فقد صوّرت له حاشيته الفاسدة أنّ الإمام علياً (عليه السلام) في طليعة حسّاده على نعمته وإمرته!، ولطالما أشار عثمان إلى هذه التهمة، تصرّحاً أو تلميحاً، سواء في مجالسه الخاصة أو في خطبه يوم الجمعة.

خذ من هذا حتى تملأ بطنك فقد أحرقتني. فقلت: وصلتكَ رَحِم! إنّ كان هذا المال ورثته، أو أعطاكه معطٍ، أو اكتسبته من تجار؛ كنتُ أحد رجلين: إمّا آخذ وأشكر، أو أوفّر وأُجهد، وإنّ كان من مال الله وفيه حقّ المسلمين واليتيم وابن السبيل، فوالله مالكَ أن تعطينيه ولا لي أن آخذه. فقال: أبيت والله إلاّ ما أبيت. ثمّ قام إليّ بالقضيب فضربني، والله ما أردّ يده، حتّى قضى حاجته، فتقنّعت بثوبي، ورجعت إلى منزلي، وقلت: الله بيني وبينك إنّ كنتُ أمرتُك بمعروف أو نهيتُ عن منكر! (٤٤).

على خلفيّة هذه الممارسات غير المسؤولة من الطبيعي أن يتفشّى الفساد في جهاز السلطة ويضرب بأطنابه في كلّ الاتجاهات. والسؤال هو: ما هو موقف الإمام (عليه السلام) من كلّ هذا الذي يجري باسم الإسلام؟

هناك ثلاثة خيارات لا غير: إمّا أن يجاري الوضع على ما هو عليه، أو يلوذ بالصمت مكتفياً بالتفجّر، أو يتصدّى للانحراف.

ولمّا كان الإمام علي (عليه السلام) عارفاً

غير أن الإمام علياً عليه السلام لا يستكين إذا ما رأى منكراً يجب ردعه، حتى يتمكن من تحقيق ذلك. ويطول المقام في هذا الباب، بيد أننا نكتفي بموقفين له مع اثنين من رؤوس الفساد والإفساد في عهد عثمان، هما: الوليد بن عقبة بن أبي معيط (أخو عثمان من أمّه)، وصهره المدلل مروان بن الحكم.

● سكران في محراب الكوفة

يذكر المسعودي في تاريخه: «أن الوليد بن عقبة كان يشرب مع ندمائه ومغنييه من أول الليل إلى الصباح، فلما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج متفضلاً في غلائله، فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح، فصلّى بهم أربعاً، وقال: أريدون أن أزيدكم؟ وقيل: إنه قال في سجوده وقد أطال: اشرب واسقني، فقال له بعض من كان خلفه في الصف الأول: ما تزيد لا زادك الله من الخير. والله لا أعجب إلا ممن بعثك إلينا والياً وعلينا أميراً.

وخطب الناس الوليد فحصبه الناس بحصباء المسجد، فدخل قصره يترنح، ويتمثل بأبيات لتأبط شراً:

و ذات جمعة تطرّق إلى هذا الأمر، حتى كاد أن يسمّي علياً، وبعد انتهاء الخطبة.. «همّ بالنزول فبصر بعلي بن أبي طالب عليه السلام ومعه عمار بن ياسر رضي الله عنه، وناس من أهل هواه يتناجون؛ فقال: إيهاً إيهاً! إسراراً لا جهاراً! أما والذي نفسي بيده ما احتنق على جرّة، ولا أوتئ من ضعف مِرّة؛ ولولا النظر لي ولكم والرفق بي وبكم، لعاجلتكم؛ فقد اغتررتكم، وأقلتم من أنفسكم.

ثم رفع يديه يدعو.. فتفرّق القوم عن علي عليه السلام» (٤٦).

ولا يسع المراقب المحايد إلا أن يستحضر القول المأثور: «يكاد المريب أن يقول خذوني!»

هذه الحادثة وغيرها كثير جعلت الإمام علياً عليه السلام يتجنب الاحتكاك بعثمان، وهذا ما أوضحه في كتاب له إلى معاوية:

«ولعمري يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلم أنّي كنت في عزلة عنه إلا أن تتجنّئ؛ فتجنّ ما بدا لك! والسلام» (٤٧).

ولستُ بعيداً عن مدام وقينة
ولا بصفا صلد عن الخير معزل
ولكنني أروي من الخمر هامتي
وأمشي الملا بالساحب المتسلسل
وفي ذلك يقول الخطيئة :

شهد الخطيئة يوم يلقي ربّه
أنّ الوليد أحقُّ بالعدر
نادى وقد تمّت صلاتهم
أأزيدكم؟! ثملاً وما يدري
ليزيدهم أخرى، ولو قبلوا
لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو
خلّوا عنانك لم تزل تجري

وأشاعوا في الكوفة فعله، وظهر
فسقه ومداومته على شرب الخمر،
فهجم عليه جماعة من المسجد منهم أبو
زينب بن عوف الأزدي وجندب بن
زهير الأزدي وغيرهما، فوجدوه
سكران مضطجعا على سريريه لا يعقل،
فأيقظوه من رقدته، فلم يستيقظ، ثمّ
تقياً عليهم ما شرب من الخمر،
فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من

فورهم إلى المدينة، فأتوا عثمان بن
عقّان، فشهدوا عنده على الوليد أنّه
شرب الخمر، فقال عثمان: وما يدريكما
أنّه شرب خمرًا؟ فقالا: هي الخمر التي
كنا نشربها في الجاهلية وأخرجنا خاتمه
فدفعاه إليه، فزجرهما ودفع في
صدورهما، وقال: تنحيا عني، فخرجا
من عنده وأتيا عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)
وأخبراه بالقصة، فأقّى عثمان وهو
يقول: دفعت الشهود، وأبطلت الحدود،
فقال له عثمان: فما ترى؟ قال: أرى أن
تبعث إلى صاحبك فتحضره فإن أقاما
الشهادة عليه في وجهه ولم يدرأ عن
نفسه بحجة أقمت عليه الحدّ، فلمّا حضر
الوليد دعاها عثمان: فأقاما الشهادة
عليه ولم يُدَلِّ بحجة فألقي عثمان السوط
إلى علي، فقال علي لابنه الحسن: قم يا
بني فأقم عليه ما أوجب الله عليه،
فقال: يكفينيه بعض من ترى، فلمّا نظر
إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحدّ عليه
توقّياً لغضب عثمان لقرابته منه أخذ علي
السوط ودنا منه، فلمّا أقبل نحوه سبّه
الوليد.. فقال عقيل بن أبي طالب وكان
ممن حضر: إنك لتتكلم يا ابن أبي مُعَيْط

كَأَنَّكَ لَا تَدْرِي مَنْ أَنْتَ، وَأَنْتَ عُلِجَ مِنْ أَهْلِ صَفُورِيَّةٍ - وَهِيَ قَرْيَةٌ بَيْنَ عَكَا وَاللَّجُونِ مِنْ أَعْمَالِ الْأُرْدُنِّ مِنْ بِلَادِ طَبْرِيَّةٍ، وَكَانَ ذَكَرُ أَنْ أَبَاهُ كَانَ يَهُودِيًّا مِنْهَا - فَأَقْبَلَ الْوَلِيدَ يَرُوغُ مِنْ عَلِيٍّ، فَاجْتَذَبَهُ عَلِيٌّ فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ، وَعَلَاهُ بِالسُّوْطِ، فَقَالَ عَثْمَانُ: لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْعَلَ بِهِ هَذَا، قَالَ: بَلْ وَشَرًّا مِنْ هَذَا إِذَا فَسَقَ وَمَنَعَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهُ (٤٨).

● مروان بن الحكم: الصهر المدلل

أَمَّا عَنْ مَوْقِفِهِ عليه السلام مِنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فَهُوَ مَعْرُوفٌ، إِذْ كَانَ عَلَى طَرْفِي تَقْيِيزٍ تَمَامًا. وَقَدْ تَفَجَّرَ الْوَضْعُ بَيْنَهُمَا إِثْرَ حَادِثَةٍ نَفِيَّ عَثْمَانَ لِأَبِي ذَرٍّ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى الرِّبْذَةِ، عَلَى خَلْفِيَّةٍ مَشَادَّةٍ حَصَلَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَعْبِ الْأَحْبَارِ فِي مَجْلِسِ عَثْمَانَ انْتَصَرَ فِيهَا هَذَا الْآخِرُ لِحَاذِئِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ، «وَأَمَرَ عَثْمَانُ أَنْ يَتَجَافَاهُ النَّاسُ، حَتَّى يَسِيرَ إِلَى الرِّبْذَةِ، فَلَمَّا طَلَعَ عَنِ الْمَدِينَةِ وَمَرْوَانَ يَسِيرُ عَنْهَا طَلَعَ عَلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَمَعَهُ ابْنَاهُ [الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ] وَعَقِيلُ أَخُوهُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ وَعِمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ،

فَاعْتَرَضَ مَرْوَانَ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ نَهَى النَّاسَ أَنْ يَصْحَبُوا أَبَا ذَرٍّ فِي مَسِيرِهِ وَيَشِيعُوهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَدْرِ بِذَلِكَ فَقَدْ أَعْلَمْتُكَ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِالسُّوْطِ وَضَرَبَ بَيْنَ أُذُنَيْ رَاحِلَتِهِ، وَقَالَ: تَنَحَّ نَحَّاكَ اللَّهُ إِلَى النَّارِ، وَمَضَى مَعَ أَبِي ذَرٍّ فَشِيعَهُ ثُمَّ وَدَّعَهُ وَانْصَرَفَ، فَلَمَّا أَرَادَ عَلِيٌّ الْانْصِرَافَ بَكَى أَبُو ذَرٍّ، وَقَالَ: رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِذَا رَأَيْتَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ وَوَلَدَكَ ذَكَرْتُ بِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم. فَشَكَا مَرْوَانَ إِلَى عَثْمَانَ مَا فَعَلَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ عَثْمَانُ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ عَلِيٍّ؟ رَدَّ رَسُولِي عَمَّا وَجَّهْتَهُ لَهُ، وَفَعَلَ كَذَا، وَاللَّهِ لَنُعْطِيَنَّهُ حَقَّهُ، فَلَمَّا رَجَعَ عَلِيٌّ اسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْكَ غَضَبَانِ لِتَشْيِيعِكَ أَبَا ذَرٍّ، فَقَالَ عَلِيٌّ: غَضَبَ الْخَيْلِ عَلَى اللَّجَمِ.

فَلَمَّا كَانَ بِالْعَشِيِّ جَاءَ إِلَى عَثْمَانَ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ بِمَرْوَانَ وَلَمْ اجْتَرَأْتَ عَلَيَّ وَرَدَدْتَ رَسُولِي وَأَمْرِي؟! قَالَ: أَمَّا مَرْوَانَ فَإِنَّهُ اسْتَقْبَلَنِي يَرُدُّنِي فَرَدَدْتَهُ عَنْ رَدِّي، وَأَمَّا

وعمار بن ياسر وغيرهما، فدخل الناس بينها حتى اصطلحا وقال له علي: والله ما أردت بتشيع أبي ذر إلا الله تعالى». (٤٩)

وإضافة إلى ما تقدّم، تبذت مظاهر الثراء والبذخ على عدد كبير من الصحابة، في عهد عثمان، ويطول الحديث في هذا المقام، ونكتفي بالإشارة إلى أحد هؤلاء، وهو عبد الرحمن بن عوف، إذ أصبحت ثروته مضرب الأمثال كما يقول الدكتور محمد عمارة «فعلى» مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم»، وعندما توفي قدّرت ثروته بأكثر من مليونين ونصف من الدراهم، ولقد بلغ حجم القدر الذي أحضر منها إلى عثمان ابن عقّان في «البدر» و«الأكياس» قدرًا من العظم جعله يحجب رؤية عثمان عن الرجل الواقف أمامه! (٥٠)

أمّا فيما يتعلّق بالخليفة نفسه، والذي يفترض به أن يكون قدوة ويعيش كأضعف الناس «كيلا يتبَيَّغ بالفقير فقره» (٥١) كما يقول الإمام علي (عليه السلام)، فإنّ المصادر التاريخية تشير إلى أنّ عثمان

أمرّك فلم أرده، قال عثمان: ألم يبلغك أنّي قد نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشييعه؟ فقال علي: أوكّل ما أمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحق في خلافه اتبعنا فيه أمرّك؟ بالله لا نفعل. قال عثمان: أقد مروان، قال: وممّ أقيده؟ قال: ضربت بين أذني راحلته، وشتّمته فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك. قال علي: أما راحلتي فهي تلك فإنّ أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل. وأمّا أنا فوالله لأنّ شتّمني لأشتّمك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلاّ حقًا. قال عثمان: ولم لا يشتّمك إذا شتّمته، فوالله ما أنت عندي بأفضل منه؟! فغضب علي بن أبي طالب: ألي تقول هذا القول؟ وبمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك، وأبي أفضل من أبيك، فغضب عثمان واحمرّ وجهه، فقام ودخل داره، وانصرف علي، فاجتمع إليه أهل بيته، ورجال من المهاجرين والأنصار.

فلما كان من الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكّا إليهم عليًا وقال: إنّّه يعيبي ويظاھر من يعيبي، يريد بذلك أبا ذر

عقدة مستحكمة من عدم الثقة المتبادلة بين الطرفين، حاول عثمان أن يردمها أو يعوّضها بالارتقاء أكثر فأكثر في أحضان الشلّة الفاسدة من بني عمومته، كلّ ذلك انعكس بشكل سلبي على مجمل الأوضاع، الأمر الذي أوجد مناخاً اجتماعياً ونفسياً «وُلد وشهد العديد من التناقضات والصراعات»^(٥٥).

ولقد كان صوت علي بن أبي طالب في مقدّمة الأصوات التي ارتفعت بالنقد والمعارضة لهذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على المجتمع العربي الإسلامي على عهد عثمان بن عفّان.. بل لا نغالي - يقول د. محمد عمارة - إذا قلنا: إنّ صوت معارضته ونقده كان أعلى هذه الأصوات^(٥٦).

ولمّا لم تجد نصائح الإمام علي عليه السلام أذنّاً صاغية من عثمان، رغم أنّه بذل ما في الوسع لتقديم النصيحة.. فقد اعتزل عثمان بعدما ألقى عليه الحجّة تلو الأخرى. ووصل الأمر إلى امتناع الإمام علي عليه السلام عن الاستشفاع ببعضه إلى عثمان، إذ روى سفيان بن عيينة

كان أوّل خليفة يترك عند مماته ثروة طائلة، فيحصون له يوم مقتله «عند خازنه من المال خمسين ومائة ألف دينار، وألف ألف درهم» وذلك غير قيمة ضياعه بوادي القرى وحنين، تلك التي قدّرت بمبلغ مائة ألف دينار، هذا عدا الخيل والإبل وغيرها من الممتلكات والمقتنيات^(٥٢).

ويمضي عثمان بعيداً في سياسته هذه المصحوبة بإغداق المنح والأموال على بني عمومته الذين أطلق لهم العنان ليعيشوا في الأرض فساداً وعتوّاً.. فيما يجرم الصحابة ويضرب بعضهم على مشهد من الملاّ ضرب إهانة وإيحاء^(٥٣)، وليوسّع دائرة تبرّمه من الأمّة نفسها، دونما مبرّر سوى ضيق الصدر. إذ روي عن عبيد بن حارثة قوله: «سمعت عثمان وهو يخطب، فأكبّ الناس حوله، فقال: اجلسوا يا أعداء الله! فصاح به طلحة: انهم ليسوا بأعداء الله؛ لكنهم عباده، وقد قرأوا كتابه»^(٥٤).

فهذا يعني - فيما يعني - أنّ هناك حاجزاً نفسياً خطيراً بين الراعي ورعيته. وتحوّل الحاجز النفسي هذا إلى

على مآخذ الخليفة.. فلما حملها عمار بن ياسر إليه، غضب وزيره مروان بن الحكم، وقال له: «إنّ هذا العبد الأسود قد جرّاً عليك الناس.. وإنّك إن قتلته نكلت به من وراءه» فضربوه حتى غشي عليه.

وفي مرّات أخرى، كان الخليفة يصغي إلى هذه الشكايات ويندم على ما اجترحه أعوانه بعلمه أو بغير علمه، ثمّ يعلن التوبة إلى رعاياه، ويؤكد لهم الوعد بإقصاء أولئك الأعوان واخلافهم في أعمالهم بمن يرضي المسلمين، ويرضي الله.

ثمّ يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته، فيقيهم حيث كانوا ويملي لهم فيما تعودوه من الترف والנקاية، وعلى رأسهم مروان بن الحكم. أبغض أولئك الأعوان إلى المسلمين^(٥٩).

وعندما زحفت جموع الثائرين على ولاية عثمان والتغيرات الاجتماعية التي أحدثتها.. عندما زحفوا من الولايات: مصر، والعراق، واليمن، والشام - على العاصمة المدينة - يطلبون التغيير، ذهبت هذه الجموع إلى عليّ وكلموه،

قائلاً: جاء رجل إلى عليّ يستشفع به إلى عثمان، فقال: حمّال الخطايا! لا والله لا أعود إليه أبداً. فأيسه منه^(٥٧).

بيد أنّ مقاطعة الإمام عليّ لعثمان لم تخفّف من درجة المعارضة المستعرة للسلطة إن لم تساهم أكثر في إذكائها «ومن ثمّ فإنّ حركة المعارضة والنقد، ثمّ الثورة، ضد الأوضاع الجديدة قد اتخذت من عليّ رمزاً لها وقيادة تلتفّ من حولها، كي تمارس الضغط والنقد والتجريح لأصحاب المصلحة الحقيقية في هذه الأوضاع التي طرأت على المجتمع في ذلك الحين»^(٥٨).

وحين تألّب الناس على عثمان.. أرسل في طلب عليّ ليصرفهم عنه، فلما قدم إليه استأذنه في إعطائهم بعض الرغد العاجل من بيت المال، فأذن له.. فانصرفوا عن زعماء الفتنة، وهدأوا إلى حين.

ثمّ توافد المتذمّرون من الولايات إلى المدينة مجنّدين وغير مجنّدين.. وتولّى زعامة المتذمّرين في بعض الأحيان جماعة من أجلاء الصحابة، كتبوا صحيفة وقّعوها وأشهدوا فيها المسلمين

فلا تكونن لمروان سَيِّقَةً (أي ما استاقه العدو من الدواب) يسوقك حيث شاء بعد جلال السنّ وتقضي العمر». فقال له عثمان: «كلم الناس في أن يؤجلوني، حتى أخرج إليهم من مظالمهم» فقال عليه السلام: «ما كان بالمدينة فلا أجل فيه، وما غاب فأجله وصول أمرِك إليه» (٦٠).

من نافلة القول التأكيد بأن هذه ليست الأولى التي حذر فيها الإمام علي عليه السلام عثمان من مغبة اعتاده المفرط على سفهاء بني أمية، فقد سبق وأن طرق هذا الباب غير مرة.

وقد روى الواقدي في كتاب «الشورى» عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه شهد عتاب عثمان لعلي عليه السلام ذات مرة، ذكره فيه بموقفه المساند للشيخين (ولست بدون واحد منها، وأنا أمس بك رحماً، وأقرب إليك صهراً.. ولم أقصر عنها في ديني وحسبي وقرابتي، فكن لي كما كنت لهما).

وفي معرض رده أجاب الإمام علي عليه السلام عثمان على تساؤلاته، ومما قاله: «..وأما التسوية بينك وبينهما، فلست

وطلبوا منه أن يحمل مطالبهم إلى عثمان، ثم يأتيهم بالجواب. ويحكي الإمام علي وقائع مقابلته لعثمان عندما دخل عليه فقال له: «إن الناس ورائي وقد استفسروني (أي جعلوني سفيراً) بينك وبينهم، والله ما أدري ما أقول لك! ما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه.. فالله الله في نفسك!..

وإن الطرق لواضحة، وإن أعلام الدين لقائمة. فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل.. وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضلّ وضلّ به، فأما سنة مأخوذة، وأحيا بدعة متروكة، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في نار جهنم، فيدور كما تدور الرحى، ثم يرتبط في قعرها». وإني أنشدك الله ألا تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه كان يقال: يُقتل في هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أموراً عليها، ويبث الفتن فيها، فلا يبصرون الحق من الباطل، يمجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً،

يقول السيوطي (٦٢).

ثار الناس وتجمهروا حول قصره
«وكانت مدة حصار عثمان في داره
أربعين يوماً أو أكثر قليلاً..» وطلبوا
منه أحد أمور ثلاثة: إما أن يعزل نفسه
أو يسلم إليهم مروان بن الحكم أو
يقتلوه. لكنّه رفض العروض الثلاثة..
وكانت الثورة (٦٣).

في تلك الأثناء، كانت مشاعر
الغضب على عثمان وبطانته تعتمل في
صدور الصحابة، وبلغ الأمر ببعضهم
مشاركة الثوار، فيما كانت عائشة تؤلّب
على قتل عثمان «اقتلوا نعثلاً، قتل الله
نعثلاً! تعني عثمان، وكان هذا منها لما
غاضبته وذهبت إلى مكة» (٦٤).

أمّا علي فقد كان موقفه أصعب
موقف يتخيّله العقل في تلك الأزمة
المحفوفة بالمصاعب من كلّ جانب..
كان عليه أن يكبح الفرس عن الجراح،
وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز
من طريق الفرس.. كلّما حيل بينها وبين
الانطلاق.

كان ناقدًا لساسة عثمان وبطانته التي
حجبته عن قلوب رعاياه.. ناصحاً

كأحدهما، إنّهما وليا هذا الأمر فظلفا
(أي كفّا) أنفسهما وأهلها عنه، وعُفّت
فيه وقومك عوم السابح في اللجة،
فارجع إلى الله أبا عمرو، وانظر هل
بقي من عمرك إلّا كظم الحمار! فحتى
متى وإلى متى؟! ألا تنهى سفهاء بني
أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم
وأموالهم؟! والله لو ظلم عامل من
عمالك حيث تغرب الشمس لكان اثمه
مشاركاً بينه وبينك.

قال ابن عباس: فقال عثمان: لك
العتبي، وافعل واعزل من عمالي كلّ من
تكرهه ويكرهه المسلمون؛ ثمّ افترقا،
فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك،
وقال: يجترئ عليك الناس، فلا تعزل
أحداً منهم» (٦١).

وهكذا يتّضح مدى الدور القذر
الذي كان يلعبه بنو أمية عموماً،
ومروان خاصة، في الوقوف بوجه أيّة
محاولة اصلاح لتدارك الأمور، وإيقاف
التداعي. ولما آيس الناس من إذعان
عثمان واستماعه إلى شكواهم، عمّ
الاستياء، وإلى الحدّ الذي «لم يبق أحد
في المدينة إلّا حنق على عثمان» على ما

الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتأليب الثائرين عليه، وأنه لا أمان له إلا أن يوقع بهم ويعرض عنهم.. ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة في دوامه.

ففي المؤتمر الذي جمعه الخليفة للتشاور في إصلاح الأمر وقع الفتنة، لم يكن عليّ مدعوّاً ولا منظوراً إليه بعين الثقة والمودة.. بل كان المدعوون إلى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه.. وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبدالله ابن أبي سرح وعبدالله بن عامر وسعيد ابن العاص، وهم في جملتهم من أولئك الولاة الذين شكاهم عليّ وجمهرة الصحابة وبرحت بهم صدور المهاجرين والأنصار.

كان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان، ومن ورائهم مروان بن الحكم يلازمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه، وفي مقدّمتهم عليّ وأخوانه.. ثم تفرّق المؤتمرون وقد ردّ عثمان كلّ عامل إلى عمله، وأمره بالتضييق على من قبله.

للخليفة بإقصاء تلك البطانة، وتبديل السياسة التي تزيّنها له وتغريه باتباعها وصم الأذان عن الناصحين له بالإقلاع عنها. وكان مع هذا أوّل من يُطالب بالغوث، كلّما هجم الثوار على تلك البطانة، وهمّوا بإقصائها عنوة من جوار الخليفة.

كان الثّوار يحسبونه أوّل مسؤول عن السعي في الإصلاح، وكان الخليفة يحسبه أوّل مسؤول عن تهدئة الحال وكفّ أيدي الثّوار. ولم يكن في العالم الإسلامي كلّ رجل آخر يعاني مثل هذه المعضلة التي تلقاه من جانبيه كلّما حاول الخلاص منها، ولا خلاص!

وضاعف هذا الحرج الشديد الذي كان يلقيه في كلّ خطوة من خطواته، أنه لم يكن بموضع الخطوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب الإصغاء إلى الرأي والعمل بالمشورة. وإنّما كان مروان بن الحكم موضع الخطوة الأولى بين المقربين إليه.. لا ينجو من إحدى جناياته التي كان يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود إلى الخليفة فيوقع في روعه أن عليّاً وأخوانه من جلة

فكانت حيلة عليّ في تلك المعضلة العصبية جدّ قليلة، وكان الحول الذي في يديه أقلّ من الحيلة.

إلا أنّه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين، معصوب بالتبعين، مسؤول عن الخليفة أمام الثوّار ومسؤول عن الثوّار أمام الخليفة (٦٥).

فحينما تناهى إلى سمعه، أنّ الثوّار يريدون قتل عثمان، بعث الإمام عليّ (عليه السلام) بابنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته، وأمرهم أن يمنعوه منهم (٦٦) وهكذا هذا حذوه بعض الصحابة اقتداءً بالخطوة، فصدّوهم عن الدار.. واشتبك القوم، وجرح الحسن، وشجّ قبر، وجرح محمد بن طلحة، فخشي القوم أن يتعصّب بنو هاشم وبنو أميّة، فتركوا القوم في القتال على الباب، ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوّروا عليها، وكان ممّن وصل إليه محمّد بن أبي بكر ورجلان آخران.. (٦٧).

وبينما كان البعض يشحذ سيفه استعداداً لخوض الجولة الأخيرة مع

عثمان، والبعض الآخر يميّ نفسه بالأمر.. جاء الثوّار إلى الإمام عليّ (عليه السلام) يعرضون الخلافة عليه.. فلقيهم أسوأ لقاء، وأنذروهم لأن عادوا إليها ليكونن جزأؤهم عنده وعند الخليفة القائم، جزاء العصاة المفسدين في الأرض (٦٨).

ووقع المحذور، ويهرع الإمام عليّ (عليه السلام) إلى دار الخليفة المقتول، ولطم الحسن وضرب الحسين، وشتّم محمّد ابن طلحة وعبدالله بن الزبير وجعل يسأل ولديه: كيف قُتل الرجل وأنتما على الباب؟ فأجاب طلحة: لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع مروان ما قُتل (٦٩).

وبقيت المدينة خمسة أيّام بعد مقتل عثمان، وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيئهم إلى القيام بالأمر، والمصريون يلحون على عليّ وهو يهرب إلى الحيطان (البساتين).. وكلّهم يقول: لا يصلح لها إلاّ عليّ (٧٠).

وهنا، يصل المأزق إلى مرحلة الخيارات الصعبة، فأما أن يقبل أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) بالتصدّي لأمر المسلمين ويتسّم قيادتهم رسمياً أو أن

يلقي الحبل على غاربه، مع ما يترتب على الخطوة الأخيرة من نتائج خطيرة ومهولة لا تتوقف آثارها على حقبة تاريخية معينة وإنما تتعداها بجملة تشويهاها إلى كل العصور؛ لأن المشكلة كانت تكن في المنهج المعتمد لا في غيره. وأمام فداحة تلك النتائج المتوقعة، قبل الإمام علي عليه السلام السلطة، حاملاً معه اطروحته بكل دقائقها، محاولاً استئناف العمل بالمشروع الإسلامي البعيد^(٧١).

ولكن؛ هل أتيحت الفرصة المواتية للإمام علي عليه السلام لإنجاز مشروعه هذا؟! علي.. والمعارضة

إذا كان الإمام عليه السلام قد أسس المعارضة الشرعية في الإسلام بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو يومئذ في موقع الفرد إزاء السلطة الحاكمة، فإنه يعتبر كذلك المنظر الأول لمنهج التعامل مع المعارضة يوم أصبح حاكماً على المسلمين^(٧٢).

ومنذ البداية كان الشك يخامر البعض، لأسباب عديدة، رغم أن الإمام علياً عليه السلام، وبشهادة حتى أعدائه، الأقدر والأصلح، ولكن ثمة غيوم كانت

تتلبد في أجواء ملبدة أساساً. فحينما أجمع المسلمون على بيعته الإمام علي عليه السلام بعد مقتل عثمان، تخلف عدد من الصحابة عنه، وثار عليه آخرون، وتمرد عليه بعض، وانحرف فريق آخر، فكيف كان موقفه من هذه الفئات المختلفة^(٧٣)؟

بدءاً، كان امتناع البعض عن تقديم البيعة للإمام عليه السلام أول اختبار لمنهجه في التعاطي مع «الآخر» المختلف. وبالرغم مما كان يمثل الامتناع عن البيعة من خروج سافر على مبدأ الطاعة لخليفة المسلمين، لاسيما وأن بيعته كانت الوحيدة من بين من سبقوه تحققت بمشاركة شعبية واسعة وإجماع شامل، إلا أن النفر الذين تخلفوا وهم؛ سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وأسامة ابن زيد، وآخرون لا يتجاوزون بضعة نفر.. لم يعاملوا المعاملة المتوقعة بمقاييس المسلمين في ذلك العصر. لقد حصل مع علي بن أبي طالب والذين تخلفوا عن بيعته أبي بكر، أنهم هُددوا وحوصروا في بيت علي، وتم كشف البيت بالقوة في الحادثة التي ندم عليها

بيعته، بكل ما يعنيه ذلك من تمرد ورفض لسلطة زعيم الدولة الذي اختاره المسلمون ومن بينهم زعماء المصريين أنفسهم الذين شاركوا في الثورة على عثمان^(٧٤).

ومن الواضح أن خلافة الإمام علي عليه السلام جاءت في ظروف بالغة الخطورة والتعقيد، فذووا النفوذ من الناس قد ألفوا الاستئثار واستراحوا إليه، وليس يسيراً أبداً أن يدعوا لأية محاولة إصلاحية تضر بمصالحهم الذاتية.

ثم إن المطامع قد تنبّهت لدى الكثير من الرجال، بعد أن أصبحت الخلافة مغنماً لا مسؤولية لحماية الشريعة والأمة. ولقد كان الإمام علي عليه السلام مدركاً لحقيقة الموقف بدقائقه وخفاياه بشكل جعله يعتذر عن قبول الخلافة حين أجمعت الأمة على بيعته بعد مقتل الخليفة عثمان قائلاً: «دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وأن الآفاق قد أنماحت والمحجة تنكرت..»^(٧٥). ولكن جماهير

أبو بكر في لحظات احتضاره، إلا أن الإمام علياً ترك من تخلف عنه وشأنه ولم يرغمه في شيء لم يكن مقتنعاً به، حتى ندم النادمون في لحظة فوات الأوان، مع أن أحاديث البيعة والسمع والطاعة للأمير البر والفاجر كانت من السمات المعروفة عن عبدالله بن عمر، مما يوحي بأن موقفه كان سياسياً وليس نابعاً من شبهات حالت بينه وبين أن يساوي بين علي في سنة ٣٦ هجرية وبين يزيد بن معاوية في سنة ٦٠ هجرية، واحتفظ المتخلفون بكامل حقوقهم في دولة علي، بينما لم يؤدوا واجباتهم المفترضة، وعلى رأسها القبول بالرئيس الأعلى للدولة الإسلامية.

لقد كان مفهوماً أن علياً يمنح بذلك معارضيه فرصة التعبير عن مواقفهم، ويبين ما أشكل عليهم معرفته وفهمه، والدوافع التي كانت تقودهم إلى تبني تلك المواقف، ولم يجبر على أحد أو يقطع عطاء أحد من بيت المال. ويتكرر الموقف نفسه مع أهالي «صرنا» في مصر حين امتنعوا عن

المدينة المنورة، وجماهير الثوّار من العراق ومصر أصرّوا على استخلافه عليهم، فنزل الإمام عند رغبتهم، ولكن وفقاً لشروطه الخاصة هو: «واعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغِ إلى قول القائل وعبث العابث»^(٧٦).

حتى إذا قام بالأمر وأراد إرجاع الحقّ إلى نصابه، تألّب عليه الكثيرون من الساعين وراء مصالحهم الشخصية، ومنهم الزبير وطلحة، مختلفين الأعذار الواهية. فحارب الناكثين من أصحاب الجمل في البصرة، ثمّ حارب القاسطين من أصحاب معاوية في صفّين، ثمّ حارب المارقين من الخوارج في النهروان، يبغي تطهير المجتمع الإسلامي من الفتن.. والنفوس المريضة^(٧٧).

وفي خطبته الشقشقية أشار إلى التحذيرات الكبرى التي واجهته، وحدّد بدقّه حقيقة منطلقاتها: «فلما نهضتُ بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون [يشير بذلك ﷺ إلى أصحاب الجمل (وهم الناكثون) وإلى أصحاب النهروان الخوارج (وهم

المارقون) وإلى أصحاب صفّين (وهم القاسطون)]. كأنّهم لم يسمعوا كلام الله سبحانه حيث يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنّهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها (أي زينتها)»^(٧٨).

هنا وقفة مقتضية أمام ثلاث جهات تباينت في شعاراتها ولكنّها اتّفقت على مناوأة الإمام ﷺ، وفي كلّ مرّة، كان الموقف من قبل الإمام ﷺ والتعاطي مع هؤلاء منسجماً واضحاً وصادراً من موقف شرعي محدّد.

● مع الناكثين

على الرغم من أنّ طلحة والزبير كانا من أشدّ الناقين على سياسة عثمان، ومع أنّهما سبقا الناس في البيعة للإمام علي ﷺ بعد قتل عثمان، فإنّ الحركة الإصلاحية التي قادها الإمام ﷺ في الحياة الإسلامية لم تجد هوى في نفسيهما^(٧٩) فبدأ في العمل للخروج على الإمام ﷺ وإثارة المسلمين عليه^(٨٠)

وقاما مع عائشة يوهمون الناس بأنّ عليّاً عليه السلام قتل عثمان، مع أنّه كان أوّل المدافعين عنه، ولكنهم أرادوا أن يبعدوا تهمة قتله عنهم^(٨١) فكانت حصيلة ذلك فتنة كبّدت الأمة خسارة فادحة.

وقد بذل الإمام عليه السلام جهداً كبيراً لتحاشي هذه الفتنة فلم يأل جهداً في بذل النصح لهم وتحميلهم مغبّة ما سيكون إذا نشبت الحرب. وهذه نصيحته عليه السلام لهما:

«أما بعد يا طلحة، ويا زبير، فقد علمتما أنّي لم أرد الناس حتى

أرادوني، ولم أبايعهم حتى أكرهوني، وأنتما أوّل من بادر إلى بيعتي، ولم تدخلا في هذا الأمر بسلطان غالب ولا لعرض حاضر. وأنت يا زبير ففارس قريش، وأنت يا طلحة شيخ المهاجرين، ودفعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه كان أوسع لكما من خروجكما منه بعد إقراركما، ألا وهؤلاء بنو عثمان هم أولياؤه المطالبون بدمه، وأنتما رجالان من المهاجرين، وقد أخرجتما أنفسكما من بيتها الذي أمرها الله تعالى أن تقرّ فيه، والله حسبكما..»^(٨٢).

وناشدهم الله أن لا يقوموا بفتنة في الإسلام يقتل فيها المسلمون بعضهم بعضاً، فلم يُجد ذلك نفعا. وطلب الإمام أن يجتمع بالزبير بين الصّفين، وناجاه مذكراً بإياه بقول النبي صلى الله عليه وآله له: «تقاتله يا زبير وأنت له ظالم». فما كان من الزبير إلّا أن اعتزل الجيشين وتركهما يقتتلان، فلمّا كان في بعض الصحراء لحقه ابن جرموز فقتله^(٨٣) وحينما جيء إليه عليه السلام بسيف الزبير وخاتمه قال عليه السلام: سيف طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله^(٨٤).

ثمّ نادى عليه السلام طلحة حين رجع الزبير: يا أبا محمّد، ما الذي أخرجك؟ قال: الطلب بدم عثمان، قال علي: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»؟ وأنت أوّل من بايعني ثمّ نكثت، وقد قال الله عزّ وجلّ: «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ»؟ فقال: استغفر الله، ثمّ رجع، فقال مروان بن الحكم: رجع الزبير ويرجع طلحة، ما أبالي رميت هاهنا أم هاهنا، فرماه في أكحله فقتله، فرّر عليه بعد الواقعة..

فوقف عليه، فقال: إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون والله لقد كنت كارهاً لهذا^(٨٥).

وبعد أن ذهب كل محاولاته ﷺ لإصلاح الموقف سدّى.. تفجّر الموقف، غير أن الإمام راح يخاطب جيشه - بعد اندلاع القتال - مطالباً أصحابه بالالتزام بما يريد الله: «أَيُّهَا النَّاسُ أَنْشِدْكُمْ اللَّهَ أَنْ لَا تَقْتُلُوا مَدِيرًا، وَلَا تَجْهَرُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا تَسْتَحِلُّوا سَبِيًّا، وَلَا تَأْخُذُوا سِلَاحًا وَلَا مَتَاعًا». طارحاً بذلك أحكام شريعة الله تعالى في البغاة.

وبعد انتصار الإمام عفا عن المشتركين في الحرب فقال بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين تحلّ لنا دماؤهم ولا تحلّ لنا نساؤهم؟ فقال ﷺ: كذلك السيرة في أهل القبلة^(٨٦).

وأحسن الإمام ﷺ معاملة عائشة: «يا حميراء! رسول الله أمرك بهذا؟ ألم يأمر أن تقرّي في بيتك؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك».. وأمر أخاها محمداً فأنزلها في دار صفية بنت الحارث.. وأتاها في اليوم الثاني ودخل عليها ومعه الحسن والحسين وباقي

أولاده وأولاد أخوته وفتيان أهله من بني هاشم وغيرهم من شيعته من همدان، فلما بصرت به النسوان صحن في وجهه وقلن: يا قاتل الأحيّة، فقال: لو كنت قاتل الأحيّة لقتلت من في هذا البيت، وأشار إلى بيت من تلك البيوت قد اختفى فيه مروان بن الحكم وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عامر وغيرهم.. طلبت منه عائشة أن يؤمن ابن أختها عبدالله بن الزبير، فأمنه، وتكلم الحسن والحسين في مروان فأمنه، وأمن الوليد بن عقبة، وولد عثمان وغيرهم من بني أمية، وأمن الناس جميعاً، وقد كان نادى يوم الواقعة: مَنْ ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن^(٨٧).

أرجع الإمام علي ﷺ عائشة إلى بيتها في المدينة، وقد بعث معها أخاها محمداً بن أبي بكر وثلثين رجلاً وعشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وغيرهما، ألبسهن العمام وقلّدهن السيوف، وقال لهن: لا تعلمن عائشة أنكن نسوة وتلثن كنكن رجال، وكُنّ اللاتي تلين خدمتها وحملها، فلما أتت المدينة قيل لها: كيف

رأيت مسيرك؟ قالت: كنت بخير والله، لقد أعطى علي بن أبي طالب فأكثر، ولكنه بعث معي رجالاً أنكرتهم، فعرفها النسوة أمرهن، فقالت: ما ازددت والله يا ابن أبي طالب إلا كرمًا، ووددت أني لم أخرج.. وإنما قيل لي: تخرجين فتصلحين بين الناس، فكان ما كان.. (٨٨).

وهكذا أبدى الإمام عليه السلام أكثر من موقف إنساني فريد يعكس مدى نبل المشاعر وقيمة الأريحية تجاه الخصم.

● مع القاسطين

بعد اندحار الناكثين، توجه الإمام عليه السلام إلى الكوفة، ومن هناك بعث كتاباً إلى معاوية يدعوه إلى البيعة. فكان ردّ معاوية للإمام علي عليه السلام: «إنما أفسد عليّ بيعتك خطيئتك في عثمان..» (٨٩)، وتبدلت الرسائل بين الفريقين، وفي أحدها طلب معاوية من الإمام علي عليه السلام أن يجعل له الشام ومصر جباية (٩٠)، وبلغ علياً أن معاوية قد استعد للقتال (٩١).

بدأ الإمام عليه السلام يبذل مساعيه لإصلاح الموقف بالوسائل السلمية،

فأرسل وفداً ثلاثياً إلى معاوية، يدعوه إلى تقوى الله والحفاظ على وحدة الصف والدخول في إجماع الأمة.. التقى الوفد بقائد المعارضة، وأبلغوه بنوايا الإمام عليه السلام ووضعوه أمام الله تعالى وحذّروه مغبة ما يقدم عليه، غير أن معاوية أبدى إصراراً، وقد ختم رده على الوفد: «انصرفوا عني فليس عندي إلا السيف».

وحينما عسكر الجيشان في صفين، عمل معاوية من جانبه على الحيلولة دون حصول جيش الإمام علي عليه السلام على الماء لأنه كان السبّاق في التجحف. فأرسل الإمام عليه السلام رسولاً إلى معاوية ليبلغه «أنّ الذي جننا له غير الماء، ولو سبقناك إليه لم نمنعك عنه» فردّ عليه معاوية بقوله: «لا والله ولا قطرة حتى تموت ظمأً!» الأمر الذي اضطرّ الإمام عليه السلام إلى استعمال العنف في الحصول على الماء لجيشه، ومن ثمّ ليأذن للباغين بالتزوّد منه متى شاءوا: «خلّوا بينهم وبين الماء، والله لا أفعل ما فعل الجاهلون».

وحيث إنّهم الإمام عليه السلام أن يحقن

التحكيم، بينما اختار معاوية عمرو بن العاص.

ومنذ اللحظة الأولى، رفض الإمام عليه السلام فكرة تمثيل الأشعري، لأسباب عديدة، دونها ضعفه ووهن رأيه إضافة إلى متركزاته الفكرية وموقفه من حكومة الإمام عليه السلام.. ورجح الإمام عبدالله بن عباس، غير أن الغوغاء أصروا على اختيار أبي موسى الأشعري.. وهنا يخاطب الإمام عليه السلام المخدوعين بقوله: «قد عصيتُموني في أول الأمر - يشير إلى قبول التحكيم وإيقاف القتال - فلا تعصوني الآن، لا أرى أن تولّوا أبا موسى الحكومة فإنه ضعيف عن عمرو ومكائده..» (٩٢).

إلا أنهم أصروا على اختيار الأشعري، فاستجاب الإمام عليه السلام كارهاً وعلى مضض، معبراً بذلك أروع تعبير بقوله: «لا رأي لمن لا يُطاع»!

وانتهت المأساة بهذه المهزلة أو انتهت بهذه المأساة، كما يقول عباس محمود العقّاد (٩٣)، لبدأ فصل آخر من هذه المهزلة - المأساة.. إنها فتنة الخوارج.

دماء المسلمين ويصونهم من التزق، ويدراً التصدّع عن صفّهم، فقد طلب من معاوية أن ينازله إلى ميدان القتال فيتقاتلا دون الناس لكي تكون إمامة الأمة لمن يغلب: «يا معاوية علام يقتتل الناس؟ ابرز إليّ ودع الناس، فيكون الأمر لمن غلب».

إلا أن معاوية رفض ذلك خوفاً من الإمام عليه السلام..

ولمّا لم تلق محاولات الإمام عليه السلام لرأب الصدع - الذي أوجده معاوية في صفّ الأمة - استجابة، تفجّر الموقف بحرب واسعة النطاق.. وحين لاحت تبشير النصر لصالح معسكر الإمام عليه السلام وأوشكت القوى الباغية على الانهزام دبّروا «خدعة المصاحف» فرفعوا المصاحف على رؤوس الرماح والسيوف.

كانت مناورة رفع المصاحف مُقدّمة لمسلسل التداعيات اللاحقة والمتلاحقة، في صفوف جيش الإمام علي عليه السلام.. وتمثّل الفصل الثاني من المأساة باختيار الغوغاء أبا موسى الأشعري لتمثيل معسكر الإمام عليه السلام في

● مع المارقين

والخوارج هم الذين كانوا أصحاب الإمام عليه السلام وأنصاره في الجمل وصفين قبل التحكيم ^(٩٤) ثم أنكروا التحكيم الذي وقع يوم صفين، وقالوا: «لا حكم إلا لله»، وتحت هذه اللافتة العريضة التي وصفها الإمام عليه السلام بأنها كلمة حق يُراد بها باطل.. اثبتت ظاهرة خطيرة ولا سابقة لها في المجتمع الإسلامي، تلك هي تكفير كل من ارتضى التحكيم، رغم أن أقطابهم كانوا في مقدمة أولئك الذين فرضوا التحكيم!، ولعلنا نتحسس اليوم بصماتهم لدى بعض الجهات التي تبيع دماء المسلمين وتسير على خطى هذا النهج التكفيري.

فالخوارج الذين تحولوا إلى مذهب ديني - سياسي لاحقاً، كانوا طائفة من جيش الإمام عليه السلام تمردت عليه بعد واقعة التحكيم. وبهذا فهم معارضة فكرية - سياسية، طالبوا بالتحكيم أولاً، ثم رفضوه لاحقاً، ثم جاؤوا يكفرون الحاكم والمحكومين الذين قبلوا التحكيم بسبب ضغطهم وإلحاحهم. إنهم بكل صراحة حملة فكر ديني ذي مشروع

سياسي يعارض شرعية الدولة ^(٩٥).

فالخوارج إذن يتسمون بخصوصية فكرية يفتقرها الآخرون، وإن كانت هذه الخصوصية لا تحول دون القدح في توجهاتهم، بيد أن هذه النقطة بالذات كانت موضع تقييم خاص من لدن الإمام عليه السلام إذ يقول: «ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»، وهو بصدد النهي عن مقاتلة الخوارج ^(٩٦).

وبظهور نتائج التحكيم نادت الخوارج معلنة مبررات خروجها تحت شعار: «لا حكم إلا لله، لا نرضى بأن تحكم الرجال في دين الله، قد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا معنا في حكمنا عليهم، وقد كانت منا خطيئة وزلة حين رضينا بالحكمين، وقد تبنا إلى ربنا، ورجعنا عن ذلك، فارجع - يقصدون الإمام عليه السلام - كما رجعنا، وإلا فنحن منك براء».

بيد أن الإمام عليه السلام أوضح لهم حينئذ أن الخلق الإسلامي يقتضي الوفاء بالعهد - الهدنة لمدة عام - الذي أبرم بين

«تكلتك أمك إذن تنقض عهدك، وتعصي ربك، ولا تضر إلا نفسك.. أخبرني لم تفعل ذلك؟!

قال: لأنك حكمت في الكتاب، وضعفت عن الحق إذ جد الجد، وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك راد وعليهم ناقم ولكم جميعاً مباين.

فإذا كان جواب الإمام علي عليه السلام لهذا «المعارض» العنيف ولكلامه الناقد الصريح؟ هل رفع عليه العصا أو السيف في وجهه؟ كلا، بل قال له مرة أخرى بكل هدوء: «ويحك.. هلم إلي أدارسك وأناظرك في السنن وأفاتحك أموراً من الحق أنا أعلم بها منك فلعلك تعرف ما أنت له منك، وتبصر ما أنت الآن عنه عم وبه جاهل».

فقال الخريت: «فإني غاد عليك غداً».. فقال الإمام: «اغد ولا يستهوينك الشيطان ولا يقتحم بك رأي السوء، ولا يستخفك الجهلاء الذين لا يعلمون، فوالله إن استرشدتني واستنصحتني وقبلت مني لأهديك سبيل الرشاد». بيد أن

المعسكرين قائلاً: «ويحكم! بعد الرضا والعهد والميثاق أرجع؟ أوليس الله يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾» (٩٧).

إلا أنهم لم يصغوا إلى توجيهات الإمام عليه السلام، ورغم هذا.. لم يوصد الإمام عليه السلام باب المحاججة في وجوههم، ولم يعلن الحرب عليهم.. بل نجده يفسح المجال لحوار مفتوح بينه وبين خصومه السياسيين، وهذا «الخریت بن راشد الناجي» (وكان قدم مع ثلاثمائة من عمومته من البصرة، وكانوا قد خرجوا إلى الإمام عليه السلام يوم الجمل، وشهدوا معه صفين).. أقبل الخريت إلى الإمام في جمع من أصحابه، حتى قام بين يديه، فقال له: «والله يا علي لا أطيع أمرك، ولا أصلي خلفك، وإني غداً لمفارقك».

بهذا الكلام أعلن هذا الرجل انخلاعه عن البيعة رسمياً (٩٨) فلم يعتقله الإمام، ولم يأمر بإعدامه، ولم ينه عن التحدث بهذا الأسلوب، بل قال له:

الحوار الفكري والإقناع والمناظرة، وهو ما فعله الإمام معهم حينما أرسل إليهم عبدالله بن عباس محاوراً ومناظراً، بل تركهم يعلنون أفكارهم بصراحة في حضوره مع المسلمين، داخل المسجد قاطعين كلامه، ولم يقاتلهم الإمام إلا بعد أن أعلنوا الحرب المسلّحة، وقاتلوا الوالي الذي عيّنه لهم (عبدالله بن خباب) فقتلوه وزوجته، وعندئذ طالبهم بتسليم قاتله، فرفضوا وادّعوا على أنفسهم أنهم شاركوا جميعاً في قتله^(١٠٠).

الخريت غادر الكوفة من ليلته، ولم يعد إلى أمير المؤمنين^(٩٩). وذات مرّة قال لهم الإمام ﷺ بكلّ وضوح: «لکم علينا ثلاث؛ لا نمنعکم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نبدؤکم بقتال، ولا نمنعکم الفی ما دامت أيدينا معکم».

ويعقب باحث معاصر على ما تقدّم بقوله: «إنّ عدم منعهم المسجد يعني تركهم أحراراً في الدعوة لأفكارهم دون مطاردة، ودون حرمان من الحقوق المالية التي كانت لهم، وعدم البدء بقتالهم يعني اللجوء إلى أساليب

الهوامش :

- (١) إبراهيم العبادي؛ مقال «المعارضة في الدولة الإسلامية»، مجلّة قضايا اسلامية معاصرة، العدد الثاني ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص: ١٧٣.
- (٢) المرجع نفسه.
- (٣) لمزيد الاطلاع على الروايات الواردة بحق الإمام ﷺ تراجع موسوعة «ميزان الحكمة» لمحمدي ري شهري (١: ٢٠١-٢٢٦) مكتب الإعلام الإسلامي (إيران)، ١٣٦٧هـ ش.
- (٤) رواه الإمام أحمد، نقلاً عن مقال الدكتور محمد عمارة آف الذكر.
- (٥) سمير الهضيبي؛ مقال «نظام الحكم في الإسلام: التجربة ومؤثرات الثقافة والحضارة العربية»، مجلّة النور (لندن)، العدد (٣٥) - شوال ١٤١٤هـ، ص ٢٧.
- (٦) عباس محمود العقاد؛ «عبريّة الإمام علي» (المجموعة الكاملة) ٢: ١١، بيروت، ١٩٧٤م.
- (٧) تراجع المقدّمة القيّمة التي كتبها الأستاذ محمّد أبو الفضل إبراهيم، محقق شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد،

- ط ٢، القاهرة، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م، ص ٣ وما بعدها.
- (٨) اقتبسنا هذه الفكرة، بشيء يسير جداً من التصرف، عن المقال الافتتاحي لمجلة المنطلق، العدد المزدوج (٧٦/٧٥): شعبان - رمضان ١٤١١هـ / شباط - اذار ١٩٩١م، ص ٥.
- (٩) محمّد مهدي شمس الدين: «دراسات في نهج البلاغة»، ط ٢، بيروت، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، ص ٢٠٤.
- (١٠) سليمان كتناني: «الإمام علي: نبراس ومتراس»، النجف، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م، ص ١١٥.
- (١١) محمّد مهدي شمس الدين: م. س: ٢٠٥.
- (١٢) عباس محمود العقاد: م. س: ١٣٠.
- (١٣) إبراهيم العبادي: م. س: ١٧٣.
- (١٤) المرجع نفسه.
- (١٥) لجنة التأليف في دار التوحيد: «أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» (١: ٥٥)، الكويت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- (١٦) سمير الهضيبي: مرجع سابق، ومن المأثور تأريخياً، أن عبد الرحمن بن عوف قال للإمام عليه السلام أثناء تداول الشورى لاختيار خليفة لعمر بن الخطاب: «أبايعك على كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة الشيخين: أبي بكر وعمر، فقال: بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي، فعدل عنه إلى عثمان...» - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، المرجع آنف الذكر، ١: ١٨٨.
- (١٧) إبراهيم العبادي: مرجع سابق. هناك أكثر من محاولة تحريضية في هذا المقام، ومن ذلك لما قبض رسول الله ﷺ خاطبه العباس وأبوسفیان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة، بعد أن تمت البيعة لأبي بكر في السقيفة ولكنه أبى الاستجابة ابتغاء للمصلحة العليا، ونأياً عن الفتنة والفرقة.
- (١٨) نقلاً عن المرجع السابق.
- (١٩) وفي بعض النسخ «فلان»، وأيضاً فالمقصود به هو أبو بكر.
- (٢٠) نهج البلاغة: الخطبة (٣).
- (٢١) لجنة التأليف في دار التوحيد: مرجع سابق؛ ١: ٥٧.
- (٢٢) إبراهيم العبادي: م. س: ١٧٤.
- (٢٣) للمزيد يُراجع: لجنة التأليف في دار التوحيد، مرجع سابق، ١: ٥٨ وما بعدها.
- (٢٤) نقلاً عن المرجع السابق، ١: ٥٩.
- (٢٥) نهج البلاغة، تبويب د. صبحي الصالح، بيروت، ١٣٨٧هـ، ص: ١٩٢.
- (٢٦) نقلاً عن: «لجنة التأليف في دار التوحيد»، م. س: ١: ٦٥.
- (٢٧) المرجع نفسه، ١: ٦٥ - ٦٦.
- (٢٨) سيّد قطب: «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، (دون ذكر لمكان الطبع).
- (٢٩) د. محمّد عمارة: «مسلمون ثوار» ط ٣، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٧٩.
- (٣٠) في صفوف بني أمية، والتي طفحت على لسان أبي سفیان غداة تولي عثمان الخلافة، إذ قال في اجتماع خاص

- ضمّ بني مئة في دار عثمان: «أفيكم أحدٌ من غيركم؟ (وقد كان عمي)، فقالوا: لا، قال: يا بني أمية، تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبوسفیان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرنّ إلى صبيانكم وراثته...» - مروج الذهب للمسعودي، ٢: ٣٥١-٣٥٢، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، ط ٤، مصر، ١٣٨٤-١٩٦٤ م.
- (٣١) ابن الأثير: «الكامل في التاريخ»، تحقيق علي شيري، بيروت، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٩ م. المجلد الثاني: ٢٢٥-٢٢٦.
- (٣٢) يُراجع: تاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني: ١٦٣-١٦٤، بيروت (د. ت).
- (٣٣) عباس محمود العقاد: مرجع سابق: ١٣٠.
- (٣٤) عبّاس محمود العقاد: مرجع سابق: ٥١.
- (٣٥) نهج البلاغة: مرجع سابق: ٧٣.
- (٣٦) للمزيد يُراجع: «شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد»، مرجع سابق ١: ١٩٨-١٩٩.
- (٣٧) تاريخ المسعودي: مرجع سابق ٢: ٣٤٧.
- (٣٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، مرجع سابق ١: ١٩٩، وتذكر المصادر التاريخية أنّ كتاباً يحمل توقيع عثمان مَوْجّه إلى عامله بمصر عبدالله بن أبي سرح يأمره بقتل حاملي الكتاب!
- (٣٩) تاريخ المسعودي: مرجع سابق ٢: ٣٤٧، وقد أسهب بعض المؤرخين في تبیان المطاعن التي طُعِن بها على عثمان، وللمزيد من الاطلاع، يُراجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣: ١١-٧٠.
- (٤٠) سيد قطب، مرجع سابق: ٢٧٩.
- (٤١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، مرجع سابق ٩: ٤-٥.
- (٤٢) د. محمّد رضا محرم: «أفكار الآخرين»، مجلّة المسلم المعاصر العدد (٢٩) صفر ١٤٠٢ هـ يناير ١٩٨٢ م: ٢٨.
- (٤٣) سيّد قطب: مرجع سابق: ٢٧٩.
- (٤٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: مرجع سابق ٩: ١٦.
- (٤٥) نهج البلاغة مرجع سابق: ٣٦٣.
- (٤٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: مرجع سابق ٩: ٧.
- (٤٧) نهج البلاغة: م. س: ٣٦٧.
- (٤٨) تاريخ المسعودي: م. س: ٢: ٣٤٤-٣٤٥.
- (٤٩) المرجع نفسه ٢: ٣٥٠-٣٥١.
- (٥٠) د. محمّد عمارة: «مسلمون ثوّار»، م. س: ٨١، وللمزيد يُراجع تاريخ المسعودي ٢: ٣٤٢، وما بعدها.
- (٥١) نهج البلاغة: ٤٠٠ (الخطبة ٢٠٧).
- (٥٢) د. محمّد عمارة: المرجع السابق: ٨١، أمّا عن بقيّة الطبقة الاستقرائية فيراجع حول مظاهر ثرائها تاريخ المسعودي ٢: ٣٤٢، وما بعدها.
- (٥٣) عباس محمود العقاد: م. س: ٥٦.
- (٥٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: م. س: ٩: ١٧.

- (٥٥) د. محمد عمارة؛ م. س: ٨٢.
- (٥٦) المرجع نفسه: ١٠٧.
- (٥٧) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد؛ م. س: ٩: ١٧.
- (٥٨) د. محمد عمارة؛ مسلمون ثوار: ١٠٧.
- (٥٩) عباس محمود العقاد: ٥٧.
- (٦٠) نهج البلاغة: ٢٣٤.
- (٦١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ١٥.
- (٦٢) نقلاً عن كتاب «الطاغية» للدكتور إمام عبدالفتاح إمام، (عالم المعرفة)، الكويت ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص ١٩٧ (هامش ٤٨). وللمزيد يراجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ١٢٩ - ١٦١.
- (٦٣) المرجع السابق: ١٩٧. ويحسن بنا الاستشهاد بمقولة للكاتب الإسلامي المعروف الدكتور عماد الدين خليل إذ يقول، وهو في معرض الحديث عن «المعارضة والسلطة»: «وها هنا يتوجب ألا نقع في الوهم الخادع الذي يصور السلطة أو القيادة الإسلامية (التاريخية) كما لو كانت أمراً مقدساً أو تفويضاً إلهياً، فإن أية قيادة في مدى عام الإسلام، ما أن تعزف بهذه الدرجة أو تلك، وما أن ترفض النقد والتقويم والرجوع إلى الطريق، حتى يغدو على المسلمين أن يشوروا لتحقيق ما عجزت الكلمة والحوار عن تحقيقه» ثم يضيف: «.. لقد كان الحاكم المسلم الحق هو الذي يضع خده على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف، وليس ذلك الذي يعلن نفسه ظللاً لله في الأرض، لا يستمع لنقد، ولا يغني لحق، ولا يكفكف طغيانه صوت مظلوم.. إن طاعة أولي الأمر تتحقق يوم يكون أولو الأمر مسلمين حقاً، وإلا فإن الرفض والمجابهة تغدو واجبة كوجوب الصلاة والزكاة والصيام». يراجع مقاله القيم: «حول المعارضة والسلطة»، مجلة المسلم المعاصر، العدد (٤١)، محرّم، صفر، ربيع الأول ١٤٠٥هـ، ص ٨-٩.
- (٦٤) نقلاً عن كتاب الطاغية؛ مرجع سابق، ونعتلة هذا رجل يهودي من أهل مصر كان طويل اللحية، قيل: إنه كان يشبه عثمان، وكان يعمل اسكافياً، وشاتمو عثمان كانوا يسمونه نعتلاً (يراجع لسان العرب، لابن منظور، المجلد الحادي عشر، دار صادر، بيروت).
- (٦٥) عباس محمود العقاد: ٦٠-٦١، ٦٢.
- (٦٦) تاريخ المسعودي ٢: ٣٥٣.
- (٦٧) المرجع نفسه، ٢: ٣٥٤.
- (٦٨) عباس محمود العقاد: ٦٢.
- (٦٩) تاريخ المسعودي ٢: ٣٥٤.
- (٧٠) عباس محمود العقاد: ٦٥.
- (٧١) حسن جابر؛ «الحركة التاريخية للمشروع الإسلامي السياسي وأفق المستقبل»، مجلة المنطلق (بيروت)، العدد (٦٤) - شعبان ١٤١٠هـ - آذار ١٩٩٠م، ص: ٢٣.

- (٧٢) إبراهيم العبادي، مرجع سابق: ١٧٥.
- (٧٣) المرجع نفسه: ١٧٤.
- (٧٤) المرجع نفسه.
- (٧٥) نهج البلاغة: ١٣٦.
- (٧٦) نقلاً عن: «لجنة التأليف في دار التوحيد»، م. س، ٣: ٦١-٦٢.
- (٧٧) لبيب بيضون: «تصنيف نهج البلاغة»، ط ٢، مكتب الاعلام الإسلامي (إيران)، ١٤٠٨ هـ ص: ٤٨٩.
- (٧٨) نهج البلاغة: ٤٩ (خطبة ٣).
- (٧٩) لجنة التأليف في دار التوحيد، م. س، ٢: ٤٣.
- (٨٠) المرجع نفسه، ٢: ٤٢.
- (٨١) لبيب بيضون: م. س: ٥٢٩.
- (٨٢) نقلاً عن لجنة التأليف في دار التوحيد، ٢: ٤٣.
- (٨٣) لبيب بيضون: ٥٢٩.
- (٨٤) تاريخ المسعودي، ٢: ٣٧٣.
- (٨٥) المرجع نفسه.
- (٨٦) نقلاً عن المرجع السابق: ٤٧.
- (٨٧) تاريخ المسعودي، ٢: ٣٧٨.
- (٨٨) المرجع نفسه، ٢: ٣٧٩.
- (٨٩) ابن قتيبة الدينوري: «الإمامة والسياسة» (١: ١٠٢)، القاهرة، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م.
- (٩٠) المرجع نفسه، ١: ٩٥.
- (٩١) تاريخ اليعقوبي، ٢: ١٨٧.
- (٩٢) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، ص: ٧٤، نقلاً عن لجنة التأليف في دار التوحيد، ٢: ٥٤.
- (٩٣) نقلاً عن موسوعة أعيان الشيعة للعلامة محسن الأمين، طبعة دار التعارف، بيروت (١: ٥١٦) د. ت.
- (٩٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ٤: ١٣٢.
- (٩٥) إبراهيم العبادي؛ مرجع سابق: ١٧٥.
- (٩٦) نهج البلاغة: ٩٤.. «لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق... الخ».
- (٩٧) نصر بن مزاحم: «وقعة صفين»، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط ٢، القاهرة، ١٣٨٢ هـ، ص ٥١٧.
- (٩٨) يُراجع مقال «نصيحة أئمة المسلمين: بحث في متركزات المشروعية وآليات التنفيذ»، لمحمد سرور محلاتي، ترجمة جواد علي كسار، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد الأول، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، ص: ٧١.
- (٩٩) يُراجع المرجع السابق، وكذلك: زينب الدهوي، «حرية المعارضة ضرورة اجتماعية أقرها الإسلام.. كيف طبّقها الإمام علي عليه السلام؟»، مجلة النور (لندن) - العدد (٣٤)، رمضان ١٤١٤ هـ - آذار ١٩٩٤ م، ص: ٣٥.
- (١٠٠) مجلة قضايا إسلامية معاصرة، مرجع سابق، ١: ٧٢.

قراءة في كتاب «علي وليد الكعبة»

للمحقق الأديب الشيخ محمد علي الأردوبادي

محمد سليمان

المؤلف:

الميرزا محمد علي بن الميرزا أبو القاسم بن محمد تقي بن محمد قاسم
الأردوبادي التبريزي النجفي .
أردوباد المدينة التي استمدّ لقبه منها تقع على الحدود بين آذربيجان والقفقاز
قرب نهر أرس .

ولادته كانت في تبريز في ٢١ رجب سنة ١٣١٢ هـ. بعد ثلاث سنوات من
ولادته اصطحبه والده في رحلته إلى النجف الأشرف حيث المرقد الطاهر للإمام
عليّ عليه السلام وحيث الحوزة العلمية المباركة وكان ذاك سنة ١٣١٥ هـ فراح يتعاهده
تربيةً وتعليماً... «كان والده عالماً فقيهاً تقيّاً ورعاً، خشناً في ذات الله، أحد
مراجع التقليد في آذربيجان وقفقاسيا... وتوفي رحمه الله سنة ١٣٣٣»^(١).

درس عند جمع من العلماء الكبار فقد حضر في الفقه والأصول على والده
وشيوخ الشريعة الأصفهاني وأخذ عن الأخير علمي الحديث والرجال كما درس
عند الميرزا علي ابن الحجة الشيرازي. ودرس الفلسفة عند الشيخ محمد حسين

الأصفهاني وحظي بدراسة كل من علمي الكلام والتفسير على يد الشيخ محمد جواد البلاغي، ودامت دروسه هذه عند الأساتذة المذكورين لأكثر من عشرين سنة، كانت حصيلتها - وهو صاحب الذكاء الحاد والاستعداد والنبوغ - أن شهد له بالاجتهاد كل من استاذة الشيرازي والنائيني والشيخ عبد الكريم الحائري والشيخ محمد رضا - أبي المجد - الأصفهاني والسيد حسن الصدر والشيخ محمد باقر البيرجندي وغيرهم. ونال بعد ذلك مكانة عظيمة في الحوزات العلمية وبين علمائها وأساتذتها، واستجازه في رواية الحديث أكثر من ستين عالماً من أجلاء علماء العراق وإيران وسوريا ولبنان وغيرها. وله إجازات متعددة ضمنها طرقاً للحديث وفوائد رجالية وتراجم المشايخ...

له مؤلفات وآثار قاربت العشرين مؤلفاً في تفسير القرآن والأصول وله تقارير معتبرة لمشايخه.. ومنها الدرة الغروية والتحفة العلوية تناول فيها طرق حديث الغدير؛ ومنظومة في واقعة الطف...

كانت وفاته في النجف ليلة الأحد ١٠ صفر سنة ١٣٨٠ ودفن في الصحن الشريف.

كتابه الذي بين أيدينا كتاب - كما وصفه الناشر - «فريد في بابيه، عزيز في وجود نظائره، غزير في مادته، ضمنه المؤلف بحثاً استدلالياً معتمداً في ذلك على ما ساقته كتب الفريقين المعتبرة بالأسانيد الصحيحة التي تضم بين مبتدائها إلى منتهاها شيوخ المحدثين وثقات الرواة والنسابين الأثبات والمؤرخين الأعلام ومهرة الفن وصاغة القريض والمحققين الخبراء والشعراء المبدعين...»

كل هؤلاء راحوا يثبتون هذه الكرامة وهذا الشرف لتضاف بهذه الفضيلة منقبة أخرى إلى مناقب سيدنا وإمامنا علي بن أبي طالب وهي أول منقبة رافقت ولادته الميمونة. فرح بها المحبون لهذا البيت الهاشمي العريق في قيمه وشيمه والتزامه والذي يشكل أرقى البيوت القرشية والعربية وأجلها وأسمها في وقت

أثارت هذه المكرمة ضغائن الآخرين وأعداء الدين فراحوا يبذلون جهودهم لتقويض هذا الخبر وإماتة هذا الذكر بتضعيف رواته .
وقد بَوَّبَ الكتاب هذا تبويباً جميلاً بعناوين هي الأخرى دقيقة . فعدد صفحاته ١٣٧ مع كلمة الناشر وترجمة حياة المؤلف ، أما فصوله فهي :

- حديث المولد الشريف وتواتره .

- حديث الولادة الشريفة مشهور بين الأمة .

- نبأ الولادة والمحدثون .

- حديث الولادة والنسابون .

- حديث الولادة والمؤرِّخون .

- حديث الولادة والشعراء .

- حديث الولادة مجمع عليه .

ثم تأتي الفهارس العامة «الآيات القرآنية، والاعلام، والأشعار والأرجاز ثم فهرس الموضوعات» .

وكان جميلاً اطراء الشيخ العلامة الأميني صاحب كتاب الغدير : «شيخنا الأوردبادي ألَّفَ في الموضوع كتاباً فخماً ، وقد أغرق نزاعاً في التحقيق ولم يبق في القوس منزعاً»^(٢) .

المقدمة

إنَّ فضائل علي عليه السلام ومناقبه وصفاته التي تميَّز بها ولدت معه ورافقته حتى استشهاد، من ولادته في جوف الكعبة وهي أعظم بيت من بيوت الله سبحانه وتعالى ، وكانت هذه الولادة «إيذاناً بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها» كما يقول عباس محمود العقاد^(٣) ، حتى استشهاده في محراب صلته في بيت آخر من بيوت الله في مسجد الكوفة ، وهي ولادة ثانية له ، ولكن هذه المرة حيث جوار الله سبحانه وتعالى وحيث الحياة الأبدية التي فيها الخلود وحيث الأنبياء والصديقون...

الولادة في هذه البقعة المباركة المقدسة تعدّ أولى مناقبه ﷺ التي كرّمها الله فيها، والتي لم تنجو من كيد أعدائه وحقدهم وحسدكم، فراحت جهودهم تتضافر وأقلامهم المأجورة تنشط لتكيد كيدها لهذه الفضيلة، وبما أنّهم لا يستطيعون نكرانها بالمرّة لشهرتها وتواترها.. اختلقوا ولادة أخرى؛ ولادة حكيم بن حزام في الكعبة، ليصلوا من خلال ذلك إلى أنّ ولادة عليّ لا تعدّ منقبةً يفخر بها أحباؤه وأولياؤه، وهي ليست كرامة له، فقد ولد غيره داخل الكعبة، فلماذا لا نعدّها كرامة أيضاً؟ وعلى فرض أنّها كرامة له فلم يتفرد بها؛ لأنّ حكيماً ولد هو الآخر في الكعبة، وبالتالي توهين هذه المنقبة.

وحكيم هذا هو ابن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي بن كلاب بن مُرّة^(٤)، فهو ابن أخ لحديجة بنت خويلد (أمّ المؤمنين رضوان الله عليها) ويلتقي بمصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير المتوفى سنة ست وثلاثين ومئتين الذي كان من رواة ولادته في الكعبة إلا أنّه تفرد بإضافة منه (ولم يولد قبله ولا بعده في الكعبة أحد) لما رُب في نفسه، يلتقي به في جدّهم خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي بن كلاب بن مُرّة.

علماً بأنّ هذه الإضافة لم أجدها عند غيره ممّن رووا ولادة حكيم في الكعبة وكلّهم كانوا في القرن الثالث للهجرة، فهي رواية ولدت متأخّرة جداً ومقطوعة الإسناد وتعاني من ضعف روايتها وشذوذها..

ولم تكن ولادة حكيم معروفة قبل هذه الرواية بل لم تذكر أبداً في المصادر التاريخية ولا الروائية، كما أنّ حكيماً نفسه لم يذكر أنّ ولادته كانت في الكعبة، لا في جاهليته ولا في إسلامه، وهو شرف عظيم كانوا يفتخرون به في الجاهلية ويتمنّونه، فكيف سكت حزام عن ذكر ذلك ولم يشر إليه ولو إشارة بسيطة؟ ولم يكن صاحب مناقب كثيرة حتّى يترك ذكرها كما لم يكن زاهداً فنعه زهده عن ذكرها. كما لم يذكرها من حوله وهو من وجهاء قريش في الجاهلية والإسلام ومن

علمائها بالنسب، كما كان جواداً كريماً، وهو بالتالي ليس نكرة حتى يُنسى خبر ولادته في بقعة مباركة.. وكان إذا سئل عن ولادته فلم يزد في إجابته عن: ولدت قبل قدوم أصحاب الفيل بثلاث عشرة سنة.. وذلك قبل مولد رسول الله ﷺ بخمس سنين^(٥).

وكان إسلامه يوم الفتح وقيل يوم أحد، وكان من المؤلفة، أعطاه النبي ﷺ من غنائم حنين مائة بعير. عاش مئة وعشرين سنة؛ ستين في الجاهلية وستين في الإسلام، وتوفي في المدينة سنة أربع وخمسين وقيل سنة ثمان وخمسين^(٦).

الروايات

رواية مصعب بن عثمان الذي لم أجد له ترجمة تذكر في تاريخ دمشق ولا في غيره اللهم إلا ما ذكره صاحب التبيين في أنساب القرشيين مكتفياً باسمه: مصعب ابن عثمان بن عروة بن الزبير وبأنه كان عالماً بأخبار قريش^(٧). فلا أقل من أن حاله مجهول، إن لم يكن من أولئك الضعفاء الذين أكثر ابن بكار في الرواية عنهم في الجمهرة أشياء منكورة كثيرة خاصة أنه كان واسطة بين عامر بن صالح وعامر هذا وابن بكار المعروف بالكذب وأنه ليس ثقة كما أن عامة حديثه مسروق وبالتالي فقد يكون مصعب قد تأثر بأستاذه عامر، يروي الموضوعات^(٨).

هذا وأن الزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦هـ صاحب جمهرة نسب قريش منهم هو الآخر بالضعف وبأنه منكر الحديث ويضعه وهو ما يذكره صاحب كتاب الضعفاء الحافظ أحمد بن علي السليمان^(٩).

وقال في ميزان الاعتدال ٢: ٦٦: لا يلتفت إلى قوله. وإن رده ابن حجر في التهذيب بقوله: هذا جرح مردود، فلعله استنكر إكثاره عن الضعفاء مثل محمد بن الحسن بن زباله وعمر بن أبي بكر المؤملي وعامر بن صالح الزبيري وغيرهم، فإن في كتاب «النسب» عن هؤلاء أشياء كثيرة منكورة^(١٠).

فسواء أكان الزبير ضعيفاً بنفسه أو ينقل عن هؤلاء الضعفاء في كتابه . فهو بالتالي يفقد الثقة به وبكتابه ولا يعتمد على ما فيه إلا بعد تمحيص دقيق وجهد كبير .

فإذا عرفنا حال مصعب بن عثمان وصاحب كتاب جمهرة نسب قريش فالرواية بعد ذلك لا يمكن أن تكون محل اعتماد .

أما روايته فكما نقلها أيضاً صاحب تاريخ دمشق هي : أخبرنا أبو غالب بن الحسن وأخوه أبو عبدالله يحيى ، قالوا : أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة ، أنبأنا أبو طالب المخلص ، أنبأنا أحمد بن سليمان الطوسي ، أنبأنا الزبير بن بكار ، حدثني مصعب بن عثمان ، قال : دخلت أم حكيم بن حزام الكعبة مع نسوة من قريش وهي حامل متم بحكيم بن حزام ، فضر بها المخاض في الكعبة فأتيت بنطع حيث أعجلها الولادة ، فولدت حكيم بن حزام في الكعبة على النطع (قطعة من الجلد) وكان حكيم بن حزام من سادات قريش ووجوهها في الجاهلية^(١١) .

روايتا المستدرك

الرواية الأولى... سمعت أبا الفضل الحسن بن يعقوب يقول : سمعت أبا أحمد محمد بن عبد الوهاب يقول : سمعت علي بن غنام العامري يقول : ولد حكيم بن حزام في جوف الكعبة ، دخلت أمه الكعبة فخضت فيها فولدت في البيت^(١٢) .

الرواية الثانية: أخبرنا أبو بكر بن أحمد بن بالعمرية ، ثنا إبراهيم بن إسحاق الحربي ، ثنا مصعب بن عبدالله فذكر نسب حكيم بن حزام وزاد فيه وأمه فاختة بنت زهير بن أسد بن عبد العزى ، وكانت ولدت حكيماً في الكعبة وهي حامل فضر بها المخاض وهي في جوف الكعبة ، فولدت فيها فحملت في نطع وغسل ما كان تحتها من الثياب عند حوض زمزم ولم يولد قبله ولا بعده في الكعبة أحد .

هذه العبارة الأخيرة لم ترد في الروايتين السابقتين فهي إضافة منه ، وليس هذا غريباً عليه ولم يكن هذا منه بلا قصد ولا هدف فهو يعرف جيداً ماذا يقصد

بهذا النفي «لم يولد قبله ولا بعده في الكعبة أحد»، وكيف يعذر وهو يعرف جيّداً تواتر خبر ولادة علي عليه السلام في الكعبة ولم يكن جاهلاً به أو غافلاً عنه. وإنما هي «شيشنة أعرفها من أخزم» حقاً إنه حقد موروث وبغض مستحكم ضد علي عليه السلام توارثته هذه العائلة من يوم الناكثين يقول الإمام علي عليه السلام: «وما زال الزبير منّا حتى ولد له عبدالله ابنه». فأراد أن ينفي هذه الكرامة لعلي عليه السلام ولم يرض بأن تبقى الرواية «ولادة حكيم» كما رواها غيره وإن كانت أيضاً لا تخلو من الضعف والإرسال، فأضاف عليها ما سوّلت له نفسه.

وبعد ذكر الحاكم النيسابوري لها قال: وهَمَّ مصعب في الحرف الأخير. أقول: وقد عرفت حال الرواية وما تعانیه من ضعف وانقطاع.. وقد يفهم من قول الحاكم هذا وهم، أن مصعباً أصاب في كلامه الأوّل حول ولادة حكيم في الكعبة، إلّا أن هذا نفاه الحاكم في كلام آخر له في كفاية الطالب للكنجي الشافعي. ثمّ راح يعزّز بشكل قاطع ردّه هذا بقوله: فقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في جوف الكعبة (١٣).

علماً بأنّ حكيم بن حزام - وكما قلنا - لم يكن شخصاً مجهولاً في الجاهلية وغير معروف في الإسلام مع هذا لم يذكر هذه الفضيلة لنفسه يوماً ولم تذكر عنه بل ولم يذكرها أحداً له على الإطلاق حتّى رواها كلّ من مصعب بن عثمان بن عروة بن الزبير ومصعب بن عبدالله.. بعد أكثر من ٢٠٠ سنة أي في القرن الثالث الهجري. إنّ أوّل كتاب ذكرت فيه ولادة حكيم هو (جمهرة النسب) لابن الكلبي، والكلبي وإن ورد فيه أنّه متروك الحديث، وأنّه غير ثقة وأنّه يروي العجائب والأخبار التي لا أصول لها (١٤).

إلّا أنّه ورد فيه مدح كثير، وأن مبعث ما ذكر من مطاعن واتهامات أنّ الرجل كان شيعياً لا غير.

وأما كتابه جمهرة النسب فقد تعرّض لإضافات كثيرة يعود سببها إلى أنّ أباسعيد السكري راوي الكتاب لم ينجو من الاتّهام بأنّه كان وراءها. فالدكتور ناجي حسن الذي يذكر في مقدّمة تحقيقه لجمهرة النسب: «لقد وصلتنا جمهرة النسب لابن الكلبي برواية أبي سعيد السكري عن محمّد بن حبيب عن ابن الكلبي، ومع ذلك ظهرت فيه إضافات واضحة وزيادات وتعليقات بيّنة لم ترد في أصل الجمهرة بل أضافها الرواة والنسّاخ. ولا يستبعد أن يكون أبو سعيد السكري هو نفسه الذي قام بهذا العمل حين وجد لديه فيضاً من الأخبار ذات الصلة بالأنساب»^(١٥).

أمّا الرواية الأخرى التي يذكرها النيسابوري فهي عن علي بن عثام العامري كما هو اسمه في سير أعلام النبلاء ويبدو أنّه حرّف من عثام إلى غنام عند النيسابوري. ولو كانت روايته هذه محل اعتماد لما تغاضى عنها الذهبي في سيره وهو المعروف بموقفه المضاد لمن يذكر مناقباً لعليّ عليه السلام. وهذا يكفي في أنّها من الضعف والهزال ما جعل الذهبي يتجاهلها.

وهناك رواية شاذة ذكرها الأزرقي في أخبار مكّة: حدّثني محمد بن يحيى، حدّثنا عبد العزيز بن عمران، عن عبدالله بن أبي سليمان عن أبيه أنّ فاختة بنت زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى - وهي أمّ حكيم بن حزام - دخلت الكعبة وهي حامل، فأدركها المخاض فيها، فولدت حكيماً في الكعبة، فحُمِلت في نطع وأخذ ما تحت مئبرها (موضع الولادة) فغسل عند حوض زمزم، وأخذت ثيابها التي ولدت فيها فجعلت لقي^(١٦).

فأولاً أنّ محمد بن يحيى كما في كتاب الجرح والتعديل للرازي قال: سألت أبي عنه فقال: كان رجلاً صالحاً وكانت به غفلة، رأيت عنده حديثاً موضوعاً. توفي سنة ٢٤٣هـ^(١٧).

أمّا عبد العزيز بن عمران فيقول عنه البخاري: إنّّه لا يكتب حديثه، منكر

الحديث، وقال عنه النسائي: متروك الحديث، وقال عنه الرازي: متروك الحديث، ضعيف الحديث، منكر الحديث جداً، وقال محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري: عليّ بدنة إن حدثت عن عبد العزيز بن عمران حديثاً^(١٨). هذا مضافاً إلى أن الأزرقى في نفسه محل كلام حيث لم أعر على شيء يدل على توثيقه وأمامك حياته في كتابه أخبار مكة. والمتحصّل من هذا المختصر ومن غيره أنّ رواية ولادة حكيم إن لم نقل بسقوطها فهي غير معتبرة عند كثير من المحدثين والمؤرّخين، بل نفاها جمع منهم بنفيهم ولادة غير أمير المؤمنين عليه السلام كما سنرى في مضامين هذا الكتاب^(١٩).

فصول الكتاب

حديث المولد الشريف وتواتره

يفتح المؤلف حديثه في هذا الباب بمقدمة قصيرة جميلة تنمّ على قدرة عجيبة في اختيار الألفاظ ودقّتها على المراد. يقول فيها: «إنّ المنقب في التاريخ والحديث جدّ عليم بأنّ هذه الفضيلة من الحقائق التي تطابق على إثباتها الرواة، وتطامنت النفوس على اختلاف نزعاتها على الإخبارات بها حيث لا يجد الباحث قطّ غميرة في إسنادها، ولا طعناً في أصلها، ولا مُتندحاً للكلام على اعتبارها، وتضافر النقل لها وتواترت الأسانيد إليها، وإن وجد حولها صخباً من شذاذ الناس وطأه بأخمص حجاه، وأهواه إلى هوة البطلان السحيقة».

بعد هذه المقدمة راح ينقل الرواية التي تحكي ولادة أخرى غير ولادة علي عليه السلام داخل الكعبة. ولادة حكيم بن حزام، التي يرويها مصعب بن عبدالله.. والتي ما إن يصل النيسابوري إلى الفقرة الثانية فيها «.. ولم يولد قبله ولا بعده في الكعبة أحد» وهي من زيادة هذا الراوي حتّى قال: «وهم مصعب في الحرف

الأخير وقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - في جوف الكعبة» (٢٠).

من هذا يتضح أن الحاكم وإن لم يناقش الفقرة الأولى من الرواية (ولادة حكيم في الكعبة) بل سكت عنها مكتفياً بأنه وصف مصعباً بالتوهم إلا أنه نفاها في كلام آتٍ له أثبتته الحاكم الكنجي .

أقول: إنه لم يكن متوهماً بل يقول ما يعني ويعني ما يقول، إنه كان قاصداً لما رُب في نفسه كما ذكرنا ذلك في المقدمة .

ومع هذا فإن الشيخ الأردوبادي راح ينقل الإطراء على الحاكم : والحاكم من أذن الكل بثقته وحفظه وضبطه وتقدمه في العلم والحديث والرجال والمعاجم طافحة بإطرائه والثناء عليه ، والكتب مفعمة بالاحتجاج به والركون إليه ، وتأليفه شاهدة بنبوغه وتضلعه ، فناهيك به حاكماً بتواتر الحديث ، أي حديث ولادة أمير المؤمنين ﷺ في جوف الكعبة .

ثم نقل نصوصاً أخرى توافق ما ذكره الحاكم في مستدركه ، ومن هذه النصوص :

□ نصّ لشاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم المحدث الدهلوي وهو والد عبد العزيز الدهلوي مصنف (التحفة الاثنا عشرية) في الردّ على الشيعة . «قد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علياً في جوف الكعبة ، فإنه ولد في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة في الكعبة ولم يولد فيها أحد سواه قبله ولا بعده» .

هذا النصّ ورد في كتابه (إزالة الحفاء ٢ : ٢٥١ ط الهند) ويتضمّن أمرين مهمّين :

- تواتر الأخبار بالولادة .
- نفيه لأي ولادة أخرى غير ولادة أمير المؤمنين ﷺ .

□ وأما المحافظ الكنجي الشافعي (ت ٦٥٨) فقد حمل إلينا في كتابه (كفاية الطالب). الذي ذكره الجلبى في كشف الظنون ونقل عنه ابن الصباغ المالكي في فصوله المهمة واحتج به ابن حجر قال :

«أخبرنا المحافظ أبو عبدالله محمد بن محمود النجار بقراءتي عليه ببغداد، قلت له: قرأت على الصفار بنيسابور: أخبرني عمّي عائشة، أخبرنا ابن الشيرازي، أخبرنا الحاكم أبو عبدالله محمد بن عبدالله المحافظ النيشابوري قال: ولد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب بمكة في بيت الله الحرام، ليلة الجمعة، ثلاث عشرة ليلة خلت من رجب، سنة ثلاثين من عام الفيل، ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله الحرام سواه، إكراماً له بذلك، وإجلالاً لمحلّه في التعظيم»^(٢١). وهو أيضاً نص من الحاكم لا ريب فيه على أنّ الولادة تمت في الكعبة وفيه نفي لأي ولادة أخرى مزعومة كولادة حكيم.

□ لشهاب الدين أبو الثناء السيّد محمود الآلوسي المفسّر ورد في شرحه لعينية العمري حيناً قرأ:

أنت العليّ الذي فوق العلى رُفعا بطن مكة عند البيت إذ وضعاً قال: «وفي كون الأمير -كرم الله وجهه- ولد في البيت، أمر مشهور في الدنيا، وذكر في كتب الفريقين السنّة والشيعه... إلى قوله: ولم يشتهر وضع غيره -كرم الله وجهه- كما اشتهر وضعه، بل لم تتفق الكلمة عليه. وما أحرى بإمام الأئمة أن يكون وضعه فيما هو قبلة للمؤمنين، وسبحان من يضع الأشياء في مواضعها وهو أحكم الحاكمين»^(٢٢).

أقول: وحينما وصل إلى بيت آخر من قصيدة العمري نفسها:

وأنت أنت الذي حطّت له قدم في موضع يده الرحمن قد وضعاً وقيل: أحب عليه الصلاة والسلام (يعني عليّاً) أن يكافئ الكعبة حيث ولد في

بطنها بوضع الصنم عن ظهرها ، فإنها كما ورد في بعض الآثار كانت تشتكي إلى الله تعالى عبادة الأصنام حولها وتقول : أي ربّ حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي ؟ والله تعالى يعدها بتطهيرها من ذلك ، وإلى هذا المعنى أشار العلامة السيّد رضا الهندي بقوله :

لَمَّا دَعَاكَ اللهُ قَدِمًا لِأَنْ تُولَدَ فِي الْبَيْتِ فَلَبَّيْتَهُ
شَكَرْتَهُ بَنِي قُرَيْشٍ بِأَنْ طَهَّرْتَ مِنْ أَصْنَامِهِمْ بَيْتَهُ (٢٣)

وبعد ذلك راح المؤلّف ينقل أقوالاً أخرى لعلماء من الشيعة منهم العلامة السيّد الحسيني الآملي صاحب كتاب (الكشكول فيما جرى على آل الرسول) : «أنّه ولد في الكعبة بالحرم الشريف فلم يسبقه أحد ، ولا يلحقه أحد بهذه الكرامة ...» (٢٤) .

ومنهم العلامة السيّد هاشم البحراني في (غاية المرام) :
«إنّ رواية أمير المؤمنين عليه السلام ولد في الكعبة بلغت حدّ التواتر ، معلومة في كتب العامة والخاصّة» (٢٥) .

ومنهم السيّد محمد الهاادي الحسيني في كتابه (أصول العقائد وجامع الفوائد) حيث قال : «كان مولده عليه السلام في جوف الكعبة على ما روته الشيعة وأهل السنّة ..» (٢٦) . فهو يريد - والكلام للمؤلّف - أنّ الحديث ممّا تصافقت الأيدي على نقله ، وتطامنت النفوس على روايته ، وأصفت الجماهير من الفريقين على إثباته ، وذلك الذي نريد إثباته ، وبه يثبت التواتر .

خبر الولادة عند من لا يعمل إلّا بالخبر المتواتر :
وبعد كلّ ذلك انتقل المؤلّف إلى أنّ هناك بعضاً من العلماء لا يأبه في عمله إلّا بالخبر المتواتر في وقت يعمل فيه جمعٌ منهم بالآحاد .
ومن أولئك : الشيخ الطبرسي صاحب تفسير مجمع البيان (ت ٥٤٨) حيث

قال في كتابه (إعلام الوري):

«لم يولد قط في بيت الله تعالى مولود سواه لا قبله ولا بعده، وهذه فضيلة خصّه الله تعالى بها إجلالاً لمحلّه ومنزلته وإعلاءً لقدرته» (٢٧).

ومن أولئك: الشريف المرتضى (ت ٤٣٦) وهو يشرح القصيدة المذهبة للسيد الحميري، قال:

«وروي أنّها - يعني فاطمة بنت أسد - ولدت في الكعبة، ولا نظير له في هذه الفضيلة» (٢٨).

وهنا يقول المؤلف:

وليس قصده في إيرادها بلفظ «روي» إسنادها إلى رواية مجهولة، وإنما جرى فيها على ديدنه في هذا الكتاب من سرد الحقائق الراهنة مقطوعة عن الأسانيد لشهرتها وتضافر النقل لها وتداولها في الكتب لفتاً للأنظار إليها وإشادة بذكرها على نحو الاختصار، وعلى ذمة الباحث إخراجها من مظانها، ولذلك تراه يقول بعد الرواية غير متلكئ ولا متلثم: «ولا نظير له...» كجازم بحقيقتها، مؤمن بصحتها وتواترها، وإلا لفظها كما هو دأبه في غير واحد من الأحاديث.

والشريف الرضي (ت ٤٠٦) في كتابه (خصائص الأئمة) حيث قال: «ولد ﷺ بمكة في البيت الحرام ثلاث عشرة ليلة خلت من رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهو أول هاشمي في الإسلام ولد من هاشم مرتين، ولا نعلم مولوداً في الكعبة غيره» (٢٩).

كما حذا حذوهما شيخ الطائفة الطوسي (ت ٤٦٠) في (التهذيب) ثالث الكتب الأربعة المعوّل عليها عند الشيعة حيث قال: «ولد بمكة في البيت الحرام يوم الجمعة...» (٣٠).

وروى في (مصباح المتجهد) تاريخ شهر الولادة ومحلّها... (٣١)
ومنهم أيضاً الشيخ المفيد (٤١٣) قال في الإرشاد:

«ولد بمكة في البيت الحرام يوم الجمعة . . ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله سواه، إكراماً له من الله جلّ اسمه له بذلك، وإجلالاً لمحلّه في التعظيم» (٣٢) كما روى في مزاره وشاركه في هذا كلّ من الشهيد في مزاره وابن طاووس في مصباح الزائر ما علّمه الإمام الصادق عليه السلام حين زيارته أمير المؤمنين عليه السلام السلام عليك يا من ولد في الكعبة أو السلام على المولود في الكعبة (٣٣).

والشيخ المفيد - والقول للمؤلف - من عرفته الأمة بالنقد والتمحيص وأنه كيف كان يردّ الأخبار لأدنى علّة في أسانيدّها أو متونها أو يتردّد في مفادها، يعرف ذلك كلّ من سبر كتبه ورسائله ومسائله، أو هل تراه مع ذلك يعدل عن خطئه القويّة فيرمي القول على عواهنه بذكر الواهيات على سبيل الجزم بها، لا سيما في كتاب (الإرشاد) الذي قصد فيه إعلاء ذكر آل محمد ﷺ والتنويه بفضله وإمامتهم وتقديرهم فيها، فهل يذكر فيه إلّا ما هو مسلم بين الفريقين أو الملاء الشيعي على الأقل؟! وتبع الشيخ المفيد معاصره النسابة ابن الصوفي (٣٤).

مع السيّد الحميري

وقد أوشك هذا الفصل على نهايته، ارتأى الشيخ أن يقتطع شيئاً ممّا نظمه السيّد الحميري (ت ١٧٩) فيما يخصّ ولادة الإمام عليه السلام في الكعبة :

ولدت في حرم الإله وأمنه	والبيت حيث فناؤه والمسجد
بيضاء طاهرة الثياب كريمة	طابت وطاب وليدها والمولد
وله أبيات أخرى منها :	

طبّت كهلاً وغلاماً	ورضيعاً وجنيناً
وبطن البيت مولود	دأ وفي الرمل دفينا (٣٥)

وقد أعدّ المؤلّف نظم السيّد الحميري هذا أثبت لمفاده من أسانيد متساندة .
والسبب في هذا - كما يقول المؤلّف - : هو أنّ السيّد الحميري الذي كان يسير بشعره

الركبان في القرن الثاني، والذي راح ينافح الآخرين من أعداء أهل بيت
الوحي ﷺ وحتى تكون حجته قوية لا بدّ له من أن يحاججهم لا بالواهيات ولا بما
لا يعرفه الناس أو لا يعترفون به .
ومما نظمته كلّ من السرخسي :

ولدت منجبة وكان ولادها في جوف الكعبة أفضل الأكنان

والشفهيني :

أم هل ترى في العالمين بأسرهم بشراً سواه بيت مكّة يولد؟
ويختم هذا الفصل بقول ثقة الإسلام النوري : إنّ هذه الفضيلة الباهرة جاءت
في أخبار غير محصورة، ومنصوص بها في كلمات العلماء وفي ضمن الخطب
والأشعار...» .

وهنا يقول المؤلّف : ومهما حملنا قوله إنّها : «جاءت في أخبار غير محصورة»
على المبالغة، فإن أقل مراتبه أن تكون متواترة ..

حديث الولادة الشريفة مشهور بين الأمة

تحت هذا العنوان كتب سماحته :

إنّ أيسر ما يسع الباحث إثباته هو شهرة هذا النّبأ العظيم بنصوص أئمة
الحديث بذلك من ناحية، وبتداول ذكره في الكتب من ناحية أخرى، وبالتسالم
على روايته واطراد أسانيده من جهة ثالثة. ولها شواهد أخرى لعلّك تقف عليها في
غضون هذه الرسالة إن شاء الله .

ثمّ راح يذكر أقوال كبار علماء الحديث، نكتفي بأسمائهم وكتبهم وبعض
أقوالهم، لننتقل بعد ذلك إلى روايات الولادة المباركة للإمام علي عليه السلام .

● العلامة المجلسي في جلاء العيون : «إنّ ولادته عليه السلام في البيت، يوم الجمعة

الثالث عشر من رجب ، سنة ثلاثين من عام الفيل ، مشهورة بين المحدثين والمؤرخين من الخاصة والعامة» (٣٦) .

● المولى محمود بن محمد باقر في تحفة السلاطين : «إنّ حديث ولادته ﷺ في البيت يوم انشقّ جداره لفاطمة بنت أسد فدخلته، مشهور كالشمس في رائعة النهار» (٣٧) .

● السلطان محمد بن تاج الدين في تحفة المجالس : «إنّ الأقرب إلى الصواب أنّه ﷺ ولد في الكعبة» وذكر بعض أخبارها . ثمّ قال : «وفي الأخبار أنّه لم يكن شرف الولادة في البيت لأيّ أحد قبله ولا بعده» (٣٨) .

● الشيخ العاملي الاصبهاني (ت ١١٠٠) في ضياء العالمين : «إنّ الولادة في البيت كانت مشهورة في الصدر الأوّل ، بحيث لم يمكن إنكارها مع أنّهم - يعني أهل الخلاف - أنكروها أيضاً أخيراً» (٣٩) .

هذا وأن هذه الشهرة في الأخبار لا يبارحها التواتر في الأسانيد .

● وانظر العلامة الحليّ (ت ٧٢٦) في كشف الحق وكشف اليقين (٤٠) .

● والإربلي (ت ٦٩٢) في كشف الغمّة حيث قال : «ولم يولد في البيت أحد سواه قبله ولا بعده ، وهي فضيلة خصّه الله بها إجلالاً له وإعلاءً لرتبته وإظهاراً لتكرّمته» (٤١) .

● ومثله الشيخ ابن الفثال النيسابوري في روضة الواعظين .

● والحافظ ابن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٨٨) في مناقبه وبعد أن روى أحاديث الولادة (٤٢) .

● العلامة العاملي في الصراط المستقيم ذاكراً أرجوزة السيّد الحسيني :

ومولد الوصيّ أيضاً في الحرم بكعبة الله العليّ ذي الكرم (٤٣)

● العلامة الطبرسي الآملي في تحفة الأبرار (٤٤) .

● القاضي السعيد الشهيد سنة ١٠١٩ التستري حين طفق ينازل ويناضل القاضي روزبهان من علماء المعقول والمنقول، حنفي الفروع أشعري الأصول، في إحقاق الحق حيث قال: «إنَّ الفضيلة والكرامة في أنَّ باب الكعبة كان مقفلاً، ولما ظهر آثار وضع الحمل على فاطمة بنت أسد - رضي الله عنها - عند الطواف خارج الكعبة انفتح لها الباب بإذن الله تعالى، وهتف بها هاتف بالدخول. كما عقب التستري على مسألة ولادة حكيم قائلاً:

وعلى تقدير صحّة تولّد حكيم بن حزام قبل الإسلام في وسط بيت الله الحرام، فإنّما كان بحسب الاتفاق كما يتّفق بسقوط الطفل من المرأة، والعجل من البقرة في الطريق وغيره، على أنَّ الكلام في تشرف الكعبة بولادته فيها، لا في تشرفه بولادته في الكعبة» (٤٥).

● أبو الحسن المالكي في (الفصول المهمّة في معرفة أحوال الأئمّة) يذهب المذهب نفسه في ولادة حكيم: فبعد أن يذكر ولادة عليّ في جوف الكعبة قال: وأمّا حكيم بن حزام فولدته أمّه في الكعبة اتفاقاً لا قصداً» وقد أصفق في هذا الكلام معه الباحث عبد الرحمن الصفوري الشافعي في نزهة المجالس (٤٦).

بعد هذا فإنّ كتباً كهذه «المتينة المبنية على الحجاج والنضال لاسيما كتب العلامة والقاضي التستري وابن بطريق لم يتوخّ مؤرخوها - والكلام ما زال للشيخ المؤلف - سرد الوقائع التاريخية من أينما حصلت، وإنّما قصدوا فيها إلزام الخصوم بالحجج النيرة، فهل يمكنهم إذن أن يسترسلوا بإيراد ما توسع بنقله القالة من دون تثبت؟ لا، ولكن شريعة الحجّ والدين تلزمهم بإثبات الشائع الذائع المتلقّى عند الفريقين بالقبول المشهور نقله، الثابت إسناده بحيث لا يدع للمتعنّت وليجة إلى إنكاره، وإلا لعاد ما يذكره ثلماً في بيانه، وفتناً في عضد برهانه، فمن الواجب إذن أن يكون هذا الجواب ممّا يخضع له الخصم ولا يتقاعس عن الإخبار به الأولياء لمكان شهرة النقل له.

روايات الولادة المباركة

وهنا راح الشيخ المؤلف يذكر بعض روايات الباب، نذكر بعضها ونكتفي بمصادر الأخرى.

● روى الوزير السعيد الإربلي في (كشف الغمّة) عن كتاب (بشارة المصطفى) مرفوعاً إلى يزيد بن قَعْنَب، قال:

كنت جالساً مع العباس بن عبد المطلب - عليه السلام - وفريق من بني عبد العزى بإزاء بيت الله الحرام، إذ أقبلت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام، وكانت حاملاً به لتسعة أشهر، وقد أخذها الطلق فقالت: يارب، إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإني مصدقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل، وأنه بنى البيت العتيق، فبحقّ الذي بنى هذا البيت، وبحقّ المولود الذي في بطني إلا ما يسّر عليّ ولادتي.

قال يزيد بن قَعْنَب: فرأيت البيت قد انشقّ عن ظهره، ودخلت فاطمة فيه وغابت عن أبصارنا، وعاد إلى حاله، والتزق الحائط، فرمنا أن ينفتح لنا قفل الباب فلم يفتح، فعلمنا أنّ ذلك من أمر الله عزّ وجلّ، ثمّ خرجت في اليوم الرابع وعلى يدها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام... (٤٧).

● ورواه ابن القتال في (روضة الواعظين) وفي (كشف اليقين) للعلامة الحليّ، و(كشف الحقّ) عن (بشارة المصطفى) وفي (الإرشاد) لأبي محمّد الحسن الديلميّ عن البشارة أيضاً مثله (٤٨). وروى مختصراً منه محمّد صالح الترمذي في مناقبه (٤٩). ورواه مع بعض التغيير الشيخ الصدوق (ت ٣٨١) في (الأمال) و(علل الشرائع) و(معاني الأخبار) (٥٠).

● ورواه الشيخ الطوسي في (أماله) عن أبي الحسن محمد بن أحمد بن الحسن ابن شاذان، عن أحمد بن محمد بن أيّوب، عن عمر بن الحسن القاضي، عن عبد الله ابن محمد، عن أبي حبيبة، عن سفيان بن عيينة، عن الزُّهريّ، عن عائشة؛

□ وعن محمد بن أحمد بن شاذان، عن سهل بن أحمد، عن أحمد بن عمر الربيعي، عن زكريا بن يحيى، عن أبي داود، عن شُعْبَةَ، عن قَتَادَةَ، عن أنس بن مالك، عن العباس بن عبد المطلب؛ قال الشيخ: وحدثني إبراهيم بن عليّ، بإسناده عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام قال:

كان العباس بن عبد المطلب ويزيد بن قَعْنَب جالسين ما بين فريق بني هاشم إلى فريق عبد العزى بإزاء بيت الله الحرام، إذ أتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم أمير المؤمنين عليها السلام، وكانت حاملة بأمير المؤمنين عليه السلام لتسعة أشهر، وكان يوم التمام. قال: فوقفت بإزاء البيت الحرام وقد أخذها الطلق، فرمت بطرفها نحو السماء...

رأينا البيت قد انفتح من ظهره، ودخلت فاطمة فيه وغابت عن أبصارنا. وبقيت فاطمة في البيت ثلاثة أيّام. قال: وأهل مكة يتحدّثون بذلك في أفواه السكك، وتتحدّث المخدّرات في خدورهنّ.

قال: فلمّا كان بعد ثلاثة أيّام انفتح البيت من الموضع الذي كانت دخلت فيه، فخرجت فاطمة وعليّ على يديها...

● وفي (المناقب) لابن شهر آشوب روايتان:

رواية شُعْبَةَ، عن قَتَادَةَ، عن أنس، عن العباس بن عبد المطلب؛ وفي رواية الحسن بن محبوب، عن الصادق عليه السلام، والحديث مختصر، أنّه انفتح البيت من ظهره، ودخلت فاطمة فيه، ثمّ عادت الفتحة والتصقت، وبقيت فيه ثلاثة أيّام...

■ عن يزيد بن قَعْنَب؛ وجابر الأنصاري: وهو المعروف بحديث الراهب المثرم بن دعيب.

فلمّا قربت ولادته أتت فاطمة إلى بيت الله وقالت: ربّ إنّني مؤمنة بك...

فانفتح البيت ودخلت فيه فإذا هي بجوٍّ، ومريم، وآسيه، وأم موسى وغيرهنّ، فصنعن مثل ما صنعن برسول الله ﷺ وقت ولادته.

● وحديث الراهب رواه ابن الفثال في (روضة الواعظين) على وجه هو أبسط من هاتين الروايتين المفصلتين^(٥١) كما ذكره غيره^(٥٢).

وفي هذه المصادر وفي غيرها روايات مفصلة أيضاً حول الولادة المباركة^(٥٣).

وقد نظّم مضامينها صاحب الوسائل الحرّ العاملي (ت ١١٠٤) ارجوزةً نذكر بيتين منها:

مولده بمكة قد عرفا في داخل الكعبة زيدت شرفا
على رُخامة هناك حمرا معروفة زادت بذاك قدرا^(٥٤)

والمشهور بين الخاصة والعامة أنّه ولد بين العمودين على البلاطة الحمراء. وذكر العالم الشكوي (ت ١٣٣٠) في كتابه (مصباح الحرمين) في وداع الكعبة أموراً، منها «الصلاة بين الاسطوانتين على الرُخامة الحمراء، وهي على رواية بعض العلماء محل ولادة أمير المؤمنين ﷺ كما مرّ في فصل المستجار...»^(٥٥). وقال الشيخ أحمد بن الحسن الحرّ في (الدرّ السلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء والملوك) في الفصل الرابع، في ذكر أمير المؤمنين علي ﷺ... ولادته في الكعبة في البيت على الحجر.

إذن فحديث ولادته ﷺ أمر مشهور وروايته متواترة عند الفريقين.

نبأ الولادة والمحدثون

حتّى يصل سماحة الشيخ إلى المراد من المحدثين راح يميّز بين المحدثين الذين يصفهم بأنّهم سذج، لم يجيدوا إلّا نقل الأساطير أو قول بسيط مثل حدّثي فلان فيحشد أساطير وأقوالاً بعيداً عن التفقّه في مغزى الحديث والتبصّر في مؤداه...

يُمَيِّزُ بَيْنَ هَذَا النُّوعِ مِنَ الَّذِينَ يُطْلَقُ عَلَيْهِمُ أَنََّّهُمُ الْمُحَدِّثُونَ وَبَيْنَ نَوْعٍ آخَرَ أَوْلَئِكَ هُمُ أُمَّةُ الْحَدِيثِ وَمَهْرَةُ فَتْنَةِ النِّيَاقِدِ، الَّذِينَ - كَمَا يَعْبُرُ الشَّيْخُ عَنْهُمْ - لَا يَرَوُقُهُمْ رَمِي الْقَوْلِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، فَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْمَنْقُولِ إِلَّا بَعْدَ التَّفَرُّغِ مِنْ أَمْرِ إِسْنَادِهِ وَالتَّثَبُّتِ فِيهِ وَالتَّرْوِي فِي مَتْنِهِ، حَذَارَ مَخَالَفَتِهِ لِمَعْقُولٍ أَوْ مُصَادِمَتِهِ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَصُولِ، وَبِالتَّالِي فَإِنَّ هَذَا الْمُحَدِّثَ هُوَ الْحَبْرُ النَّاقِدُ الضَّلِيعُ فِي الْعِلْمِ الَّذِي ضَرَبَ فِرَاعاً فِي أَوْقَاتِهِ لِلتَّبَصُّرِ فِي هَذَا الْفَنِّ، وَالْإِحَاطَةِ بِهِ مِنْ أَطْرَافِهِ.. فَهُوَ مُحَدِّثٌ وَهُوَ فَقِيهٌ وَهُوَ مَفْسِّرٌ حِينَ يَتَحَرَّى مَغَازِي آيِ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ وَاكْتِشَافَ مَخْبَآتِهَا وَهُوَ فِي إِذَا عَطَفَ النَّظَرَ عَلَى أَيِّ مِنَ الْعُلُومِ. وَهَذَا هُوَ الْمُحَدِّثُ الَّذِي يَقْصِدُهُ سَمَاحَتُهُ وَيُرِيدُهُ وَذَكَرَ لِهَذَا مُصَادِيقٌ كَالسَّيِّدِ الْمُرْتَضَى وَالسَّيِّدِ الرُّضِيِّ وَالشَّيْخِ الطُّوسِيِّ وَقَبْلَهُمُ الصَّدُوقُ وَبَعْدَهُمُ ابْنُ شَهْرَآشُوبَ وَابْنُ الْفَتَّالِ وَالْعَلَّامَةُ الْحَلِّيُّ وَابْنُ بَطْرِيْقٍ... وَمِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ كَالْحَاكِمِ وَغَيْرِهِ..

وقفه قصيرة مع ابن أبي الحديد

يقول ابن أبي الحديد في شرح النهج: واختلف في مولد علي عليه السلام أين كان؟ فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد في الكعبة، والمحدثون لا يعترفون بذلك، ويزعمون أن المولود في الكعبة حكيم بن حزام... (٥٦).

● كيف يصح هذا والحاكم النيسابوري من أئمة الحديث يقول: ... وقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - في جوف الكعبة، وما قاله المحدث الدهلوي بتواتره وقول الآلوسي: إنه أمر مشهور في الدنيا» وغيرهم من المحدثين كما أسلفنا وكما هو آتٍ؟! اللهم إلا أن يقصد ابن أبي الحديد بالمحدثين أولئك الذين وصفهم الشيخ بالسذج... لا مهرة الحديث وأئمة.

● وهذا العلامة المحدث أبو الفتح الكراجكي قال في (كنز الفوائد) بعد أن ذكر أحاديث في مقدمة الولادة من خبر الكاهن ورؤيا فاطمة بنت أسد وتعبير الكاهن

لها ما لفظه : وفي الحديث أنها - يعني فاطمة بنت أسد - دخلت الكعبة على ما جرت به عاداتها ، فصادف دخولها وقت ولادتها فولدت أمير المؤمنين عليه السلام داخلها» (٥٧) .
وممن يذكر خبر الولادة المباركة كل من الشيخ أبو الفوارس في كتاب (الأربعين) والرواية التي يذكرها بسندها الطويل المضطرب إلى ميثم التمار وفيها عدة مناقب للإمام منها الولادة في الحرم (٥٨) .

● والفقيه ابن المغازلي المالكي في مناقبه الذي يذكر حديث الولادة مرفوعاً إلى علي بن الحسين عليه السلام .

● وأبو عبدالله الشافعي الكنجي الحافظ (ت ٦٥٨) في كفاية الطالب الذي ذكر رواية الولادة لعلي عليه السلام بسندها عن جابر بن عبدالله... (٥٩)

حديث الولادة والنسابة

نظراً للأهمية الكبيرة التي يمتاز بها النسابة في معرفة فئهم «النسب وأخباره» نرى شيخنا قد أفرد لهم باباً خاصاً في هذه المسألة مبيناً مدى أهمية خبرتهم ووظيفتهم في هذا الموضوع ، متعرضاً لبعض أقوالهم في خصوص ولادة الإمام علي عليه السلام . فنصوصهم فيها من الحجج القوية على إثباتها ، ولهم قضاء فصل فيها وحكم عدل .

ومن هؤلاء النسابة :

● العمري في (المجدي) : وولدت - يعني فاطمة بنت أسد - علياً عليه السلام في الكعبة ، وما ولد قبله أحد فيها (٦٠) .

● جمال الدين الداودي الحسني (ت ٨٢٨) في (عمدة الطالب) : ذكر أن الولادة كانت في الكعبة... ونفى أن يكون أحد ولد في البيت سواه قبله وبعده ، إكراماً له من الله عز وجل (٦١) .

● العلامة السيّد محمد الحسيني النجفي في (المشجر الكشاف لأصول السادة الأشراف) ، ولد علي بمكة ثم قال : «ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله

الحرام سواه».

ومثلهم النسابة أبو عبدالله الرازي صاحب (مناهل الضرب في أنساب العرب). وهناك أرجوزة للنسابة أبي صالح النباطي النجفي (ت ١١٨٣):

مولده الجمعة يوم السابع في شهر شعبان ببيت الصانع

حديث الولادة والمؤرخون

إن السابر زُبر التاريخ وحوادثه يجد هذا الحديث - والكلام للشيخ - من أثبت ما تعرض له مؤلفوها، وقد أثبتوه محبتين به، مذعنين بحقيقته، ومنهم من نص بصحته عندهم جميعاً.

وقد اختار الشيخ من هؤلاء المؤرخين جمعاً وصفهم بالبراعة في فنهم وقدرتهم على الوقوف على المختلف فيه والمتفق عليه. وإن تعرضت بحوث هذا الكتاب لمثل أقوال هؤلاء المؤرخين أو بما يربو عليها أو يقاربها، ومع هذا نقرأ لبعضهم:

● المؤرخ محمد خاوندشاه في (روضة الصفا)، قال: «كانت ولادته ﷺ في رواية يوم الجمعة في الثالث عشر من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل... وكان ميلاده ﷺ في جوف الكعبة، فإن أمه كانت تطوف بالبيت، أو أن المشيئة الإلهية أجاءتها إلى فنائه، وكانت في أول الطلق، فكانت ولادته فيها، ولم تتح هذه السعادة لأي أحد منذ بدء الخليقة إلى الغاية. وإن لصحة هذا الخبر بين المؤرخين المتحفظين على الفضائل صيتاً لا تشوبه شبهة، وتجاوز عن أن يصحبه الشك والترديد» (٦٢).

والرجل مع ذلك - كما يقول الشيخ - يوافق من تقدمه على أنها مما اختص بها أمير المؤمنين ﷺ ولا يشاركه فيها أي أحد. ولا ريب في ذلك غير أن أعداء آل البيت النبوي افتعلوا حديث حكيم بن

حِزَام فِتْنًا فِي عَصْدِ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ، لَكِنِ الْمُنَقِّينَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ لَمْ يَأْهَمُوا بِهِ، وَبِذَلِكَ تَعْرِفُ قِيَمَةَ مَا هَمَلَجَ بِهِ الْقَاضِي رُوزْبَهَانَ مَنْ أَنَّ ذَلِكَ مَشْهُورٌ بَيْنَ الشَّيْعَةِ وَلَمْ يَصَحِّحْهُ عُلَمَاءُ التَّارِيخِ، بَلْ عِنْدَ أَهْلِ التَّوَارِيخِ أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ وَلَدَ فِي الْكَعْبَةِ وَلَمْ يُولَدْ فِيهِ غَيْرُهُ... إِلَى آخِرِهِ.

وَسَتَجِدُ نَصُوصَ التَّارِيخِ بِذَلِكَ، وَعَرَفْتَ رَدَّ الْحَاكِمِ النِّيسَابُورِيِّ عَلَى مَنْ حَصَرَ وَلَادَةَ الْبَيْتِ بِحَكِيمٍ، وَذَكَرَ تَوَاتُرَ النُّقْلِ بِوِلَادَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ. وَمَرَّ أَيْضًا رَوَايَةَ أَسَاطِينِ أَهْلِ السَّنَةِ، وَلِذَلِكَ مَا يَتْلُوهُ:

● الْمَسْعُودِيُّ وَهُوَ الْحُجَّةُ عِنْدَ الْفَرِيقَيْنِ يَقُولُ فِي (مَرْوَجِ الذَّهَبِ) عِنْدَ ذِكْرِ خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُثَبَّتًا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، جَازِمًا بِهَا مِنْ غَيْرِ تَرْدِيدٍ، قَالَ: «وَكَانَ مَوْلَاهُ فِي الْكَعْبَةِ» (٦٣).

وَقَدْ احْتَجَّ بِكِتَابِهِ هَذَا الْمَوَافِقُ وَالْمُخَالَفُ وَهُوَ مِنَ الْمَصَادِرِ الْمُوثُوقَةِ وَقَدْ رَاعَى فِيهِ - وَالْقَوْلُ لِلْمُؤَلِّفِ - جَانِبَ التَّقْيَّةِ بِمَا يَسَعُهُ، بِتَأْلِيْفِهِ عَلَى نَسْقِ كُتُبِ أَهْلِ السَّنَةِ وَمَا يَرْتَضُونَهُ مِنْ رَوَايَاتِهِمْ، حَتَّى حَسِبَهُ بَعْضُ مَنْ لَمْ يَرَ مِنْ كُتُبِهِ غَيْرُهُ أَنَّهُ مِنْهُمْ. فَهَلْ مِنَ السَّائِغِ إِذْنُ أَنْ يَذْكَرَ فِي كِتَابٍ هَذَا شَأْنُهُ غَيْرَ الثَّابِتِ الْمُتَسَالِمِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْأُمَّةِ جَمْعَاءَ، لَا سِيَّامًا فِي مِثْلِ الْمَقَامِ الَّذِي يَكْثُرُ فِيهِ بِطَبْعِ الْحَالِ وَرَطَاتِ الْقَالَةِ؟ وَذَكَرَ فِي كِتَابِهِ الْآخِرِ (الْوَصِيَّةِ):

«وَرَوَى أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ أَسَدٍ كَانَتْ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَجَاءَهَا الْمُخَاضُ وَهِيَ فِي الطَّوَافِ، فَلَمَّا اشْتَدَّ بِهَا دَخَلَتْ الْكَعْبَةَ، فَوُلِدَتْ فِي جَوْفِ الْبَيْتِ... وَمَا وَلَدَ فِي الْكَعْبَةِ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ غَيْرُهُ» (٦٤).

و(إِثْبَاتُ الْوَصِيَّةِ) مِنْ أَنْفُسِ كُتُبِ الْإِمَامِيَّةِ، وَلَيْسَ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَحْتَجَّ وَيَتَّبِجَّ فِيهِ بِمَا لَا يَقَرُّ بِهِ الْخَصْمُ، وَلَا تَدْعُنَ بِهِ أُمَّتُهُ، ثُمَّ يَقُولُ بِكُلِّ صِرَاحَةٍ: «وَمَا وَلَدَ...» وَبِمَشْهَدٍ مِنْهُ وَمَسْمُوعٍ مَا تَحْذَلُونَ بِهِ مِنْ أَمْرِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، غَيْرَ أَنَّ الْمَوْرَّخَ لَا يُقِيمُ لَهُ وَزْنَ.

- وذكر حمد الله المستوفي (ت ٧٥٠هـ) في (تاريخ كُزَيْدِه): «أنَّ مولده ﷺ كان سنة ثلاثين من عام الفيل، وكان في الكعبة حيث كانت أمُّه في الطواف فبان عليها أثر الطَّلَق، فأشارت إلى البيت ووضعتَه في جوفه» (٦٥).
- محمد بن طلحة الشافعي في (مطالب السَّوول) وقيل: ولد في الكعبة، البيت الحرام» (٦٦).
- ولا نكثرت بإسناد ولادة البيت إلى الفيل، بعد قول الحاكم بتواترها، وقول الآلوسي باشتهارها في الدنيا.
- المؤرخ نشائجي في (مرآة الكائنات): «أنَّه ﷺ ولد ولرسول الله ﷺ ثلاثون سنة، كانت أمُّه فاطمة زائرة البيت فولدته فيه لحكمة الله سبحانه فيه، ولم يرزق هذا غيره وغير حكيم بن حزام» (٦٧). حيث عدَّ ولادته ﷺ من حكم الله سبحانه.
- عبد الحميد خان الدهلوي في (سير الخلفاء) نقل عن غير واحد من المؤرِّخين، أنَّه «ولد في مكَّة المكرمة...، ولم يتولَّد أحد قبله في حِصَار البيت»... (٦٨).
- المؤرِّخ والمحدِّث القمي في (تاريخ قم) سنة ٣٧٨: «إنَّ ولادة أمير المؤمنين في الكعبة...» (٦٩).
- وقال السيّد عليّ الحسيني المؤرِّخ المصري في كتابه (الحسين ﷺ): «أنَّه [الإمام علي ﷺ] ولد بمكَّة في البيت الحرام، يوم الجمعة الثالث عشر من رجب، سنة ثلاثين من عام الفيل...» (٧٠).
- أحمد الغفاري القزويني من مؤرِّخي القرن العاشر ذكر في (تاريخ نكارستان) أنَّه ﷺ ولد في جوف الكعبة (٧١).
- المؤرخ الشرواني أنَّه ﷺ ولد في جوف الكعبة وأنَّ غيره لم يولد هناك (٧٢).
- الكاشفي ذكر حديث بن قعنّب في (روضة الشهداء) عن (بشارة المصطفى).

- الإمام البنا كُتِبَ أنَّه «لم يولد أحد قبله ولا بعده في البيت»^(٧٣).
- عبد المسيح الأنطاكي صاحب مجلَّة (العمران) المصرية، ونحن نقبس طاقة من خمسة آلاف بيت نظمها في حياة أمير المؤمنين عليه السلام:

في رحبة الكعبة الزهرا قد انبثقت أنوار طفل وضأت في مغانيها
واستبشر الناس في زاهي ولادته قالوا: السُّعود له لا بدَّ لاقِيها
قالوا: ابن مَنْ؟ فأجيبوا أنَّه ولد من نسل هاشم من أسمى ذراريها
هتُّوا أبا طالب الجواد والده والأم فاطمة هُتُّوا نُهْنِيها
إنَّ الرضيع الذي شام^(٧٤) الضياء بيب ت الله عزَّته لا عزَّ يحكيها
أمَّا الوليد فلاقى الأرض مبتسماً فما رغا رهباً ما كان خاشيها
وعام مولده العام الذي بدأت بشائر الوحي تأتي من أعاليها
فيه الحجارة والأشجار قد هتفت للمصطفى وهو رائِيها وصاغيها
وإذ درى المصطفى فيه ولادة مو لانا العليَّ غدا بالبشر يطريها
وبات مستبشراً بالطفل قال به لنا من النعم الزهراء ضافيها

ثمَّ راح الأنطاكي يقول:

«كانت ولادة سيِّدنا ومولانا أمير المؤمنين في العام الثلاثين لولادة المصطفى -عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام- على ما حقَّق المحقِّقون، فتكون ولادته الشريفة حول سنة ستِّ مائة وواحد مسيحية، ومن بشائر سعده -عليه صلوات الله- أنَّه ولد في الكعبة كرَّمها الله، ولدته أمُّه فيها فاستبشر بذلك أبوه وعمومته.

وعند ولادته الشريفة -والكلام ما زال للناظم الأنطاكي- دعتهُ أمُّه: حيدرة، ومعنى هذه الكلمة: الأسد، فكأنَّها أرادت أن تسمِّيَه باسم أبيها، فلمَّا وقع نظر أبيه أبي طالب عليه توَسَّم بملاحه العلاء، ودعاه عليّاً. وقد صدقت الأيَّام

فراسته، فكان عليه صلوات الله علياً في الدنيا والآخرة.

وعام مولد سيّدنا أمير المؤمنين - عليه صلوات الله - هو العام المبارك الذي بُدئ فيه برسول الله ﷺ فأخذ يسمع الهُتاف من الأحجار والأشجار ومن السماء، وكشف عن بصره فشاهد أنواراً وأشخاصاً. وفي هذا العام ابتداءً بالتبّتل والانقطاع والعزلة في جبل حراء، وكان رسول الله ﷺ يتيمن بذلك العام وبولادة سيّدنا عليّ -عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام- وكان يسمّيه: سنة الخير، وسنة البركة.

وقال المصطفى ﷺ لأهله عندما بلغته بشرى ولادة المرتضى: «لقد ولد لنا الليلة مولود، يفتح الله علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة». وكان قوله هذا أوّل نبوءته، فإنّ المرتضى - عليه صلوات الله - كان ناصره، والحامي عنه، وكاشف الغمّاء عن وجهه، وبسيفه ثبت الإسلام، ورسخت دعائمه وتمهّدت قواعده» (٧٥).

وقد ضمّن قصيدته كلّ ذلك وغيره من حياة الإمام ﷺ.

● العلامة السيّد محمد الطباطبائي في الرسالة الموضوعية لتأريخ مواليد أئمة الدين ﷺ ووفياتهم: أنّه ﷺ «ولد بمكّة في جوف الكعبة، ولم يولد قبله ولا بعده أحد فيه سواه، إكراماً له من الله جلّ اسمه بذلك...».

● السيّد أبو جعفر الحسيني في شرح قصيدة أبي فراس الحمداني، تعيين يوم ولادته بالجمعة... ومحلّها بالكعبة (٧٦).

● قال الكفعمي في (المصباح): «... ولد عليّ بن أبي طالب ﷺ في الكعبة...» (٧٧).

● شيخ الإسلام الزنوزي في (بحر العلوم): «أنّ محلّ ولادته ﷺ الكعبة».

● النخجواني في (تجارب السلف في تواريخ الخلفاء ووزرائهم)، فرغ منه سنة ٧٢٤: «أنّ عليّاً ﷺ ولد في الكعبة... وسماه النبي ﷺ عليّاً، وكنّاه بأبي تراب» (٧٨).

● قال الحلبي في سيرته (إنسان العيون): «إنّه ﷺ ولد في الكعبة...».

ثم قال: «وقيل: الذي ولد في الكعبة حكيم بن حزام، قال بعضهم: لا مانع من ولادة كليهما في الكعبة، لكن في (النور) حكيم بن حزام ولد في الكعبة، ولا يعرف ذلك لغيره، وأمّا ما روي أنّ عليّاً عليه السلام ولد فيها، فضعيف عند العلماء»^(٧٩). وأنت تجد من سياق العبارة - وهذا القول للشيخ - أنّ المعتمد عند الرجل هو ولادة الإمام عليه السلام في الكعبة، ولذلك ذكرها أولاً مُرسلاً إيّاها إرسال المسلم، ثمّ عزا ولادة حكيم بن حزام فيها إلى القليل إيعازاً إلى وهنه، ولذلك أردفه بجواب البعض عنه، لكنّه وجد لصاحب (النور) كلمة لم يرقه الإغضاء عنها بما هو مؤرّخ، أخذ على عاتقه إثبات المقول في كلّ باب، وإذ لم يجد جواباً عنها لغيره لم يشفعها به، واكتفى هو بما ذكرناه من اعتماده على حديث الولادة عن أن يردّ كلمة الرجل، لأنّه مؤرّخ لا مُنقّب.

وقفة مع صاحب كتاب النور:

ويكفيّنّا تفنيداً لقول صاحب النور نصوص علماء أهل السنّة في ذلك، ورواياتهم، كنصّ الحاكم والمحدث الدهلويّ بتواتر حديثه، وقول الآلوسي: «إنّه أمر مشهور في الدنيا».

ثمّ واصل شيخنا كلامه: وأيّ عالم يردّ المتواتر، أو يعدّوه أمر مشهور بثبوته في الدنيا فيضعّفه حتّى يقول الرجل ببلء فيه: «إنّه ضعيف عند العلماء»؟! وإنّ تعجب فعجب إثباته ولادة حكيم التي لم يستقم إسنادها، ولا اعترف بها مخالفوه وأمّم من موافقيه، وعلى فرض وقوعها فقد ذكرنا في غير مورد من هذه الرسالة وذكر الصفوريّ الشافعيّ: «أنّها من الصدف التي لا تُثبت فضيلة ولا تحرق عادة». ثمّ تضعيفه ولادة أمير المؤمنين التي أخبت بها أئمة الحديث، وأثبتها نقله التاريخ، وطفحت بها كتب الأنساب، ونظّمها الشعراء، وقال بها العلماء، وفيهم من ينفي أن يكون لغيره - صلوات الله عليه - مولد في البيت، وهو ما ورد عن الحاكم: «ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله الحرام سواه». وما عن البدخشيّ

قوله: «ولم يولد في البيت أحد سواه، قبله ولا بعده، وهي فضيلة خصّه الله بها». وقد مرّ ما عن أبي داود البناكتي. وكلمة ابن الصّبّاغ المالكي السابقة: «ولم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه، وهي فضيلة خصّه الله تعالى بها إجلالاً له، وإعلاءً لمرتبته، وإظهاراً لتكريمته». وقول الدهلوي في (سير الخلفاء): أنّه «لم يتولّد أحد قبله في حصار البيت».

والألوسي في أوليات هذه الرسالة: «ولم يشتهر وضع غيره كرم الله وجهه، كما اشتهر وضعه» يوعز إلى وهن حديث حكيم، وانحياز الشهرة عنه. وقول الدهلوي في (ازالة الخفاء): «ولم يولد فيها أحد سواه قبله ولا بعده».

هذه كلمات بعض مهرة الفن وأئمة النقل، وهنا يقول الشيخ: فلو كان يُقام لولادة حكيم في البيت وزن عند هؤلاء لما أطلقوا القول بملء الأفواه أنّ تلك خاصّة لأمر المؤمنين ﷺ لا يشاركه فيها أحد، مع وقوفهم على أمر حكيم، وفيهم من أورد خبر ولادة حكيم في كتابه لكنّه غير آبه به.

وقفه مع الدياربكري:

ويقرب من هذه الهملجة ما جاء به الدياربكري في (تاريخ الخميس) قال: «ولد بمكة بعد عام الفيل بسبع سنين، ويقال: كانت ولادته في داخل الكعبة ولم يثبت»^(٨٠) ولم يترك الشيخ المؤلّف هذا الزعم دون جواب فيقول:

وليت شعري بماذا تثبت الحقائق التاريخية؟ أبالوحي، أم بأخبار الأنبياء، وهتاف الكتب السماوية، أم أنّ المرجع فيها الرجل والرجلان من النّقلة والرواة؟ وهل التزم الدياربكري في كتابه بأكثر من هذا؟ فما بال هذه الحقيقة التي هتفت بها المئات والألوف، وأثبتتها طبقات الناس جيلاً بعد جيل لم تثبت عنده، وثبتت لديه هفوات التاريخ، التي لو أحصيتها لخرجت عن وضع الرسالة؟

ثمّ ما بال الدياربكري يعتمد على (شواهد النبوة) كلّما نقل عنه، ولا يرتضيه في خصوص المقام؟

ثمَّ ما باله يغضُّ الطرف عن غلظه الشائن من أنَّ ولادته ﷺ كانت بعد عام الفيل بسبع سنين، لكنَّه يردُّ حديث ولادة البيت بعدم الثبوت؟ أنا أدري لماذا، وأنت تدري، وقبلنا الديار بكرى يدري.

حديث الولادة والشعراء

وللشعر والشعراء قصب السبق في إثبات هذه الفضيلة للإمام ﷺ وقد بلغت من الشهرة حتى لم تدع مجالاً لإنكارها أو التشكيك فيها.. وهنا يبدأ المؤلف هذا الفصل وقبل أن يذكر القصيدة وقائلها، بمقدمة جميلة جداً لا يسعنا تجاوزها أو اختصارها فهو يقول:

عرفت أن الحديث بلغ من الشهرة والثبوت بحيث لا يسع أيُّ مُعْنِت إنكاره؛ ولذلك احتجَّ به فريق كبير من المحقِّقين في كتب الإمامة، وأرسله إرسال المسلمات جموع من نياقد فن الحديث في باب الفضائل، وتبيَّح به زُرافات من حملة العلم ونقَّاده في مؤلفاتهم، وهنالك لفيف لا يُستهان بعدَّتهم، ولا يُعْمَز في شيء من تثبتهم وضبطهم من صيارفة القول، وصاغة القريض، وزبناء الشعر، بين عالم ضليع، وأديب بارع، وشاعر مبدع، تصدَّوا لإثبات هذه الفضيلة فيما أفرغوه في بوتقة النظم، أو حاكوه على نول الحقيقة، فسار ذكرها مع الركبان وانتشر نشرها مع مهب الريح، كما مرَّ عن الحميري والسرخسي والشفهيني والحرَّ العاملي والأفتوني وغيرهم. ثمَّ أخذ يذكر آخرين إتماماً لما ذكره سابقاً، أنظر الكتاب نفسه.

حديث الولادة مجمع عليه

بهذا العنوان صدَّر الباحث الفصل الأخير من كتابه القيم هذا، بعد أن أثبت في فصوله السابقة حديث الولادة عند الفريقين وأنه حديث مشهور عندهم حيث أعاد قول الآلوسي «إنَّه أمر مشهور في الدنيا»، وأنه «في المناقب المتسالم عليها التي لا يفتقر نقلها إلى كتاب» كما ذكر ذلك السيّد حيدر الآملي، وأن روايته مسندة عند الفريقين مصفَّقين على نقله وهو ما عرفناه عن ابن اللوحيّ. وأنَّ العلامة النوري

ترقى أكثر مصرّحاً بأنّ تلك الفضيلة لا يبعد كونها من ضروريات مذهب الإمامية، وأنها جاءت في أخبار غير محصورة وفي كلمات العلماء وفي ضمن الخطب والأشعار في جميع الأعصار، وهو إجماع الشيعة عليه كما نقل ذلك صاحب «مدينة المعاجز» عمّا ذكره ابن شهر آشوب في مناقبه، وفي مناقب المعصومين أنه إجماع أهل البيت عليهم السلام ثم ذكر أقوال بعض علماء الشيعة حيث أرسلوا ولادته عليه السلام في الكعبة إرسال المسلمات نافين عنه أي شبهة وارتجاف، ومنهم العلامة قطب الدين اللاهجي في كتابه (محبوب القلوب) فبعد أن نصّ على أنّ ولادته عليه السلام تمت داخل الكعبة يوم الجمعة في الثالث عشر من رجب قبل الهجرة بثلاثة وعشرين عاماً قال: «ولم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه» مبيّناً أنّها «فضيلة خصّه الله تعالى بها إجلالاً له وإعلاءً لمرتبته وإظهاراً لكرامته».

ويقرب من هذا أقوال كلّ من السيّد عباس الموسوي المكي في رحلته (نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس) والسيّد نعمة الله الموسوي الجزائري (ت ١١١٢) في (الأنوار النعمانية)، ونظام الدين الساوجي في تكملة الجامع العباسي لبهاء الدين العاملي ناصراً أنّ «ولادته في جوف الكعبة».

وفي مزار «أبواب الجنان وبشائر الرضوان» أرسله إرسال المسلم الشيخ خضر العفكاوي النجفي (ت ١٢٥٥).

ومن ذلك ما ذهب إليه العلامة الشريف الشيرواني في كتابه «الشهاب الثاقب» قائلاً: «إنّه ولد في مكّة ببيت الله الحرام» معقباً ذلك بقوله: «ولم يولد فيه قطّ سواه لا قبله ولا بعده» مخالفاً بذلك غيره من أنّ ولادته يوم ١٣ رجب ناسباً ولادته يوم الجمعة إلى القيل.

وفي «تقويم المحسنين» أثبت الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١) في حوادث رجب: ولد علي بن أبي طالب عليه السلام في الكعبة قبل النبوة باثنتي عشرة سنة وللنبي صلّى الله عليه وآله يومئذ ثمان وعشرون سنة. وقد ماثله في ذلك الشيخ أبو محمد الديلمي

في (إرشاده) ذاكراً أنّها من فضائله ﷺ الجمّة المخصوصة به .
وقد ماثلهم في ذلك أيضاً صاحب (منهاج البراعة) في شرح نهج البلاغة
السيد حبيب الله الموسوي الخوئي بقوله «وقد خصّه الله بهذه الفضيلة على سائر
الأنام، ولم يولد في البيت أحد قبله ولا بعده...».

ونهج منهجهم أيضاً العلامة السيد حيدر الكاظمي (ت ١٢٦٥) في كتابه
(عمدة الزائر).. ناقلاً رواية ذكرها الشيخ في الصحيح عن الإمام الصادق ﷺ :
كانت ولادته يوم الأحد لسبع خلون من شعبان، وكان بين مولده ومولد
رسول الله ﷺ ثلاثون سنة، ولم يولد قبله ولا بعده في بيت الله الحرام سواه إكراماً له
وتعظيماً له من الله تعالى بذلك وإجلالاً لمحلّه».

ويقول السيد مهدي القزويني (ت ١٣٠٠) في (فلك النجاة): ولد يوم الجمعة
ثالث عشر رجب، وروي سابع شعبان، والأوّل أشهر بعد مولد رسول الله ﷺ
بثلاثين سنة، في الكعبة البيت الحرام،...».

وأما السيد محسن الأعرجي فقد نسب ولادته في شعبان إلى القليل ذاكراً
حديث يزيد بن قعنب الذي ذكره الصدوق .

وهنا يقول شيخنا عن السيد الأعرجي : «وهذا العالم البخّاث النيقد وجد
خلفاً في شهر الولادة فأوعز إليه، لكنّه لم يجد في حديث البيت أي ترديد، فلم
ينبس عنه ببنت شفة، ولو كان مثله يجد شيئاً لما آثر تركه؛ وهو ذلك الصريح
الشديد في البحث .

وهكذا كلّ من الشيخين عبد النبي الجزائري في (حاوي الأقوال) والشيخ أبو
علي الرجالي في (منتهى المقال) وهما من أعلام الدين وقد أختباها ولصحتها .
وفي الحدائق الندية في شرح الفوائد الصمدية للسيد علي خان المدني
الشيرازي (ت ١٢١٠)، قد أذعن بحقيقة وحقيّة ما نقله عن (الفصول المهمّة) لنور
الدين علي الصباغ المكي المالكي (ت ٨٥٥) «ولد علي ﷺ بمكة المشرّفة بداخل

البيت الحرام... ولم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه وهي فضيلة خصّه الله تعالى بها إجلالاً له وإعلاءً لمرتبتة وإظهاراً لتكريمته». وفي عقائد الشيعة لعلّي أصغر البروجردي الذي ذكر فيه بأن مولده ﷺ في وسط البيت ضحى الجمعة بعد ثلاثين عاماً من ولادة النبي الأعظم. بعد هذا كلّه يعلن المؤلف عن اكتفائه بهذه النماذج قائلاً: ولعلّها جمعاء كقطر من بحر بالنسبة إلى ما يجده السابر لكتب علمائنا. علماء أهل السنّة:

ثمّ راح يعلن إصفاق علماء أهل السنّة ومحدثيهم وعرفائهم معنا في إثبات هذه المأثرة الفاضلة، وعدّ هذا من أجلى الحقائق وأثبتها. فكلّام الحاكم في مستدرّكه وحكمه بتواتر النقل به، وما نقله الحافظ الكنّجي الشافعي عنه ذلك وما حكم بتواتره المحدث الدهلوي وقد وافقهم الآلوسي بما نصّه بـ «أنّ ذلك مشهور في الدنيا» ومثله ما ورد عن الصفوري الشافعي وفي «تاريخ كزّيده» لحمد الله المستوفي، و(مطالب السؤل) لابن طلحة الشافعي و(مرآة الكائنات) لنشأجي زاده و(سير الخلفاء) للدهلوي المعاصر وكتاب (الحسين) للسيد علي جلال الدين الحسيني، وعبد الباقي أفندي العمري والمولى الرومي، ومعين الدين الجشتي وعبد الرحمن الجامي في شعرهم والأمير محمد صالح الترمذي في مناقبه.

ثمّ بعد كلّ هذا أخذ شيخنا أيضاً ينقل بعض أسماء العامّة ممّن لم يمتاروا في صحّة خبر الولادة بل فسّروه خاضعين لأمره كما يصفهم بذلك شيخنا، فنور الدين الصبّاغ المكي المالكي (ت ٨٥٥) في (الفصول المهمّة) قال صريحاً: ولد علي ﷺ بمكّة المشرّفة بداخل البيت الحرام، يوم الجمعة الثالث عشر من شهر الله الأصمّ رجب الفرد، سنة ثلاثين من عام الفيل قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة،... ولم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه، وهي فضيلة خصّه الله تعالى بها إجلالاً له

وإعلاءً لمرتبه وإظهاراً لتكرمه»^(٨١).

وقد نقل هذه العبارة كلّ من الصفوري الشافعي في (نزهة الحلبي)^(٨٢) والسيد علي خان المدني في (الحقائق الندية)^(٨٣) والشبلنجي الشافعي في (نور الأبصار) والسمهودي في (جواهر العقدين) وبرهان الدين الحلبي في (انات العيون)، وما ذكره السبط ابن الجوزي في (تذكرة خواص الأمة) هو: «روي أنّ فاطمة بنت أسد كانت تطوف بالبيت وهي حامل بعليّ ﷺ فضربها الطلق، ففتح لها باب الكعبة، فدخلت فوضعت فيه، وكذا حكيم بن حزام ولدته أمّه فيها». وهنا راح يفرّق بين الولادة المزعومة لحكيم بن حزام داخل الكعبة وبين ولادة عليّ ﷺ داخل الكعبة فيقول:

إنّ ولادة حكيم فيها، على تقدير صحّتها - والكلام للمؤلف - من جملة الصدف والاتفاقات غير القصدية، فليس فيها فضل ما غير تلويث البيت بالمخاض، ويجب تطهيره. وأين هذه من ولادة أمير المؤمنين ﷺ الذي فُتِحَ لأُمّه الباب، كما في عبارة السبط نفسه (ففتح لها باب الكعبة فدخلت فيها)، ولم يُفتح لغيرها بالرغم من جهدهم في ذلك كما سبق في أحاديث كثيرة، أو انشقّ لها جدار البيت فدخلته كما في أحاديث الشيعة، ولا يعدو ذلك أن يكون الأمر إلهياً قصد به التنويه بشريف المولود المبارك الذي تشرف البيت بولادته فيه؟!

وهناك حديث طويل أخرجه أبو نعيم الحافظ يبدو أنّه في فضل فاطمة بنت أسد أو في فضل ولادة علي داخل الكعبة إلّا أنّهم قالوا: «في إسناده روح بن صلاح ضعّفه ابن عديّ فلذلك لم نذكره».

وروح هذا في الوقت الذي ضعّفه ابن عدي فإنّ ابن حبان ذكره في الثقات كما أنّ الحاكم قال عنه: ثقة مأمون^(٨٤).

كما أن نقل ابن الجوزي حديث الولادة المباركة لعليّ ﷺ داخل الكعبة بصيغة المجهول «روي» لم يكن فيه - والكلام للشيخ - أي إيعاز إلى الوهن فيه بعدما عرفنا

أنَّ المعهود من ابن الجوزي في غير مورد من هذا الكتاب من إرداف الحديث بنقده أو تعميمه أو حذفه رأساً لضعفه، وإنَّما جاء به كذلك لتكثر طرقه الموجب للإطناب إذا تصدَّى لسردها، ولشهرته المغني عن ذكر الأسانيد، وإنَّما الغرض الإشارة إلى إحدى المسلَّات بأوجز بيان.

ومثل السبط ابن الجوزي مثل السيد ابن طاووس (ت ٦٦٤) في كتابه «الإقبال» حيث كان يذكر رواية ولادة الإمام عليه السلام في الكعبة بصيغة المبني للمجهول فكان يقول: روي أن يوم ثالث عشر رجب كان مولد مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام في الكعبة قبل النبوة باثنتي عشرة سنة»^(٨٥).

والمتحصل من ذلك كلّه أن الولادة محل إجماعهم وتأريخها محل خلافهم.

وقف المؤلف مع الكازروني

قال أحمد بن منصور الكازروني في (مفتاح الفتوح):

ولدت فاطمة عليّاً عليه السلام في الكعبة، ونقل عنها أنَّها كانت إذا أرادت أن تسجد لصنم وعليٍّ في بطنها لم يميكنها؛ ولذا يقال عند ذكر اسمه: «كرّم الله وجهه، أي كرم الله وجهه عن أن يسجد لصنم».

وهنا يقول الشيخ: أنا لا أحاول تصديق الرجل في كلّ ما يقول غير ما أتيت به من كلامه شاهداً لموضوع الرسالة، فإني لا أصافقه على أن فاطمة كانت تسجد للصنم، وإن كان ابنها أكبر وازع عن عبادة الأوثان، ولو كنت أجوّز لها تلكم الاسطورة، لما عداني اليقين بما ذكره من أمر جنينها. لكنّي أعتقد أن كون الإمام سلام الله عليه في بطنها حملاً، وتقدير كونها حاملاً له عليه السلام من الله سبحانه منذ الأزل، كان عاصماً لها عن عبادة الأصنام كبرهان الربّ (العصمة) المانع يوسف عن الزنا، وهذا هو الذي نعتقه في آباء النبيّ والأئمّة عليهم وعليه السلام وأمهاتهم، فهم مبرّؤون عمّا يصمهم في دين أو دنيا.

... ثم قال: إنا لا نقيم لهاتيك الرواية الساقطة وزناً، وإن وافق راويها في إخراجها ابن حجر في (الصواعق) ولقد أسرَّ ناقلها حسواً في ارتغاء يزيد وقيعة في أمِّ الإمام كما تحامل على أبيه المقدس فحكم بكفره لأمر دبر بليل، فصَبَّها في قالب الفضيلة له وتلقَّاها الغير في غير ما رويَّة، انتهى.

أما عبد الرحمن الجامي في (شواهد النبوة)^(٨٦) فقد أسند حديث ولادة الإمام علي عليه السلام إلى بعضهم. وإن خلط الحابل بالنابل - كما يقول عنه المؤلِّف - وجاء بعثرات لا تقال حول تاريخ الولادة مخالفة للضرورة والإجماع، إلا أن المهم في كلامه هو إسناد حديث الولادة.

وما قاله الشيخ عبد الحق بن سيف الدين المحدث الدهلوي في (مدارج النبوة)... وقالوا: إن ولادته كانت في جوف الكعبة»^(٨٧).

وأما حديث الولادة الذي رواه يزيد بن قعنب فقد ذكره الأمير محمد صالح الكشفي الترمذي الأكبر آبادي في كتابه (المناقب) بأسانيد متكررة، وقد أرسله إرسال المسلم في كتابه المذكور، ونقل أيضاً في كتابه هذا قول أبي داود البناكتي: «لم يحظ أحد قبل الإمام عليه السلام ولا بعده بشرف الولادة في البيت»^(٨٨).

وصدر الدين أحمد البردواني وهو من متأخري علماء السنة في (روائع المصطفى) قال: كانت ولادته عليه السلام في جوف الكعبة...»^(٨٩).

وشاه محمد حسن الجشني في كتاب (آئينه تصوف) قال: إنَّه عليه السلام ولد في الكعبة... وميرزا محمد بن رستم البدخشي قال في (مفتاح النجا في مناقب آل العبا):... ولم يولد في البيت الحرام أحد سواه، قبله ولا بعده، وهي فضيلة خصَّه الله بها.

وأما العلامة الشيخ الشنقيطي المدرس بالأزهر في (كفاية الطالب لمناقب علي ابن أبي طالب) وهو شديد التحرز من أحاديث الروافض المكذوبة كما يزعم؛

لأن الإمام عليه السلام في غنى عنها كما يرى الشنقيطي لكثرة ما ثبت في السنّة من أحاديث فضائله، أرسله إرسال المسلّم أن من مناقبه - كرم الله وجهه - أنّه ولد في داخل الكعبة، ولم يعرف ذلك لأحد غيره إلاّ حكيم بن حزام رضي الله عنه .

وقد أوضحنا القول في هذه الولادة الأخيرة المزعومة في المقدّمة وفي متون هذا الكتاب فلا نعيد .

وقفة أخيرة:

ويفرد المؤلّف ختام فصله الأخير من كتابه القيم هذا بمناقشة مختصرة لما قاله الشيخ علي القاري في (شرح الشفا) بعد أن قال في حكيم بن حزام: «ولا يعرف أحد ولد في الكعبة غيره على الأشهر» مانصّه: «وفي "مستدرك الحاكم" أن عليّ بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أيضاً ولد في داخل الكعبة»^(٩٠).

فيقول الشيخ المؤلّف بعد ذكره لما قاله القاري:

ليت القاري لم يسحب ذيل أمانته على كلمة الحاكم الموجودة في (المستدرك)... وليته ذكر قوله: تواترت الأخبار أنّ فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين في جوف الكعبة. ثمّ واصل الشيخ ردّه بقوله: ليت! وهل ينفع شيئاً ليت؟ عذرته، فهو حين رمى القول على عواهنه في ولادة حكيم بن حزام بإسناده إلى الأشهر المستخرج من عُلبة مخيلته لم يكن يسعه المصارحة بأنّ خلافه ممّا تواترت به الأخبار، فلا أقلّ من التكافؤ بأن يكون كلّ منهما مشهوراً. فكان الأحفظ لسمعته والأستر لمينه، أي (لكذبه) أن يمسح كلمة الإمام الحاكم إلى رأيته، وكان من المحتمل القريب أن لا يناقشه أحد الحساب، لكن الحقيقة لا بدّ وأن تبرز نفسها.

الهوامش :

- (١) أنظر أعيان الشيعة ٢ : ٤١٠.
- (٢) كتاب الغدير ٦ : ٣٧.
- (٣) المجموعة الكاملة ٢ : ٣٥.
- (٤) تاريخ دمشق ١٥ : ٩٣.
- (٥) تاريخ دمشق ١٥ : ٩٨.
- (٦) تاريخ دمشق ١٥ : ٩٥.
- (٧) التبيين في أنساب القرشيين : ٢٦٦.
- (٨) تهذيب الكمال ١٤ : ٤٦، سير أعلام النبلاء ٤ : ٤٢٩.
- (٩) أنظر سير أعلام النبلاء ١٢ : ٣١٤، تهذيب التهذيب ٣ : ٣١٣، وميزان الاعتدال ٢ : ٦٦.
- (١٠) أنظرها في سير أعلام النبلاء ١٢ : ٣١٤.
- (١١) تاريخ دمشق ١٥ : ٩٨.
- (١٢) المستدرك ٣ : ٥٤٩ / ٦٠٤١ / ١٦٣٩.
- (١٣) المستدرك ٣ : ٥٥٠ / ٦٠٤٤ / ١٦٤٢.
- (١٤) أنظر سير أعلام النبلاء والأنساب وجمهرة النسب.
- (١٥) مقدّمة جمهرة النسب.
- (١٦) أخبار مكة للأزرقي ١ : ١٧٤.
- (١٧) تذكرة الحفاظ ٢ : ٥٠١. الجرح والتعديل ٨ / ١٢٤، سير أعلام النبلاء ١٢ : ٩٦.
- (١٨) التاريخ الكبير ٦ : ٢٩؛ التاريخ الصغير ٢ : ٢٣٤؛ الجرح والتعديل ٥ : ٣٩٠؛ تاريخ بغداد ١٠ : ٤٤١؛ تهذيب التهذيب ٦ : ٣٥١؛ ميزان الاعتدال ٢ : ٦٣٢.
- (١٩) من ضمن المصادر التي اعتمدتها في هذه المقدمة المختصرة مقالة قيّمة ونافعة للأستاذ شاكِر شيع (الولادة في الكعبة المعظّمة) نشرت في مجلّة تراثنا العدد ٢٦.
- (٢٠) المستدرك ٣ : ٤٨٣.
- (٢١) كفاية الطالب : ٤٠٧، وأنظر الغدير للشيخ الأميني ٦ : ٢٢.
- (٢٢) الغدير للشيخ الأميني ٦ : ٢٢.
- (٢٣) أنظر الغدير ٦ : ٢٢ - ٢٣.
- (٢٤) الكشكول : ١٨٩.
- (٢٥) غاية المرام : ١٣.

- (٢٦) أصول العقائد: ١٦٥ مترجماً من الفارسية وملخصاً.
- (٢٧) اعلام الوري: ١٥٣.
- (٢٨) شرح القصيدة المذهبية: ٥١.
- (٢٩) خصائص الأئمة: ٣٩.
- (٣٠) التهذيب ٦: ١٩ كتاب المزار.
- (٣١) مصباح المتعبد: ٧٤١ و ٧٥٤.
- (٣٢) الإرشاد: ٩٠ والمقنعة: ٧٢ ومسار الشيعة: ٣٥.
- (٣٣) انظر الإقبال: ٦٠٨، ومصباح الزائر: ١٠٦، والمزار الكبير: ٢٦٧، والبحار ١٠٠: ٣٧٤.
- (٣٤) انظر المجدي: ١١.
- (٣٥) انظر مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٧٥، ١٧٦، روضة الواعظين: ٨١، أعيان الشيعة ١: ٣٢٤.
- (٣٦) جلاء العيون ١: ٢٣٢ فارسي.
- (٣٧) تحفة السلاطين ٢، فارسي.
- (٣٨) تحفة المجالس: ٦٤ فارسي.
- (٣٩) ضياء العالمين ٢.
- (٤٠) نهج الحق وكشف الصدق: ٢٣٢، كشف اليقين: ٥.
- (٤١) كشف الغمة ١: ٥٩.
- (٤٢) مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٧٥.
- (٤٣) الصراط المستقيم ٢: ٢١٥.
- (٤٤) تحفة الأبرار، ب، ٤، ف، ٢.
- (٤٥) انظر إحقاق الحق.
- (٤٦) الفصول المهمة: ٣٠ وأيضاً نزهة المجالس ٢: ٢٠٤.
- (٤٧) كشف الغمة ١: ٦٠، بشارة المصطفى: ٧.
- (٤٨) إرشاد القلوب: ٢١١.
- (٤٩) مناقب مرتضوي: ٨٧ ط بومباي ١٣٢١ هـ.
- (٥٠) الأمالي ٩: ١١٤، علل الشرائع ١: ١٣٥، ٣، معاني الأخبار ٦٢: ١٠.
- (٥١) روضة الواعظين: ٧٧-٨١.
- (٥٢) الفضائل لشاذان بن جبرئيل: ٥٤، جامع الأخبار: ١٥.
- (٥٣) علل الشرائع ٣: ١٣٥، معاني الأخبار ١٠: ٦٢، أمالي الصدوق ٩: ١١٤. أمالي الطوسي ٢: ٣١٧، مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٧٢، روضة الواعظين: ٧٧.
- (٥٤) منظومة في تواريخ المعصومين (عليه السلام)، مخطوطة.

- (٥٥) مصباح الحرمين : ١٩٤ .
- (٥٦) شرح نهج البلاغة ١ : ١٤ .
- (٥٧) كنز الفوائد ١ : ٢٥٥ .
- (٥٨) الأربعون حديثاً، مخطوط، نوادر المعجزات : ١٠، اليقين : ٧٣، فضائل ابن شاذان : ٢ .
- (٥٩) كفاية الطالب : ٤٠٥ .
- (٦٠) المجدي : ١١ .
- (٦١) عمدة الطالب : ٥٨ .
- (٦٢) روضة الصفا، مترجماً من الفارسية وملخصاً .
- (٦٣) مروج الذهب ٢ : ٣٤٩ .
- (٦٤) إثبات الوصية : ١١١ .
- (٦٥) تاريخ كزیده (فارسي) : ١٩٢ مترجماً وملخصاً .
- (٦٦) مطالب السؤل : ١١ .
- (٦٧) مرآة الكائنات ١ : ٣٨٣ .
- (٦٨) سير الخلفاء : ٢٠٨ مترجماً من الهندية وملخصاً .
- (٦٩) تاريخ قم : ١٩١ .
- (٧٠) كتاب الحسين عليه السلام : ١٦ .
- (٧١) تاريخ نكارستان : ١٠، وانظر بشأنه كشف الظنون ٢ : ١٩٧٦، الذريعة ٢٤ : ٣٠٨ .
- (٧٢) روضة الصفا الجزء العاشر مترجماً من الفارسية وملخصاً كتاب خاماسب : ٥١ .
- (٧٣) روضة الشهداء : ١٤٦ .
- (٧٤) شام : تطلع، انظر «لسان العرب - شيم - ١٢ : ٣٢٩» .
- (٧٥) القصيدة العلوية : ٦١، وهذه القصيدة تشتمل على ٥٥٩٥ بيتاً، انظر الذريعة ١٧ : ١٢٠، والأعلام للزركلي ٤ : ٢٩٧ .
- (٧٦) شرح الشافية : ١٥ .
- (٧٧) مصباح الكفعمي : ٥١٢ .
- (٧٨) تجارب السلف : ٣٧، ط طهران سنة ١٣١٣ هـ، ش، مترجماً من الفارسية .
- (٧٩) إنسان العيون ١ : ١٦٥ .
- (٨٠) تاريخ الخميس ٢ : ٣٠٧ .
- (٨١) انظر الفصول المهمة : ٣٠ .
- (٨٢) نزهة الحلبي ٢ : ٢٠٤ .
- (٨٣) الحدائق الندية : ١٠ .

- (٨٤) انظر العسقلاني في لسان الميزان ٢: ٤٦٥.
- (٨٥) الإقبال: ٦٥٥.
- (٨٦) شواهد النبوة: ١٩٨.
- (٨٧) مدارج النبوة ٢: ٥٣١ مترجماً من الفارسية.
- (٨٨) مناقب مرتضوي: ٨٧ ط بومباي سنة ١٣٢١هـ، مترجماً من الفارسية.
- (٨٩) روائع المصطفى: ١٠ ط كينور سنة ١٣٠٢ مترجماً من الفارسية.
- (٩٠) كفاية الطالب: ٢٥ و ٣٧، وشرح الشفا ١: ١٥١، المستدرك ٣: ٤٨٣.

الإمام علي (عليه السلام) في مرآة الشعر

لم يكن لغيره من الصحابة على كثرتهم وعظيم فضائل بعضهم ما كان له (عليه السلام) في ديوان الشعر قديماً وحديثاً منذ صدر الإسلام وإلى عصرنا هذا...^(١) فقد راح الشعراء المبدعون والأدباء البارعون من المسلمين وغيرهم يحلّون دواوينهم وقصائدهم بمناقب وفضائل عليٍّ حتى سارت بها الركبان وانتشر عبرها...، وقد تعرّض بعض الشعراء الكبار والمكثرين من الشعر إلى اللوم والعتب مرّةً وإلى التقرّيع أخرى إذا خلا ديوانهم من قصيدة تتضمّن فضيلة لعليٍّ أو شيئاً من صفاته وخصاله، وهذا الشاعر الكبير المتنبي عوتب مراراً على عدم ذكره لعلي (عليه السلام)، فما جوابه وتألّق حيث قال:

وتركت مدحي للوصي تعمّداً إذ كان نوراً مستطيراً شاملاً
وإذا استطال الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً

وها نحن أمام لفيف منهم ومقتطفات من قصائدهم التي سجّلوا فيها مواقف عظيمة ومشاهد جليلة كانت من نصيبه، ومناقب وخصالاً فريدة تحلّى بها بفضلٍ

من الله تعالى ورسوله ﷺ فزهت قصائد هم ولو بشيء يسير من ذلك الطود الشاخ؛
من المناقب والصفات والمشاهد لسيّد المتّقين ومولى الموحدين كما خلدوا بها.
ومن هولاء:

● الشيخ محمد بن عبد المطلب المصري (ت ١٣٥٠) نقتبس شيئاً من قصيدته
الطويلة جداً:

أبا السبطين كيف تفي المعاني	نثراً في مديحك أو نظاما
مقام دونه نُجب القوافي	وإن كانت مسومة كراما
فحسبك يا أخا الشعراء عذراً	رمى بها مكاناً لن يراما
وما أدراك ويحك ما عليّ	فتكشف عن مناقبه اللثاما
تبصر هل ترى إلّا عليّاً	إذا ذكر الهدى ذاك الغلاما
غلام يبتغي الإسلام ديناً	ولما يعد أن بلغ القطاما
وصلّى حيدر فشأى قريشا	إلى الحسنى فسمّوه الإماما
كأنّي بالثلاثة في المصلّى	جميعاً عند ربّهم قياما
تحبيهم ملائكة كرام	وتقرئهم عن الله السلاما
يمد إلى النبي يد ابن عم	بحبل الله يعتصم اعتصاما
وإذ يدعو العشيرة يوم جمع	لينذر في رسالته الأناما
فكهل في جهالته تولى	وشيخ في ضلالته تعامى
وأيده على التقوى أخوه	إذا ما خاف كل أخ وخاما
صغير السن يخطر في اباء	فلا ضيماً يخاف ولا ملاما
وقد جمع الحجى والدين فيه	خلائق تجمع الخير اقتساما
فما أوفى على العشرين حتى	شهدنا من عظامه عظاما
فلن ينسى النبيّ له صنيعاً	عشية ودع البيت الحراما
فأرخصها فدّى لأخيه لما	تسجى في حظيره وناما

وأقبلت الصوارم والمنايا
فلم يأبه لها أنفاً عليّ
وأغشى الله أعينهم فراحت
وفي أم القرى خلى أخاه
أقام بها ليقضيه حقوقاً
كأنني بآبن عتبة يوم بدر
ولو علم الوليد بمن سيلقى
ومن غدت البتول إليه تهدي
بأمر الله قد زفت إليه
كأنني بالملائك إذ تدلت
فلو كشف الحجاب رأيت فيه
أطافوا بالحظيرة في جلال
تفيض على منصتها وقاراً
فلا يحزن خديجة أن تولّت
تولاهما الذي ولي أباهما
قران زاده الإسلام يمناً
فإن تك خير من عقدت ازاراً
فإن تسأل فسائل عنه أحداً
وحطم غمد صارمه عليّ
هنالك بادر الكرار لماً
إذا ما هم أقعده أخوه
مكانك يا علي فذاك عمرو
فقال وإن يكن عمراً فإني

لحرب الله تنتحم انتحاما
ولم تقلق بجفنيه مناما
ولم تر ذلك البدر التماما
على وجد به يشكو الأواما
على الهادي بها كانت لزاما
يعاني تحت مجثمه جثاما
لألقى قبل مصرعه السلاما
بنى في النجم بيتاً لا يسامى
عشية راح يخطبها وساما
بذاك البيت تزدهم ازدحاماً
جنود الله تتنظم انتظاماً
صفوفاً حول فاطمة قياماً
وتكسو حسن طلعتها وساما
ولم تبلغ بجلوتها مراماً
رسالته وزوجها الإماما
وشمل زاده الحب التاماً
وأكرم كل من ارخت لثاماً
غداة هناك طير الموت حاماً
وذّب عن النبي بها وحامى
غدوا والرعب قد منع الكلاما
وزاد إلى اللقاء جوّى فقاما
له الأبطال يوم وغى تحامى
علي سوف ألجمه الحساما

فلم يك غير أن أودى ابن ودّ
وسائل يوم خبير عن علي
ولم تغن الحصون ولا الصياصي
وأقبل مرحب في البأس يحبو
وما علم الفتى أنّ المنايا
وان له من الكرار يوماً
علاه بضربة لو أنّ رضوى
وسل اهل السلام تجد علياً
حوى علم النبوة في فؤاد
ونفساً لم تذق طعم الدنيا
طوى عنها على الضراء كشحا
غذاها الدين مذ كانت فشبت

وخاض السيف في دمه وعاما
تجد فيها أثره جساما
وإن قام الحديد لها دعاما
وكان البأس صاحبه لزاما
خططن بذى الفقار له مناما
عبوساً مدنياً منه الحماما
تلقاها لعاد بها هياما^(٢)
إمام الناس يبتدر السلاما
طما بالعلم زخاراً فطاما^(٣)
ولا لذت من الدنيا طعاما
وعن فاني زخارفها تسامى
على التقوى رضاعاً وانقطاما

● الشيخ عبد المهدي مطر:

ارصف بباب علي أيها الذهب
وقل لمن كان قد أقصاك عن يده
لعلّ بادرة تبدو لحيدرة
فقد عهدناه والصفراء منكرة
ما قيمة الذهب الوهاج عند يد
ما سره أن يرى الدنيا له ذهباً
ولا تضجر أكباد مفتتة
أو يسقط الدمع من عيني مولهة
تهفو حشاه لأنات اليتيم بلا

واخطف بأبصار من سروا ومن غضبوا
عفواً إذا جئت منك اليوم اقترّب
أن ترتضيك لها الأبواب والعتب
لعمينه وسناها عنده لهب
على السواء لديها التبر والترّب
وفي البلاد قلوب شفها السغب
حتى يذوب عليها قلبه الحذب
أجابها الدمع من عينيه ينسكب
أمّ تناغي ولا يحنو عليه أب

هذي هي السيرة المثلى تموج بها روح الوصي وهذا نهجه اللهب
فاحذر دخول ضريح أن تطوف به إلا بإذن علي أيها الذهب
باب به ريشة الفنان قد لعبت فأودعته جمالاً كله عجب
تكاد لا تدرك الأبصار دقته ممّا تماوج في شرطانه اللهب
كأن لجّة أنواع تموج به خلالها صور الرائيين تضطرب
سبائك صبها الإبداع فارتسمت روائع الفن فيها الحسن منسكب
يدنو الخيال لها يوماً لينعتها وصفاً فيرع منكوساً وينقلب
أدلت بها يد فنان منقمة تعنو لروعتها الأجيال والحقب
ملء الجوانح ملء العين رهبتها ومربض الليث غاب ملؤه رهب

● العالم الجليل السيّد محمّد جمال الهاشمي:

□ أبا الحسين

خشعت يهلل حبّها ويكبر روح تموت على ولاك وتحشر
أنى نظرت أراك ترقب نظرتي فكأن عيني في وجودك تنظر
هذا جمالك وهو يغمر عالمي حباً تذوب به الحياة وتصهر
في كلّ أونة أراك بصورة تخفي ملامحها علي وتظهر
كالروح تظهرها الحياة وإنما ناموسها بظهورها يستتر
قسماً بحبك وهو أقدس ما به أزهو على كلّ الوجود وأفخر
ما حاولت نجوى ولاك قريحتي إلا وغص شعوري المتفجر
فإذا نطق فإنّ وحيك ناطق بفمي، وإن أمسكت فيك أفكر
روحي فداك، وسر روحي كامن بك، فالفدا لك منك فضل يؤثر
زدني هوّى تزدد بذاك ذخيري في النشأتين، ومثل حبك يذخر

أبا الحسين، وفي حسينك صورة
عفواً إذا زلَّ الشعور، فموقفي
ناجيتُ حقك وهو نهبُ مطامع
ونظرتُ روحك وهي من لاهوتها
وقفوا وسرت مع الخلود، وهكذا
ولأنت أقدرُ لو أردت إمارةً
ولك المواقف لا يغيب شعاعها
يزهو بها بدرٌ، ويفخر خندق
وشواهد نبوية ما كررت
ولتلك أوسمة إذا ما قوبلت

فيها ملامحك الكريمة تسفر
يعفني به زلل الشعور ويغفر
محمومة فيها الكرامة تهدر
تستعرض المتكالبين فتسخر
تبقى الحقيقة، والسفاسف تقبر
منهم، وأثبت في الجهاد وأخبر
أبداً، ولا أطيابها تستغور
ويشيعها أحدٌ، ويهتف خير
في محضرٍ، إلا وفاح المحضر
بالشمس راح جلاها يتكور

● السيد مصطفى جمال الدين:

سيدي أيها الضمير المصفي
لك مهوى قلوبنا وعلى ذا
نحن عشاقك الملحون في العش
نحن نهواك لا لشيء سوى أنك
ومفاتيح من علوم حباها
ضرب الله بين وهجيكما حدّاً
وإذا الشمس أذنت بمغيب

والصراط الذي عليه نسيرُ
دك نُربي عقولنا ونمير
ق وإن هام في هواك الكثيرُ
من أحمد أخ ووزيرُ
لك إذ أنت كنزها المذخورُ
فأنت المنار وهو المنيرُ
غطت الكون من سناها البدورُ

● بولس سلامة، من ملحنته التاريخية الكبرى (عيد الغدير):

سمع الليل في الظلام المديد
من خفي الآلام والكبت فيها
حرّة لزهها المخاض فلاذت

همسة مثل أنة المفؤود^(٤)
ومن البشر والرجاء السعيد
بستار البيت العتيق الوطيد

كعبة الله في الشدائد تُرجى
لا نساء ولا قوابل حَفَّتْ
يذر الفقر أشرف الناس فرداً
أينما سار واكْبَتَتْه جباة
صبرت فاطم على الضيم حتّى
وإذا نجمة من الأفق خَفَّتْ
وتدانت من الحطيم وقرّت
تسكب الضوء في الأثير دفيقاً
واستفاق الحمام يسجع سجعاً
بَسَمَ المسجد الحرام حبوراً
كان فجران ذلك اليوم فجرٌ
هالت الأم صرخة جال فيها
دعت الشبل حيدراً وتمنّت
أسداً سَمّت ابنها كأبيها
بل علياً ندعوه قال أبوه
ذلك اسم تناقلته الفيافي
يهرم الدهر وهو كالصبح باقٍ

فهي جسر العييد للمعبود
بأبنة المجد والعلا والجلود
والغنيّ الخليع غير فريد
وظهورٌ مخلوقةٌ للوجود
لهث الليل لهثة المكود
تطعن الليل بالشعاع الحديد
وتدلّت تدلّي العُنُقود
فعلى الأرض وابلٌ من سعود
فتهشّ الأركان للتغريد
وتنادت حجاره للنشيد
لنهار وأخرٌ للوليد
بعض شيء من همهمات الأسود
وأكَبَّت على الرجاء المديد
لِبَدَةِ الجَدِّ أهديت للحفيد
فاستفزّ السماء للتأكيد
ورواه الجُلمود للجُلمود
كلّ يوم يأتي بفجرٍ جديد^(٥)

● لبيب بيضون، وقصيدته في فضائل الإمام (عليه السلام) نذكر بعضاً منها:

هو الأمير وساقى الحوض منفرداً

هو الإمام بلا شك ولا ريب

أعداؤه شهدوا بالحق إذ عجزوا

أن ينكروا فضله في كلّ منقلب

قد حاولوا كتمها دوماً وما علموا
أنَّ الروائح ما إن تخفها تطب
وكيف يمكنهم طمساً لشمس ضحى
تختال مشرقاً مشبوبة الذهب
ناراً على علمٍ في كلِّ موقعة
حسامه مشرق الحدين لم يغب
ويوم موقعة الأحزاب ضربته
دكت صروح العدا رأساً على عقب
وفي العبادة ما أحلى تعبده
على الجبين ترى سيماء والركب
إن شئته بطلاً في الحرب متصباً
أو ساجداً تلقه والدمع في سلب
وفي السياسة حكم الله ديدنه
دون الدهاء قرين الكفر والكذب

الهوامش :

- (١) أنظر كتاب الغدير للشيخ الأميني، ونهاية الجزء الأول من كتاب في رحاب أئمة أهل البيت عليه السلام وبداية المجلد التاسع من موسوعة الإمام علي عليه السلام وغيرها.
- (٢) الهيام: الرمل المهيل.
- (٣) طام: حسن عمله.
- (٤) في الغدير: المفقود.
- (٥) وردت هذه الأبيات في الغدير ٦: ٣٧ و ٣٨.

حديث الغدير في ضوء الكتاب واللغة

نوري حاتم

مصادر حديث الغدير:

قبل البحث في دلالات حديث الغدير أجد من الضروري إلقاء نظرة على صيغة الحديث في مصادره عند الشيعة والسنة، ليحصل الاطمئنان بأنه من الأحاديث المتواترة الثابتة في كتب الفريقين، وللتأكيد بأن اللفظ وهو (المولى) الذي نستدل به على جعل الإمامة لعليٍّ عليه السلام من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، موجود في جميع الصيغ الواردة في كتب علماء الفريقين.

حديث الغدير في مصادر أهل السنة:

١ - قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم غدير خم:

«ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجي أمهاتهم؟ فقلنا بلى يا رسول الله. قال: فمن كنت مولاه فعليّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(١).

٢ - وعن زاذان أبي عمر قال: سمعت عليّاً في الرحبة، وهو ينشد الناس: من شهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم غدير خم وهو يقول ما قال.

فقام ثلاثة عشر رجلاً فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: من كنت مولاه فعليّ مولاه»^(٢).

٣ - «إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم غدير خم: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» قال

(ربما الراوي وهو أبو مريم أو غيره) فزاد الناس بعد: **وَالِ مِنْ وَالَاهِ وَعَادِ مِنْ عَادَاهُ**» (٣).

وفيه: **أَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَةُ لَيْسَتْ مِنَ النَّاسِ**، بل هي رواية عن النبي ﷺ عن زيد عن رسول الله في حديث رقم ١٨٥٢٢ في مسند أحمد.

ثم إن هذه الإضافة موجودة في مصادر الحديث الأخرى عند الطائفتين، فلا إشكال في ثبوت صدورهما عن النبي ﷺ، ثم إن مورد الاستشهاد إنما بصدر الحديث أي قوله ﷺ: **«مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِي مَوْلَاهُ»**. وليس بذيله، أي: **(اللَّهُمَّ وَالِ مِنْ وَالَاهِ...)**.

٤ - وعن أبي سرحة أو زيد بن علي عن النبي ﷺ: **«مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِي مَوْلَاهُ»** (٤).

٥ - وقال سعد بن أبي وقاص لمعاوية بن أبي سفيان بعد أن نال الأخير من عليٍّ عليه السلام: **«تَقُولُ هَذَا لِرَجُلٍ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِي مَوْلَاهُ»** (٥).

٦ - «وعن عامر بن سعد عن سعد،

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خُطِبَ فَقَالَ: **أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنِّي وَلِيكُمْ قَالُوا: صَدَقْتَ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ فَرَفَعَهَا ثُمَّ قَالَ: هَذَا وَلِيِّيَ وَالْمُؤَدِّي عَنِّي، وَالِ اللَّهُمَّ مِنْ وَالَاهِ، وَعَادِ اللَّهُمَّ مِنْ عَادَاهِ.**

٧ - وعن عائشة بنت سعد عن سعد قال: **أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِ عَلِيٍّ فَخُطِبَ فَحَمْدُ اللَّهِ وَأَثْنٌ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ فَرَفَعَهَا فَقَالَ: مَنْ كُنْتُ وَلِيَهُ فَهَذَا وَلِيَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لِيُؤَالِ مِنْ وَالَاهِ وَيُعَادِي مِنْ عَادَاهُ»** (٦).

٨ - «وعن عائشة بنت سعد عن سعد أنه قال: **كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، وَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَيْهَا، فَلَمَّا بَلَغَ غَدِيرَ خُمٍ الَّذِي بِخُمٍ وَقَفَ النَّاسُ ثُمَّ رَدَّ مِنْ مَضَى وَلَحَقَهُ مَنْ تَخَلَّفَ فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ بَلَغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ. ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ بَلَغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ ثَلَاثًا (ثُمَّ قَالَ) أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ وَلِيَكُمْ؟**

قَالُوا: **اللَّهُ وَرَسُولُهُ - ثَلَاثًا - ثُمَّ أَخَذَ**

بيد علي بن أبي طالب فأقامه فقال : من كان الله ورسوله وليه فإن هذا وليه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (٧) .

٩ - «روى عثمان بن سعيد عن شريك بن عبد الله ، قال : لما بلغ علياً عليه السلام أن الناس يتهمون به فيما يذكره من تقديم النبي صلى الله عليه وآله وتفضيله إياه على الناس ، قال عليه السلام : أنشد الله من بقي ممن لقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسمع مقاله في يوم غدير خم إلا قام فشهد بما سمع؟

فقام ستة ممن عن يمينه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وستة ممن على شماله من الصحابة أيضاً فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك اليوم وهو رافع بيدي علي : من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله ، وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه» (٨) .

«وفي مكان آخر من كتاب النهج ينقل ابن أبي الحديد هذه القطعة الإضافية «وأنس بن مالك في القوم لم يقم : فقال له يا أنس ! ما يمنعك أن تقوم

فتشهد ولقد حضرتها؟

فقال : يا أمير المؤمنين كبرت ونسيت . فقال : اللهم إن كان كاذباً فارمه بها بيضاء لا توارىها العمامة .

قال طلحة بن عمير : فوالله لقد رأيت الوضع به بعد ذلك أبيض من عينيه» (٩) .

١٠ - «قال صلى الله عليه وآله يوم غدير خم : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (١٠) .

١١ - «وقام النبي صلى الله عليه وآله خطيباً وأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : أأنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟

قالوا : بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله . قال : فمن كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (١١) .

١٢ - وقال النبي صلى الله عليه وآله للمسلمين في عودته من حجة الوداع : «من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (١٢) .

حديث الغدير في كتب الشيعة :

ومن الواضح أن جميع كتب الشيعة التي تعرضت لسيرة النبي صلى الله عليه وآله ، أو

لفضائل علي عليه السلام ومناقبه، أو التي تعرضت لمسائل الإمامة ذكرت حديث الغدير، ونحن هنا نشير إلى بعض ماسجله علماء الشيعة في نقل حديث الغدير كنموذج لذلك :

١ - فلما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع نزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» (١٣). فنادى الناس فاجتمعوا، ثم قال عليه الصلاة والسلام: (يا أيها الناس من وليكم وأولى بكم من أنفسكم؟ فقالوا: الله ورسوله.

فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه - ثلاث مرات - (١٤).

٢ - قال النبي ﷺ: «إني قد دعيت ويوشك أن أجيب، وقد حان مني خفوق من بين أظهركم وإني مخلف فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض.

ثم نادى بأعلى صوته: ألسنت أولى بكم منكم بأنفسكم؟ قالوا: اللهم بلى. فقال: فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله» (١٥).

٣ - وقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): ألا وإني أشهدكم أنني أشهد أن الله مولاي وأنا مولى كل مسلم وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فهل تقرّون لي بذلك وتشهدون لي به؟ فقالوا: نعم، نشهد لك بذلك.

فقال: ألا من كنت مولاه فإنّ عليّاً مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره وأخذل من خذله» (١٦).

٤ - قال النبي ﷺ: من كنت مولاه فهذا علي مولاه» (١٧).

٥ - قال النبي ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه» (١٨).

٦ - قال النبي ﷺ: فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره

واخذل من خذله» (١٩).

وأثبت المحدث هاشم البحراني ٨٨ حديثاً في الغدير من طرق العامة و٣٦ رواية من طرق الشيعة (٢٠).

ولقد أحصى السيد المحقق الطباطبائي في كتابه (الغدير في التراث الإسلامي) ١٦٤ كتاباً صنف حول واقعة الغدير.

معاني حديث الغدير:

وبعد أن ألقينا ضوءاً كافياً على أصل الحديث، واهتمام رواة الحديث وأرباب السنن بنقله، نتناول دلالة حديث الغدير على ثبوت امامة علي بن أبي طالب (عليه السلام) بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)، ونستعرض أهم الشبهات التي أثيرت على ذلك، وحاولت - بعد التسليم بصدور الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) - تفسيره بمعاني لا تساعد عليها اللغة والاستعمال والقرائن العامة التي حقت بالحديث.

استعمال لفظ المولى:

استعملت لفظة المولى في القرآن الكريم في اللغة في معاني عديدة:

١ - فقد وردت بمعنى (الأولى) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ

مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٢١).

واختاره أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه في القرآن (المجاز)، في تفسيره الآية المتقدمة، واستشهد ببيت لبيد:

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها (٢٢)

وقال به الزجاج والفراء أيضاً.

٢ - ووردت بمعنى المتصرف بالأمر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ (٢٣).

قال الفخر الرازي في تفسيره ناقلاً عن القفال:

هو مولاكم: سيدكم والمتصرف فيكم (٢٤).

٣ - وردت بمعنى المتولي في الأمر في تفسير قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٢٥) كما اختاره أبو العباس (٢٦).

٤ - وردت بمعنى الناصر في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى

- لَهُمْ» (٢٧) كما ذكر ذلك الشيخ المفيد رحمته (٢٨) وفسر لفظ المولى بمعنى الولي أيضاً كما عن الحاكم الحسكاني (٢٩).
- ٥ - ووردت بمعنى الوارث كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ...﴾ (٣٠) «وقال السدي: إنّ الموالى بمعنى الورثة وهو أقواها» (٣١).
- ٦ - ووردت بمعنى الصاحب في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣٢) كما اختاره الطبرسي في تفسيره (٣٣).
- ٧ - ووردت بمعنى المالك كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ (٣٤).
- كما أشار إليه ابن الجوزي في تذكرته (٣٥).
- ٨ - وجاءت بمعنى العبد، وقيل: ابن العم (٣٦) في تفسير قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ (٣٧).
- ٩ - ووردت بمعنى ابن العم، قال الفضل بن العباس في ذلك: مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا لا تظهرون لنا ما كان مدفوناً (٣٨).
- ١٠ - ووردت بمعنى الحليف، حيث قال الشاعر:
- موالى حلف لاموالى قرابة
ولكن قطينا يسألون الاتاوى (٣٩)
- ١١ - ووردت بمعنى الربّ ومنه قول القائل:
- «وقد وكلكم إلى المولى الكافي» أي الرب (٤٠).
- ١٢ - ووردت بمعنى السيد، فقد ورد في مجمع البحرين: «وتنكيل المولى بعبده بأن يجذع أنفه» (٤١).
- وقال الخليل الفراهيدي:
- الموالى بنو العم، والموالى من أهل بيت النبي صلّى الله عليه وآله من يحرم عليه الصدقة.
- والمولى: المعتق والحليف والولي (٤٢).
- والولي والمولى يستعملان في ذلك كل واحد منهما، يُقال في معنى الفاعل أي الموالى وفي معنى المفعول أي الموالى

يُقال للمؤمن هو ولي الله ولم يرد مولاه (٤٣).

وقد يُقال: بأنه إذا كان النبي ﷺ أراد أن ينصب علياً إماماً للمسلمين من بعده، فلماذا لم يذكر ذلك بلفظ يكون نصّاً في المعنى، فلا يقع النزاع بعد ذلك؟

والجواب:

إنّ حديث الغدير وما تقدمه من كلام وما تأخر عنه يدل دلالة واضحة على مراد النبي ﷺ في تعيين علياً إماماً بعده، فإذا أمكن النقاش في دلالة حديث الغدير؛ ودعوى عدم وضوحه في إفادة المعنى، فإنه يمكن النقاش في كل نص يرد لا يحتمل معنى آخر غير معنى الإمامة على تقدير صدوره من النبي ﷺ كما ردّ طلب النبي - وهو على فراش الموت - في أن يكتب لهم كتاباً لن يضلوا من بعده أبداً، حيث رفض عمر بن الخطاب ذلك الطلب وقال: إنّ الرجل ليهجر (٤٤) أو غلب عليه الوجع كما روى ذلك البخاري بسنده عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال: أئتوني

بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده قال عمر: إنّ النبي ﷺ غلب عليه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا فاختلفوا وكثر اللغط قال ﷺ: قوموا عني ولا ينبغي عندنا النزاع، فخرج ابن عباس يقول: الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه (٤٥).

وفي رواية أخرى روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فقال النبي ﷺ: هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال بعضهم: إنّ رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله (٤٦).

هذه أهم موارد استعمال لفظة (المولى) التي جاءت في القرآن الكريم وفي كلمات العرب وشعرهم، ولكن علماء الحديث والعقائد ذكروا للفظ المولى معانٍ أخر غير التي ذكرناها، فقد ذكر ابن الجوزي: أن علماء العربية قالوا: إن لفظة المولى ترد على عشرة وجوه وهي:

الأول: المالك، ومنه قوله تعالى:

﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾.

والسادس: الحليف قال الشاعر:

موالي حلف لا موالي قرابة
ولكن قطينا يسألون الاناويا

يقول هم حلفاء لا أبناء عم قال في
الصباح وأما قول الفرزدق:

ولو كان عبد الله مولى هجوته
ولكن عبد الله مولى موالينا

فلأن عبد الله بن أبي إسحاق مولى
الحضرميين، وهم حلفاء بني عبد شمس
ابن عبد مناف، والحليف عند العرب
مولى، وإنما نصب المواليا لأنه رده إلى
أصله للضرورة، وإنما لم ينون مولى لأنه
جعل بمنزلة غير المعتل الذي لا
ينصرف.

والسابع: المتولي لضمان الجريرة
وحيازة الميراث، وكان ذلك في الجاهلية
ثم نسخ بآية المواريث.

والثامن: الجار وإنما سمي به لماله من
الحقوق بالمجاورة.

والتاسع: السيد المطاع وهو المولى
المطلق قال في الصباح: كل من ولي

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا
أَبْكُمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ
عَلَى مَوْلَاهُ﴾.

أي على مالك رقه.

والثاني: بمعنى المولى المعتق بكسر
التاء.

والثالث: بمعنى المعتق بفتح التاء.

والرابع: بمعنى الناصر ومنه قوله
تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا
وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.
أي لا ناصر لهم.

والخامس: بمعنى ابن العم قال
الشاعر:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا
لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

وقال آخر:

هم الموالي حتفوا علينا
وإننا من لقائهم لزور

وحكى صاحب الصباح عن
أبي عبيدة أن قائل هذا البيت عني بالموالي
بني العم، قال: وهو كقوله تعالى:

أمر أحد فهو وليه .

والعاشر: بمعنى الأولى، قال الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي أولى بكم (٤٧).

وقال أبو بكر محمد بن القاسم الانباري في كتابه في القرآن المعروف بـ (المشكل):

«والمولى في اللغة ينقسم إلى ثمانية أقسام:

المنعم، المعتق، والمعتق بالفتح -، والاولى بالشيء والجار، وابن العم، والصهر والحليف، وقد استشهد على كل قسم من أقسام المولى بشيء من الشعر» (٤٨) وجعلها شيخنا الامين (رحمه الله) في غديره سبعة وعشرين معنى (٤٩).

معنى لفظ المولى في لغة العرب:

وهكذا يتضح أن لفظ المولى في اللغة استعمل في عدة معانٍ، ولكن نسأل هل اللفظ موضوع - لغة - لمعنى الأولى، واستعمل في سائر المعاني على نحو المجاز كما في استعمال لفظ الأسد في الرجل الشجاع بمناسبة شجاعته، فيكون الاستعمال فيها مجازاً وفي الأولى على

نحو الحقيقة، أو أن تلك المعاني أيضاً معانٍ حقيقية للفظ المولى، فالاشتراك معنوي، أو أن الاشتراك في اللفظ بنحو الاشتراك اللفظي؟

هل لفظ المولى مشترك لفظي؟

عُرف المشترك اللفظي بـ: «أن يكون اللفظ موضوعاً لمعنيين، أو لمعاني بأوضاع متعددة كلفظ العين للباصرة والحارية والذهب» (٥٠).

وقد عرفه أهل الاصول بعبارة أوضح: «اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل اللغة» (٥١).

ومن الواضح أن لفظ المولى ليس كذلك، إذ معانيه ليست متباينة، إنما فيها معنى مشترك، وإن كان يوجد تفاوت في نسبة صدق المعنى الواحد عليها بنحو سواء، كما أنه من تتبع معاني لفظ المولى يستشعر أن اللفظ لم يوضع لتلك المعاني بنحو الوضع المستقل لكل معنى عن وضعه للآخر.

هل لفظ المولى حقيقة في الأولى مجاز في غيره؟

عرف المعنى الحقيقي بأنه: «استعمال

اللفظ فيما وضع له في الاصطلاح الذي وقع به التخاطب».

وعرف المعنى المجازي بأنه: استعمال اللفظ في غير ماوضع له في أصل تلك المواضع للعلاقة^(٥٢).

وعرف أيضاً بأنَّ المعنى الحقيقي هو: «استعمال الكلمة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب».

أما المجاز فهو: «استعمال الكلمة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب»^(٥٣) والتعريفان متطابقان في المضمون.

وهذا التعريف لا ينطبق على لفظ المولى في معانيه المتعددة، وذلك لأنه كما استعمل في معنى (الأولى) بلا قرينة، كذلك أستعمل في سائر المعاني بلا قرينة أيضاً، مع أن الاستعمال المجازي للفظ لا يصح بلا قرينة، وهذا يدل على أن بقية المعاني هي أيضاً معاني حقيقة للفظ المولى.

هل لفظ المولى مشترك معنوي؟

المشترك المعنوي:

«هو أن يكون اللفظ موضوعاً لمعنى كلي كالإنسان للحيوان الناطق»^(٥٤).
وحيث إنَّ هذا التعريف ينطبق على

لفظ المولى للأدلة التي سنذكرها لاحقاً، يكون لفظ المولى موضوعاً - في اللغة - لمعنى الأولى، غاية الأمر أن الأولوية تختلف في كل مورد عن المورد الآخر فمثلاً النبي ﷺ مولى المؤمنين يعني: هو أولى بهم من أنفسهم في أمورهم، وله الأمر والنهي، وله عليهم حق الطاعة، والمولى بمعنى الوارث، يعني أن الابن أو غيره من الورثة أولى من أي شخص آخر بمال مورثه المتوفى، والمولى بمعنى الناصر، كأن يُقال العباس بن علي مولى الحسين عليه السلام يعني: أن العباس عليه السلام أولى الناس بنصرة الحسين عليه السلام من غيره لمعرفته به، وهكذا يكون معنى الأولوية موجوداً في جميع معاني لفظ المولى مع اختلاف في مصداق الأولوية كما يطلق لفظ إنسان على زيد وعمرو وبكر فإنهم جميعاً يصدق عليهم لفظ إنسان مع اختلاف كل مصداق عن المصداق الآخر ببعض الأمور.

والصحيح هو: أن لفظ المولى مشترك معنوي بدلالة تبادل معنى الأولوية منه رغم تعدد كيفيات الأولوية، وبدليل صحة استعمال لفظ

النبي ﷺ فلا معنى لتخصيص علي عليه السلام بالنصرة عن جماعة المسلمين .
ولا يقصد به ﷺ معنى الحليف ، لأن علياً حليف لجميع حلفاء النبي ﷺ .
وكذلك لا يريد النبي ﷺ من لفظ المولى أن علياً وارث لكل من يرثه النبي ﷺ .

أما معنى المتولي بالأمر والمتصرف فيه ، فإنه لو قصد هذا المعنى فإنه يقصد الأولي ؛ لأن المتولي للأموال والمتصرف فيه إنما يكون للأولي بالتصرف في الأمور ، أي من له حق الأمر والنهي والطاعة ... وكذلك لا يريد النبي ﷺ سائر معاني المولى نظير الصاحب والشريك والرب والجار ويظهر ذلك بأدنى تأمل في سياق الرواية ، وفي القرائن العامة ، فيبقى المعنى الوحيد المحتمل وهو الأولي بالمسلمين من أنفسهم فيجب حمله عليه .

ويدل على أولوية علي عليه السلام بالخلافة من جميع الأنصار والمهاجرين اعتراف هؤلاء بأولوية علي عليه السلام منهم في ذلك ، إلا أنهم طعنوا ذلك ببعض الأمور .
ففي شرح النهج لابن الحديد

الأولى مكان المولى ، فيصح القول : «النبي ﷺ أولى بالمؤمنين» بدل قولنا «النبي ﷺ مولى المؤمنين» ويصح القول : (الاب أولى بالولد) بدل قولنا : (الاب مولى ولده) وهكذا ، وهذا يدل على أن لفظ المولى يعني الأولى .

برهان المعاني الباقية:

ويمكن الاستدلال على أن النبي ﷺ أراد معنى الأولى من لفظ المولى بالقول : إن النبي ﷺ لا يريد بالمولى المعتق أي مالك الرق الذي يملك المولى عبده وله أن يبيعه ويهبه ، إذ ليس كل من ملكه النبي ﷺ ملكه علي . ولا يريد به العبد .
ولا يقصد النبي ﷺ من لفظ المولى (ابن العم) ، لأن من كان ابن عم النبي ﷺ فهو ابن عم علي عليه السلام بلا حاجة إلى تجشم عناء بيان ذلك تحت أشعة الشمس الحارقة وإبلاغ المسلمين بذلك .

وكذلك لا يقصد النبي ﷺ بلفظ المولى (العاقبة) إذ لا معنى له في جملة (فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه) .
ولا يمكن أن يريد به معنى الناصر ؛ لأن المسلمين كلهم أنصار لمن نصره

المعتزلي ورد:

«أن عمر قال: يا ابن عباس أما والله إن صاحبك هذا لأولى الناس بالأمر بعد رسول الله ﷺ، إلا أنا خفناه على اثنين... فقلت: - أي ابن عباس - قال: وماهما يا أمير المؤمنين؟

قال: خفناه على حادثة سنّه، وحبّه بني عبد المطلب» (٥٥).

وفما يلي بعض الشواهد على أن المراد بلفظ المولى في حديث الغدير معنى الأولوية دون غيرها من المعاني:

الشاهد الأول: شعر حسان بن ثابت:

مانظمه حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ بعد فراغ النبي ﷺ من واقعة الغدير، حيث فهم منه حسان أن النبي ﷺ قد نصب علياً عليه السلام ولياً للمؤمنين، وأولى بهم من أنفسهم كما أن النبي ﷺ كذلك - أي ولي بالمسلمين من أنفسهم - حيث إن حسان بن ثابت استأذن النبي ﷺ أن يقول شعراً في الواقعة، فأذن له النبي ﷺ فأنشد أبياتاً منها:

فقال له قم يا علي فإنني

رضيتك من بعدي إماماً وهادياً

«ويروى أن النبي ﷺ قال لحسان بعد أن فرغ من شعره: لا تزال مؤيداً بروح القدس مانصرتنا أو نافحت عنا بلسانك» (٥٦).

وكذلك ما قاله الصحابي الجليل قيس بن سعد بن عبادة الانصاري:

وعلي إمامنا وإمام لسوانا أتى به التنزيل يوم قال النبي من كنت مولاه فهذا علي خطب جليل (٥٧)

الشاهد الثاني: كلام ابن منظور

الديلمي

قال: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي (إمام الكوفيين في النحو واللغة والادب) في كتاب (معاني القرآن): الولي والمولى في كلام العرب واحد وفي قراءة عبدالله بن مسعود: «إنما مولاكم الله ورسوله مكان وليكم» (٥٨) وإنما يكون الولي ولياً، إذا كان أولى من كل أحد في الأمر والنهي والطاعة من قبل الآخرين.

الشاهد الثالث: كلام ابن الجوزي

مانقله ابن الجوزي:

«قال أحمد في الفضائل: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا حبيش بن الحرث بن لقيط النخعي عن رياح بن الحرث قال: جاء رهط إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقالوا: السلام عليك يا مولانا وكان بالرحبة فقال: كيف أكون مولاكم وأنتم قوم عرب؟

قالوا: سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غدير خم: من كنت مولاه فعلي مولاه. قال رياح: فقلت: من هؤلاء؟ فقل: نفر من الانصار فيهم أبو أيوب الانصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله (٥٩).

الشاهد الرابع: تهنئة عمر بن الخطاب عليه السلام

ما ورد عن الخليفة الثاني أنه قال لعلي بعد حديث الغدير: «هنيئاً يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة» (٦٠).

ومن الواضح أنّ عمر لا يريد أن علياً أمسى ناصراً أو محبباً لكل مؤمن ومؤمنة، إذ هذا المعنى صادق على

الصحابة الأخيار (رض) بل يريد ثبوت الولاية له من قبل النبي صلى الله عليه وآله، لأن هذا المعنى هو الذي يستحق التهنئة عليه إذ مجرد الحب والنصرة لا يوجب تهنئة الشخص عليها، فلا بد أن يكون المراد بالمولى هو المعنى العظيم لها وهو الأولوية والامامة على المسلمين، وهو المعنى الذي يستوجب التهنئة عليه، وإن كان في الحقيقة مسؤولية عظيمة.

الشاهد الخامس: احتجاج علي عليه السلام بحديث الغدير:

احتجاج علي عليه السلام على جماعة الشورى بعد وفاة عمر بن الخطاب، حين رأهم قد عزموا على مبايعة عثمان، حيث قال لهم عليه السلام:

«نشدتكم بالله هل منكم أحد نصبه رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم بأمر الله تعالى فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه غيري؟ قالوا لا.» (٦١).

فقد استشهد علي عليه السلام بهذا الحديث على أنه أولى من غيره (عثمان وغيره) بمقام الولاية، وليس هذا إلا أنّ حديث

الغدير يدل على ذلك، وأنَّ النبي ﷺ نصبه إماماً للمسلمين في يوم الغدير.

المخاض الأخير:

وهكذا يتضح أن لفظ المولى من المشترك المعنوي، وأن معناه (الأولى) محفوظ في جميع مصاديقه المتعددة.

ولكن حتى لو قلنا - مع القائلين - بأن لفظ المولى من المشترك اللفظي، وأنه يحتمل أن يراد به معنى الناصر، أو المحب، أو أحد المعاني الأخر غير معنى (الأولى)، فإننا يمكن أن نبرهن على أن لفظ المولى في كلام النبي ﷺ في حديث الغدير استعمل في خصوص المعنى الاول وهو: (الأولى) دون سائر المعاني، وذلك بقرائن كثيرة نذكرها فيما يلي:

القرينة الاولى: دلالة المقدمة على المعنى

لا شك في أن حديث الغدير قد بدأه النبي ﷺ بمقدمة استفهامية هي:

«ألمست أولى بكم من أنفسكم» (٦٢)

ثم قال ﷺ بعدها: «فمن كنت مولاه فعلي مولاه» وفي ضوء ذلك نقول: لا شك في أن الأولى في المقدمة يراد به الأولى في الطاعة، وحق الأمر والنهي

للنبي ﷺ على الأمة بالدليل النقلى والعقلى، فلا بد أن يريد النبي ﷺ من لفظ المولى في قوله: من كنت مولاه فعلي مولاه، المعنى الثابت في المقدمة أي الأولى، دون سائر المعاني للمولى، حيث جرت عادة اللغة على تفسير اللفظ الذي يحتمل معاني متعددة، والمعطوف على نفس اللفظ السابق عليه، والذي هو ظاهر في معنى محدد من المعاني الكثيرة بالمعنى السابق، والذي عطف عليه اللفظ الذي يحتمل معاني متعددة، فمثلاً لو قال المتكلم: (بعت كتابي إلى عمي زيد) ثم قال بعد ذلك متصلاً: (وعمي موجود الآن في بيتي)، فإن العم في الجملة الثانية يحتمل أنه أراد به العم الذي اشترى الكتاب ويحتمل أن يريد عمّاً آخر، وحيث إن المتكلم عطف الجملة الثانية على الأولى حيث قال:

(بعت كتابي إلى عمي زيد وعمي موجود في بيتي) فإن العرف يفهم أن العم الموجود في البيت هو نفس العم الذي اشترى الكتاب أي هو زيد، وإن كان يحتمل أن يريد بالعم في الجملة

ينصب علياً للناس ليخبرهم بولايته فتخوف رسول الله أن يقولوا حاباً ابن عمه يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله إليه: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك... فقام رسول الله ﷺ بولايته يوم غدير خم» (٦٥).

وقال علي بن إبراهيم: «إن هذه الآية «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...» نزلت في علي عليه السلام (٦٦).

وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في حق علي عليه السلام في غدير خم، فقد نقل المالكي في الفصول المهمة عن الإمام أبو الحسن الواحدي في أسباب النزول رفعه إلى أبي سعيد الخدري أن هذه الآية نزلت يوم غدير خم في علي ابن أبي طالب، ورواه صاحب فتح القدير عن ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري، وكذلك في تفسير الدر المنثور للسيوطي (٦٧) ومع هذا فإن السيوطي في لباب المنقول في أسباب النزول قال: أخرج الحاكم والترمذي عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت

الثانية عمّا آخر غير زيد الذي اشترى الكتاب، وكذلك لو قال: مطرت السماء البارحة مطراً عظيماً؛ وأنا احتفظت بشيء من ماء المطر، فإن العرف يفهم أن ما احتفظ به من ماء المطر هو من مطر البارحة، وإن كان يحتمل أنه احتفظ بماء مطر اليوم الماضي أو الشهر الماضي، والحق أن مثل هذا الاحتمال بعيد جداً.

القرينة الثانية: آية التبليغ

حدث الحافظ الكبير الحسكاني الحنفي النيسابوري بسنده المتصل إلى ابن عباس في قوله عز وجل: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» (٦٣) إنها نزلت في علي.

أمر رسول الله أن يبلغ فيه فأخذ رسول الله بيد علي فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (٦٤).

وحدث الحافظ الحسكاني بسنده إلى أبي صالح «عن ابن عباس وجابر ابن عبد الله قالا: أمر الله محمداً أن

قال أبو هريرة: وهو يوم غدیر خم، من صام كتب الله له صيام ستين شهراً» (٦٩).

القرينة الرابعة:

قال رسول الله ﷺ قبل فقرة إثبات المولوية لعلی عليه السلام: كَأَنِّي دَعَيْتُ فَأُجِبتُ، أو أَنَّهُ يَوْشِكُ أَن أَدْعِي فَأُجِيبُ (٧٠) ثم قال عليه السلام: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فإن تلك المقدمة تلقي ضوءاً على غرض الرسول ﷺ من لفظ المولى، وتعين أن المراد به معنى يرتبط فيما بعد وفاته ﷺ ومن الواضح أن هذا المعنى هو إمامة علي عليه السلام وولايته على أمتة من بعده.

المولى ترادف الولي:

وقد تثار شبهة وهي: حتى لو اتفقنا على أن معنى المولى هو الأولي، لكن الأولي لا تعني الولي. فلو كان النبي ﷺ قد قال: «فمن كنت وليه فعلي وليه» لكان هذا اللفظ يدل على أن النبي ﷺ جعل علياً إماماً للمسلمين بعده. والجواب:

أولاً: إذا كان إطلاق لفظ الولي على علي عليه السلام يرفع الشبهة، فإن القرآن الكريم أنزل في حق علي مدحاً ووصفه

هذه الآية «والله يعصمك من الناس» فأخرج رأسه من القبة فقال: يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله. في هذا الحديث دليل على أنها... أي الآية ليلية فراشية!! أي والرسول في فراشه» (٦٨).

ولم تذكر عائشة (رض) شيئاً عن الشرط الأول من الآية، ولا عن الشيء المهم الذي إذا لم يبلغه النبي ﷺ فكأنه لم يبلغ شيئاً!! وكأن الآية الواحدة نزلت شطرين!.

القرينة الثالثة: آية إكمال الدين

روى الخطيب البغدادي بسنده عن أبي هريرة، قال: «لما أخذ رسول الله ﷺ بيد علي بن أبي طالب فقال: أأنت أولى بالمؤمنين؟ قالوا: نعم يارسول الله.

قال: فأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه. فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مسلم.

قال: فأنزل الله عز وجل «اليوم أكملت لكم دينكم».

بأنه ولي المسلمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(٧١).

فقد روى الحافظ الكبير النيسابوري بسنده إلى ابن عباس: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: نزلت في علي بن أبي طالب^(٧٢) وبسنده عن عطاء بن السائب: «إنما وليكم الله ورسوله قال: في علي مرّ به سائل وهو راع فنأوله خاتمه»^(٧٣).

وإن قيل: إنّ لفظ الذين آمنوا عام فكيف خصصت في علي؟ قيل: «ان الروايات متكاثرة من طرق الشيعة وأهل السنة على أن الآيتين نازلتان في أمير المؤمنين بما تصدق بخاتمه وهو في الصلاة، فالإيتان خاصتان غير عامتين»^(٧٤).

وثانياً: أن لفظ المولى والولي معناهما واحد «فقد قال الفراء في كتاب معاني القرآن: الولي والمولى في كلام العرب واحد في قراءة عبد الله بن مسعود: (إنما مولاكم الله ورسوله) مكان وليكم»^(٧٥).

ومع كل ذلك فقد كتب عباس محمود العقاد - وهو يتحدث عن علاقة النبي ﷺ بعلي -:

إن النبي ﷺ كان «يحبه ويمهد له وينظر إلى غده، ويسره أن يحبه الناس كما أحبه، وأن يحين الحين الذي يكون فيه أمورهم إليه....

وكل ماعدا ذلك، فليس بالممكن وليس بالمعقول... ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة... وليس بالممكن أن يحبها له، وينسى في سبيل هذا الحب حكمته الصالحة للدين والخلافة.

وإذا كان قد رأى الحكمة في استخلافه، فليس بالممكن أن يرى ذلك، ثم لا يجهر به في مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع...

وإذا كان قد جهر به، فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان وصيته وعصيان أمره. أنهم لا يريدون ذلك مخلصين، وأنهم إن أرادوه لا يستطيعون بين جماعة المسلمين، وإنهم إن استطاعوا لا يخفى شأنه ببرهان مبين، ولو بعد حين...

عن دلالتة الثابتة له بموجب اللغة :
التفسير الأول: شكاية أهل اليمن
على علي عليه السلام

إنَّ المراد من لفظ (المولى) هو
الناصر أو المحب، وذلك الحديث صدر
عن النبي صلى الله عليه وآله بعد شكاية أهل اليمن علياً
إلى رسول الله صلى الله عليه وآله : «ويرشد بذلك أنه
أشاد في خطابه بعلي خاصة فقال: من
كنت وليه فعلي وليه وبأهل البيت عامة
فقال صلى الله عليه وآله : إني تارك فيكم الثقلين
كتاب الله وعترتي أهل بيتي فكان
كالوصية لهم بحفظه في علي بخصوصه
وفي أهل بيته عموماً وقالوا: ليس
فيها - أي بالوصية وفي حديث الغدير -
عهد بخلافة ولا دلالة على إمامة» (٧٨).

نقل الواقعة:

ومن المفيد أن ننقل أولاً الواقعة من
سيرة ابن هشام ثم نعلق عليها:

«قال ابن إسحاق: وحدثني يحيى بن
عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة،
عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن ركانة
قال: لما أقبل علي رضي الله عنه من
اليمن ليلقي رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة تعجّل إلى
رسول الله صلى الله عليه وآله واستخلف على جنده

فكل أولئك ليس بالممكن، وليس
بالمعقول (٧٦) ولا أدري هل جعل الولاية
لعلي (٧٧) بنص النبي صلى الله عليه وآله من قبيل إجتماع
النقيضين، أو الضدين حتى يكون ذلك
غير ممكن وغير معقول!

وإذا كان جعل الإمامة لعلي ليس
فيه استحالة عقلية، فلماذا لا يمكن أن
يجعله النبي صلى الله عليه وآله لعلي، وهو المعروف
بسابقته وقربه وجهاده وإخلاصه
وعلمه وشجاعته؟ فلماذا لا يمكن أن
يجعله النبي صلى الله عليه وآله ولياً للمسلمين بعده،
وهل القرب من النبي صلى الله عليه وآله يوجب
حرمانه من مقام يستحقه دون سائر
الأصحاب، أو القرب من النبي موجب
للفضيلة كما استدل أبو بكر على
الأنصار بأن الخلافة في قريش، لأنهم
أقرب للنبي صلى الله عليه وآله من الأنصار؟

بعد الذي عرفت من وضوح أن لفظ
المولى معناه (الأولى) أو على أقل تقادير
أن النبي صلى الله عليه وآله استعمله في هذا المعنى
للقرائن اللفظية والمقامية التي حفت
بالحديث بعد ذلك. نذكر عدة تفسيرات
أخرى لحديث الغدير تستهدف تجريده

عليّ، وأنه يغضب لله، وأنه قوي من ذات الله تعالى، ولا أدري لماذا لم ينقل كلام النبي ﷺ في حق علي في تلك القصة؟!

ردّ التفسير الأول:

إن قصة أهل اليمن لا يمكن جعلها قرينة على حمل لفظ (المولى) على الناصر، أو المحب وماشاكل وذلك:

أولاً: أن أهل الشكاية إنما شكوا علياً إلى رسول الله ﷺ قبل التاسع من ذي الحجة، وواقعة غدير خم في يوم الثامن عشر منه، فالذي ينبغي لو كان الدافع إلى حديث الغدير هو تلك الواقعة أي يأتي مدح علي بذلك الحديث في وقت وقوعها، كما قال النبي ﷺ عقيب الشكاية في رواية ابن هشام:

«يا أيها الناس لا تشكوا علياً فوالله إنه لأخشن في ذات الله» أو في سبيل الله من أن يشكى».

ولم يتكلم النبي ﷺ بكلام آخر غير هذا. وثانياً: أن مدح النبي ﷺ لعليّ إذا كان على أثر هذه الواقعة ينبغي أن يكون مناسباً مع المقام، كما قال ﷺ:

الذين معه رجلاً من أصحابه، فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل من القوم حُلّة من البرّ الذي كان مع عليّ رضي الله عنه. فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم، فإذا عليهم الحُلل قال: ويلك اما هذا؟ قال: كسوت القوم ليتجملوا به إذا قدموا في الناس، قال: ويلك! انزع قبل أن تنتهي به إلى رسول الله ﷺ. قال: فانزع الحُلل من الناس، فردّها في البرّ، قال: وأظهر الجيش شكواه لما صُنِعَ بهم» (٧٩).

والغريب أن صاحب كتاب المغازي محمد بن عمر بن واقد، نقل القصة بتمامها، ثم كتب: «أن النبي ﷺ دعا علياً فقال: ما لأصحابك يشكونك؟ فقال: ما أشكيتهم؟ قسمت عليهم ما غنموا وحبست الخمس حتى يقدم عليك، وترى رأيك فيه، وقد كانت الأمراء يفعلون أموراً: يُنفلون من أرادوا الخمس، فرأيت أن أحمله إليك لترى فيه رأيك فسكت النبي ﷺ» (٨٠).

ولم يذكر الواقدي ما قاله النبي ﷺ تعليقاً على شكاية أهل اليمن، والذي ذكره ابن هشام في سيرته من مدح

(إنه لأخشن في ذات الله) وما شاكل ذلك، ومن الواضح أن حديث الغدير وما حفّ به من قرائن وعلائم قرن فيه النبي ﷺ بين العترة والكتاب، وجعل علياً مولياً للمسلمين كما أنه ﷺ مولى لهم، وهذا يناسب جعل علي ﷺ اماماً على الأمة، ولا يريد ﷺ أن يدفع عن علي ﷺ اتهامات أهل اليمن إنما يريد إثبات مقام عظيم له، وهو مقام الإمامة بعده ﷺ.

وثالثاً: وقع خلط في تاريخ الشكاية على علي ﷺ، إذ إن النبي ﷺ بعث علياً إلى اليمن مرتين: الأولى في السنة الثامنة، والأخرى في السنة العاشرة من الهجرة، والذي نقل في كتب التاريخ أن الشكاية على علي ﷺ إنما كانت في البعث الأول أي السنة الثامنة الهجرية وليس في البعث الثاني أي: السنة العاشرة الهجرية، فقد روي أنه بعث رسول الله بعثين إلى اليمن، على أحدهما علي بن أبي طالب، وعلى الآخر خالد بن الوليد، فقال: إذا التقيتم فعلي على الناس، وإن افرقتم فكل واحد منكما على جنده، قال: فلقينا بني زيد من

أهل اليمن، فاقتتلنا فظهر المسلمون على المشركين، فقتلنا المقاتلة، وسببنا الذرية، فاصطفى علي امرأة من السبي لنفسه، وقال بريدة: فكتب معي خالد إلى رسول الله ﷺ، يخبره بذلك، فلما أتيت النبي ﷺ دفعت الكتاب، فقرأ عليه، فرأيت الغضب في وجهه، فقلت: يا رسول الله هذا مكان العائد، بعثني مع رجل وأمرتني أن أطيعه، ففعلت ما أرسلت به، فقال رسول الله ﷺ: لا تقع في علي فإنه مني، وأنا منه، وهو وليكم بعدي وأنه مني وأنا منه، وهو وليكم بعدي» (٨١).

التفسير الثاني: الحديث جواب لأسامة بن زيد:

ونقل بعض أن حديث الغدير إنما قاله النبي ﷺ على أثر نزاع شخصي بين أسامة بن زيد وبين علي ﷺ حيث قال إسامة لعلي ﷺ: لست مولاي إنما مولاي رسول الله ﷺ فقال ﷺ: بعد أن سمع بالنزاع: «من كنت مولاه فعلي مولاه» (٨٢).

والجواب:

أولاً: إن أراد أسامة أن علياً ليس

مولاه، بمعنى ليس أولى به من نفسه، وأنه ليس كالنبي ﷺ، وقبل أن يثبت النبي ﷺ إمامة علي على المسلمين. فإن هذا المعنى صحيح؛ لأن النبي ﷺ بعد لم يجعل الولاية (الظاهرة) حسب الفرض إذ إن النبي ﷺ بعد لم ينطق بذلك الكلام. وإن أراد به أن النبي ﷺ فقط سيده وأسامة عبد للنبي ﷺ وأن علياً ليس سيده فمن الواضح أن أسامة ليس عبداً رقا للنبي ﷺ أو لعلي. وإن أراد أنه يطيع النبي ﷺ فقط ولا يطيع علياً ﷺ أو غيره، فمن الواضح أن علياً ﷺ لم يتأمر على أسامة ولم يتأمر على أحد إذا لم يؤمره رسول الله ﷺ.

وثانياً: حتى لو فرضنا أن منشأ كلام النبي ﷺ في حديث الغدير المرتبط بعلي ﷺ هو النزاع الذي وقع بينه وبين أسامة، فإن ذلك لا يوجب صرف معنى (المولى) عن معناه الظاهر فيه وهو الأولى إلى غيره، بل لعل هذا النزاع وكلام النبي ﷺ عقيبته؛ يؤكد مولوية علي ﷺ على أسامة وغيره قبل يوم الغدير وبعده!! إذ معناه أن أولوية علي ثابتة على أسامة حين النزاع وأن أسامة

تجاوز حده في رعاية حق علي ﷺ. التفسير الثالث: حديث الغدير كان جواباً لبريدة:

أخرج أحمد بن حنبل في مسنده عن بريدة قال: غزوت مع علي الين فرأيت منه جفوة^(٨٣) فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت علياً فتنقصته فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغير فقال ﷺ: يا بريدة! ألسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه^(٨٤).

والجواب:

أولاً: ماتقدم سابقاً من أنه لم ترد شكوى على علي في بعثه الثاني إلى الين، إنما الشكاية كانت في البعث الأول أي السنة الثامنة، وحديث الغدير في السنة العاشرة من الهجرة، فلا يمكن أن يكون حديث الغدير جواباً لشكاية بريدة على علي ﷺ التي تقدمت قبل عامين.

وثانياً: حتى لو سلمنا: أن قوماً، أو بريدة شكى علياً إلى النبي ﷺ عند العود من بعثه إلى الين، فإن ذلك لا

يوجب صرف معنى المولى إلى غير معناه الثابت أي: أولوية علي عليه السلام بالمؤمنين من أنفسهم كما هي ثابتة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، نعم لو كان النزاع والشكاية قرينة لفظية تصحيح صرف لفظ (المولى) عن معناه وهو الأولى إلى معنى آخر من معانيه المتعددة لأمكن رفع اليد عن معنى الأولى المدلول للفظ المولى، ولكن من الواضح أن مجرد النزاع والشكاية على علي عليه السلام ليست قرينة لفظية توجب صرف اللفظ عن معناه.

التفسير الرابع: علي الأولى بالترتيب

وقيل: حتى لو اتفقنا مع الشيعة بأن لفظ مولى يعني الأولى، لكن إنما يصح الاستدلال بالحديث على إمامة علي عليه السلام على تقدير القول بأن الأولى هنا لا يراد به الأولى بالترتيب والتفضيل والاحترام، وإنما يراد به الأولى من أنفسهم في أمرهم ونهيهم وتدريب أمورهم وشؤون حياتهم، ولكن إذا قلنا بأن المراد بالأولى هنا هو الأولى بالتعظيم والاحترام، فإن ثبوت هذه الأولوية لعلي عليه السلام لا يساوق ثبوت

الإمامة له. ويرد عليه: أولاً: أن الظاهر من الأولى عند استعمالها مطلقاً - أي من غير قرينة لفظية أو مقامية - أن المتكلم يريد الأولى بأن يأمر وينهي فإن أضيفت الأولى إلى الغير؛ وقيل مثلاً: الحاكم أولى من رعيته، فإن المراد به أن الحاكم أولى من الرعية في الأمر والنهي وإدارة أمورهم، وهذا المعنى يساوق معنى الإمامة.

وثانياً: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صَدَّر كلامه بقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلَسْتُ بِأَوَّلَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْفُسِهِمْ؟» ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك: «فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ مِنْ وَآلِهِ وَعَادٍ مِنْ عَادِهِ».

وهذا الصدر في كلام النبي فيه دلالة على أن المراد بالأولوية الثابتة لعلي في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ». إنما هي الأولوية التي تناظر الأولوية الثابتة له صلى الله عليه وآله وسلم وصرح بها في صدر كلامه، إذ المفروض أن جملة «فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ» معطوفة على صدر كلامه صلى الله عليه وآله وسلم الذي ثبتت فيه أولويته

على المؤمنين من أنفسهم، فيكون صدر الكلام دالاً على الأولوية الثابتة، وأنها كأولوية النبي ﷺ.

التفسير الخامس: علي عليه السلام إمام بعد البيعة:

يرى ابن حجر في الصواعق أن علياً عليه السلام أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وله عليهم حق الأمر والنهي والطاعة، إنما ذلك بعد البيعة له - أي بعد الخليفة الثالث - وإلا لكان أولى بالطاعة والأمر والنهي في حياة النبي ﷺ، وهذا مما لا يمكن الالتزام به (٨٥).

والجواب:

أولاً: أن هذا المعنى للحديث - أي أن علياً سيكون إماماً أولى بالمسلمين من أنفسهم بعد عقد البيعة - يعني أن علياً ليس مولى للذين ماتوا قبل البيعة له في خمسة وثلاثين من الهجرة، وهذا ينافي عموم مولوية علي عليه السلام لجميع المسلمين، سواء الذين ماتوا قبل البيعة لعلي والذين عاشوا بعدها.

ثانياً: أما ما قيل: بأنه لو حملنا الحديث على فعلية الإمامة لا الصلاحية أو الشأنية، فهذا مما يتنافى مع فعلية

أولوية النبي ﷺ بالأمر والنهي والطاعة، فإن ذلك صحيح لو قلنا بأن المراد بإمامة علي إمامة مستقلة في عرض وجود النبي ﷺ؛ ونحن لا نقول ذلك بل إنما نرى أن ولاية علي عليه السلام في طول ولاية النبي على الأمة وفي امتدادها، وليس في عرضها.

وثالثاً: لو كان مفاد حديث الغدير هو: أن علياً له حق الأمر والنهي والطاعة على الأمة وأنه أولى بالمسلمين من أنفسهم ولكن بعد البيعة، فإن هذا المعنى يشترك فيه كل من يظفر بالبيعة على وفق النظرية السياسية للمذاهب الأربعة السنية، فإن كل شخص تبايعه الأمة يكون أولى بالمسلمين من أنفسهم بعد البيعة، فلا يتميز علي عليه السلام بشيء، ولا معنى أيضاً لكلام النبي ﷺ في حديث الغدير، وحاشاه عن ذلك، لأنه يريد فقط أن يقول: إذا بايعت الأمة علياً فهو صالح للإمامة، فيكون معنى كلام النبي ﷺ وحاشاه: لو صار علياً إماماً فهو صالح للإمامة!!!

وهذا المعنى صادق على كل شخص تبايعه الأمة للإمامة - بل هذا على وفق

القبيل لكان النبي ﷺ أولى من غيره بدرك تلك المصلحة، ولاقتضت تلك المصلحة تسمية الخليفة الأول لإمامة الأمة بعد النبي ﷺ من أجل استيفاء تلك المصلحة... وتكون تسمية علي بأنه مولى المسلمين بمعنى أنه إمام المسلمين فعلاً قبيحاً يتنزه النبي ﷺ عن فعله.

وثانياً: إنا نعتقد بأن تنحية علي عليه السلام عن مقامه فتح على الأمة ألوان المحن والبلوى، حيث افترق المسلمون إلى طوائف وفرق تتناصر على السلطان والمال كالجاهلية الأولى. وأية محنة وبلوى أكبر من هذه التي وقع فيها المسلمون نتيجة تنحية علي عليه السلام عن مقامه.

المذهب السياسي لأهل السنة - يكون عبثاً في الكلام، والنبي ﷺ يتنزه عن ذلك، فما هي ميزة علي عليه السلام عن الآخرين حتى يخصه النبي بذلك الخطاب تحت الشمس الحارقة، ولماذا هذه الآيات التي نزلت بلزوم التبليغ، ولماذا نزلت آية إكمال الدين بعد حديث الغدير؟! التفسير السادس: تقديم المفضل

على الفاضل:

وهذا التفسير ما يستظهر من كلمات المعتزلة الظاهرة في التسليم بأن علياً أفضل الصحابة، وبالتالي هو أولى بمقام الإمامة لو لم تقم مصلحة تستوجب تقديم غيره عليه.

والجواب:

أولاً: لو كانت ثمة مصلحة من هذا

الهوامش:

- (١) مسند أحمد، رقم الحديث ٩١٥.
- (٢) مسند أحمد، رقم الحديث ٩٠٦.
- (٣) مسند أحمد، رقم الحديث ١٢٤٢.
- (٤) مسند الترمذي، كتاب المناقب - رقم الحديث ٣٦٤٦.
- (٥) سنن بن ماجه، رقم الحديث ١١٨.
- (٦) خصائص الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: ١٧٦ حديث رقم ٩٥ و ٩٤.

- (٧) ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق ٢: ٥٣.
- (٨) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٨٧.
- (٩) شرح نهج البلاغة ٤: ٤.
- (١٠) الصواعق المحرقة: ١٢٢.
- (١١) تاريخ اليعقوبي ٢: ١١٢.
- (١٢) المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين، المجلد الرابع: الخلفاء الراشدون: ٤٤٣.
- (١٣) سورة المائدة: ٦٧.
- (١٤) الأصول من الكافي ١: ٢٩٥.
- (١٥) الارشاد، للمفيد: ٩٤.
- (١٦) الخصال: ١٦٦ حديث رقم ٩٨.
- (١٧) كمال الدين وتمام النعمة: ١٠٣.
- (١٨) التوحيد: ٢١٢ - باب أسماء الله تعالى.
- (١٩) معاني الاخبار: ٦٣ حديث رقم ١.
- (٢٠) راجع كتاب كشف المهم في طريق خبر غدير خم.
- (٢١) سورة الحديد: ١٦.
- (٢٢) الشافي ٢: ١٧٧.
- (٢٣) سورة الحج: ٧٨.
- (٢٤) تفسير الرازي ٦: ٢١٠.
- (٢٥) سورة محمد: ١١.
- (٢٦) الغدير ١: ٣٦٧.
- (٢٧) سورة محمد: ١١.
- (٢٨) عدة رسائل: ١٨٦ للشيخ المفيد.
- (٢٩) شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ٢: ١٧٤.
- (٣٠) النساء: ٣٣؛ راجع تفسير الميزان ٤: ٣٦٣.
- (٣١) التبيان في تفسير القرآن ٣: ١٨٦.
- (٣٢) سورة الدخان: ٤٢.
- (٣٣) مجمع البيان ٩: ١٠١.
- (٣٤) سورة النحل: ٧٦.
- (٣٥) تذكرة الخواص: ٣٧.
- (٣٦) مجمع البيان ٧: ٥٢٨.

- (٣٧) سورة الاحزاب: ٥.
- (٣٨) التبيان في تفسير القرآن ٣: ١٨٧.
- (٣٩) تذكرة الخواص: ٣٨.
- (٤٠) البداية والنهاية ٦: ٣٣٤.
- (٤١) مجمع البحرين ٤: ٣٧٣.
- (٤٢) كتاب العين ٨: ٣٦٥، للخليل الفراهيدي.
- (٤٣) مفردات غريب القرآن: ٥٢٣.
- (٤٤) على ما أخرجه أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة كما روى ذلك ابن أبي الحديد ٢: ٢٠، طبعة مصر راجع كتاب الفصول المهمة في تأليف الأمة، للسيد شرف الدين: ١٠٥.
- (٤٥) صحيح البخاري ١: ٣٧.
- (٤٦) صحيح البخاري ٥: ١٣٧.
- (٤٧) تذكرة الخواص: ٣٧ - ٣٨.
- (٤٨) الشافي ٢: ١٨١.
- (٤٩) راجع الغدير ١: ٣٦٢.
- (٥٠) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ١: ١١٨.
- (٥١) هامش كتاب مبادئ الوصول إلى علم الأصول عن كتاب المزهري ١: ٣٦٩.
- (٥٢) مبادئ الوصول إلى علم الأصول: ٧٦.
- (٥٣) تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبدیع: ٢٦٢.
- (٥٤) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ١: ١١٨.
- (٥٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ٢٠.
- (٥٦) تذكرة الخواص: ٣٩.
- (٥٧) الغدير ١: ٣٤٠. وراجع كتاب (خصائص الأئمة) للشريف الرضي: ٤٣.
- (٥٨) تلخيص الشافي ٢: ١٨٠.
- (٥٩) تذكرة الخواص: ٣٦، وراجع شرح ابن أبي الحديد ٣: ٢٠٨.
- (٦٠) مسند أحمد، حديث رقم ١٧٧٤٩.
- (٦١) الاحتجاج ١: ١٣٦.
- (٦٢) وقد روى هذه المقدمة ١- أحمد بن حنبل ٢- ابن ماجه ٣- النسائي ٤- الترمذي ٥- الطبري ٦- الذهبي ٧- الدارقطني وخلق كثير من المحدثين العلماء.
- (٦٣) سورة المائدة: ٦٧.
- (٦٤) شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ١: ١٨٩.

- (٦٥) شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ١: ١٩٢. وراجع الاحتجاج: ٥٧.
- (٦٦) تفسير القمي ١: ١٧١.
- (٦٧) تفسير الميزان ١: ٦٠.
- (٦٨) تفسير الجلالين: ٢١٦.
- (٦٩) تاريخ دمشق فقرة رقم (٥٦٩) من ترجمة علي بن أبي طالب عليه السلام وراجع شواهد التنزيل ١: ١٥٨.
- (٧٠) الغدير ١: ٣٧٥.
- (٧١) سورة المائدة: ٥٥.
- (٧٢) شواهد التنزيل ١: ١٦١.
- (٧٣) شواهد التنزيل ١: ١٦٨.
- (٧٤) الميزان في تفسير القرآن ٦: ٥.
- (٧٥) الميزان في تفسير القرآن ٦: ٥.
- (٧٦) مجموعة العقاد ٢: ١٢٨.
- (٧٧) المراجعات: ٢٠٢، كما ورد على لسان شيخ الازهر الشيخ سليم البشري وهو يحاور السيد عبد الحسين شرف الدين .
- (٧٨) السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٦٠٣.
- (٧٩) سيرة ابن هشام ٤: ٦٠٣.
- (٨٠) المغازي ٣: ١٠٨١.
- (٨١) المراجعات، للإمام السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي: ١٥٣.
- (٨٢) الغدير ١: ٣٨٣.
- (٨٣) ولعل الجفوة ما تقدم في حديث خمس اليمن من حلال غنمه علي عليه السلام في غزوته حيث إن جيش علي عليه السلام لبس الحلل في ذهابه إلى لقاء النبي صلى الله عليه وآله ثم يرى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله رأيته، أو تكون الجفوة منه لأنه لا تأخذه في طاعة الله ورسوله لومة لائم.
- (٨٤) راجع الغدير ١: ٣٨٤.
- (٨٥) المراجعات: ٢٠٦.

المصلحة الإسلامية ووحدة المسلمين في منهج الإمام علي عليه السلام

علي خير الله

المصلحة الإسلامية هي الوضع الأفضل للإسلام باعتباره دعوة ومبدأ وقاعدة للدولة، والوضع الأفضل للمسلمين بوصفهم أمة لها جانبها الرسالي وجانبها المدني، فكل ما كان يساهم في إيجاد الوضع الأفضل للإسلام والمسلمين على هذا النحو فهو مصلحة إسلامية، وعلى هذا الأساس تكون الوحدة الإسلامية أهم مقومات الحفاظ على هذه المصلحة وإدامتها في الواقع، وهي ضرورة عقلية وشرعية قد أثبت التاريخ ضرورتها في تتبعه لسير الحضارات التي نمت وترعرعت وازدهرت بالوحدة، وتدهورت واضمحلت حينما بدأ التمزق يدب في سيرها.

والوحدة الإسلامية ممكنة التحقيق ما دامت الأمة الإسلامية تجتمع حول عقيدة واحدة، ومصالح واحدة، ومصير واحد، وتواجه عدوًّا واحدًا وحّد صفوفه وإمكاناته من أجل إيقاف المسيرة الإسلامية، وعرقلة حركتها التاريخية لتصفيتها عقيدةً وقيادةً وكياناً، وقد جسّد الإمام علي عليه السلام مفاهيم الوحدة في منهجه وسيرته وترجمها إلى أعمال وممارسات وعلاقات متجسّدة في الواقع، فقد جعل المصلحة الإسلامية العليا قاعدة الانطلاق في سكناته وحركاته، وحافظ على وحدة الدولة

والأمة متوجهاً نحو الآفاق العليا المشتركة ونحو الهدف الكبير؛ وهو تقرير مبادئ الإسلام في واقع الحياة، وخير مصداق لتجسيد مفاهيم الوحدة والمصلحة الإسلامية يتمثل بموقفه من الخلفاء؛ حيث التعاون والتآزر ضمن الأهداف المشتركة، وفيما يلي نستعرض أهم المواقف والممارسات الواقعة في طريق الوحدة والنابعة من مراعاة المصلحة الإسلامية العليا.

الاعتراض السلمي

بعد أن تمخّض اجتماع السقيفة عن إعلانبيعة أبي بكر اعتراض الإمام علي عليه السلام على هذا الاعلان اعتراضاً سلمياً بحدود تبيان وجهة نظره طبقاً للأسس والموازين المساعدة لهذا الاعتراض، وكان يقول: «أنا أحقّ بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي»^(١).

وكان يوجّه أنظار المهاجرين إلى خصائص من هو أهلاً للخلافة طبقاً للثوابت الشرعية والعقلية، حيث يقول: «والله يا معشر المهاجرين، لنحن أحقّ الناس به، لأننا أهل البيت، ونحن أحقّ بهذا الأمر منكم ما كان فينا إلا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بسنن رسول الله، المضطلع بأمر الرعية، المدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية، والله إنّه لفينا...»^(٢).

وكان اعتراضه حقّاً طبيعياً طبقاً للظروف الموضوعية واستناداً للمبررات التي تمنحه الحق في الاعتراض والدعوة إلى نفسه، وإذا غضضنا النظر عن نقاط الاختلاف في هذه المبررات من حيث التفسير والتأويل، وتمسكنا بالنقاط المشتركة التي لا يختلف فيها بين الصحابة نجد أنّ اعتراضه على الشورى أو نتائجها لا يخرج عن المألوف من أسس وموازين ثابتة لدى الجميع وأهمّها: غياب بني هاشم وأغلب الصحابة عن اجتماع السقيفة، وبروز القبلية في الحوار الساخن مع المغالبة والتهديد، واعتراف المشاركين بفقدان أسس الشورى، وعدم اختيار الأعلام والأفقه، والاحتجاج بالقرابة من رسول الله ﷺ على الرغم من قرب بني

هاشم والإمام علي عليه السلام له عليه السلام.

وفي جميع موارد ومواقع الاعتراض كان الإمام علي عليه السلام محافظاً على القواعد الشرعية في أدب الحوار والنقاش والاعتراض، وكان موقفه سلمياً لا يتعدى تبيان حقه بالخلافة، ومما جاء في ذلك قوله لأبي بكر: «كنّا نرى أنّ لنا في هذا الأمر حقّاً، فاستبدتم به علينا»^(٣).

البيعة والوحدة الإسلامية

مهما اختلف الرواة والمؤرخون في وقت بيعة الإمام عليه السلام لأبي بكر وأسلوبها، فإنّ النتيجة كانت حفاظاً على وحدة الدولة الإسلامية ووحدة الأمة الإسلامية، وحاجة الدولة الفتية إلى دور الإمام علي عليه السلام في إنجاح المسيرة، وفي المرحلة التي سبقت البيعة أو التي تلتها بقليل رفض الإمام عليه السلام جميع المواقف والممارسات التي تدعو إلى التباغض والعداء والتشتت، ومنها: موقفه من عتبة بن أبي لهب حينما قال:

ما كنت أحسب أنّ الأمر منصرف عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن
أليس أول من صلّى لقبلكم وأعلم الناس بالقرآن والسنن

فبعث إليه الإمام عليه السلام فنهاء وأمره أن لا يعود وقال: «سلامة الدين أحبّ إلينا من غيره»^(٤).

وحينما قدم أبو سفيان المدينة قال: «... والله، إنّني لأرى عجاجة لا يطفئها إلّا دم... أين المستضعفان أين الأذلان عليّ والعبّاس».

وقال: «أبا حسن أبسط يدك حتّى أبأيعك» فرجره الإمام وقال له: «إنّك والله ما أردت بهذا إلّا الفتنة، وإنّك والله طالما بغيت الإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك»^(٥).

واستمر أبو سفيان في تحريضه فقال: «... فوالله إن شئت لأملأنّها على أبي

فصيل خيلاً ورجالاً»^(٦).

فزجره الإمام عليه السلام لأنَّ موقف أبي سفيان مخالف لأهداف الإمام عليه السلام الكبرى في الحفاظ على الكيان والوجود الإسلامي؛ لأنَّ الهدف من الخلافة هو تقرير مبادئ الإسلام في واقع الحياة وجعلها حاكمة على الأفكار والعواطف والممارسات، ولا يتحقق هذا الهدف بتصديق الجبهة الداخلية وإشغالها بالمعارك الجانبية، إذ لا قيمة للخلافة أمام تلك الأهداف السامية.

وقد تعددت الروايات في الأسباب والعوامل التي دفعته للبيعة بين السلبية والإيجابية، ونحن نختار الإيجابي منها لأنَّه الأقرب للواقع ولحرص الإمام عليه السلام على المصلحة الإسلامية والوحدة الإسلامية، ومن هذه الروايات: «أنَّ عثمان قال له: يا ابن العم! إنَّه لا يخرج أحد إلى قتال هذا العدو وأنت لم تبائع، ولم يزل به حتى مشى إلى أبي بكر، فسرَّ المسلمون بذلك وجدَّ الناس في القتال»^(٧).

وإذا تبيننا رواية تهديده بالقتل فالأمر لا يختلف؛ لأنَّ قتله عليه السلام سيؤدي إلى الفرقة والتشتت، وهذا ما يخالف أهدافه الكبرى في الحفاظ على وحدة المسلمين. وقد عبَّر الإمام عليه السلام عن موقفه الوجداني قائلاً: «إنَّ الله لمَّا قبض نبيَّه، استأثرت علينا قريش بالأمر، ودفعتنا عن حقِّ نحن أحقُّ به من الناس كافة، فرأيت أنَّ الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين، وسفك دمائهم، والناس حديثو عهد بالإسلام، والدين يمحض مخض الوطب، يفسده أدنى وهن، ويعكسه أقلَّ خلف»^(٨).

فكان توحيد الصف أهم من حقِّه بالخلافة، وقد راعى المصلحة الإسلامية الكبرى في هذا الموقف.

وقال عليه السلام في موقف آخر: «... فما راعني إلا انثيال الناس على أبي بكر، وإجفالهم إليه لبياعوه، فأمسكت يدي، ورأيت أنَّي أحقُّ بمقام محمد ﷺ في النَّاس ممَّن تولَّى الأمر من بعده، فلبثت بذاك ما شاء الله حتى رأيت راجعة من الناس

رجعت عن الإسلام، يدعو إلى محق دين الله وملة محمد ﷺ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً وهدماً يكون المصاب بهما عليّ أعظم من فوات ولاية أموركم... فمشيت عند ذلك إلى أبي بكر فبايعته، ونهضت في تلك الأحداث، حتى زاغ الباطل وزهق، وكانت كلمة الله هي العليا»^(٩).

دوره في إخماد الفتنة

لم ينزع الإمام عليّ ﷺ عن الأحداث في عهد أبي بكر، فهو وإن لم ينصب والياً أو قائداً عسكرياً إلا أنه كان يتفاعل مع الأحداث ليؤدّي دوره في الإصلاح والتغيير وفي ترشيد وتسديد الأعمال والممارسات، فكان له دور ملموس في حركة الدولة والأمة، ففي أوائل خلافة أبي بكر اعتزل بعض الأنصار عنه، فغضب بعض المهاجرين من هذا الموقف وتطوّر الأمر وهجا عمرو بن العاص وأبو سفيان الأنصار وحرّضوا على قتالهم، فلما سمع الإمام ﷺ بالأمر خرج مغضباً حتى دخل المسجد فذكر الأنصار بخير، وردّ على عمرو بن العاص قوله، فلما علمت الأنصار ذلك سرّها وقالت: «ما نبالي بقول من قال مع حسن قول عليّ»^(١٠).

وكان لموقفه في الدفاع عن الأنصار الدور الأكبر في إخماد الفتنة؛ لأنّه أحد رؤوس المهاجرين في نظر الأنصار، ولم يتطوّر الموقف أكثر من ذلك، فقد كانت لحكمته الدور الأكبر في تجاوز الأزمة وسكون الفتنة.

الدفاع عن الدولة وإسنادها

على الرغم من وجود فواصل فكرية وسياسية بين الإمام عليّ ﷺ وقادة الدولة الإسلامية إلا أنه تعامل معها كفواصل جزئية لا تغزله عنهم، بل تتحرّك فيها الخطى والممارسات والمواقف نحو الأهداف المشتركة الكبرى، وكان يتعامل مع الأحداث انطلاقاً من المصلحة الإسلامية العليا، في ظروف تكالبت فيها قوى الكفر والشرك للقضاء على هذه الدولة، وكان أعداء الدولة والأمة الإسلامية لا يفرّقون في عدائهم بين الإمام عليّ ﷺ وغيره، وكانوا يتصيّدون كلّ حجة وكلّ

فرصة وكلّ ثغرة لينفذوا منها إلى الطعن في صحّة الرسالة، وإلى بلبلة الأفكار وإشاعة الاضطراب في العقول والقلوب وخلق الفتن في صفوف الكيان الإسلامي. وفي هذه الظروف والأجواء دافع الإمام عليه السلام عن الدولة وساندها كما لو كان هو الخليفة، فحينما جاءت وفود أسد وغطفان وهوازن إلى أبي بكر وطالبوه بإعفائهم من الزكاة، وحينما رجعوا أخبروا عشائرتهم بقلّة أهل المدينة وأطمعهم فيها، فطلب أبو بكر من الإمام عليه السلام أن ينصب كميناً على أطراف المدينة، فاستجاب عليه السلام للطلب، فلم يستطيعوا الهجوم وتراجعوا لأنهم وجدوا أنّ المدينة محروسة^(١١).

وردّ الإمام عليه السلام هجوم قبيلتي عبس وذبيان وبعض القبائل التي اغتتمت فرصة انشغال الجيش بإطفاء نار الارتداد^(١٢).

وكان عليه السلام حريصاً على سلامة القيادة السياسية والعسكرية المتمثلة بأبي بكر؛ لأنّ مقتله سيشتجّع الطامعين على الإسراع في مخططاتهم الرامية لتقويض الكيان الإسلامي، فحينما أراد أبو بكر الخروج بنفسه لقتال المرتدين منعه الإمام علي عليه السلام وقال: ... لا تفجعنا بنفسك...^(١٣).

وحينما أراد أبو بكر غزو الروم «استشار جماعة فقدّموا وأخروا، ولم يقطعوا برأي، فاستشار عليّاً في الأمر، فقال: إن فعلت ظفرت، فقال: بشّرت بخير»^(١٤).

فالإمام علي عليه السلام لمكانته ومقامه بين المسلمين إضافةً إلى خبرته العسكرية كان رأيه بشارة وانطلاقاً للتوجّه إلى غزو الروم، وكان الفتح حليف المسلمين.

حل المسائل المستعصية

كان أبو بكر يحترم مكانة الإمام عليه السلام العلمية، وكان يشيد به ويعترف بحقه وفضله، وكان يمدحه في كثير من المواقف ومن أقواله في حقه: «من سرّه أن ينظر إلى أعظم الناس منزلة من رسول الله ﷺ وأقربه قرابة، وأفضله دالة، وأعظمه غناءً عن نبيّه فليُنظر إلى هذا»^(١٥).

وكان يلتجأ إليه في المسائل المستعصية ، سأله اليهود فأجابهم ، ثم سأله عن رسول الله ﷺ فقال : «ولكنّ الحديث عنه شديد وهذا عليّ بن أبي طالب» فأرسلهم إلى الإمام علي عليه السلام فأجابهم (١٦) .

وسأله ملك الروم عن مسائل فأخبر بذلك علياً فأجابه ، وأراد أن يقيم الحدّ على شارب خمر ، فقال الرجل : إنّي شربتها ولا علم لي بتحريمها ، فأرسل أبو بكر إلى الإمام يسأله ، فقال : مرّ نقيبين من رجال المسلمين يطوفان به على المهاجرين والأنصار وينشدانهم : هل فيهم أحد تلا عليه آية التحريم؟ ففعل ، ثمّ خلى سبيله ولم يحده (١٧) .

عدم التدخّل في الأمور الجزئية

كان الإمام علي عليه السلام لا يتدخّل في الأمور الجزئية التي لا ضرر فيها على المصلحة الإسلامية العليا ، أو ليست من الأمور المهمة للمسلمين ، فلم يحدثنا التاريخ أنّه اعترض على تعيين بعض الولاة أو بعض قادة الجيش ، وخصوصاً الذين لا يراهم أهلاً للمسؤولية ، ولم يتدخّل في تبديلهم أو عزلهم ، أو يقترح تعيين البعض دون البعض الآخر ، ولم يعترض على بعض الأخطاء التي ارتكبت ؛ لأنّه وجد أنّ غيره قد اعترض عليها كبعض الأخطاء التي حدثت في حروب الردّة أو حروب مانعي الزكاة .

استخلافه على المدينة في خلافة عمر بن الخطّاب

أصبح عمر بن الخطّاب خليفة بعهد من أبي بكر ، فلم يعترض الإمام عليّ هذا الاستخلاف ، ولم يتخلّف عن مختلف الأعمال والنشاطات والممارسات الميدانية التي تحتاج إلى رأيه وجهده ، وكان ينفذ ما يطلب منه ما دام منسجماً مع قواعد وأسس الشريعة الإسلامية .

وعلى الرغم من اختلاف وجهات النظر في كثير من القضايا إلا أنّ ذلك لم يمنع من التعاون والتآزر تحت ظلّ الآفاق العليا للمنهج الإسلامي .

وإذا تتبعنا سيرة عمر نجده لم يعهد إلى الإمام عليه السلام منصباً في ولاية أو إمرة جيش أو في أي مجال آخر، وكان هذا شأنه مع الكثير من المهاجرين، ومع ذلك كان يستخلفه على المدينة، وخصوصاً في الوقائع التي يشترك فيها الخليفة أو المتوقفة على اشتراكه، فقد استخلفه على المدينة في سنة ١٤هـ، وفي سنة ١٥هـ، وفي سنة ١٨هـ (١٨).

واستخلفه على المدينة يعبر عن ثقة عمر به، وشهادة له بالإخلاص للإسلام وللدولة الإسلامية، وإيماناً منه بتقدير المصلحة الإسلامية العليا، والعمل الدؤوب من أجل تحقيق وحدة الدولة والأمة.

الاستعانة بالإمام عليه السلام في المجال العسكري

كان عمر بن الخطاب يستعين بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما يريد اتخاذ موقف معين، وكان اختصاصه بالإمام علي عليه السلام أكثر من غيره، وكان الإمام عليه السلام لا يبخل بإبداء توجيهاته وملاحظاته وكان مخلصاً في النصيحة ما دامت مصلحة الإسلام هي العليا.

فحينما شاوره في الخروج إلى غزو الروم، نصحه بعدم الخروج بنفسه، وقال له: «إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك؛ فتلقهم فتنبك لا يكن للمسلمين كهف دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محرباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى، كنت رداءً للناس ومثابة للمسلمين» (١٩).

وفي غزوة نهاوند نصحه بالبقاء في المدينة وإبقاء أهل الشام وأهل اليمن في بلدانهم خوفاً من هجوم الروم والحبشة عليهم من الخلف أو فراغ بلدانهم من الرجال، وكان الرأي الأمثل هو الاستعانة بثلاث أهل البصرة وثلاث أهل الكوفة، ومما جاء في نصيحته: «... إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير العرب وأصل العرب، فكان ذلك أشدّ لقلبهم وألبتهم على نفسك» (٢٠).

وحينما تحصّن المشركون ببيت المقدس أجابوا إلى الصلح بشرط قدوم الخليفة عليهم، فاستشار الإمام بذلك فأشار عليه (بالمسير إليهم ليكون أخفّ وطأة على المسلمين في حصارهم بينهم) (٢١).

وقال له: «إنّ القوم قد سألوك المنزلة التي لهم فيها الذلّ والصغار ونزولهم على حكمك عزّ لك وفتح للمسلمين... حتّى تقدم على أصحابك وجنودك، فإذا قدمت عليهم كان الأمر والعافية والصلح والفتح إن شاء الله» فأخذ عمر بمشورته (٢٢).

ولم يتخلّف أنصار الإمام علي عليه السلام - وهم الذين يرون أحقيته بالخلافة - عن الغزوات والفتوحات التي قادها الخليفة أو من نصّبه قائداً عسكرياً، تبعاً لإمامهم الذي ربّاهم على تحكيم المصلحة الإسلامية العليا على جميع المصالح، فاشترك أبناء عمّه العباس فيها، واشترك أبناء اخوانه فيها، ومنهم محمد بن جعفر الذي استشهد في تستر، واشترك عمّار بن ياسر وسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان وجابر بن عبدالله بأغلب الغزوات والفتوحات (٢٣).

وقد أطاعوا الخليفة وقادة الجيش كما لو كان الإمام هو الخليفة، وقد أخلصوا لهذه الدولة متعاليين على جميع الفواصل الجزئية ما دام المنهج الإسلامي هو المحور المشترك للجميع.

الاستعانة بالإمام عليه السلام في القضاء

كان عمر بن الخطّاب يستعين برأي الصحابة وخصوصاً رأي الإمام عليه السلام وكان الإمام عليه السلام يسأله ويؤاخره في اختيار الموقف الأصوب، وكان يتدخل ابتداءً لتغيير حكم أو تنفيذه، وكان عمر يمتدحه بعد نجاح الموقف ويرى أنّه السبب في إنقاذه من المواقف الحرجة في القضاء والحكم بين الناس.

استشاره في عقوبة شارب الخمر فقال: «أرى أن تجلده ثمانين، فإنّه إذا سكر هذى، وإذا هذى افتري» فجلد عمر في الخمر ثمانين (٢٤).

وبلغه عن امرأة من قريش أمر مريب فبعث إليها يدعوها، فارتاعت وسقط

جنيها، فاستشار جماعة من الصحابة، فقالوا: ما نرى عليك شيئا، فقال الإمام علي عليه السلام: «أرى أنك قد ضمنت ديتي»، فقال عمر: صدقتني (٢٥).
 وذكر الطبري بعض الروايات في الاستعانة بالإمام في القضاء؛ وكان يتدخل أحيانا دون استشارة ليغيّر الحكم، فيمضي عمر حكمه عليه السلام ومن ذلك:
 أمر عمر برجم امرأة حامل اعترفت بالفجور، فتلقاها علي فردّها وقال: «فما سلطانك علي ما في بطنها» فخلّى سبيلها.
 وجيء بامرأة أصابها العطش فأجبرها رجل على الفاحشة، ففعلت، فشاور عمر عليا فقال: «هي مضطرة إلى ذلك» فخلّى عمر سبيلها.
 وأراد عمر رجم امرأة ولدت لستّة أشهر خلافاً للمتعارف، فأثبت علي له صحّة الحمل لستّة أشهر، فرجع عن قراره.
 واشتكى رجل عنده علي لآثمه لطمه، فسأله عمر فقال: «لأنّي رأيته يتأمّل حرم المؤمنين في الطواف»، فقال عمر: أحسنت يا أبا الحسن (٢٦) فلم يجد بأسا في أن يقوم علي بتأديب الرعية دون علمه ودون أمره.
 وأراد عمر رجم امرأة محصنة فجر بها غلام فقال الإمام عليه السلام: «لا يجب الرجم لأنّ الذي فجر بها ليس بمدرك».
 وسأل رجل عمر حول حليّة زوجته التي طلقها مرّة وهو مشرك وممرّتين وهو مسلم، فقال عمر: كما أنت حتّى يجيء علي، فأقّى علي فقال: «هدم الإسلام ما كان قبله» واعتبرها تطليقتين (٢٧).

الاستعانة برأي الإمام في تداول الثروة

الثروة واسلوب تداولها من الأمور الحساسة بعد القضاء، ولها تأثيرها الواضح على سير الأعمال والنشاطات والممارسات؛ ولهذا فإن الإمام عليه السلام بذل ما يمكن بذله من إبداء النصيح والتوجيه ليكون أسلوب تداول الثروة منسجما مع أساسيات الشريعة الإسلامية ومع المصلحة العامّة للدولة وللأمة وللإسلام.

وأول بادرة للاستشارة حينما أراد عمر بن الخطاب التفرغ لتسيير حركة الدولة وحركة المسلمين استشار الصحابة في حقّه في بيت المال، فاختلفت أقوالهم، فقال: ما تقول يا علي؟ فقال: «ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف، ليس لك من هذا المال غيره» فقال الصحابة: القول قول ابن أبي طالب^(٢٨).

وقدم عليّ عمر مال فيه مجوهرات وذهب وفضّة، فاستشار الصحابة فقال الإمام عليه السلام: «لم يجعل الله علمك جهلاً ويقينك شكاً، إنّك ليس لك من الدنيا إلّا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنت، وإنّك إن تبعته عليّ هذا اليوم لم تعدم في غدٍ من يستحقّ به ما ليس له» فقال عمر: صدقتني ونصحتني^(٢٩).

وشاور عمر الصحابة في سواد الكوفة، فقالوا له: تقسمها بيننا، فشاور الإمام عليه السلام فقال: «إن قسّمتها اليوم لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء، ولكن تقرّها في أيديهم يعملونها، فتكون لنا ولمن بعدنا». فقال عمر: «وفّقك الله هذا الرأي»^(٣٠).

وكان عمر متردداً في خزائن بيت الله وما فيها من أموال وسلاح، أيتركها أم يوزّعها فقال له الإمام عليه السلام: «... لست بصاحبه، إنّما صاحبه منّا شاب من قريش يقسمه في سبيل الله في آخر الزمان»^(٣١).

وحينما وضع عمر الدواوين وفرّق بين المسلمين بالعطاء على أساس السبق في الايمان والهجرة، فقدّم المهاجرين على الأنصار، والأنصار على مسلمي الفتح، ومسلمي الفتح على المتأخّرين إسلاماً، لم يعترض الإمام عليه السلام على طريقة التوزيع، وإن كان قد ساوى في العطاء في وقت خلافته كما يذكر جميع المؤرّخين، فقد يكون مراعيّاً للظروف الموضوعية في ذلك، أو عدم رغبته في مخالفة الخليفة أو الصحابة، أو أنّ اسلوب التداول والعطاء من صلاحيات الخليفة في حدود المصلحة العامة ولا محذور شرعي فيه، وعلى العموم فإنّ الإمام عليه السلام لم يعترض على طريقة التوزيع، ولم يخالف رأي عمر في حينه.

بذل الإخلاص في المشورة في جميع الجوانب

كان عمر يستعين برأي الإمام عليه السلام في جميع جوانب الحياة وفي جميع المرافق التي تحتاج إلى مشورة وإلى تسديد وتوجيه، وكان الإمام عليه السلام يبدي توجيهاته ونصائحه المنسجمة مع المصلحة الإسلامية العليا.

حينما أراد عمر كتابة التاريخ ارتأى أن يكتبه من مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله، وارتأى بعض الصحابة أن يكتبه من تاريخ وفاته صلى الله عليه وآله، فكان رأي الإمام عليه السلام أن يكتب من يوم الهجرة إلى المدينة، واستقر الأمر على ذلك ^(٣٢). وأراد عمر بيع أهل السواد فقال الإمام عليه السلام : «دعهم شوكة للمسلمين» فتركهم على أنهم عبيد ^(٣٣).

وبلغ عمر أن أحد عماله باع ما يحرم بيعه وجعل الثمن في بيت المال، فاستشار الإمام بذلك، فقال : «أما أن تعزله وإما أن تكتب إليه أن لا يعود» ^(٣٤). وكان يستقي من آراء الإمام عليه السلام ويتقبلها، ففي أحد أيام الحج قبل الحجر الأسود، ثم قال : (إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقبلك ما قبلتك).

فقال الإمام عليه السلام : «... بل هو يضر وينفع، فهو يشهد للمؤمن بالوفاء ويشهد على الكافر بالجحد» ^(٣٥).

واستعان بأنصار الإمام عليه السلام في أعماله - إيماناً منه بإخلاص الإمام عليه السلام وإخلاص أنصاره - فعين سلمان والياً على المدائن، وعماراً على الكوفة، وأسند بعض المناصب الحساسة لأنصاره الآخرين، فكان بعضهم حلقة الوصل بين الخليفة وقادة الجند ^(٣٦).

وقد أخلصوا في أعمالهم كما أخلص الإمام عليه السلام في مشورته، فكانوا ينظرون إلى المصلحة الإسلامية العليا وإلى وحدة الدولة والأمة. وقد عبّر عمر بن الخطاب عن تلك السيرة وذلك الحرص من قبل الإمام عليه السلام

على المصلحة الإسلامية، وعلى حفظ وحدة الكيان الإسلامي ووحدة المسلمين؛ بأقواله بحقه، تقديرًا منه للجهود التي بذلها في تسيير الأحداث والوقائع المختلفة، ومن أقواله بحق الإمام عليه السلام قوله: «لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن» و«أعوذ بالله أن أعيش في يوم لست فيه يا أبا الحسن» و«لولا علي لهلك عمر»^(٣٧). وقال لعبد الله بن عباس: «إن علياً ابن عمك لأحق الناس بها، ولكن قريشاً لا تحتمله، ولئن وليهم لياخذتهم بمر الحق لا يجدون عنده رخصة»^(٣٨).

الموقف من الشورى

حينما طعن عمر جعل أمر الخلافة بيد ستة من الصحابة يختارون أحدهم، وأمر بقتل كل من خالف الاختيار، وكان الإمام عليه السلام يتوقع النتائج، وكان يقول: «فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون»^(٣٩). ومع علمه بالنتائج إلا أنه قبل بالاجتماع واشترك فيه، فحينما قال له عمه العباس لا تدخل معهم كان جوابه: «إنني أكره الخلاف»^(٤٠).

وحينما تمخضت النتائج بترشيح عثمان خليفة من قبل عبدالرحمن بن عوف اكتفى الإمام عليه السلام بالقول: «ليس هذا أول يوم تظاهرت فيه علينا، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾»^(٤١)...^(٤٢).

فقد عبر عن رأيه بلا موقف سلبي، وقال لعبد الله بن عباس: «إنني رأيت الجميع راضين به فلم أحب مخالفة المسلمين حتى لا تكون فتنة بين الأمة»^(٤٣).

ووضع عليه السلام ميزاناً ثابتاً في التعامل مع السلطة والخلافة، فقدّم مصلحة الإسلام العليا على جميع المصالح، وقدّم الوحدة الإسلامية على جميع المغايم والمكاسب الآنية والذاتية، فخاطب أهل الشورى قائلاً: «لقد علمتم أنني أحق بها من غيري، والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين؛ ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه»^(٤٤).

وكان يقول: «فنظرت في أمري، فإذا طاعتي قد سبقت بيعتي، وإذا ميثاقي قد

أخذ لغيري، فبايعت عثمان فأدبت له حقّه» (٤٥).

فقد تعالى عليه على كثير من الأمور حفاظاً على المصلحة الإسلامية العليا، وعلى وحدة الدولة والأمة، ووقف بجانب الخليفة الجديد لتحقيق الهدف الأكبر وهو تقرير مبادئ الإسلام في واقع الحياة، ومما نسب إليه في هذا الأمر قوله: «لو سيرني عثمان عنه إلى صرار لسمعته وأطعت الأمر» (٤٦). وصرار موقع على بعد عذّة أميال من المدينة.

مشاركة أتباعه في الغزوات

لم يحدثنا التاريخ عن اشتراك الإمام عليه السلام في الغزوات، وإنما حدثنا عن مشاركة أتباعه وأنصاره وأبنائه فيها، فقد اشترك أبو أيوب الأنصاري وأبو ذر الغفاري في بعض الغزوات، واشترك عبدالله بن عباس في فتح إفريقية، واشترك الحسن والحسين وابن عباس وآخرون في غزو طبرستان بإمرة سعيد بن العاص (٤٧).

وهذه المشاركة تدلّ دلالة واضحة على تأييد وإسناد الإمام عليه السلام للغزوات والفتوحات؛ لأنّها بالنتيجة تقع في طريق المصلحة الإسلامية العليا متمثلة بالدعوة إلى الإسلام وإلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية وفرض سلطانها على أرجاء الأرض.

الاستعانة برأي الإمام عليه السلام

إيماناً من عثمان بن عفّان بإخلاص الإمام علي عليه السلام للمنهج الإلهي وجهاده من أجل المصلحة العليا ووحدة المسلمين كان يستعين برأيه لترشيد وتسديد المسيرة، وكان الإمام عليه السلام يتدخل أحياناً لتغيير بعض قرارات الحكم وإن لم يستشار بها. فقد تدخل لمنع إجراء الحدّ بامرأة، بعد أن أثبت براءتها بالأدلة الحسبية (٤٨) وهنالك وقائع عديدة تدخل فيها الإمام عليه السلام لتكون الأحكام منسجمة مع قواعد الشريعة.

وقد وردت روايات عديدة تنصّ على أنّ عثمان إذا جاءه الخصمان (قال لأحدهما اذهب ادع علياً...) (٤٩).

وكان يستشير في اختيار الموقف المناسب من المعارضين لسياسته، فيشير عليه بإصلاح الأوضاع وتغيير بعض الولاية^(٥٠).
واتفق رأي عثمان مع رأي الإمام علي عليه السلام في جمع المصاحف على قراءة واحدة^(٥١).

سيرة الإمام عليه السلام بعد الفتنة

بعد ستة أعوام من خلافة عثمان بدأت بوادر المعارضة له ولسيرته من قبل بعض الصحابة، ومن قبل بقيّة المسلمين في بعض الأمصار كالكوفة والبصرة ومصر، وقد خلقت هذه المعارضة جوّاً من الاضطراب والتخلخل في تماسك ووحدّة الكيان الإسلامي، وفي ظلّ هذه الأجواء لم يقف الإمام علي عليه السلام موقف الحياد أو الانعزال عن الأحداث وعن الميدان، وإنما قام بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حفاظاً على تماسك الكيان الإسلامي وحفاظاً على سلامة تطبيق المنهج الإسلامي من قبل الخليفة والولاية والأئمة، وكان يحاول تهدئة الأوضاع والعلاقات المتشنجة؛ لكي لا تحدث الفتنة وتتوسّع ولكي لا يتمزق الكيان الإسلامي.

وكان أول موقف له عليه السلام أن حذّره من بعض الولاة الذين سيّبوا إثارة المعارضين؛ لأنّهم يدّعون أنّ مواقفهم وأعمالهم كانت بأمر من عثمان^(٥٢).

وكان ينصحه كثيراً كلّما خلى به، وكان يقول له: «أما الفرقة فمعاذ الله أن أفتح لها باباً، واسهّل إليها سبيلاً، ولكّني أنكها عمّا ينهك الله ورسوله عنه، وأهديك إلى رشدك. ألا تنهي سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم، والله لو ظلم عامل من عمّالك حيث تغرب الشمس لكان إثمهم مشتركاً بينه وبينك»^(٥٣).
وكان يحذّره من مروان بن الحكم ومن الأخذ برأيه فيقول: «فلا تكوننّ لمروان سيقّة يسوقك حيث شاء»^(٥٤).

وكان الوسيط بينه وبين المعارضين، وكان عثمان يدعوّه أحياناً للتدخل من

أجل تهدئة الأوضاع، قال له في أحد المواقف: «... ارددهم عني فاني أعطيهم ما يريدون من الحق من نفسي ومن غيري».

فقال له الإمام عليه السلام: «إن الناس إلى عدك أحوج منهم إلى قتلك وانهم لا يرضون إلا بالرضا، وقد كنت أعطيتهم من قبل عهداً فلم تف به، فلا تغرر في هذه المرة، فإني معطيهم عنك الحق».

قال: أعطهم فوالله لأفين لهم.

فخرج الإمام عليه السلام إلى المعارضين فقال: «إنكم إنما تطلبون الحق وقد أعطيتموه وإنه منصفكم من نفسه».

وكتب عثمان بينه وبين المعارضين كتاباً على رد كل مظلمة، وعزل كل عامل كرهوه، فكفوا عنه (٥٥).

إلا أن مروان بن الحكم اعتبر ذلك ضعفاً وأنه سيجرئهم عليه فخطب في المعارضين وقبحهم دون علم عثمان، فتأزمت الأوضاع، وتدخل الإمام مرة أخرى فأرجع المعارضين وحذره من مروان قائلاً: «والله ما مروان بذى رأي في دينه ولا نفسه، وأيم الله إنني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك».

وبعد رجوعهم إلى بلدانهم أمسكوا بغلام عثمان، وبيده كتاب يختمه يأمر والي مصر بقتلهم، فاقتنعوا أنه مكتوب من قبل مروان، فطالبوا عثمان بتسليمه إليهم فأبى فحدث الحصار (٥٦).

موقف الإمام عليه السلام بعد الحصار

فشلت جميع محاولات المصالحة بين عثمان والمعارضين؛ لأنهم أصروا على تسليم مروان وأصر هو على عدم تسليمه، وبدأ الحصار ليستمر أربعين يوماً، وفي مدة الحصار حاول الإمام عليه السلام تهدئة الأوضاع إلا أن الظروف لم تساعد، واستمر عليه السلام على نهجه في تهدئة الأوضاع وإخماد الفتنة.

فقد وردت الأخبار أن عثمان اشتكى من موقف طلحة، فتوجه الإمام عليه السلام إلى

طلحة وقال له : «يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه؟». فقال : «يا أبا الحسن بعدما مسّ الحزام الطيّين».

فانصرف الإمام عليه السلام حتى أتى بيت المال ، فقال : افتحوه ، فلم يجدوا المفاتيح ، فكسر الباب وأعطى الناس ، فانصرفوا من عند طلحة حتى بقي وحده ، وسرّ بذلك عثمان (٥٧).

وحينما اشتدّ الحصار نصّح الإمام عليه السلام المعارضين بعدم قطع الماء عنه ، فلم يستجيبوا له ، فبعث إليه ثلاث قرب مملوءة بالماء (٥٨). وبعث إليه عثمان فأتاه ، فتعلّق به المعارضون ومنعوه ، فحلّ عمامة سوداء على رأسه ورماها داخل بيت عثمان ليعلمه وقال : «اللّهم لا أرضى قتله... والله لا أرضى قتله» (٥٩).

وحينما أصبح الحصار أشدّ وطأة خرج الإمام عليه السلام ومعه الحسن والحسين عليهما السلام فحملوا على المعارضين وفرّقوهم ثمّ دخلوا على عثمان ، فأعفاهم عثمان من الدفاع عنه ، فخرج الإمام عليه السلام وهو يقول : «اللّهم إنّك تعلم أنّا قد بذلنا المجهود» (٦٠). وأرسل الإمام عليه السلام ولديه في الدفاع عنه ، فتنعوا المعارضين من الدخول إلى منزله ، وقد أصابت الحسن عليه السلام عدّة جراحات في الدفاع عنه (٦١).

وكان الإمام عليه السلام من أشدّ المدافعين عن عثمان كما اعترف مروان بقوله للإمام زين العابدين عليه السلام : «ما كان في القوم أدفع عن صاحبنا من صاحبكم».

قال له الإمام عليه السلام : «فما بالكم تسبّونه على المنابر؟».

قال : «إنّنه لا يستقيم لنا الأمر إلّا بذلك!!» (٦٢).

موقف وحدوي صريح

في فترة الحصار توجه عدد كبير من المسلمين إلى الإمام عليه السلام ليصلّي بهم جماعة ، ولكنّه رفض هذا الطلب وأجابهم «لا أصلّي بكم والإمام محصور ولكن أصلّي وحدي» (٦٣).

فقد رفض الإمام عليه السلام الصلاة بالمسلمين - وإن وجد المبرر لها - ليحافظ على وحدة الصف الإسلامي ووحدة الخلافة، وليحافظ على حرمة وقُدسية منصب الخلافة، وللحيلولة دون حدوث تصدّع في الجبهة الداخلية، ودون حدوث خلل واضطراب في العلاقات بين الصحابة وبين المسلمين عموماً.

وهكذا كانت سيرته عليه السلام في تعامله مع الأشخاص ومع المواقف ومع الأحداث، حيث كان منقاداً للمصلحة الإسلامية العليا، ولو حدة الكيان الإسلامي؛ ولهذا تعاون وتآزر مع معاصريه من أجل تحقيق الأهداف الإسلامية الكبرى، ولم يثنه عن ذلك أيّ عارض أو عائق، فقد جعل الفواصل بينه وبين الخلفاء في حدودها الضيقة، وتعامل معها كفواصل جزئية من أجل أن يتوجّه الجميع نحو الأفق الأوسع الذي يجمعهم تحت راية واحدة ومصلحة واحدة.

الهوامش :

- (١) الإمامة والسياسة ١: ١١ - ابن قتيبة الدينوري - مطبعة البابي - مصر - ١٣٨٨هـ.
- (٢) المصدر السابق ١: ١٢.
- (٣) تاريخ الطبري ٢: ٢٣٦ - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٨هـ - ط ٢.
- (٤) شرح نهج البلاغة ٦: ٢١ - ابن أبي الحديد - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ١٣٧٨هـ - ط ١.
- (٥) تاريخ الطبري ٢: ٢٣٧.
- (٦) الكامل في التاريخ ٢: ٢٢١ - ابن الأثير - دار صادر - بيروت - ١٣٨٥هـ.
- (٧) بحار الأنوار ٢٨: ٣١٠ - محمد باقر المجلسي - مؤسسة الوفاء - بيروت - ١٤٠٣هـ - ط ٢.
- (٨) شرح نهج البلاغة ١: ٣٠٨.
- (٩) شرح نهج البلاغة ٦: ٩٥.
- (١٠) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٢٨ - دار صادر - بيروت.
- (١١) المنتظم ٤: ٧٥ - عبد الرحمن بن الجوزي - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٢هـ - ط ١.
- (١٢) لاسنة ولا شيعة: ٢١ - د. محمد علي الزعبي - دار التراث الإسلامي - ١٣٩٤هـ.

- (١٣) تاريخ الخلفاء: ٥٧- عبد الرحمن السيوطي- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٨هـ.
- (١٤) تاريخ اليعقوبي: ٢: ١٢٣.
- (١٥) مختصر تاريخ دمشق: ١٧: ٣٢٠- ابن عساكر- دار الفكر- دمشق- ١٩٨٨م.
- (١٦) ذخائر العقبى: ٨٠- محمد بن جرير الطبري- مؤسسة الوفاء- بيروت- ١٤٠١هـ.
- (١٧) مناقب آل أبي طالب: ٢: ٣٩٧- ابن شهر آشوب- دار الأضواء- بيروت- ١٤١٢هـ.
- (١٨) الكامل في التاريخ: ٢: ٤٥٠، ٥٠٠ وتاريخ الطبري: ٢: ٣٨١، ٤٤٩.
- (١٩) شرح نهج البلاغة: ٨: ٢٩٦.
- (٢٠) المنتظم: ٤: ٢٧٣ وتاريخ الطبري: ٢: ٥٢٤.
- (٢١) البداية والنهاية: ٧: ٥٥- ابن كثير- دار الفكر- بيروت.
- (٢٢) الفتوح: ١: ٢٢٥.
- (٢٣) الكامل في التاريخ: ٢: ٥١٢ و٣: ٩.
- (٢٤) تاريخ المدينة المنورة: ٢: ٧٣٢- ابن شبة النميري- مكة المكرمة- ١٣٩٩هـ.
- (٢٥) انساب الأشراف: ٢: ١٧٨- البلاذري- مؤسسة الأعلمي- بيروت- ١٣٩٤هـ.
- (٢٦) ذخائر العقبى: ٨١، ٨٢.
- (٢٧) مناقب آل أبي طالب: ٢: ٤٠٢، ٤٠٥.
- (٢٨) تاريخ الطبري: ٢: ٤٥٣ والمنتظم: ٤: ١٩٧.
- (٢٩) الكامل في التاريخ: ٢: ٥١٨.
- (٣٠) تاريخ اليعقوبي: ٢: ١٥١، ١٥٢.
- (٣١) كنز العمال: ١٤: ٥٩١- حسام الدين الهندي- مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥هـ.
- (٣٢) الكامل في التاريخ: ٢: ٥٢٦ وتاريخ المدينة المنورة: ٢: ٧٥٨.
- (٣٣) مناقب آل أبي طالب: ٢: ٤٠٧.
- (٣٤) أنساب الأشراف: ٢: ٧٨.
- (٣٥) إحياء علوم الدين: ١: ٢٤٢- أبو حامد الغزالي- دار الندوة الجديدة.
- (٣٦) الكامل في التاريخ: ٢: ٥١٢، ٥٤٨، ٩: ١٨.
- (٣٧) ذخائر العقبى: ٨٢ وتاريخ الخلفاء: ١٧١ والطبقات الكبرى: ٣: ٣٣٩.
- (٣٨) تاريخ اليعقوبي: ٢: ١٥٩.
- (٣٩) تاريخ الطبري: ٤: ٢٣٠.
- (٤٠) الكامل في التاريخ: ٣: ٦٦.
- (٤١) سورة يوسف الآية: ١٨.
- (٤٢) الكامل في التاريخ: ٣: ٧١.

- (٤٣) الفتوح ١: ٢٣٥.
- (٤٤) شرح نهج البلاغة ٦: ١٦٦.
- (٤٥) تاريخ الخلفاء: ١٤١.
- (٤٦) تاريخ المدينة المنورة ٤: ١٢٠١.
- (٤٧) الكامل في التاريخ ٣: ٧٧، ٨٩، ١٠٩.
- (٤٨) مناقب آل أبي طالب ٢: ٤١٣.
- (٤٩) السنن الكبرى ١٠: ١١٢.
- (٥٠) البداية والنهاية ٧: ١٧١.
- (٥١) الكامل في التاريخ ٣: ١١٢.
- (٥٢) تاريخ الطبري - حوادث سنة ٣٤ هـ.
- (٥٣) شرح نهج البلاغة ٩: ١٥.
- (٥٤) شرح نهج البلاغة ٩: ٢٦٢.
- (٥٥) شرح نهج البلاغة ٣: ١٥١.
- (٥٦) تاريخ الطبري - حوادث سنة ٣٥ هـ.
- (٥٧) الكامل في التاريخ ٣: ١٦٧.
- (٥٨) تاريخ الخميس ٢: ٢٦٢ - حسين الديار بكري - مؤسسة شعبان - بيروت - بدون تاريخ.
- (٥٩) الطبقات الكبرى ٣: ٦٨ - ابن سعد - دار صادر - بيروت - ١٤٠٥ هـ.
- (٦٠) تاريخ الخميس ٢: ٢٦٣.
- (٦١) البداية والنهاية ٧: ١٨١ وتاريخ المدينة المنورة ٣: ١١٣١.
- (٦٢) أنساب الأشراف ٢: ١٨٤، وشرح نهج البلاغة ١٣: ٢٢٠.
- (٦٣) تاريخ الخميس ٢: ٢٦٣.

البعد المعنوي للحج في رؤى الإمام عليّ عليه السلام

محمد علي المقدادي

مقدمات ومبادئ، كلّما حصل منها شيء، حصل القرب إليه سبحانه وتعالى بمقدار ذلك، فالتقرب إلى الحقّ المبين يساوق المعنوية، فلا معنوية إلا بالتقرب.

يقول بعض العلماء المهذّبين:

«اعلم أيّها الطالب للوصول إلى بيت الله الحرام؛ أنّ للحضرة الأحديّة - جلّ شأنه العظيم - بيوتات مختلفة:

منها: الكعبة الظاهرية.

ومنها: البيت المقدّس.

ومنها: البيت المعمور.

ومنها: العرش.

ومنها: القلب.

حينما نقف عند كلمات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حول الحجّ، ونلاحظ أحاديثه العطرة، نجد أبعاداً فكرية ومعنوية للشخص وللمجتمع، والحقّ أنّ تلك الأبعاد هي الأسوة التي لا بدّ لنا منها طيلة حياتنا، فهي صالحة لكلّ إنسان، ولكلّ العصور.

في هذه المقالة الموجزة بعد أن نتعرّف على مواضع تحصيل المعنوية، ننتخب من آثاره عليه السلام ما له صلة بالبحث:

ما هي المعنوية؟

إنّ استفتاح رحمة الله الواسعة، واستنزال بركاته الثمينة، يحتاج إلى

ومنها: الكعبة الحقيقية .

ولا شك ولا ريب في أنه لكل بيت من البيوت لطالبه رسوم وآداب... ثم اعلم أنه لعل الغرض من تشريع الحج أن المقصود الأصلي من خلق الإنسان هو معرفة الله، والوصول إلى درجة حبه والأنس به، ولا يمكن حصول هذين الأمرين إلا بتصفية القلب، ولا يمكن ذلك إلا بكف النفس عن الشهوات، والانقطاع من الدنيا الدنيّة، وإيقاعها على المشاق من العبادات، ظاهرية وباطنية»^(١).

إن الإمام علياً عليه السلام كتب إلى الحارث الهمداني كتاباً يكون بمثابة فصل الخطاب حول تحصيل مواضع العبودية، والوصول إلى المراتب المعنوية، والآن نذكر فقرات من ذلك الكتاب تتميماً للفائدة:

«وتمسك بحبل القرآن واستنصحه، وأحلّ حلاله، وحرم حرامه.... واحذر منازل الغفلة والجفاء وقلة الأعوان على طاعة الله... وأطع الله في جمل أمورك، فإن طاعة الله فاضلة على ما سواها، وخادع نفسك

في العبادة، وارفق بها ولا تقهرها... وإياك أن ينزل بك الموت وأنت آبق من ربك في طلب الدنيا، وإياك ومصاحبة الفساق، فإن الشر بالشر ملحق، ووقر الله وأحب أحبائه، واحذر الغضب، فإنه جند عظيم من جنود إبليس، والسلام»^(٢).

فتبين من هذا أن تحصيل الكمالات يحتاج إلى العمل الصالح، والزجر والابتعاد من حرّات الله، وبهذا وبغيره يصير الإنسان وعاء صالحاً للمعنويات، ويصير أيضاً حقيقاً لاستفتاح الرحمة واستنزال البركة، وجديراً لأن يكون عالماً ربانياً. وفّقنا الله لإدراك هذه المراتب والدرجات.

البعد المعنوي للحج

جرت السيرة العقلانية على الرجوع إلى الخبراء الأخصائيين، للتحقيق والبحث حول أمر ما، أو لرفع مشكل عند بروزه، وهذا أمر بديهي لا ينكره أحد، مثلاً، المريض إذا أراد أن يبرأ من المرض؛ لا يراجع غير المستشفى، ليفحص الطبيب مرضه ثم يداويه

حتى يبرأ.

وإذا ما أردنا نحن البحث عن البعد المعنوي للحج فعلينا المراجعة إلى أخصائي خبير في هذا الموضوع، ألا وهو الإمام علي عليه السلام، فهو الإنسان الكامل الذي بذل كل جهوده لصالح الأمة المسلمة، وهو الخبير الذي يكون كالبحر الواسع، ولا تزال تجري من وجوده العلوم بكل فروعها، ويترشح من زلال معنوياته كل الخير.

والعجيب أنه لم يحدث حتى برواية واحدة طيلة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم ينقل منه عليه السلام خبر قط خلال تلك الفترة، إن هذا يحكي عن توقيره وشدة احترامه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بل الإمام عليه السلام قد بادر بأخذ العلم والحكمة من الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وأخذ ما أخذ، حتى صار أفضل صحابته علماً وعملاً...

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(٣). ولأجل هذا قررنا أن نستفيد من كلماته الحكيمة (سلام الله وصلواته عليه) في هذه الوجيزة.

المناسك

إن المناسك التي أوجبها الله تعالى

للحاج والمعتمر؛ مملوءة من الدروس والعبر، بعد أن كانت أحكاماً تبدأ من الميقات وتنتهي إلى الحلق أو التقصير، وإلى طواف النساء وصلاته، وتتجلى أهميّة هذه المناسك عندما نرى أحكامها المتعددة التي نحتاج لأدائها إلى ساعات بل أيام كالإحرام وتروكه، والطواف وصلاته، والسعي، والحلق أو التقصير، والوقوف بعرفات، والوقوف بالمشعر الحرام، والنفر إلى منى، والرمي، والذبح، والبيتوتة في منى أيام التشريق، وغيرها.

ولا يخفى أن ما يتحمّله الحاج من المعاناة والتعب والمشاق، يتيح له الفرصة لأن يفكر لماذا أمر الله سبحانه وتعالى عباده الأغنياء - ولا الفقراء - أن يأتوا من كل فج عميق إلى أداء المناسك؟ وقال عزّ من قائل: ﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٤). وإثر هذه الأهمية فقد كتب الإمام عليه السلام رسالة إلى قثم بن العباس، وهو عامله على مكّة:

«أمّا بعد، فأقم للناس الحجّ،

وذكّرهم بأيّام الله، واجلس لهم العصرين^(٥)، فأفتت المُستفتي، وعلمّ الجاهل، وذاكر العالم، ولا يكن لك إلى الناس سفيرٌ إلّا لسانك، ولا حاجبٌ إلّا وجهك. ولا تحجبنّ ذا حاجة عن لقائك بها، فإنّها إن ذيدت^(٦) عن أبوابك في أوّل وردها^(٧)، لم تحمد فيما بعد على قضائها...^(٨).

أفاد الإمام عليه السلام خلال هذه الجمل الحكيمّة، أنّ زائر بيت الله الحرام يحتاج إلى تعلّم الأحكام والمناسك، وإذا نسي أو جهل فلا بدّ وأن يسأل العلماء عن كلّ ما يجهله. ونستفيد أيضاً لزوم مرافقة عالم ديني في هذه الأزمنة؛ للحاج أو المعتمر؛ لئلا يبقى جاهلاً، بل يبادر بتدارك أعماله العبادية طبقاً لوظيفته.

ولذلك نرى كلّ قوافل الحجّ تستفيد من عالم ديني عارف بالأحكام والمناسك، وهو يرافقهم في هذا السفر الإلهي المبارك، لأنّ آثار بطلان الحجّ والعمرة ربّما تثير إلى فشل علاقات اجتماعية، كحرمة الزواج، وحرمة المواقعة، وإلى وجوب أداء الكفّارة وأمثالها.

وفي ضوء ذلك يقول الإمام علي عليه السلام في كتابه إلى عامله على البصرة؛ عثمان ابن حنيف الأنصاري: «... ألا وإنّ لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه...، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقُرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعقّة وسداد...»^(٩).

النظر إلى بيت الله

ومن وصاياّه عليه السلام: «... إذا حججتم فأكثرُوا النظر إلى بيت الله فإنّ لله مائة وعشرين رحمة عند بيته الحرام، منها ستون للطائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للناظرين...»^(١٠).

إنّ السياحة والزيارة من الأسباب التي يمكن تحصيل المعنوية بها؛ لأنّ البصيرة تحصل بالبصر. ولكن هل يكون لكلّ سياحة ولأيّ زيارة هذا الأثر العظيم، أم يلزم ذلك زيارة خاصّة؟

والهدف من السياحة والنظر إلى الأماكن والآثار التاريخية الموجودة في أنحاء العالم، هو الوقوف على الفنون

إمّا أن يكون طائفاً، وإمّا أن يكون مصلياً، وإمّا أن يكون ناظراً.
فأمّا الطائف، تنزل لصالحه ستون رحمة.

وأما المصلي، فتنزل لصالحه أربعون رحمة.

وأما الناظر - سواء أكان جالساً في المسجد أو قائماً - عندما ينظر إلى بيت الله الحرام، فتنزل لصالحه عشرون رحمة.

وأنت ترى ما أنتج هذا السفر الإلهي من المعنويات والآثار المقدسة، فهل يمكن استنزال الرحمة في سائر الأماكن كاستنزالها في بيت الله الحرام؟

فالسير إلى ديار الوحي، والنفر من الأهل والولدان، للحضور في بلد الله الآمن الذي ﴿سَوَاءٌ أَلْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ...﴾، ليس إلا لباعث معنوي قوي؛ وهو النظر إلى الكعبة، وآيات الله البيّنات، والتوجّه إلى سمات العبودية لله سبحانه وتعالى، وقطع العلاقات عن كلّ شيء وعن كلّ شخص وحتى عن نفسه.

وفي هذه الساحة المباركة - المسجد

المعمارية القديمة وجهود الفنانين في تلك العصور، والعلم بالحضارات والثقافات الفانية التي أحدثتها الملل السابقة، وقد يكون الهدف من السياحة نفس السياحة، وليس شيئاً آخر؛ وحينئذٍ لا يوجد أي باعث معنوي لتلك السياحة ولذلك النظر.

نعم، قلّما يتفق إثارة الباعث المعنوي، كأن يكون الزائر من الأشخاص الذين لا ينظرون إلى الظاهر فقط، بل يتوجّهون إلى المعنى والباطن، وفي أثر هذا يدّخرون الحسنات ليوم المعاد.

ثمّ إنّه ليس للنظر ثواب ورحمة إلاّ في بعض الأشياء، كالنظر إلى وجه العالم، ونظر الولد إلى وجه والديه و...، وأما النظر إلى الكعبة الشريفة، فله ثواب أكثر لم يرد في الأحاديث مثله. إنّ ساحة المسجد الحرام مملوءة بالرحمات الكثيرة، ولا يمكن الحصول على هذه الخيرات إلاّ في هذا المكان المقدّس، فالزائر لبيت الله الحرام والمتواجد فيه، لا يخرج من هذه الحالات الثلاث:

الحرام - يمكن إحساس اللحاق بالله تعالى وبالخلد والخلود والرجوع إلى الفطرة السليمة البعيدة من التلوّث والانحراف، «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَخُنُّ لَهُ عَابِدُونَ»^(١١).

إقرار العبد عند البيت

إنَّ عظمة وجمال المسجد الحرام وخصوصاً الكعبة الشريفة، والأروقة المحيطة بها، والمطاف، ومقام إبراهيم، وحجر إسماعيل والميزاب والحطيم والملتزم والمستجار وبئر زمزم، كلّ منها يشير إلى الذكريات التاريخية المهمة، وأجمل من ذلك مناجاة الناس في المطاف المقدّس بمختلف لغاتهم حينما يبدأ كلّ منهم بالإقرار بالعبودية والتوبة من الذنوب.

والحقّ أنّ هذا المكان الرفيع المقدّس أفضل الأمكنة للإقرار بالذنوب والمعاصي وطلب العفو من الله سبحانه وتعالى.

إنَّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «... أقرّوا عند بيت الله الحرام بما حفظتموه من ذنوبكم، وما لم تحفظوه فقولوا: ما حفظته ياربّ علينا ونسيناه فاغفر لنا». يشعر بذلك المعنى؛ لأنّه لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء.

بذنوبه في ذلك الموضوع، وعدّها وذكرها واستغفر الله جلّ وعزّ منها، كان حقّاً على الله أن يغفرها له»^(١٢).

ينبغي للإنسان أن يكون عارفاً بما يفعل ويعمل، ويلزم عليه أن يحفظ في ذاكرته كلّ أعماله، خصوصاً ما كان منها يحتاج إلى طلب عفو، أو إعطاء حقّ، أو غيرهما. فإذا نسي ما لا بدّ له من الجابر، فلا يمكن للناسي الفرار من سخط الله سبحانه وتعالى وعذابه، سيّما إذا كان ذلك من حقوق الناس.

ولنعم ما قال صاحب تفسير آلاء الرحمن، العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي رحمته الله حول هذا الموضوع، حيث قال: «... إنّ كثيراً من النسيان والخطأ ما يقع بسبب التساهل والتقصير في التحفّظ لتحصيل ما كلّف به، وهذا ممّا لا تقبح فيه المؤاخذه على مخالفة الواقع، فطلبوا من الله أن لا يؤاخذهم في ذلك»^(١٣).

فقوله عليه السلام: «... وما لم تحفظوه فقولوا: ما حفظته ياربّ علينا ونسيناه فاغفر لنا». يشعر بذلك المعنى؛ لأنّه لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ﴾^(١٤).

وقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾^(١٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(١٦).

ثم إنه لا يخفى على المتدبر أن النسيان من النعم الكبيرة التي رزقها الله تعالى عباده، فلو لم يكن النسيان وكان الإنسان متذكراً دائماً بما أصابه من المصيبات والغموم والهموم، وبما ظلمه الظالمون، لم يبق حجر على حجر، ولكثرت الأحقاد والضغائن، والحوادث الدامية في المجتمع.

فالناظر إلى بيت الله الحرام، والحاضر في تلك الساحة المقدسة، يحق أن يباهي جميع الناس بأنه الزائر وأن المزور يغفر لزاره، ويا حبذا من هذا المقام المنيع، يقرّ العبد في ذلك المكان المقدس الطاهر بذنوبه، والله سبحانه وتعالى يغفرها.

وبما أن الإنسان محلّ للزلّة والخطأ، فلا بدّ وأن يجد مكاناً لغفران ذنوبه

وزلاته، فهل يوجد مكان أفضل من المسجد الحرام لذلك الغرض؟ ولهذا أمرنا الإمام عليه السلام بالحضور الدائم فيه وأوصى الناس أن لا يتركوا البيت العتيق خالياً:

قال عليه السلام في وصيته لابنه الحسن المجتبي عليه السلام: «... الله الله في بيت ربكم فلا يخلو منكم ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا وأدنى ما يرجع به من أمّة أن يغفر له ما سلف»^(١٧).

إن الإمام عليه السلام لم يوص بهذا الأمر فقط، بأن لا يخلو البيت وأن يكون دائماً مملوءاً من المستغفرين، بل إنه عليه السلام عمل بهذا المعنى ليعلمنا كيف نستغفر الله وكيف نتقرب إليه؟! وإليك بعض النصوص الواردة في هذا الأمر:

كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا صعد الصفا استقبل الكعبة ثم يرفع يديه ويقول: «اللهم اغفر لي كلّ ذنب أذنبته قطّ، فإن عدتُ فعد عليّ بالمغفرة، فإنك أنت الغفور الرحيم، اللهم افعل بي ما أنت أهله، فإنك إن تفعل بي ما أنت أهله ترحمني، وإن تعذبني فأنت غني عن عذابي وأنا محتاج إلى رحمتك، فيامن

فقال ﷺ : «لَأَنَّ الكعبة بيته والحرم باب، فلَمَّا قصدوه وافدين، وقفهم بالباب يتضرعون». قيل له: فالمشعر الحرام لِمَ صار في الحرم؟

قال ﷺ : «لَأَنَّهُ لَمَّا أذن لهم بالدخول وقفهم بالحجاب الثاني، فلَمَّا طال تضرعهم بها أذن لهم بتقريب قربانهم، فلَمَّا قضوا تفتتهم تطهروا وبها من الذنوب التي كانت حجاباً بينهم وبينه، أذن لهم بالزيارة على الطهارة».

قيل: فَلِمَ حرّم الصيام أيام التشريق؟ قال ﷺ : «لَأَنَّ القوم زوّار الله، فهم في ضيافته، ولا يجمل بمضيف أن يصوم أضيافه».

قيل: فالتعلّق بأستار الكعبة لأيّ معنى هو؟

قال ﷺ : «هو مثل رجل له عند آخر جناية وذنوب، فهو يتعلّق بثوبه يتضرّع إليه ويخضع له أن يتجافي عن ذنبه»^(٢٠).

الرمي

لسنا الآن بصدد بيان فلسفة أحكام الحجّ وكم لها من علل وأسباب، بل

أنا محتاج إلى رحمته ارحمني، اللَّهُمَّ لا تفعل بي ما أنا أهله، فَإِنَّكَ إِن تفعل بي ما أنا أهله تعذبني ولن [لم] تظلمني، أصبحتُ أتقي عدلك، ولا أخاف جورك، فيا من هو عدلٌ لا تجور ارحمني»^(١٨). الوقوف

لقد بلغت أركان الحجّ مرتبة رفيعة من الأهميّة، بحيث لو ترك واحدة منها لبطل الحجّ ويجب على التارك التدارك في العام المقبل.

ومن تلك الأركان: لزوم الوقوف بالموقفين، عرفات والمشعر الحرام. فالحاجّ بعد أن أحرم في الحرم يجب عليه أن يخرج من الحرم حتى يهتّي نفسه للدخول فيه مرّة أخرى.

ولا يكاد يسمح للحاجّ الدخول في الحرم الآمن إلّا بعد أن يتعب نفسه في أداء المناسك، والصبر على الحرّ والبرد، وصرف المال الحلال؛ لَأَنَّهُ إِن صرف المال المشتبه في هذا السفر المعنوي لم يصحّ حجّه، ولا يصير حاجّاً، فحينئذٍ بقي العناء وذهب الأجر ولا العكس.

إِنَّ أمير المؤمنين ﷺ سُئل عن الوقوف بالجبل^(١٩)، لِمَ لم يكن في الحرم؟

أردنا أن ننظر إلى البُعد المعنوي الذي به قوام الحكم، وفي ضوئه يتضح طريق الحق ومسيرة الفلاح.

ولا يستثنى الرمي هنا، إن رمي الجمار ليس المقصود به مجرد رمي الجمرات الثلاث؛ الأولى والوسطى والعقبة بعدد من الحصى، بل الرمي هو رمي الشيطان، فبالرمي يبتعد الإنسان المؤمن عن الشيطان، ويتقرب أكثر فأكثر من حضرة الحق، ولا يحصل ذلك للرامي إن كان من حزب الشيطان، وبالتالي فلا يرمي إلا نفسه، فيجب عليه أولاً أن يخرج من ذلك الحزب الخاسر، حتى يستطيع اللحاق بحزب الله تعالى.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الجمار إنما رميت لأن جبرئيل حين أرى إبراهيم المشاعر برز له إبليس، فأمره جبرئيل أن يرميه، فرماه بسبع حصيات، فدخل عند الجمرة الأخرى تحت الأرض فأمسك، ثم برز له عند الثانية فرماه بسبع حصيات أخر، فدخل تحت الأرض موضع الثانية، ثم إنه برز له في موضع الثالثة فرماه بسبع

حصيات، فدخل في موضعها» (٢١). وقد نقل عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رمي الجمار ذخر يوم القيامة» (٢٢). وقال ﷺ أيضاً: «الحاج إذا رمى الجمار خرج من ذنوبه» (٢٣).

فتبين من جميع ما ذكر أن الرمي ليس عملاً عبادياً جافاً فقط، إنه عمل معنوي مقارن مع قصد القربة إلى الله سبحانه وتعالى، ويفسد هذا العمل بسبب الرياء الذي هو جند من جنود إبليس.

الذبح

إن الأضحية من الواجبات التي أوجبها الله في الحج. ويرجع ذلك إلى الامتحان الذي ابتلى إبراهيم الخليل ربه به، وقال عز من قائل: «... قَالَ يَا بُنَيَّ إِنَّنِي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ» (٢٤).

وإبراهيم عليه السلام علم في المشعر الحرام بأن وظيفة هي (ذبح ابنه). روى علي ابن إبراهيم في تفسيره ذيل هذه الآية الشريفة رواية نقل فقرات منها:

صَدَقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ
الْمُبِينُ * وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ *
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ
عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾ .

وصار الذبح سنَّةً ودخل في الإسلام
كواجب شرعي، فوجب على كلِّ حاج
أن يشتري من صفو ماله هدياً ليذبحه .
لقد ذكر العالم والعارف الربَّاني ملا
أحمد النراقي رحمته الله كلاماً ننقل منه بعض ما
يرتبط بالذبح: «... إنَّ الحاج عندما
ذبح هديه، يتنبَّه أنَّ هذه الذبيحة تشير
إلى حقيقة هي: بسبب الحجِّ قد ظفرتُ
على الشيطان والنفس الأمَّارة وقتلت
كليهما وفرغت من العذاب الإلهي . وبعد
هذا (الذبح) لزم أن يتعهَّد على عدم
تراجعه أبداً إلى فعل المعاصي التي
ارتكبها سابقاً، وأن يتوب عن الأعمال
القبیحة . ويلتزم أيضاً أن يكون صادقاً
في هذا الميثاق . ثمَّ إنَّه قد أظهر الحاج
بعمله هذا أنَّه طرد الشيطان وبادر على
تذليل النفس الأمَّارة» (٢٧) .

«ثمَّ أمره الله بالذبح، فإنَّ إبراهيم عليه السلام
حين أفاض من عرفات بات على
المشعر الحرام وهو فزع فرأى في النوم
أن يذبح ابنه... وأقبل شيخ [ظهر
الشيطان في صورته] فقال: يا إبراهيم!
ما تريد من هذا الغلام؟
قال: أريد أن أذبحه .

فقال: سبحان الله! تذبح غلاماً لم
يعص الله طرفه عين! .
فقال إبراهيم عليه السلام: إنَّ الله أمرني
بذلك .

فقال: ربُّك ينهاك عن ذلك وإنَّما
أمرك بهذا الشيطان .

فقال له إبراهيم عليه السلام: ويلك إنَّ الذي
بلغني هذا المبلغ هو الذي أمرني به،
والكلام الذي وقع في أذني...» (٢٥) .

فلما تبَيَّن أنَّه عليه السلام عازم جداً لذبح
ابنه، أرسل الله سبحانه وتعالى له كبشاً
عوضاً عنه، حيث قال سبحانه:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ
أَنِّي أَدْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا
أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ
اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ
لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ

ولا يخفى أنّه إذا احتاج أداء الواجب الشرعي لصرف الأموال وبذل النقود فحينئذٍ يكشف البخيل عن الجواد ويفترق المؤمن المنقاد عن غيره وهكذا.

إنّ بذل المال بلغ مرتبة من الأهميّة بحيث صار تلواً لبذل النفس، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ...﴾ (٢٨) بل المال عند كثير من الناس صار أهم من النفس، فوا سوأنا! لو ترى من يعيش لجمع المال ولا يصرف المال ليعيش!

والحاجّ حينما وصل إلى منى وصرف المال لأداء الواجب الشرعي، ألا وهو الذبح، فقد رغم أنف الشيطان وهياً أرضية مناسبة لغفران ذنبه وقبول توبته.

قال الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «لو علم الناس ما في الأضحية لاستدانوا وضخّوا، إنّه ليغفر لصاحب الأضحية عند أوّل قطرة تقطر من دمه» (٢٩).

وقال عليه السلام أيضاً: «سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب يوم النحر، وهو يقول: هذا يوم الثَّجِّ والعَجِّ. والثَّجُّ؛ ما تهريقون فيه من الدماء، فمن صدقت نيّته كانت أوّل قطرة له كفارة لكلّ ذنب. والعَجُّ؛ الدعاء، فعجّوا إلى الله، فوالذي نفس محمّد بيده لا ينصرف من هذا الموضع أحد إلا مغفوراً له، إلا صاحب كبيرة مصرّاً عليها لا يحدث نفسه بالإقلاع عنها» (٣٠).

فقد تبين أنّ الذبح طريق لاستنزال رحمة الله وغفرانه وقد علّمنا الرسول ﷺ والإمام عليه السلام أنّ هذا الطريق سبب لقبول توبة العباد وغفرانهم.

ولما للذبح من أهميّة وفوائد نرى الإمام عليّاً عليه السلام يضحى عن رسول الله ﷺ ويقول في بداية الذبح: «بسم الله، وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين، اللّهم منك ولك، اللّهم هذا عن نبيّك»، ويذبح كبشاً آخر عن نفسه (٣١).

الهوامش :

- (١) تذكرة المتقين، لآية الله الشيخ محمد البهاري الهمداني رحمته الله.
- (٢) نهج البلاغة، فيض الإسلام، الكتاب رقم: ٦٩.
- (٣) تاريخ دمشق ٢: ٤٦٤، تحت الرقم ٩٩١ من ترجمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. ومناقب الإمام أمير المؤمنين، لمحمد بن سليمان الكوفي القاضي، من أعلام القرن الثالث ٢: ٥٥٨.
- (٤) سورة آل عمران ٣: ٩٧.
- (٥) العصران: هما الغداة والعشي، على سبيل التغليب.
- (٦) ذيدت: أي دُفعت ومُنعت، مبني للمجهول من «ذاده يذوده» إذا طرده ودفعه.
- (٧) بالكسر: ورودها.
- (٨) نهج البلاغة، الدكتور صبحي الصالح، كتاب رقم: ٦٧، الصفحة: ٤٥٧.
- (٩) نهج البلاغة، فيض الإسلام: ٩٦٦.
- (١٠) تحف العقول: ١٠٧.
- (١١) سورة البقرة: ١٣٨.
- (١٢) تحف العقول: ١٠٧.
- (١٣) تفسير آلاء الرحمن ١: ٢٥٢ - ٢٥٣.
- (١٤) سورة ق: ١٨.
- (١٥) سورة الطارق: ٤.
- (١٦) سورة آل عمران: ٥.
- (١٧) تحف العقول: ١٩٨.
- (١٨) وسائل الشيعة ١٣: ٤٧٨.
- (١٩) المراد هو جبل الرحمة بعرفات.
- (٢٠) وسائل الشيعة، الباب ٢ من أبواب أقسام الحج، الحديث رقم ١٨.
- (٢١) وسائل الشيعة، الباب ٤ من أبواب العود إلى منى، الحديث رقم ٦.
- (٢٢) وسائل الشيعة، الباب ١ من أبواب رمي جمرة العقبة، الحديث رقم ٧.
- (٢٣) المصدر نفسه.
- (٢٤) سورة الصافات: ١٠٢.

- (٢٥) تفسير علي بن إبراهيم القمي ٢: ٢٢٤-٢٢٥.
- (٢٦) سورة الصافات: ١٠٢-١١١.
- (٢٧) كتاب مصباح الشريعة الباب ٢٢، الصفحة: ١٤٢، مجلة الميقات الفارسية العدد ٧، الصفحة: ٤٨، ١٣٧٣هـ. ش.
- (٢٨) سورة التوبة: ١١١.
- (٢٩) وسائل الشيعة، المجلد ١٤، الباب ٦٤ من أبواب الذبيح، الحديث رقم ٢. الحج في السنة: ٢٦٣.
- (٣٠) الحج والعمرة في الكتاب والسنة: ٢٣٥.
- (٣١) وسائل الشيعة، المجلد ١٤، الباب ٣٧ من أبواب الذبيح، الحديث رقم ٢.

الكعبة المشرفة: سرُّ البناء والموقع (قراءة في خطبة القاصعة)

عبد السلام زين العابدين

احتلَّ حديث الإمام عليٍّ عليه السلام حول الكعبة المشرفة في خطبة (القاصعة) مساحةً واسعةً، ركّز فيها على سرِّين أساسيين:

السرُّ الأوّل: طبيعة البناء (أحجارٌ لا زمرد، ولا ياقوت).

السرُّ الثاني: طبيعة الموقع (جبالٌ خشنة ورمالٌ دمثة).

لقد كشف الإمام عليه السلام أسرار كون بيت الله الحرام من أحجار «لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع».

لماذا كانت الأسس والبناء من حجارة، وليس «من زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونورٍ وضياء»؟!

ولماذا كان الموقع الجغرافي «بأعور بقاع الأرض حجراً، وأقلّ نتائق الأرض مدرّاً، وأضيّق بطون الأودية قطراً، بين جبالٍ خشنة ورمالٍ دمثة وعيون وشلة»؟!

لماذا لم يضع الله - عزّ وجلّ - بيته الحرام ومشاعره العظام «بين جنّات وأنهار،

وسهلٍ وقرار، جمّ الأشجار، داني الثمار، ملتفّ البناء، متّصل القرى، بين بُرّةٍ سمراء، وروضة خضراء، وأريافٍ محدّقة وعراضٍ مغدّقة، ورياضٍ ناضرة، وطرق عامرة»^(١)!

وبكلمةٍ واحدة: لماذا كانت الكعبة أحجاراً بوادٍ غير ذي زرع؟! أسئلةٌ مهمّةٌ يجيب عنها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في خطبة هي من أروع خطبه التي جمعها الشريف الرضي في نهج البلاغة تسمّى (القاصعة).

المبحث الأول

خطبة القاصعة: الهيكلية ودلالات السياق

جاء في الحديث عن مكّة والكعبة في سياق خطبة القاصعة منسجماً مع محورها العام، وموضوعها الأساس الذي ركّزت عليه من أوّلها إلى آخرها، وفي جميع فقراتها.

وقد سمّيت الخطبة بـ (القاصعة) لأنّها تزيل الكبر عن قلب سامعها أو قارئها إذا أصغى قلبه إلى كلماتها، كما يقصع الماء العطش، من قَصَعَ بمعنى أزال، أو لأنّها تحقر وتشجب المتكبرين والمترفين الذين ينازعون الله رداء عزّه وكبريائه، قصع بمعنى حقر وصعّر، وقيل غير ذلك.

يطرح العلامة ميثم البحراني وجوهاً أربعة قد ذكرها الشارحون لنهج البلاغة في معنى (القاصعة) جاء الوجه الثالث منها: «سمّيت بذلك لأنّها هاشمة كاسرة لإبليس، ومصغّرة ومحقّرة لكلّ جبّار، وهو وجه حسن»، أمّا الوجه الرابع: «لأنّها تسكّن نخوة المتكبرين وكبرهم فأشبهت الماء الذي يسكّن العطش، فيكون من قولهم: قصّع الماء عطشه إذا سكّنه وأذهب»^(٢).

وجاء في بحار الأنوار للعلامة المجلسي في معنى (القاصعة) «من قصع فلانٌ

فلاناً: أي حقّره؛ لأنّه ﷺ حقّر فيها حال المتكبرين»^(٣).
تبدأ خطبة (القاصعة) بتقرير حقيقة إذا غفل عنها الإنسان أصابه الكبر؛ ألا وهي أنّ «العزّ والكبرياء» لله عزّ وجلّ فحسب، لا يشاركهما فيه أحد: «الحمد لله الذي لبس العزّ والكبرياء، واختارهما لنفسه دون خلقه، وجعلهما حمىً وحرماً على غيره، واصفاهما للجلال، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده».

المستكبرون عبر التاريخ: نماذج ومصاديق

ثمّ تبدأ فقرات الخطبة باستعراض المصاديق الصارخة لأولئك الذين نازعوا الله رداء العزّة والكبرياء، فعاشوا الاستكبار والاستعلاء، منذ مرحلة التمهيد للخلافة (دور جنة آدم ﷺ) وهي مرحلة ما قبل هبوط آدم، إلى الأرض، إلى (الناكثين) و(القاسطين) و(المارقين) الذين قاتلهم عليّ ﷺ، وجاهدهم ودوّنهم!

المصداق الأول: إبليس إمام المتعصّبين وسلف المستكبرين؛ لذا فإنّ خطبة القاصعة تبدأ بمصداق الاستكبار الأوّل إبليس الذي هو أوّل من قال (أنا)، فأسّس الأنبيّة والأناية: «أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين»، لذلك أباى السجود بقوله: «أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً»، «أَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِإٍ مَسْنُونٍ»:

«ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقرّبين، لتمييز المتواضعين منهم من المستكبرين، فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب، ومجوبات الغيوب:

﴿إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ اعترضته الحميّة فافتخر على آدم بخلقه، وتعصّب عليه لأصله. فعده الله إمام المتعصّبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية ونازع الله رداء الجبريّة، وادّرع لباس

التعزّز، وخلع قناع التذلل. ألا ترون كيف صغّره الله بتكبره، ووضّعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحوراً، وأعدّ له في الآخرة سعيراً؟!». ولم يكن إبليس شخصاً عادياً، فله تأريخ عبادي طويل، ترسمه خطبة (القاصعة) بأبلغ وصف:

«فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهد، وكان قد عبد الله ستّة آلاف سنة، لا يُدرى أمّن سني الدُّنيا أم من سني الآخرة، عن كبر ساعة واحدة». ثمّ يتساءل أمير المؤمنين (عليه السلام) محذراً:

«فمن ذا بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته؟ كلاً»

المصداق الثاني: قابيل

«ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمّه من غير ما فضل جعله الله فيه سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد، وقدحت الحميّة في قلبه من نار الغضب، ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذي أعقبه الله به الندامة، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة».

المصداق الثالث: فرعون الطاغية

وفي سياق التحذير من طاعة السادات والكبراء والأدعياء «الذين تكبروا على حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم»، والاعتبار «بما أصاب الأمم المستكبرين... من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته»^(٤)، يذكر الإمام (عليه السلام) مصداقاً صارخاً للطاغية المستكبر الذي ما فتئ يدقّ على طبل «أنا ربكم الأعلى» و«ما علمت لكم من إله غيري»:

«ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون (عليهما السلام) على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصيّ فشربا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزّه، فقال: «ألا تعجبون من هذين يشربان لي دوام العزّ وبقاء الملك وهما بما ترون من حال

الفقر والذلّ، فهلاً أُلقيَ عليهما أساورُهُ من ذهب»؟ إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه!. ولو أراد الله لأنبياؤه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان^(٥)، ومعادن العقيان^(٦)، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السماء، ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء^(٧)، وبطل الجزاء^(٨)، واضمحلت الأنبياء^(٩)، ولما وجب للقابليين أجور المبتلين، ولا استحقّ المؤمنون ثواب المحسنين^(١٠)، ولا لزمّت الأسماء معانيها^(١١).

«ولكنّ الله سبحانه جعل رسله أولى قوّة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى».

وفي هذا السياق؛ سياق الحديث عن الابتلاء في ساحة الصراع، وميدان المواجهة بين المترفين والأنبياء، وسرّ ما يعيشه الأنبياء ﷺ، على مرّ التاريخ، من استضعافٍ ومحنةٍ ومعاناةٍ وخصاصة، لأسباب ومقاصد عديدة.. عرّج الإمام ﷺ على مكّة المكرمة والكعبة المشرفة كمصداقٍ من مصاديق الاختبار والابتلاء، من خلال طبيعة المادّة والبناء أولاً، وطبيعة الموقع الجغرافي الصعب ثانياً.

المبحث الثاني

طبيعة البناء: حجارة صماء لا ياقوتة خضراء

النصّ الأوّل: «ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم - صلوات الله عليه - إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً!»

النصّ الثاني: «ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونورٍ وضياء، لحفّف ذلك مصارعة الشكّ في

الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفي معتلج الرّيب من الناس . ولكنّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبّدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فُتِحَتْ إلى فضله، وأسباباً ذُلّاً لعفوه» .

في هذين النصّين الرائعين يرسم أمير المؤمنين سرّاً طبيعة بناء الكعبة المتواضع المتكوّن من أحجار جامدة، ينظر إليها الناظر فيراها لا تمتلك شعوراً ولا إحساساً .. فلا بصر ولا سمع، ولا ضرر ولا نفع .. ومع كلّ ذلك يسعى الحجاج للطواف حولها بكلّ خشوع واستكانة وخضوع . بل نراهم (يتقاتلون) على استلام الحجر الأسود والسلام عليه ومعاheadته!! وهو لا يملك بريق الزمرّد، وتلاّء الياقوت ..

وفي ذلك سرّ كبير يكشفه لنا أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبته القاصعة .. لأنّ البناء لو كان من «زمرّد خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لحفّف ذلك مصارعة الشكّ في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس في القلوب، ولنفي معتلج الرّيب من الناس» .

ما معنى ذلك؟ وكيف يحصل كلّ ذلك؟

لقد أراد الله عزّ وجلّ أن يكون القصد لبيته الحرام نابعاً من معاناة ووعي وإيمان، خالصاً من الدوافع المادّية العاجلة .. ولو كان البيت من تلك الأحجار النفيسة (الزمرّد والياقوت) :

أولاً: «لحفّف ذلك مصارعة^(١٢) الشكّ في الصدور»، لأنّ نفاسة تلك الأحجار هي التي تدفعهم إلى التصديق والاعتقاد بأنّ البيت بيته، كما تدفعهم إلى الطواف حولها .

ثانياً: «ولوضع مجاهدة إبليس في القلوب»، لأنّ قصد البيت وزيارته تكون من منطلق الانبهار بجواهره، والتأثّر بדרره ونفاسة أحجاره، والتمتّع برؤية زينته

ومنظره، وليس من منطلق مجاهدة إبليس الداعي إلى التخلف عن حجه وإيثار الدعة والسلامة على قصده.

ثالثاً: «ولنفى معتلج الرّيب من الناس»، أي لزال تلاطم واضطراب الريب والشك من صدور الناس.

إشكالية ابن أبي العوجاء:

لو لم يكن البيت من أحجار عادية لما تحقّق الابتلاء الإلهي والاختبار الربّاني للإنسانية على طول مسيرتها التاريخية: «من الأوّلين من لدن آدم ﷺ إلى الآخرين من هذا العالم»، حيث تنجلي قصّة العبودية لله عزّ وجلّ، والطاعة لأوامره فيما شرعه من مناسك الحجّ من طواف وسعي ورجم قد ينظر إليها من لم يدرك أسرارها ومقاصدها أنّها حركات غير عقلائية لا يمارسها إلا الذين اختلّت عقولهم.. فما قيمة الطواف حول بيت من حجارة صماء، والسعي بين جبلين صلدين، والرجم لأحجار كبيرة بأحجار صغيرة، واستلام حجر أسود كالفحم، وما إلى ذلك من المناسك والممارسات؟

وهذا النمط من التفكير كان يراود بعضهم في زمن الأئمة عليهم السلام من أمثال ابن أبي العوجاء، فخاطب الإمام الصادق عليه السلام قائلاً:

«إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر، من فكر في هذا أو قدّر، علم أنّ هذا فعل أسسه غير حكيم ولا ذي نظر».

ثمّ خاطب الإمام قائلاً:

«فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه وأبوك أسّه ونظامه؟»

فأجابه الإمام عليه السلام قائلاً:

إنّ من أضلّه الله وأعمى قلبه استوخم الحقّ، فلم يستعذ به وصار الشيطان وليّه، يورده مناهل الهلكة ثمّ لا يصدره».

«وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه ، فحثهم على تعظيمه وزيارته ، وقد جعله محلّ الأنبياء وقبلة المصلّين ، فهو شعبة من رضوانه وطريق يؤدّي إلى غفرانه ، منصوب على استواء الكمال ، ومجتمع العظمة والجلال ..»^(١٣) .

فقد أكّد الإمام في المقطع الأوّل من جوابه على مدى ضلال تلك النظرة ، وعمى قلب صاحبها ، ممّا تجعله يستوخم الحقّ ، ولا يدرك مدى دلالات وإيحاءات تلك المناسك المشحونة بالدلالات والإيحاءات .

وأعطى في المقطع الثاني بعضاً منها ، كان أوّلها استعبد الله خلقه بهذا البيت «ليختبر طاعتهم في إتيانه» .

وهكذا نلتقي بمقصد الابتلاء والاختبار الذي أكّده خطبة القاصعة : «ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم - صلوات الله عليه - إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع ...» .

الحجر الأسود: تجديد العهد والميثاق

لا يتصورنّ أحد أنّ مناسك الحجّ هي مجرد فعاليات تقام تعبداً ليس إلّا ، من دون أن تختزن أسراراً وبواطن وقيماً وتاريخاً .. لننظر إلى الحجر الأسود - مثلاً - مجرداً عن كلّ تاريخ ومعنى ، بعيداً عن عالم الملكوت .

مرّ عمر بن الخطّاب على الحجر الأسود . فقال : والله يا حجر إنّنا لنعلم أنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع ، إلّا أنّنا رأينا رسول الله ﷺ يحبّك فنحن نحبّك .

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : كيف يا ابن الخطّاب ! فوالله ليبعثنّه الله يوم القيامة وله لسانٌ وشفطان ، فيشهد لمن وافاه ، وهو يمينُ الله عزّ وجلّ في أرضه يبايع بها خلقه . فقال عمر : لا أبقانا الله في بلدٍ لا يكون فيه علي بن أبي طالب^(١٤) .

وسئل الإمام الصادق عليه السلام : لأيّ علّة وضع الله الحجر في الركن الذي هو فيه ؟ ولأيّ علّة يقبّل ؟

فقال عليه السلام : إنّ الله وضع الحجر الأسود ، وهو جوهرة أخرجت من الجنة إلى

آدم ﷺ فوضعت في ذلك الركن لعلّة الميثاق، وذلك أنّه لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريّاتهم حين أخذ الله عليهم الميثاق في ذلك المكان..
وأما القبلّة والاستلام فلعلّة العهد تجديداً لذلك العهد والميثاق، وتجديداً للبيعة ليؤدّوا إليه العهد والميثاق، وتجديداً للبيعة ليؤدّوا إليه العهد الذي أخذ الله عليهم في الميثاق، فيأتوه في كلّ سنة ويؤدّوا إليه ذلك العهد والأمانة اللذين أخذوا عليهم. ألا ترى أنّك تقول: أمانتي أدّيتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة. والله ما يؤدّي ذلك أحدٌ غير شيعتنا - إلى أن قال: - وذلك أنّه لم يحفظ ذلك غيركم، فلکم والله يشهد، وعليهم والله يشهد بالخفر^(١٥) والجحود والكفر...»^(١٦).

وروى الصدوق مثله في (علل الشرائع) عن أبيه عن محمد بن يحيى^(١٧).
وجاء في (علل الشرائع) عن عبدالله بن سنان قال: «بيننا نحن في الطواف إذ مرّ رجل من آل عمر فأخذ بيده رجل فاستلم الحجر فأنهزته وأغلظ له وقال له: بطل حجّك، إنّ الذي تستلمه حجر لا يضرّ ولا ينفع، فقلت لأبي عبدالله ﷺ... فقال ﷺ: كذب ثمّ كذب ثمّ كذب. إنّ للحجر لساناً ذليلاً يوم القيامة يشهد لمن وافاه بالموافاة - ثمّ ذكر حديث خلق آدم وأخذ الميثاق على ذريّته، وأنّ الحجر التقم الميثاق من الخلق كلّهم، إلى أن قال: - فمن أجل ذلك أمرتم أن تقولوا إذا استلمتم الحجر:

أمانتي أدّيتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة يوم القيامة»^(١٨).
ولهذا كان الناس منذ عصر النزول يتقاتلون على استلام الحجر الأسود وتقبيله، رغم استحباب ذلك وعدم وجوبه، ولشدة الزحام على استلامه كان الإمام الصادق ﷺ يترك ذلك لمن يستغرب عليه فعله: «أكره أن أوذي ضعيفاً أو أتأذّى»^(١٩).
وقد أجاب عن سؤال حول امرأة حجّت وهي حبلى يزاحم بها حتى تستلم الحجر؟ فقال ﷺ: «لا تغرّروا بها»^(٢٠).

لذا جاء في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام : «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنِ النِّسَاءِ أَرْبَعًا ، وَعَدَّ مِنْهُنَّ اسْتِلَامَ الْحَجَرِ» (٢١) .

المبحث الثالث: طبيعة الموقع (بين جبال خشنة ورمالٍ دمثة)

لم يكن هناك سرٌّ في طبيعة البناء فحسب ، بل هناك سرٌّ بل أسرارٌ في طبيعة الموقع الجغرافي لبيت الله الحرام ، والذي يعبر عنه القرآن الكريم على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام : «بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» .

وقد ركزت خطبة (القاصعة) على طبيعة الموقع في سياق حديثها عن الاختبار الرباني التاريخي للبشرية في طبيعة البناء :

النص الأول: «ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا ، وَأَقْلَّ تَنَائِقِ الدُّنْيَا مَدْرًا ، وَأَضْيَقَ بَطُونِ الْأُودِيَةِ قُطْرًا ، بَيْنَ جِبَالٍ خَشْنَةٍ ، وَرَمَالٍ دُمَثَةٍ ، وَعَيُونٍ وَشَلَةٍ ، وَقُرَى مَنقُطَةٍ ؛ لَا يَزُكُّو بِهَا خُفًّا وَلَا حَافِرًا ، وَلَا ظَلْفًا» .

إنَّه وصف رائع وبلغ لمدى صعوبة ذلك الموقع على صعيد الجغرافيا .. فقد اجتمعت فيه كلُّ العناصر التي تجعله موقعاً صعباً ، يشقُّ على الحجاج مزاره ؛ فهو ليس بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ فحسب ، بل إنَّه «مِنْ أَضْيَقِ بَطُونِ الْأُودِيَةِ قُطْرًا» و«أَقْلَّ تَنَائِقِ الْأَرْضِ مَدْرًا» و«أَوْعَرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا» !! ، لتكون تلك البقعة للناس رغم صعوبتها وجديتها وضيقها «مَثَابَةً لِمُنْتَجِعِ أَسْفَارِهِمْ ، وَغَايَةً لِمُلْقِي رِحَالِهِمْ» .

النص الثاني: «وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ ، بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ ، جَمِّ الْأَشْجَارِ ، دَانِي الثَّمَارِ ، مَلْتَفِّ الْبُنَى ، مُتَضَيِّلِ الْقُرَى ، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمَاءٍ ، وَرَوْضَةٍ خَضَاءٍ ، وَأَرْيَافٍ مُحَدَّقَةٍ ، وَعِرَاصِي مَغْدَقَةٍ ، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ ، لَكَانَ قَدْ صَغَّرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ» . يقول العلامة ميثم البحراني بخصوص النص الثاني :

«صَغَرَى قِيَاسُ ضَمِيرِ اسْتِثْنَائِي حَذْفَ اسْتِثْنَائِهِ . وَهِيَ نَتِيجَةُ قِيَاسِ آخَرٍ مِنْ مُتَصَلَّتَيْنِ تَقْدِيرِ صَغَرَاهُمَا : إِنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ الْحَسَنَةِ

المهجة لفعل، وتقدير الكبرى: ولو فعل لكان يجب منه تصغير قدر الجزاء على قدر ضعف البلاء، وتقدير استثناء هذه المتصلة؛ لكنّه لا يجب منه ذلك ولا يجوز؛ لأنّ مراد العناية الإلهية مضاعفة الثواب وبلوغ كلّ نفس غاية كماها، وذلك لا يتمّ إلاّ بكمال الاستعداد بالشدائد والميثاق؛ فلذلك لم يرد أن يجعل بيته الحرام في تلك المواضع لاستلزامها ضعف البلاء» (٢٢).

لقد أراد الله عزّ وجلّ لبيته الحرام أن يكون محكّاً لمدى الإرادة والعزم، والتضحية والبذل، والخشوع والخضوع، والحبّ والعشق: «تهوي إليه الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزّوا مناكبهم ذللاً يهلّلون الله حوله، ويرمّلون على أقدامهم شعثاً غبراً له. قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعله الله سبباً لرحمته، ووُصلة إلى جنّته».

وهكذا نلتقي مرّة أخرى بقصّة الابتلاء والامتحان والاختبار والتمحيص.. التي هي سبب الرحمة والوصلة إلى الجنّة، لتكون المعادلة كما ترسمها خطبة «القاصعة»:

«كلّما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل».

معادلة الجزاء على قدر الابتلاء

إنّها المعادلة ذاتها التي أراد الله للكعبة أن تكون من أحجار عادية وليس من زمرد وياقوت، كانت مشيئة الله عزّ وجلّ أن يكون الإنسان (آدم) من طين، يقول عليّ (عليه السلام) في (القاصعة):

«ولو أراد الله أن يخلق آدم من نورٍ يخطف الأبصار ضياؤه، ويبهر العقول رؤاؤه، وطيب يأخذ الأنفاس عرّفه، لفعل. ولو فعل لظلّت له الأعناق خاضعة، ولحفّت البلوى فيه على الملائكة».

ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزاً بالاختبار لهم، ونفيًا للاستكبار عنهم، وإبعاداً للخيلاء منهم».

وهكذا الحال في تفسيره ﷺ للأنبياء في استضعافهم وخصاصتهم: «ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا تُرام، وعزّة لا تُضام، ومُلكٍ تمتدُّ نحوه أعناق الرجال، وتشدُّ إليه عُقد الرجال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة، والحسنات مقتسمة!»!

الكعبة: الامتداد التاريخي

من خلال خطبة القاصعة ندرك أنّ إبراهيم ﷺ لم يكن هو المؤسس الأوّل لبنائها:

«ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم - صلوات الله عليه - إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً».

يتجلّى من خلال هذا النصّ أنّ البيت الحرام من لدن آدم ﷺ.. وقد يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا...﴾، حيث يمكن أن نفهم من الآية أنّ القواعد كانت موجودة، وقد عمل إبراهيم وإسماعيل ﷺ على رفعها.

وقد يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ (٢٣)، شاهداً على ذلك.

ومما يؤيّد ذلك الروايات الكثيرة الواردة عن أهل البيت ﷺ وغيرهم والتي تتحدّث عن (دحو الأرض) من تحت الكعبة، نذكر منها ما جاء في علل الصدوق عن الإمام الباقر ﷺ:

«لما أراد الله أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربن متن الماء حتى صار موجاً ثمّ

أزبد فصار زبدًا واحداً فجمعه في موضع البيت، ثم جعله جبلاً من زبد ثم دحى الأرض من تحته، وهو قول الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ فأول بقعة من الأرض الكعبة، ثم مدّت الأرض منها^(٢٤).

يرى العلامة الطباطبائي أن «الأخبار في دحو الأرض من تحت الكعبة كثيرة، وليست مخالفة للكتاب، ولا أن هناك برهاناً يدفع ذلك».

كما يرى العلامة أن ما ورد من الروايات من أن الكعبة أول بيت بمعنى أول بقعة من الأرض، وأن الظاهر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ ما تشتمل عليه الروايات التي تقول: «قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً»، أو «كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع للعبادة».

بينما يرى العلامة الطبرسي أن الآية فيها دلالة على أنه «لم يكن قبله بيت مبني، وإنما دحيت الأرض من تحتها، وهو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق الله تعالى السماء والأرض من تحتها...»، ثم أمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام «ببنيان البيت على القواعد»^(٢٥).

وينقل الطبرسي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث سئل عن الحطيم -وهو ما بين الحجر الأسود والباب- لم سمي الحطيم؟ قال عليه السلام: «لأن الناس يحطم بعضهم بعضاً، وهو الموضع الذي فيه تاب الله على آدم عليه السلام»^(٢٦).

والبحث التاريخي يحتاج إلى وقفة أكثر تفصيلاً لا يسع لها المقام.

الهوامش :

(١) نهج البلاغة، خطبة ١٩٢ (القاصعة).

(٢) ميثم البحراني، شرح النهج ٤: ٢٣٤.

(٣) شرح نهج البلاغة المقتطف من بحار الأنوار ٢: ٥٢٠.

- (٤) العقوبات.
- (٥) جمع ذهب.
- (٦) نوع من الذهب ينمو في معدنه.
- (٧) البلاء في ساحة الصراع بين المستضعفين والمستكبرين إذ لا مستضعف يبتلي به المتكبرون: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيّا عدوّاً من المجرمين﴾.
- (٨) لأنّ العبادات والطاعات تكون عن رهبةٍ أو رغبةٍ دنيويتين.
- (٩) فلا رسالة ولا رسل.
- (١٠) حيث لا معاناة ولا مجاهدة ولا عطاء ولا تضحية.
- (١١) فلا معنى لكلمة مؤمن ومجاهد وصابر وزاهد.. فتصدق الأسماء بدون مسمّيات.
- (١٢) وقرئ مسارعة، كما قرين مضارعة.
- (١٣) بحار الأنوار ٩٩: ٢٩.
- (١٤) علل الشرائع للصدوق: ٤٢٥، والرواية عن الإمام الصادق عليه السلام ينقلها الشيخ الصدوق بهذا السند: «عن محمد بن الحسن، عن الصفّار، عن علي بن حسن الواسطي عن عمّه عبد الرحمن بن كثير الهاشمي، عن أبي عبد الله عليه السلام. راجع: الوسائل ١٣: ٣٢٠، تحقيق مؤسسة أهل البيت عليه السلام، ط ٣.
- (١٥) خفر العهد: نقضه.
- (١٦) الكافي ٤: ١٨٤، وعنه: وسائل الشيعة ١٣: ٣١٧ باب ١٣ (استحباب استلام الحجر، الحديث ٥).
- (١٧) علل الشرائع: ٤٢٩.
- (١٨) علل الشرائع: ٤٢٥. عنه: وسائل الشيعة ١٣: ٣١٩ - ٣٢٠.
- (١٩) الكافي ٤: ٤٠٩.
- (٢٠) التهذيب ٥: ٣٩٩.
- (٢١) من لا يحضره الفقيه ٢، ١، ٤: ٢١٠، ١٩٤، ٢٦٣.
- (٢٢) شرح النهج للبحراني ٤: ٢٨٢.
- (٢٣) آل عمران: ٩٦.
- (٢٤) تفسير الميزان ٣: ٣٥٦. نقلاً عن (علل الشرائع).
- (٢٥) مجمع البيان ١-٢: ٦٠٦ ط: بيروت عام ١٩٩٢ م.
- (٢٦) المصدر نفسه: ٦٠٧.

دور عليّ في فتح مكّة

عفيف النابلسي - زهير الأعرجي

كان للإمام عليّ عليه السلام دورٌ مهمٌ في فتح مكّة، وقد تكفّلت هذه المقالة بذكر هذا الدور عبر قلمين لعلمين جليّين، كلّ منهما يكمل الآخر.

● بقلم عفيف النابلسي:

إن الدخول الجماعي في الإسلام الذي شهدته قبائل العرب المتاخمة لبلاد الشام بعد غزوة مؤتة لم يهز قريشاً وحلفاءها، ولم تفكر قريش بما قد تصير إليه الأحوال في قاص الجزيرة وأدناها، فظلت على وهما بأن المسلمين قد هزموا في موقعة مؤتة هزيمةً نكراء، وأنهم باتوا في حالة يرثى لها، أقلها الضعف والهوان وهذا ما أعادها إلى مراجعة حساباتها وردّها إلى التفكير بحرب محمد صلى الله عليه وآله، ونبذ مواقفها السابقة معه، وهي المواقف التي أجبرت فيها بعد الحديبية على التخلي عن السيطرة التي كانت لها. وقد أفقدتها تلك المواقف الهيبة التي كانت تتصف بها، وخسرت مكانتها الأولى بعد عمرة القضاء فما عليها إذن والحالة تلك إلا العمل لاستعادة تلك السيطرة كاملة، واسترداد الهيبة والمكانة اللتين كانتا لها غير منقوصتين، وهذا لن

يكون إلا بمقاومة محمد ﷺ مقاومةً ضاريةً، والشروع في قتال من دخلوا معه بحكم عهد الحديبية^(١).

صلح الحديبية :

كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش قد قضى أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يدخلَ في عهد محمد وعقده فليدخل فيه، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يدخلَ في عهد قريش وعقدهم فليدخل فيه. وكانت خزاعة قد دخلت في عهد محمد ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وكانت بين خزاعة وبني بكر ثاراتٌ قديمةٌ سكنت بعد صلح الحديبية، وانحاز كلُّ من القبيلتين إلى فريق المتصالحين، فلما كانت مؤتة - وصل لقريش أن المسلمين قُضي عليهم - خُيِّلَ إلى بني الدَّيْل من بني بكر بن عبد مناة أن الفرصة سنحت لهم، ليصيبوا من خزاعة بثاراتهم القديمة، وحرَّضهم على ذلك جماعة من سادات قريش منهم عكرمة بن أبي جهل، وأمدوهم بالسلاح.

وقوع الحرب :

وبينما خزاعة ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوثير إذ فاجأهم بنو بكر فقتلوا منهم جماعة، ففرت خزاعة إلى مكَّة ولجأوا إلى دار بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي، وشكوا له نقض قريش، ونقض بني بكر عهدهم مع رسول الله ﷺ، وسارع عمرو بن سالم الخزاعي فعدا متوجهاً إلى المدينة حتى وقف بين يدي محمد ﷺ وهو جالس في المسجد فقال :

لا هُمَّ إِنِّي ناشدُ محمداً	حلفَ أبينا وأبيك الاتلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالعراء هجدا	فقتلونا ركعاً وسجدا

فقال له النبي ﷺ : نُصرت يا عمرو بن سالم !
ثم خرج بُدَيْل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا المدينة فأخبروا

النبي ﷺ بما أصابهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، عند ذلك رأى النبي ﷺ أن ما قامت به قريش من نقض عهده لا مقابل له إلا فتح مكة. وعاد وفد خزاعة فرحاً بما حظي من التأييد، وظهرت مخاوف قريش، واجتمع حكامؤها وقرروا بعث أبي سفيان لتجديد العهد، وتمديده إلى عشر سنوات.

أبو سفيان في المدينة :

تأهب أبو سفيان، وسار من وقته وساعته حتى وصل المدينة على وجل خصوصاً بعدما رأى بُديلاً ورفاقه على بعض المياه، وجعل وجهته ابنته أم حبيبة زوجة النبي ﷺ التي تزوجها النبي ﷺ بعدما تركها زوجها وتنصر في أرض الحبشة فخطبها إلى النجاشي. وعادت بعد فتح خيبر مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه والذين كانوا مهاجرين إلى الحبشة.

وأم حبيبة كانت قد عرفت ما حدث، وعرفت ما نوى عليه النبي ﷺ، فلم تهتم بأبيها المشرك. ولما أراد أن يجلس على فراش النبي ﷺ طوته عنه فسألها أبوها: أطوته رغبةً بأبيها عن الفراش أم رغبةً بالفراش عن أبيها ؟

فكان جوابها : هذا فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس عليه. وفوجئ أبو سفيان بما لم يكن يتوقعه من ابنته التي وجهت إليه صفةً جعلته ذليلاً مهيناً فقال لها : لقد أصابك بعدي شرٌّ، قالت : بل هداني الله تعالى للإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر، وا عجباً منك وأنت سيد قريش وكبيرها ! قال : أأتترك ما يعبد آبائي وأتبع دين محمد ؟

وخرج أبو سفيان بعد هذه الصفة مكلوم الفؤاد مضطرب الفكر، مهزوز الجانب مهيض الجناح، لا يدري ماذا يفعل، أيرجع قبل أن يحقق شيئاً، أو يستمر في محاولة يائسة. فذهب إلى المسجد لعله يرى محمداً ﷺ ودخل على الفور يكلمه في توثيق المعاهدة وزيادة المدة، إلا أن الرسول ﷺ لم يرد عليه بشيء، وألح أبو

سفيان والنبي ﷺ لا يجيب، وأصابته الحمى من هذه الصفعة الثانية فخرج على بعض مَنْ كان يعرف من الصحابة، فلم ير من يساعده على مهمته، أو يتكلم مع النبي ﷺ حوله.

دور عليّ ؑ :

الدور الأول:

وكان لا بدّ لأبي سفيان -الذي يعرف مواقع القوة - من أن يلجأ إلى بيت عليّ حيث دخل على أمير المؤمنين ؑ فوجده مع زوجته وعندهما ولداهما الحسن والحسين ؑ.

فقال : يا علي ! أنت أمسّ القوم بي رحماً، قد جئتُ في حاجة ؛ فلا أرجعنّ كما جئتُ خائباً، اشفع لنا عند محمد ﷺ.

فقال عليّ ؑ : ويحك يا أبا سفيان ! والله، لقد عزم رسولُ الله ﷺ على أمر فلا نستطيع أن نكلّمه فيه.

وأدرك أبو سفيان حراجة الموقف فالتفت إلى فاطمة ؑ قائلاً : وأنت يا بنت محمد ! هل لك أن تأمري ابنك هذا - يعني الحسن - فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

قالت فاطمة ؑ : والله، ما بلغ ابني هذا أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

قال : يا أبا الحسن ! إني أرى الأمور قد اشتدّت عليّ فانصحنى. فقال : والله، ما أعلم شيئاً يُغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك.

قال : أو ترى مغنياً عني شيئاً ؟!

قال أبو الحسن : لا والله، ما أظنّ ؛ لكني لا أرى غير ذلك. وقام أبو سفيان فأقّى المسجد، قائلاً : أيها الناس ! إني قد أجزتُ بين الناس،

ولم يلبث أن خرج بركب بعيده، وينطلق عائداً الى مكة، خالي الوفاض، يجرّ أذيال الخيبة والهزيمة، إذ لم يستطع أن يحقق شيئاً مما جاء اليه.

وقدم أبو سفيان على قومه، فسأله ما وراءك يا أبا سفيان ؟

قال : جئت محمداً فكلمته، فوالله، ما ردّ علي شيئاً، ثم جئت بعض أصحابه فوجدتهم أعدى الناس إليّ، ثم جئت علي بن أبي طالب فوجتّه ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله، ما أدري هل يغنيني شيئاً أم لا ؟

قالوا: وبما أمرك ؟

قال : أمرني أن أجير بين الناس ففعلت.

قالوا: فهل أجاز محمد ذلك ؟

قال : لا.

قالوا: ما زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنا ما قلت^(٢).

أرأيت إلى علي الشاب النابغة الذي يزن الرجال بميزان، ويعرف كيف يضرب ضربته الذكية ؟ فهو كمن يطعن خصمه في المعركة فيرديه بكلامه وموقفه ودرايته، ويجعل الخصم المحرب قائد القوم وكبيرهم ولداً وطفلاً لا يدري ماذا يفعل. أرأيت علياً كيف طعن خصمه السياسي دون أن يخرج السيف من غمده ؟ أرأيت إلى العقل الموجه، كيف يفعل فعلته فيشوش على خصومه ما يجعلهم حيرى لا يدرون ما يفعلون ؟

هكذا تعامل علي العبقرى الشاب مع شيخ قريش وسيد كنانة، وأرجعه طفلاً. وهكذا فهم أبو سفيان، وفهم معه قومه أن علياً لعب بأبي سفيان، وضربه ضربة موجعة بعد الضربتين اللتين تلقاهما من ابنته أم حبيبة ومن الرسول ﷺ هذا هو الدور الأول الذي لعبه علي لتسفيه أبي سفيان واذلاله وجعله كالطفل الصغير.

الدور الثاني:

بدأ رسول الله ﷺ يخطط لغزو مكة وفتحها، فأمر بشحذ السلاح وجمعه،

وبعث إلى القبائل المحيطة بالمدينة أن يتأهبوا ويأتوا إلى المدينة، فكانت الوفود تأتي ولكنها لا تعرف وجهة المسير، ووضع الحرس والعيون على المدينة يراقبون كل خارج منها وكل داخل إليها، ويفتشون من يمرّ ليلاً ونهاراً. وبينما هو يتهيأ للمسير نحو مكة تسرب الخبر إلى أحد أصحابه وهو حاطب بن بلتعة الذي رأى أن رسول الله إذا ذهب بهذا الجيش الجرار إلى مكة ربما تكون نهاية قريش وعز عليه ذلك، وكان له فيها أرحام وأقارب، وقد تكون العاقبة لقريش فيكون له عندها يد. هكذا أصحاب النفوس الضعيفة يفكرون في علاقات ذاتية حتى في أخرج الأوقات، ويتخذ لنفسه حصناً يأوي إليه عند تقلبات الأحوال، وهكذا يقوم حاطب بن بلتعة بعملية خيانية لا عهد للمسلمين بها، وهي إيصال أخبار عسكرية سرية إلى الأعداء.

وفكر حاطب في إيصال الخبر كثيراً؛ لأنه خاف من تفشي الأسرار، واقتضاح أمره، فعمد إلى امرأة قينة مغنية أغراها بالمال، وكان هواها في قريش، ولم تكن أسلمت بعد، واتفقا على كيفية وضع الكتاب في ضفائرها لقاء أجر باهض ونسي حاطب أن الله مطلع على كل شيء، وأن الوحي يوصل الأخبار السرية بأقل من لمح البصر. وكان الكتاب يحتوي على أسرار عسكرية بالغة الخطورة عن أهمية الجيش، وعدد الفرسان والرجالة، وكثرة السلاح والخيل والبغال والجمال. وخوفاً من التفتيش العسكري وضعت الكتاب مطوياً في ضفائرها، بحيث لا يمكن لأحد حتى - لو فتشها - أن يهتدي إلى الكتاب، ثم خرجت تسلك طريقاً بعيداً عن عيون الحراس، توههم بالحشمة والحياء، وتتستر بهذه المظاهر، لتخفي جاسوسيتها على الدين وعلى الرسول.

وما إن غادرت المدينة حتى نزل الوحي المبارك يخبر النبي ﷺ بالكتاب، وأين موضعه، وما فعل حاطب، فدهش النبي ﷺ لهذه المفاجأة، وهذه الخيانة من أحد أصحاب بدر، فدعا علياً على الفور، قائلاً له: إن أحد أصحابي كتب إلى أهل مكة

يطلعهم على أخبارنا، وقد كنت سألتُ الله عزَّ وجلَّ أن يعمي أخبارنا عنهم، وقد حملت الكتاب امرأة سوداء فيها أدركها وانتزع منها الكتاب. ثم استدعى الزبير وقال له: اذهب مع ابن عمك وأعنه على تخفيف مأربه، وخرج علي ومعه الزبير فأدركاها في (الحليقة)، وتقدم منها الزبير فسأها عن الكتاب فأنكرت عليه التعرض لها من جانب، والسؤال عما لا يعنيه من جانب آخر، كما أنكرت عليه هذه التهمة الشنيعة، مما جعل الزبير يتردد أولاً، ثم يعود إلى علي يُقنعه بأنه ليس عندها شيء، بعدما بكت المرأة لهذا التعرض والإهانة، وبدأت دموع التماسيح على خديها، وأوشك قلب الزبير أن يرق لها فارتد نحو علي يقول: لم أر معها كتاباً يا أبا الحسن، ولم يلتفت الزبير إلى لازم قوله هذا، الذي يعني تكذيب الوحي، وتكذيب الرسول ﷺ وما كاد علي يسمع هذا القول من الزبير حتى غضب وصاح: ويحك يا زبير! يخبرني رسولُ الله ﷺ بأنها تحمل كتاباً، ويأمرني بأخذه منها، ونأتي لذلك ثم تقول أنت: إنه لا يوجد معها كتاب!

وتظهر قدرة علي عليه السلام وفراسته، وتصديقه المطلق الذي لا شك فيه، ويظهر ضعف الزبير وأنه غير صالح للقيام بهذا الدور إلا برفقة علي عليه السلام. ولم يلبث علي عليه السلام أن اخترط السيف، وتقدم من المرأة قائلاً وعيناه تقدحان شرراً قائلاً لها:

أما والله، لتخرجن الكتاب، أو لنكشفنك، ثم لا ضربن عنقك بسيفي هذا، وحاولت المرأة أن تراوغ كما راوغت مع الزبير، ولكنها رأت عناداً واصراراً، مما جعلها تتأكد بأن الرجل متأكد من وجود الكتاب الذي تحمله، وأنها إن لم ترضخ للطلب سوف تنال عقابها المناسب، وقد يكون هو الموت، وإزاء هذا التخوف على حياتها قالت له: أعرض بوجهك عني، وأشاح علي بوجهه عن المرأة الماكرة فاذا بها تحل ضفائرها، وتخرج منها الكتاب، ثم تدفعه إلى علي، فيأخذه علي عليه السلام دون أن يقول لها شيئاً، ثم يأتي الزبير معه إلى رسول الله ﷺ يسلمانه الكتاب^(٣).

أرأيت معي - أيها القارئ - موقف الزبير الذي يعني أنه لو اقتنع بكلام المرأة

لكذب رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، ولكن يعني أن تفشى الأسرار العسكرية الى الأعداء فيعرفون خطط الهجوم فيفشل.

ولكن اليقين الثابت في صدر علي بصدق رسول الله ﷺ هو الذي جعله يقف موقفاً مميزاً وحاداً، وأنه غير مستعد لسماع كلامها، وقبول أي موقف آخر منها؛ لأنه على يقين بأن الكتاب معها. أخبره بذلك من لا ينطق إلا عن وحي يوحى به إله السماء والأرض، والمطلع على خفايا الأمور وظواهرها.

وعليّ هو الحريص كلّ الحرص أن يبقى للجيش الفاتح هيئته حينما يباغت الآخرين، ويغزوهم في عقر دارهم لتنتهي معركة الفتح دون إراقة دماء. وهيئات هيئات أنى لنا بمثل عليّ وهو النسخة الفريدة والشخصية الوحيدة في عالم اليقين والصدق والاخلاص.

الدور الثالث:

بعدما عثر الإمام علي عليه السلام على الكتاب مع المرأة التي لا تعرف من مضمونه شيئاً، أعمى الأمر على قريش، فلم تعرف شيئاً عن استعداد الرسول ﷺ لفتح مكة، وكان النبي ﷺ قد دعا ربّه أن يعمي أخبار جيشه عن قريش حتى يباغتها كي لا تقع معركة طاحنة في مكة. فالنبي ﷺ يريد الحفاظ على شرف الحرم، وإن كان أهله يستحقون الذبح، لمعاداتهم الشديدة لرسول الهداية، ولكنه محمدٌ رسولُ الإنسانية، المحافظ على القيم. فقد هبّ النبي ﷺ كلّ مقدمات المعركة، وأمر الجيوش بالزحف الهادئ، واستمر حتى وصل الى مر الظهران - وقيل إنه بالبحفة - وهناك أمر الجيش بالنزول، وكان الوقت عشياً فطلب من الناس أن يوقدوا النار، كلّ واحد يشعل ناراً، وكان الغرض من هذا اظهار عظمة الجيش، وقوة العسكر بهذه النار التي ترى من بعيد، حتى تأخذهم الدهشة ولا يفكرون إلا بحماية أنفسهم إما بالإسلام أو بالهروب من المواجهة، ويكون بهذا قد حقّق الفتح الهادئ الذي يحافظ فيه على شرف الكعبة.

وهناك التحق به عمّه العباس، الذي كان بقاؤه بمكة بأمر النبي حيث كان يقدم المعلومات عن قريش، ومظاهرها العسكرية وقوتها الاقتصادية، وما كانت تكيد وتدبر لحرب الرسول ﷺ.

ولما رأى العباس عظمة هذا الجيش الفاتح وقوته تأكد لديه أن الجيش إذا دخل بهذه القوة والعنجهية ستذهب قريش وإلى الأبد. فكان يحاول أن يساعد النبي ﷺ على الفتح الهادئ حتى لا تراق في هذا الفتح محجمة دم. وبينما هو غارق في التفكير لاح بخاطره أن يجول على أطراف المعسكر، لعله يرى آتياً أو ذاهباً، يمكنه أن يوصل خبراً لقيادة قريش حتى تأتي وتستأن لدمها وأموالها، فتحفظ قريش ويحفظ الحرم.

وبينا هو كذلك إذا بأبي سفيان ومعه نفر جاءوا يستمعون الأخبار، وقد أذهلهم ما رأوا من نيران حتى أن بعضهم قال : هذه نار خزاعة، قال أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل. وينادي العباس أبا حنظلة ! فيجيبه أبو سفيان فداك أبي وأمي بعدما عرفه، وهو مندهش من هول ما رأى عدة وعدداً، ثم خاطبه ما ترى في أمرنا ؟ قال : الإسلام - التحق بي حتى لا يقتلك الناس، وأردفه خلفه مؤمناً له مانعاً قتله حتى وصل إلى الرسول الأكرم ﷺ، وعرض عليه الإسلام، ولكنه كان صلب الشكيمة، شديد السخيمة يعزّ عليه فقدان اللات والعزى والهبل الأعلى، وقد حاول عمر بن الخطاب قتله عن طريق إثارة النبي ﷺ وأن الله قد أمكن منه بلا عهد ولا عقد، ولكن العباس الحريص على الإسلام رأى الحكمة في بقاءه، ليرى عزّة الإسلام، وشرف النبي المطرود، وذلة قريش وصغار أبي سفيان، وطلب من أبي سفيان أن يسلم فتمهل، ولكن النبي ﷺ قال لعمّه العباس : أبقه عندك الليلة، وأتني به صباحاً.

وفي الصباح أسلم بعد محاورة قصيرة، وقال العباس للنبي : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، فقال النبي ﷺ في معرض توصياته لرؤساء الجند

وقادة الكتائب : مَنْ ألقى سلاحه فهو آمن، وَمَنْ دخل بيته وأغلق بابه فهو آمن، وَمَنْ دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وكان الغرض من ذلك أن يذهب أبو سفيان، ويخذل الناس عن الحرب ويجلس في بيته، لأنه رجل له قوة تحريضية هائلة على إثارة البلابل، فاسكتته النبي بهذه المكانة المتساوية مع رجل أغلق بابه، ولا شيء غير ذلك.

وفرّح أبو سفيان بهذه الرتبة الجديدة والشرف، وذهب مسرعاً إلى مكة يطلب إلى الناس أن يدخلوا داره، وهو لا يعنيه من الشعارات إلا أمان داره، وهو قادر على تجيير الجو لصالحه، فصار يدعو إلى داره فقط ليوهم الناس أنه وحده قد حظي بهذا الشرف، وهذا ما جعل الآخرين إما يلتزمون بيوتهم، أو يهربون إلى الجبال المحيطة بمكة.

ويزحف الجيش الإسلامي المقدام، ويدخل مكة من طرق أربعة يطوقها من كل مكان حتى لا يفكر أحد في إراقة دم في بيت الله الحرام، وفي البلد الحرام. وذكروا أن النبي ﷺ كان داخلاً وقلبه خاشع لله على هذا التوفيق، ولسانه يردد ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

ومضت فرق الجيش تدخل مكة دون أدنى مقاومة، وقد أخذت الحمية سعد ابن عبادَةَ الأنصاري وهو يميّزُ أمام أبي سفيان بن حرب فقال له : اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبي أو تستحل الحرمة. وتردّد قوله بين المسلمين فنقلوه إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله ! ما نأمن أن يكون لسعد في قريش صولة. وقيل : إن العباس سمع ذلك فقال للنبي ﷺ : يا رسول الله ! أما تسمع ما يقول سعد ؟ فقال النبي ﷺ : لا أمير المؤمنين ﷺ : يا علي ! أدرك سعداً، فخذ الراية منه، وكن أنت الذي تدخل بها مكة. فأدركه أمير المؤمنين ﷺ فأخذها منه، ولم يمتنع عليه سعد بل دفعها إليه. ولم ير رسول الله ﷺ أحداً من المهاجرين والأنصار يصلح لأخذ الراية من

سيد الأنصار سوى أمير المؤمنين علي عليه السلام.

قال الشيخ المفيد رحمته الله : واعلم أنه لو رام ذلك غيره، لامتنع عليه سعد، وكان في امتناعه فسادُ التدبير، واختلاف الكلمة بين الأنصار والمهاجرين، ولم يكن وجه الرأي تولي رسول الله أخذ الراية بنفسه، وولى ذلك من يقوم مقامه، ولا يتميز عنه، ولا يُعظم أحدٌ من المقرين بالملة عن الطاعة له، ولا يراه دونه في الرتبة، وفي هذا من الفضل الذي تخصص به أمير المؤمنين عليه السلام ما لم يشاركه فيه أحد، ولا ساواه في نظير له مساو، وكان علم الله تعالى ورسوله في تمام المصلحة بانفاذ أمير المؤمنين عليه السلام دون غيره ما كشف به عن اصطفاؤه لجسيم الأمور كما كان علم الله تعالى فيمن اختاره للنبوة وكمال المصلحة ببعثه كاشفاً عن كونهم أفضل الخلق أجمعين^(٤).

وهذا الدور لا يحتاج الى تعليق، لأن وضوح أخذ الراية من سعد لا يتم إلا برسول الله ﷺ حيث لا يتنازل سعد زعيم الأنصار إلا للنبي ﷺ، ولما كان سعد يعرف أن علياً هو الرجل الثاني في الإسلام، وأنه سيصبح الرجل الأول سلم الأمر إليه بلا تنازع.

الدور الرابع :

التفاف الجيش الإسلامي على أطراف مكة المكرمة، مكّن النبي ﷺ من السيطرة العامة على المدينة، حيث لم تحدث أية مشكلة تذكر، وطبقت أوامر النبي بعدم سفك الدماء في البلد الحرام.

وأسلم على أثر الفتح سادة مكة، منهم حكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، وجبير بن مطعم، وأقبل أبو سفيان يركض فاستقبلته قريش، وقالوا : ما وراءك وما هذا الغبار ؟ قال : محمد في خلق عظيم، ثم صاح وهو مذعور : يا آل غالب ! البيوت البيوت ! من دخل داري فهو آمن، فعرفت هند زوجته فجعلت تطردهم، ثم قالت : اقتلوا الشيخ الحبيث لعنه الله من وافد قوم، وطليلة قوم. قال لها : ويلك إني رأيت ذات القرون، ورأيت فارس أبناء الكرام، ورأيت ملوك كندة وفتيان

حمير يسلمن آخر النهار، ويلك اسكتي، فقد والله جاء الحقّ ودنت البلية .
وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى المسلمين أن لا يقتلوا بمكة إلا من قاتلهم
سوى نفر كانوا يؤذون النبي ﷺ منهم مقيس بن صباية، وعبد الله بن أبي سرح،
وعبد الله بن خطل، وقينتين كانتا تغنيان مهباء رسول الله ﷺ، وقال : اقلّوهم وإن
وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة. فأدرك ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة
فاستبق إليه سعيد بن حريث، وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عماراً فقتله وقتل
مقيس بن صباية في السوق، وقتل علي بن أبي طالب إحدى القينتين وأفلتت الأخرى، وقتل
أيضاً الحويرث بن نفيل بن كعب.

وبلغ علياً بن أبي طالب أن أخته أم هاني بنت أبي طالب قد أوت ناساً من بني مخزوم،
منهم الحارث بن هاشم، ومقيس بن السائب، فقصده نحو دارها مقنعاً بالحديد فنأدى:
أخرجوا من آويتم، فجعلوا يذرقون كما تذرق الحبارى خوفاً منه، فخرجت إليه أم
هاني وهي لا تعرفه فقالت : يا عبد الله أنا أم هاني بنت عم رسول الله ﷺ وأخت
علي بن أبي طالب، انصرف عن داري، فقال : أخرجوهم. فقالت : الله ! لأشكونك
إلى رسول الله. فنزع المغفر عن رأسه فعرفته فجاءت تشتد حتى التزمته فقالت :
فديتك، حلفت لأشكونك إلى رسول الله ﷺ، فقال لها : اذهبي فبري قسمك فإنه
بأعلى الوادي. قالت أم هاني : فجئت إلى النبي ﷺ وهو في قبة يغتسل وفاطمة عليها السلام
تستره، فلما سمع رسول الله ﷺ كلامي، قال : مرحباً بك يا أم هاني، قلت : بأبي
وأمي ما لقيت من علي اليوم، فقال ﷺ وقد فهم ما تريد : قد أجرت من أجرت،
فقالت فاطمة عليها السلام تشكين علياً عليه السلام، لأنه أخاف أعداء الله، واعداء رسوله، فقلت :
احتمليني فديتك، فقال رسول الله ﷺ : قد شكر الله سعيه وأجرت من أجارت أم
هاني لمكانتها من علي بن أبي طالب^(٥).

هل قرأت معي كيف نفذ الأوامر، وقتل الأعداء، ولاحقهم ولم يتراجع، ولم
يراع بذلك بيوت أهله وأقاربه، ولا بيت أخته الوحيدة، التي لم يرها منذ زمن؟

ولكنه عليّ المعروف بفنائه بالحقّ، ومعاداته لأهل الباطل، وهو القائل : ما ترك لي الحقّ صاحباً. فبينما ترى بعض الصحابة يخاف على أهله لتصور شيطاني، أو يخاف على مستقبل وضعه لظنه أو احتماله غلبة قريش، فإذا به يفشي الأسرار العسكرية، أو يتراجع حين البأس ويفرّ من المعركة، أما علي هو هو في المسجد والمحارب وفي المعركة والمواقف مع الأهل والأخت والابنت والأولاد على حدّ سواء، لا يقدم على الحقّ أحداً.

الدور الخامس :

بعدما لوت مكة جيدها، وأذعنت لبيرق النبوة، وتحولت إلى سلطة الرسول ﷺ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً حيث خرجت الرجال من مخابئها، وأسلمت وخرجت النساء من خدورهن واسلمن، وانضوى الناس في ظل الرسالة الإسلامية، وعادت مكة إلى دورتها الأولى يوم خلق الله السماوات والأرض، وعاد البلد الحرام حيث يحرم فيها سفك الدماء، وأصبحت واحة الأمان والراحة والاطمئنان، دخل النبي ﷺ فاتحاً لا كما يدخل الفاتحون عنوةً بل كما يدخل الرسل المتواضعون ذاكرين ربّه، ناظرين إلى قربوس فرسه، لم يدخل مستعليين ولا مستكبرين وإنما دخل ذاكرين شاكراً مسبحاً مستغفراً.

وبما أن مكة المكرمة كانت مجمع عبادة العرب، ومركز التجمع الصنمي أيضاً، وكان الغرض الأساس من الحرب الفكرية والنفسية والمادية إزالة دولة الصنمية، وتأسيس دولة الإله الواحد الحقّ مكانها، كان لابد من تركيز الألوهية في أذهان الناس، وتحطيم المظاهر الصنمية وقلعها من الأذهان، وتحطيم كل المظاهر الصنمية الموجودة في الكعبة وفي جوارها. قال الإمام الرضا ﷺ - كما في البحار - وكانت ثلاثمائة وستين صنماً حول الكعبة عندما فتح النبي ﷺ مكة فمر بها وجعل يطعنها بمخصرة في يده ويقول : جاء الحقّ وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، فجعلت تكب لوجهها^(٦). وفي رواية ابن شهر آشوب : إن الإمام علياً ﷺ صعد على أكتاف

النبي وكسر الأصنام الموجودة على ظهر الكعبة.
واذكر بعض الأبيات التي أروىها من حافظتي، وكنت قد حفظتها قبل أكثر
من ثلاثين عاماً، والمصدر الآن غير موجود في مكتبتي التي أحرقتها الظالمون.
وهذه هي الأبيات :

قِيلَ لِي قُلْ فِي عَلِيٍّ مَدْحًا ذَكَرَهَا يَطْفِئُ نَارًا مَوْصِدَةً
قُلْتُ هَلْ أُمِدِحَ مَنْ فِي فَضْلِهِ حَارَ ذُو اللَّبِّ إِلَى أَنْ عَبَدَهُ
وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى قَالَ لَنَا لَيْلَةَ الْمَعْرَاجِ لَمَّا صَعَدَهُ
وَضَعَ اللَّهُ عَلَى ظَهْرِي يَدًا فَأَحْسَ الْقَلْبُ أَنْ قَدْ بَرَدَهُ

كان هدف الإسلام محو الصنمية من الوجود الخارجي، بل الوجود الذهني
أيضاً، والعقيدة الصنمية حالة مستعصية، مركوزة في الذهن والوجدان، وبعضهم
رضع عقيدة الصنم وعبادة الصنم مع الحليب فأثني له أن يترك هذه العبادة ولو كانت
خرافة فوقها خرافة ؟ والذي عشق الخرافة ورضع الخرافة، لا يراها خرافة وإنما
يرאהا صحيحة، وهذا هو الجهل المركب. ومشكلة الرسالة كانت مع هذا الجهل
المركب، مع التعقيد النفسي والذهني. فهل كان الرسول بإمكانه غرس العقيدة
الإلهية دون إزالة العقيدة الصنمية من الأذهان ؟ وهل يمكن محوها من الذهن قبل
محوها من الواقع ؟ ومن الذي يساعده على هذه المهمة الصعبة إلا رجل الصعاب،
رجل المواقف، إلا عليّ الذي صعد على كتف النبي، وحمل فأس النبوة بيده القوية
وزنده المتين، حتى كسرها تكسيراً ؟ وبذلك تم الانتصار الحقيقي للإسلام بإزالة كل
آثار الصنمية ومحوها من الوجود.

الدور السادس:

سدانة البيت العتيق في الجاهلية والإسلام مكانة مرموقة، وكان أولاد أبي
طلحة قد ثبتوا هذا الشرف، ولا ينافسهم فيه غيرهم من قريش وظلوا على ذلك

زماناً، وكان رسول الله ﷺ قد قال لعثمان بن أبي طلحة - يوماً من الأيام -: ربما يأتي زمان يكون هذا المفتاح في يدي أضعه حيث أشاء، فهزع عثمان بهذا الكلام. ومن الطبيعي بعد سقوط مكة وفتحها بهذا الجيش المجرار، أن يركز فيها المواقع الأساسية كالسدانة والسقاية والولاية وما إليها، وأحس عثمان بأن أيامهم انتهت فأغلق الباب، وصعد بالمفتاح على السطح، وكأنه أراد أن يختبئ وينجو بهذا العلو فوق سطح الكعبة قائلاً: لو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه - يعني بقي على عناده بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً - وعندها أمر النبي ﷺ علياً ﷺ أن يصعد السطح، ويأخذ المفتاح منه، ولما وصل علي ﷺ إلى عثمان حاول التمتع، ولكن علياً أمسكه فحاول الانفلات، ولكن هيهات فقد أمسكه ذو قوة لو اجتمع جيش عرمرم على إزالته منه لما أمكنه ذلك، ثم لوى يده وأخذ المفتاح منه، وفتح باب الكعبة ودخل الرسول ﷺ إلى الكعبة فصلى ركعتين، فلما خرج سأله عمه العباس أن يعطيه المفتاح فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فأمر النبي ﷺ علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان، فقال: يا علي! أكرهت وأدبت ثم جئت برفق. قال لقد أنزل الله عز وجل بشأنك قرآناً، وقرأ الآية عليه، فأسلم عثمان فأقره النبي ﷺ في يده^(٧).

كل دعوة تحتاج - مهما كانت محقة - إلى قوة تساندها، قوة المال، وقوة الزند والسيف، وقد كان رسول الهداية محمد ﷺ يحتاج إلى الاثنين معاً كغيره من أصحاب الدعوات الصالحة، وقد وفق الله ببال خديجة فانفقت حتى لم يبق منه شيء، وبقي زند علي ﷺ الذي رافق الدعوة الإسلامية حتى ثبتت أركانها. وفروسية علي وقوته وشجاعته كانت لا تخفى على أحد، وكانوا يهابونه صغيراً وكبيراً، وإذا تصدى علي ﷺ لموقف كانوا يعرفونه لا يرجع حتى يفتح الله على يده.

من هنا لم يكن بإمكان عثمان بن طلحة ولا غيره أن يختبئ، أو يصعد على

سطح الكعبة هروباً من وجود هذا الجيش، خصوصاً وجود الذراع التي تطوي الحديد. فهل بإمكانه مقاومة هذا الساعد الذي يحمل الفرس والفارس أو يضرب الفارس المقنع بالحديد فيقده نصفين ؟

ظنَّ عثمان أنه بإمكانه أن يمتنع وهو بعد لم يعرف قدرة علي، وشدة ساعده، كان يسمع في عليٍّ وقوته، والآن تحقق له عندما أمسك علي بيده ماذا حلَّ به. كيف استسلم دون مقاومة كأنه كان أمام أمرين إما أن يقع بدون حركة، أو يقدم المفتاح بدون ضجيج، فكان التسليم للصاعقة الإلهية لسيف علي وساعده؛ ليدخل النبي الكعبة وليعلن موقفه واضحاً دون قتال في هذا البيت العتيق.

الدور السابع:

لا يكفي أن يفتح النبي ﷺ مكة المكرمة ويترك ما حولها من جيوب، يترك المحيط بعيداً عنها عقائدياً وأخلاقياً، بل لابد من الدعوة الشاملة والخير العميم حتى تعود مكة بجوارها وقراها، لتعود أم القرى بأولادها وأحفادها كما أراد لها رب العزة، تمشي في الطريق السوي ليدخل الناس في دين الله أفواجاً. ومن هنا عندما هدأت العاصفة، واستتبَّ الأمن في البلد الحرام، وأمن من آمن، وقتل من قتل، وتحقق النصر الإلهي، ونصر الله عبده وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده. بث السرايا إلى القرى المجاورة تدعو الناس للإسلام، وكانت القرى - التي سمعت بنصر الله، وخذلان قريش - على شيء من الاستعداد تنتظر هذه السرايا؛ لتعلن كلمة التوحيد وتنضوي تحت لواء الدين الجديد.

وكان ممن بعث خالد بن الوليد على رأس سرية إلى بني جذيمة، وكانت بنو جذيمة قد أصابت في زمن الجاهلية عوف بن عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة، وكان من أقارب خالد، فلما وصل خالد إلى القبيلة حملوا السلاح في وجهه، فطلب اليهم إلقاء السلاح فلم يقبلوا الخوف من أخذ النار منهم، قال رجل منهم يقال له جحدم: ويلكم يا بني جذيمة! إنه خالد والله، ما بعد إلقاء

السلاح إلا الأسر، وما بعد الأسر إلا القتل، فأخذ رجال من قومه، وقالوا يا جحدم تريد أن تسفك دماءنا؛ إن القوم قد أسلموا، ووضعت الحرب وأمن الناس وما زالوا به حتى نزعوا منه سلاحه، ووضع القوم السلاح امتثالاً لطلب خالد، فلما وضعوا السلاح أمر بهم فكتفوا، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء، ثم قال: اللهم اني أبرأ إليك مما صنع خالد^(٨).

ثم دعا علياً ﷺ فقال: يا علي أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، فخرج حتى جاءهم، ومعه مال قد بعثه رسول الله ﷺ فودى لهم الدماء، وما أصيب من الأموال حتى إنه ليدي مبلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه، بقيت معه بقية من المال. فقال لهم علي ﷺ حين فرغ منهم: هل بقي لكم دم أو مال لم يود إليكم؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيك هذا المال الباقي احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون، ففعل ووافقوا شاكرين، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر. فقال: أصبت وأحسن، ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليرى بياض ما تحت منكبيه وهو يقول: اللهم اني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات^(٩).

إن تثبيت الدولة يكون بإرخاء رواسي العدل والمساواة بين الناس، والإسلام جاء ليحوأوضاع الجاهلية وما عليها من شتآن ويمشي في الناس بالحق والعدل ولا تزر وازرة وزر أخرى. وما قام به خالد لا علاقة له بالإسلام، بل هو الراسب الجاهلي المتحكم في عقل هذا الرجل الذي أسلم متأخراً ولا تزال رواسب الجاهلية في كيانه، فهو لم يستطع أن يترفع عنها مع أن النبي قال في خطبته البليغة أمام أهالي مكة: كل دم في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين. وكأن خالد لم يسمع أو لم يع ما قاله المصلح الكبير، ولهذا تبرأ منه النبي ﷺ ومن أفعاله، وتأثر لهذه الحادثة النكراء، وبعث علياً الذي هو نفسه ليمثله في رأب الصدع واستنكار الجريمة ودفع

الديات وتعويض الخسائر المادية، حتى ميلغة الكلب - أي الجرن الذي يشرب منه الكلب، وهو وعاء من حجر أو خشب لا قيمة له - حتى يثبت الحق ويرسي دعائم العدل، ومن أولى من علي الأعلم الأقضى بفك الخصومات، وحلّ المشاكل وإرضاء الناس، وإعادة الأمور إلى نصابها؟ علي الحكيم في القضاء، والحكيم في المواقف ومدارة عواطف الناس حتى رجع والقوم مطمئنون كأنه لم يصبهم شيء، فبورك علي وبورك هذا اللطف الرسالي الذي يحمله بين حناياه، عالماً وقاضياً ومدافعاً عن الإسلام الحق.

وقفة عتاب خفيفة مع محمد حسين هيكل:

بلغ كتاب هيكل مجده، حيث وزع على أكثر الدول العالمية المهمة بالتراث، خصوصاً أن هيكل كتب كتابه وفق الأنظمة الحديثة للكتابة، حتى يجعله مرجعاً سهلاً للباحثين الغربيين والشرقيين على السواء، ولكل من أراد أن يدرس حياة محمد ﷺ. والحق أن الكتاب اختصر التاريخ وأجاد كاتبه في كثير من المناسبات، بل خلق في بعض المواقف. والكتاب موفق كما ونوعاً ومنهجاً واسلوباً.

غير أننا ونحن نعتز بأحد أهم كتاب العصر الحديث، نأسف لكاتب من هذا النوع - وهو يسبر أغوار التاريخ ويشهد الحقائق بكل نصاعتها - أن يبقى في ذهنه شيء من رواسب الماضي العفن حيث الحزبية والطائفية المقيتة ونربأ به أن يكون في ذهنه شيء على عليّ إمام المتقين وقائد الغر المحجلين، خصوصاً أن له موقفاً مميزاً في كتابة الطبعة الأولى من كتابه المطبوع في مصر عندما يتحدث عن يوم الدار، ويثبت فيه الوصية لأمر المؤمنين ﷺ ويثور عليه المتعصبون أتباع بني أمية، ويقولون له: هذا عين ما تقوله الشيعة، فيقول لهم: هذا عين ما يقوله التاريخ، ثم يحو ويحذف هذا الكلام من الكتاب عندما يتفق معه على شراء خمسمائة نسخة في الطبعة الثانية، فيهدم بهذا هيكل كل ما بناه من تحقيق علمي نزيه وبحث موضوعي مجرد. وهنا في هذا الموضوع عندما يتعرض لموضوع فتح مكة المكرمة بمجرد علياً

عن أي مكرمة بحذف مقصودٍ واهمال مقصود، وإذا اضطرته حقائق التاريخ التي يكتبها الطبري وابن الأثير واليعقوبي وابن هشام وغيرهم ممن تعرضوا لأكثر تفاصيل الفتوحات المباركة، يختصرها اختصاراً يكاد معه يحو ذكر الحادثة. فهو مثلاً في مسألة الراية لا يذكر العباس ولا يذكر علياً عليه السلام، وفي مسألة أم هاني لا يذكر علياً وفي مسألة هدور دم الأعداء الألداء في العداوة الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم علياً بقتلهم لا يذكر علياً، وفي مسألة تكسير الأصنام يتجاهل علياً تماماً، وهكذا يبدو هيكلاً وكأنه في حرب مع علي عليه السلام غير معلنة بل معلنة... (١٠)

● بقلم السيد زهير الأعرجي:

كانت مكة معلماً شاخصاً في حياة الامام أمير المؤمنين عليه السلام. ففيها ولد، وفيها ترعرع صبياً بمجنب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيها آمن برسالة السماء يوم كان الشرك يخيم عليها. لقد كانت مكة بالنسبة للامام عليه السلام مدينة تحمل كل معاني الصراع بين الحق والباطل. فقد بقي عليه السلام أياماً بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم منها يرد الامانات، وكان له دور رئيسي تحت امرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في فتح مكة، وكان عليه السلام المؤهل الوحيد الذي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم لتبليغ سورة براءة في حج السنة التاسعة للهجرة. وبكلمة، فإن لمكة المكرمة في حياة امير المؤمنين عليه السلام وضعاً خاصاً في النشاط الديني الاجتماعي، نعرض له في الصفحات التالية، بإذنه تعالى.

علي عليه السلام وفتح مكة

فُتحت مكة المكرمة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة. وخبرها أنه كان من شروط صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه. فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده.

ولكن بنو بكر وقريش تظاهرت على خُزاعة واصابوا منهم مقتلاً ونقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ. فقدم عمرو بن سالم الخزاعي الى المدينة ووقف على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد بين الناس، فقال يستثيره على قتال اهل مكة من المشركين:

ياربّ اني ناشدُ محمداً	حَلَفَ أبينا وأبيه الأتلدا ^(١١)
قد كنتم وُلداً وكنا والدا	ثَمَتَ أسلمنا فلم ننزع يدا ^(١٢)
فانصُر هداك الله نصراً أعتدا	وَادَعُ عبادَ الله يأتوا مددا ^(١٣)
فيهم رسولُ الله قد تجرّدا	إِنْ سِيمَ خَسُفا وجهه ترَبّدا ^(١٤)
في فيلق كالبحر يجري مُزبدا	إِنَّ قريشاً أخلفوك الموعدا ^(١٥)
ونقضوا ميثاقك المؤكدا	وجعلوا لي في كداء رُصدا ^(١٦)
وزعموا أن لست ادعو أحداً	وهم أذلّ وأقلّ عددا
هم بيتونا بالوتير هُجّدا	وقتلونا رُكعاً وسُجّدا ^(١٧)

وأحست قريش بعظمة الجريمة التي ارتكبتها ضد المسلمين. وتسارعت الاحداث، فقدم ابو سفيان المدينة واراد أن يكلم رسول الله ﷺ لتصحيح ما ارتكب من خطأ فادح بنقضه العهد مع المسلمين ولكنه لم يفلح، فلم يردّ ﷺ عليه شيئاً. فعندها «دخل على علي بن ابي طالب رضوان الله عليه، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعندها حسن بن علي غلام يدب بين يديها. فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً^(١٨)، واني قد جئت في حاجة فلا ارجعن كما جئت خائباً، فاشفع لي الى رسول الله. فقال: ويحك يا ابا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع ان نكلمه فيه. فالتفت الى فاطمة فقال: يا بنة محمد، هل لك أن تأمري بُنيك هذا فيُجير بين الناس، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بُنيّ ذاك أن يُجير بين الناس، وما يُجير أحدٌ على رسول الله ﷺ.

قال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحنى.
قال ﷺ: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كِنانة، فقم
فأجزي بين الناس، ثم الحق بأرضك.
قال: أو ترى ذلك مُغنياً عني شيئاً؟
قال ﷺ: لا والله، ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجزت بين الناس. ثم
ركب بعيره فانطلق. فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئتُ محمداً
فكلمته فوالله ما ردّ عليّ شيئاً... ثم جئتُ علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليّ
بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟...»^(١٩).

وأمر رسول الله ﷺ بالجهاز، فتجهز عشرة آلاف من المسلمين، ولم يتخلف
عنه أحد. وخرجوا جميعاً نحو مكة. فلما نزل رسول الله ﷺ «مرّ الظهران» قدم أبو
سفيان يستظهر الخبر، فأخذه العباس بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ. فلما
راه ﷺ، قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بآبي
انت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله
غيره لقد اغنى عني شيئاً بعد. قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني
رسول الله؟ قال: بآبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن
في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق،
فأسلم!

قال العباس: قلت يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل
له شيئاً. قال: «نعم. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن
دخل المسجد فهو آمن»^(٢٠).

وعندما رأى أبو سفيان جنود الله تمر من امامه في مضيق الوادي التفت إلى

العباس وقال : «والله يا ابا الفضل ، لقد اصبح مُلْكُ ابن اخيك الغداة عظيماً ، قال العباس : يا ابا سفيان إنها النبوة . قال : فنعم اذن» (٢١) .

وحينما دخلوا قال سعد بن عباد : اليومُ يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الحرمة ! وهو رأي لم يُستشر فيه رسول الله ﷺ ، ويدلّ على الآثار المترسبة ما قبل الاسلام على اولئك المسلمين . فتدارك النبي ﷺ الموقف الذي يمكن ان يتطور الى سفك دماء ، وقال لعلي بن ابي طالب عليه السلام : أدركه ، فخذ الراية منه ، فكن انت الذي تدخل بها (٢٢) . وهكذا كان ، فدخل رسول الله ﷺ وبید علي عليه السلام الراية ثم جيش النبي ﷺ من ورائهما .

وكان رسول الله ﷺ قد عهد الى امرائه من المسلمين ، حين امرهم ان يدخلوا مكة ، ان لا يقاتلوا الا من قاتلهم . لكنه امرهم بالخصوص بقتل اربعة نفر هم : عبد الله بن سعد بن ابي سرح ، والحويرث بن نفيل ، وابن خطل ، ومقبس بن ضبابه . وأمرهم ايضاً بقتل قينتين كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ . وقال ﷺ : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين باستار الكعبة . فقتل علي عليه السلام الحويرث بن نفيل واحدى القينتين وأفلتت الاخرى . وقتل مقبس بن ضبابه في السوق . وادرك ابن خطل وهو متعلق باستار الكعبة ، فاستبق اليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر ، فسبق سعيد عماراً فقتله .

اما عبد الله بن سعد الذي كان قد ارتد مشركاً بعد ان كتب بعضاً من الوحي وحرّفه ، فظفر به ولكن عثمان بن عفان غيبه وطلب له الامان من رسول الله ﷺ في قصة ذكرت في سيرة ابن هشام . ثم ولاه عمر بن الخطاب بعض اعماله في خلافته ، ثم ولاه عثمان بن عفان بعد عمر (٢٣) !!

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة ، دخل صناديد قريش الكعبة وهم يظنون ان السيف لا يرفع عنهم . فاتى ﷺ الحرم وقام على باب الكعبة فقال : «لا اله الا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده ، الا كل مأثرة او

دم او مال يُدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت^(٢٤) وسقاية الحاج... يامعشر قريش، إن الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿ياايها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله اتقاكم﴾ الآية كلها. ثم قال: يامعشر قريش، ماترون اني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء^(٢٥).

وكان الله سبحانه قد امكنه من رقابهم عنوة فكانوا له فيئاً، فلذلك سمي اهل مكة الطلقاء.

و«لما فتح الله مكة على رسول الله ﷺ امر النبي ﷺ علياً (كرم الله وجهه) ان يصعد على منكبهِ ليقذف الصنم التي كانت اعظم الاصنام عن المسجد الحرام»^(٢٦). وتفصيل ذلك على لسان علي بن ابي طالب عليه السلام كما يرويها احمد بن حنبل، قال عليه السلام: «انطلقت أنا والنبي ﷺ حتى أتينا الكعبة فقال لي رسول الله ﷺ: اجلس وصعد على منكبي فذهبت لانهض به فرأى مني ضعفاً فنزل وجلس لي نبي الله ﷺ وقال: اصعد على منكبي، فصعدت على منكبيه، فنهض بي. قال: فانه يخيل الي اني لو شئت لنلتُ افق السماء حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صفر او نحاس، فجعلت ازاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه حتى اذا استمكنْتُ منه قال لي رسول الله ﷺ: اقذف به، فقذفتُ به فتكسر كما تنكسر القوارير»^(٢٧). وفي رواية اخرى أن علياً عليه السلام لما عالجَه كان رسول الله ﷺ يقول له: ايه ايه... جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً^(٢٨)»^(٢٩).

تصرفات خالد بن الوليد: آثار ما قبل الاسلام

وعندما فتحت مكة، بعث رسول الله ﷺ السرايا فيما حول مكة تدعو الى الله عز وجل، ولم يأمرهم بقتال. وكان ممن بعث خالد بن الوليد وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً، ولم يبعثه مقاتلاً، ومعه قبائل من العرب: سليم بن منصور، ومذلب بن

مُرَّةً. فوطئوا بني جذيمة بن عامر. فلما رآه القوم اخذوا السلاح. فقال خالد: ضعوا السلاح، فان الناس قد اسلموا.

فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك. فكُتِفُوا، ثم عرضهم على السيف، فقتل من قتل منهم. فلما انتهى الخبر الى رسول الله ﷺ رفع يديه الى السماء، ثم قال: اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد^(٣٠).

فدعا رسول الله ﷺ علي بن ابي طالب (رضوان الله عليه)، فقال: يا علي، اخرج الى هؤلاء القوم، فانظر في امرهم، واجعل امر الجاهلية تحت قدميك. فخرج علي عليه السلام حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الاموال، حتى انه ليدى لهم ميلة الكلب^(٣١).

حتى اذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه، بقيت معه بقية من المال. فقال لهم علي (رضوان الله عليه) حين فرغ منهم: هل بقي لكم بقية من دم او مال لم يود لكم؟ قالوا: لا. قال: فاني اعطيكم هذه البقية من هذا المال، احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون، ففعل. ثم رجع الى رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر، فقال ﷺ: أصبت وأحسنست. ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه، حتى انه ليرى ما تحت منكبیه، يقول: «اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد، ثلاث مرات»^(٣٢).

الدلالات العلمية للنصوص

هناك دلالات علمية يمكن استنباطها من النصوص التي اوردناها في فتح مكة. ومن تلك الدلالات: تنبأ الدين ببقاء الحق وزوال الباطل، والطرز الرفيع لفتح مكة بين الفتوحات، وبطولة الامام علي عليه السلام التي كان من اهم آثارها: فتح مكة وانكسار دولة الشرك الى الابد.

١ - الحق والباطل: من زاوية فلسفية

عندما تكسرت اصنام قريش في فتح مكة على يدي رسول الله ﷺ وعلي بن

ابي طالب عليه السلام، قال عليه السلام: ايه ايه «جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً»^(٣٣). فما هو الباطل الذي حُكم عليه بالموت والزوال؟ وما هو الحق الذي أُقِرَّ له بالحياة؟

يعبر الحق عن صفات الكمال المطلق، وكل شيء يتصل بالله سبحانه هو حق: «هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق»^(٣٤)، «فتعالى الله هو الملك الحق»^(٣٥)، «هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقبا»^(٣٦)، «ذلك بان الله هو الحق وانه يحيي الموتى»^(٣٧). بينما لا يمثل الباطل الا الشيطان وكل ما يدعو اليه هو شر وفساد، كما اشار تعالى: «فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون»^(٣٨)، «ذلك بان الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل»^(٣٩).

أ - الباطل:

هناك تساؤل وجيه يمكن ان يُطرح في هذا المقام وهو: هل الباطل قضية متعلقة بالاخلاق ام انه قضية متعلقة بالدين؟ وهل يمكن طرد الباطل من العقل، ثم من الحياة الاجتماعية، من دون مساعدة الدين؟

طبيعياً، يعدُّ الباطل حقيقة مستقلة بذاتها بسبب قابلية النفس الانسانية على الاقتراب منه او الابتعاد عنه. واهم مصاديق الباطل: الفجور والكفر. فقد خلق الله سبحانه النفس الانسانية والهمها الفجور والتقوى فقال: «ونفس وما سواها. فالهمها فجورها وتقواها...»^(٤٠).

فالنفس الانسانية كيان يمتلك القدرة والعلم والحكمة، وقد سواها سبحانه وتعالى ورتب خلقها ونظّم قواها واعضاءها. والتقى في روعها وافاض عليها صوراً علمية من التصور والتصديق، وعرفها صفات الافعال من التقوى والفجور. فالعنوان المشترك بين التقوى والفجور هو متن الفعل. مثال ذلك: اكل المال وهو مشترك بين اكل مال اليتيم وهو فجور، واكل المال الحلال وهو من التقوى. ومثال آخر: المباشرة وهو عمل مشترك بين الزنا وهو فجور، والزواج الشرعي وهو من

التقوى. ومثال ثالث: العبادة وهو عمل مشترك بين عبادة الصنم وهو فجور، وعبادة الله سبحانه وهو تقوى.

والمحصّل من الآيات الشريفة هو ان الله عز وجل عزّف الانسان بخصائص الافعال من فجور او تقوى، وميّز له الافعال المتصلة بالتقوى والاخرى المتصلة بالفجور.

ومن تلك الآيات الشريفة نستلهم أن هناك تناقضاً منطقياً بين الحق والباطل. فلا بد ان يهزم احدهما الآخر ويدخره، ولا يمكن ان يجتمعا في مكان واحد في نفس الوقت. بل لا بد من استقلالية تحمي احدهما عن الآخر. فاما هذا واما ذاك. اي اما الفساد والظلم والشيطان: وهو الباطل. واما الخير والصالح والعدالة: وهو الحق.

ولم يقف القرآن الكريم موقفاً حيادياً من الباطل بل ادانته في مواطن عديدة، فخاطب اهل الكتاب: ﴿يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون﴾^(٤١)، وخاطب عبدة الاوثان: ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾^(٤٢)، ونقل عن المنكرين: ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾^(٤٣). ونقل عن الكافرين ومجادلتهم بالباطل لدحض الحق: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾^(٤٤)، وخاطب المسلمين بضرورة مراعاة شرعية التعامل التجاري عبر قوله: ﴿يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراضٍ منكم﴾^(٤٥)، وادان الكافرين اجمالاً بقوله: ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله اولئك هم الخاسرون﴾^(٤٦).

ومن ذلك نفهم ان طبيعة الاشياء في الكون تتناغم مع الخير والصالح والعدالة والتوحيد، ومع كل ما يمثله الحق من مفاهيم وافكار. وعندما يقوم الانسان بفعل الباطل من فساد وظلم وعبادة للشيطان والوثن، فانه انما ينتهك

طبيعة الاشياء التي خلقها الله سبحانه . فهنا لابد من دحر الباطل الذي ينتهك النظام الكوني المبني على اساس العدالة والخير والتوحيد . كما قال تعالى : ﴿ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض...﴾ (٤٧) .

ومجيء الاسلام كان انذاراً للباطل بالتوقف عن الوجود في ذات المؤمن على الاقل . فالمؤمن بتعاليم الدين السماوي يؤمن بالحق ويبني وجوده الاجتماعي والذاتي الجديد على اساس ايقاف الباطل وحذفه من حياته . وهذا يعني اننا اذا الغينا الباطل من الساحة الاجتماعية ، كما فعل رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام بتحطيم الاصنام ، فان ذوات الناس سوف تنفتح على الخير والاستماع الى الحق . وهنا يتخير الانسان بحرية ، في ذلك الجو المنفتح وتلك الارضية الواسعة ، بين الحق والباطل .

ولو كان الباطل قضية متعلقة بالاخلاق لاستطاع الانسان دحرها من دون مساعدة الدين ، بل لكان العقل سلاحاً كافياً من اسلحة دحر الباطل . ولكن الحقيقة تقول بان للباطل كيانه مستقلاً لا يقف امامه الا الدين . فمع ان العقل يدعو الى التوحيد والعدل ، الا ان العقل المجرد عن الايمان قد يدعو الى الفساد والدمار والشرك . فالعقل لوحده لا يستطيع دحر الباطل . ولو كان العقل كافياً لادراك معاني الوجود لانتفى دور الدين في الحياة الانسانية . فقضية الباطل اذن ليست متعلقة بالفلسفة الاخلاقية فقط ، بل ان ازالة الباطل موكولة الى تعاليم الدين ومقدار ادائها من قبل المؤمنين .

فلاشك ان زوال الباطل يتحقق عندما يمارس المكلفون تكاليفهم الشرعية ويتنعمون برحمة القوانين الدينية ، وعندها ينتفي الفساد والظلم والشرك . فتشبيت الحق مرهون بتقوية شوكة الدين . ومن هنا نفهم مغزى مخاطبته ﷺ لعلي عليه السلام : ايه ايه ﴿... جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً﴾ (٤٨) . فبتحطيم رمز الوثنية والشرك في مكة ، بدأ الاذعان لتقبل فكرة انتصار الاسلام وانتشار قيمه السماوية

في الخير والعدالة والمحبة والصالح على مبادئ الظلم والفساد والشرك. ومن هنا جاء الحق وزهق الباطل بكل ما تحمله تلك الالفاظ من معانٍ ومفاهيم وافكار. فقد جاء الحق عبر رسالة السماء محملاً بمفاهيم العدالة والخير والاخوة والمحبة والتعاون، وعندها انفتح الباب للانسان لاختيار طريق الخير بدل طريق الشر، وعندها كانت الحكمة الالهية: ﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...﴾^(٤٩) لان الانسان بطبيعته يختار الخير على الشر، ويختار الحق على الباطل.

ذلك ان الباطل يؤدي دائماً الى الالم والمعاناة على صعيد الانسانية، ولا يؤدي الشر الا الى الحرب، والظلم، والاححاف بحقوق الآخرين. ولذلك فان الدين يحارب الباطل أينما وُجد؛ لان الدين لا ينمو ولا يستقر بوجود الباطل. فالدين يدعو الى الصفاء، والامانة، والمحبة، والولاء. بينما يدعو الباطل الى الخيانة، والبغض، والدماء، والاضطراب.

وبكلمة فان الشر يحطم الروح الانسانية، ويعكر الصفاء الذهني والنفسي الذي يجلبه الدين، ويدمر الفرص العقلانية لانتخاب الدين كبديل في الحياة تمشياً مع قوله تعالى: ﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...﴾^(٥٠). اما الخير - وهو احد مصاديق الحق - فانه يجلب على الانسان سعادة ابدية، لان الخير يربط الانسان بالله سبحانه، ويربط الافراد بعضهم ببعض عن طريق القيم العليا في الحب والتعاون والتآخي. وجوهر الفكرة ان العقل لا ينهض الى مستوى طرد الباطل. فلا بد من تدخل الدين في طرد الباطل من النفس اولاً ثم سحق الباطل على المستوى الاجتماعي واحقاق الحق عن طريق الادارة الدينية للمجتمع.

ب - الحق:

ان الحق في ذاته امرٌ حسنٌ له قيمة اخلاقية عليا في حياة الانسان. فالحق يشمل الخير في كل جوانبه، ولذلك وصف الله سبحانه نفسه بانه الحق المبين كما

قال: «ويعلمون ان الله هو الحق المبين»^(٥١).

ولكن يمكن تصنيف الحق الى صنفين: الحق على الصعيد الذاتي، والحق على الصعيد الموضوعي.

فعلى الصعيد الذاتي: فقد وصف الله عز وجل نفسه بالحق، لان الحق يمثل كل جوانب الخير، فهو تعالى الحق الذي يحقق كل شيء حق، ويجري في الاشياء النظام الحق. فالمولي عز وجل هو الذي يمسك باسباب الخير والعدالة والقوة والعزة والقدرة. وهو الذي خلق الخلق والحياة وصمم الكون والاشياء لتكون خيراً بذاتها. وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على ذلك. فهو علّة جميع العلل من الابداع والتدبير والمملك والاماتة والبعث، كما في قوله: «ثم ردوا الى الله مولاهم الحق الا له الحكم»^(٥٢)، «فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فاني تصرفون»^(٥٣). والامر كله بيده فهو الخالق لكل شيء المدبر لكل امر، وليس لغيره الا الاوهام من اجل الابتلاء والامتحان، فقال: «هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً»^(٥٤)، «فتعالى الله الملك الحق...»^(٥٥)، «ذلك بان الله هو الحق وانه يحيي الموتى»^(٥٦)، «ويعلمون ان الله هو الحق المبين»^(٥٧). وتلك بديهيات لا ستار عليها بوجه من الوجوه. فالحق من اسماء الله الحسنى لثبوتة تعالى بذاته وصفاته ثبوتاً لا يقبل الزوال ويمتنع عن التغيير.

وعلى الصعيد الموضوعي: فان الحق - بقيمه الاخلاقية - قد تمثل بالاسلام. فالاسلام ليس فرداً ولا شخصاً ولا مفردة، بل هو موضوع للخير العام. فهذا الدين يمثل حالة معنوية لنشر العدالة بين الناس، ويعكس صورة لنظام في ادارة صلة الانسان بربه، وصورة لنظام الادارة الاجتماعية والحقوقية. ولذلك عبّر عن الدين بانه الحق، كما يستخلص من التأمل في قوله تعالى: «فاما الذين امنوا فيعلمون انه الحق من ربهم»^(٥٨)، «انا ارسلناك بالحق بشيراً ونذيراً»^(٥٩)، «فهدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه»^(٦٠)، «ولا تتبع اهواءهم

عما جاءك من الحق»^(٦١)، «هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق»^(٦٢). وفي الآيات الكريمة دلالة ظاهرة على ان الدين الذي نزل على محمد ﷺ هو حق فيما وافق ما بين يديه من الكتب، وحق فيما خالفه لكون القرآن مهيمناً على جميع الكتب السماوية السابقة.

وبذلك يكون الحق الذي بشر بمجيئه رسول الله ﷺ عندما كان علي عليه السلام يكسر الاصنام يمثل كل معاني الخير والعدالة والتوحيد والعبودية لله الواحد القهار. وان كان ذلك الحق يغطي مساحة قانونية او معنوية او انسانية او طبيعية، فانه انما يدل على شمولية الدين لكل تلك الحقوق. فالدين يحفظ حق الانسان في التعبد، وحق الانسان في العيش بكرامة تحت اجواء الخير. وبكلمة، فان الحق هو بشرى السماء للبشرية المعذبة التي تبحث عن طريق للهداية والنجاة من العذاب.

٢ - فتح مكة: طراز الفتوحات الكبرى

لو اردنا ادراك اهمية «فتح مكة» باطار الفهم المعاصر الحديث، لافترضنا اننا يجب ان نفهم آثارها او مقتضياتها بنفس درجة فهم اسبابها او عللها. فمع ان شجاعة رسول الله ﷺ وامير المؤمنين عليه السلام الفائقة كانا من اهم عللها، فان آثارها كانت خطيرة للغاية. ذلك أن فتح مكة وضع القيادة الدينية الاجتماعية للعالم بيد المسلمين بعد ان كان المشركون يعيشون في الارض فساداً. فدخل الناس، مؤمنين باطناً او ظاهراً، في دين الله افواجا. وقد تنبأ كتاب الله المجيد بتلك الاحداث بالقول: «اذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا» فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً»^(٦٣).

وتلك سورة مدنية نزلت بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة. حيث كانت السورة إخباراً بتحقيق أمر لم يتحقق بعد. وهو الوعد الجميل بالنصر والفتح. وتلك السورة تنطبق على فتح مكة الذي هو أم فتوحاته ﷺ في حياته، حيث تكمل ذلك النصر بهدم بنيان الشرك في جزيرة العرب. ولذلك طلب الله عز وجل من

رسوله ﷺ أن يسبحه وينزهه بقوله: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً﴾ الآية. حيث تم اذلال الشرك وتعزيز التوحيد وابطال الباطل وأحقاق الحق. واصبح الاسلام بعد فتح مكة قوة عالمية تستطيع مواجهة قوى الفرس او الروم والانتصار عليهما، وتثبيت الامن العالمي في ذاك الوقت تحت شعار: لا اله الا الله، محمد رسول الله. وهذا كله يمثل مصداقاً من مصاديق المقولة القرآنية: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

ولاشك أن فتح مكة لم يكن مجرد عملية انهيار قوة عالمية وهي قوة المشركين، وانتصار قوة اعظم في المبدأ والعقيدة وهي قوة المسلمين. بل كانت عملية بدء عصر جديد يستمر فيه الاسلام حياً نابضاً فعلاً الى يوم القيامة؛ لان الاسلام بطبيعته دين عالمي وليس ديناً محلياً يهتم بعرق معين او طائفة معينة. ويؤيده قول الله تبارك وتعالى: ﴿وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (٦٤). وقد كان للبطولة الخارقة دور حاسم في فتح مكة وتحطيم الاصنام فوق الكعبة وحولها، كما بحثنا ذلك سابقاً. وبتحطيم الاصنام أزف الوقت لإعلان عدم شرعية الشرك في معقل المشركين بمكة بقوة السلاح والايمان، واعلان انتقال السلطة العالمية من يد الشرك الى يد الايمان، وانتهاء التحدي الفكري للشرك القرشي ضد الاسلام.

ومن منطلق تلك الاحداث لابد من ادراك مقدار المكاسب التي حققها بطولة اهل بيت النبوة ﷺ في المعارك الاسلامية الكبرى. فقد دمر ذلك التفاني العجيب من اجل الدين، كل احلام الوثنية في البقاء. فلم تكن تلك المعارك صراعاً شخصياً بين بني هاشم وبني امية. ولم تكن مواجهة شخصية بين رسول الله ﷺ وابو سفيان، او بين حمزة وابو جهل، او بين علي ﷺ ومعاوية.

بل كان الصراع بين الخير والشر او الحق والباطل صراعاً تاريخياً بين معسكرين ذي مبدأين متصارعين الى ابد الدهر. ولم يكن تسامح رسول الله ﷺ مع

اهل مكة الطلقاء ليغير من موقف النخبة الجاهلية . فحتى مع اظهار اسلامه ، لا يزال ابو سفيان في قلبه شيء من رسالة محمد ﷺ ، ولا يزال يؤمن بانه الملك الذي حازه محمد ﷺ واصبح عظيماً به ، لا النبوة الخاتمة . ولا يزال خالد بن الوليد يتصرف على ضوء عنجهيته الجاهلية فيقتل من لا يجوز قتله ، وعندها يتبرأ رسول الله ﷺ من افعاله .

ان العداء التاريخي الذي كانت تكته قريش للاسلام ولرسول الله ﷺ ولعلي ﷺ لم يكن ليزول باعلان الشهادتين على اللسان دون القلب . ذلك ان فتح مكة كان اظهار قدرة الله سبحانه على اعزاز الاسلام وتكريمه وتجليل خاتم الانبياء ﷺ . وقد نصر الله الاسلام على رغم انوف صناديد قريش من الذين تشربت في قلوبهم عبادة الاوثان والاصنام .

ولذلك كانت النبوة امراً لا تستطيع قريش هضمه او استيعابه . فما هي تلك القوة الهائلة التي تستطيع ان تحرك القلوب نحو الله ضد الشيطان والشرك والرجس ؟ وما هو سر ذلك التسامي العظيم لرسالة محمد ﷺ بين الامم ؟ وما هو سر شجاعة علي ﷺ الفائقة وتفانيه في حماية الرسالة السماوية ؟ وما هو السر في استبسال تلك النخبة المؤمنة التي كانت تحيط برسول الله ﷺ وتصحبه ؟ لاشك ان تلك النخبة كانت اشد تماسكاً في اتباع قائدها ﷺ من غيرها من نخب الملل والمذاهب ، فهذا علي ﷺ يصعد على كتف رسول الله ﷺ ليحطم الاصنام ، في وقت كان شعارهما : جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً . وكان حمزة (رض) متفانياً في الدفاع عن الاسلام ونبيه ﷺ ، وكان ابو طالب ومواقفه الاجتماعية العظيمة تفصح عن عمق ايمانه برسالة محمد ﷺ ، وكان تفاني جعفر بن ابي طالب مشهوداً من اجل الاسلام ورسائله السماوية للبشرية .

وبذلك فقد كان الشعور الوجداني بين النخبة المؤمنة هو ان يزدهر الخير بين البشر وتحقق كلمة التوحيد وعبادة الله سبحانه . وبذلك كان فتح مكة اعادة لبناء

التركيب السياسي والاجتماعي للعالم على ضوء الدين الجديد. في وقت كان العالم يبحث فيه عن قيادة جديدة تحقق العدل الاجتماعي والامان والتوحيد، فكانت قيادة رسول الله ﷺ تحقق ثبات دولة الايمان العالمية ونظامها الامني والحقوق. والسبب في ذلك ان العالم يتضمن شعوباً متباينة في التقاليد والعادات واللغات، ولا يمكن ان يجمعها الا دين سماوي واحد. فكان الاسلام هو الدين القادر على جمع ذلك العدد الهائل من البشر تحت سقف خيمة واحدة في ظل لواء واحد. ولا يستطيع احد تحمل مسؤولية ادارة ذلك التجمع العالمي اجتماعياً وسياسياً الا رسول يوحى اليه. فكان رسول الله ﷺ هو حامل المسؤولية العالمية. وكان من خلفه المؤهل الاول لتسلم القيادة الدينية بعده ﷺ امير المؤمنين علياً.

فقد كان علياً موضع ثقة رسول الله ﷺ في فتح مكة. فعندما قال الناس: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحل الحرمه. دعاه النبي ﷺ لتدارك الوضع الخطير الذي كان سيؤدي حتماً الى سفك الدماء. فكان علياً منقذ الموقف. وعندما قام خالد بن الوليد بقتل من قتل من بني جذيمة، وداهم رسول الله ﷺ فبعث علياً لتسوية الوضع. وقبلها كان علياً ثقة ابو سفيان رأس الشرك الذي حارب الاسلام والنبي ﷺ وعلياً اشد حرب. فكان علياً، اذا صحت الرواية، أليهم معه. وهكذا كان خلق الانبياء والاصياء علياً. وهكذا تعامل رسول الله ﷺ في مكة مع الطلقاء. ويمكننا الآن ان نقول باطمئنان بان فتح مكة كان من طراز الفتوحات الكبرى للأسباب التالية:

١- رجع رسول الله ﷺ منتصراً الى البلدة التي حاربته واضطهدته وتآمرت على قتله واخرجته بالإكراه. فبعد ثمان سنوات فقط من الهجرة الكبرى من مكة الى المدينة، رجع المصطفى ﷺ الى بلده مكللاً بالانتصار.

٢- دخل خاتم الانبياء ﷺ الكعبة وبجنبه علياً وحطما الاصنام التي كانت تعتبر رمز الشرك في عالم ذلك الزمان، وفي كل زمان. وارجع ﷺ للكعبة الشريفة

حرمها النبوية التي وضعها النبي ابراهيم عليه السلام ولوثتها جاهلية الاوثان والاصنام.
٣- كان رداء المصطفى صلى الله عليه وسلم التسامح مع ألد اعدائه : مشركي قريش . فاعطاهم الامان ، وقال لهم : اذهبوا فانتم الطلقاء . وكان هؤلاء قد ارتكبوا اعظم الفظائع ضد الموحدين المسلمين .

٤- كان بفتح مكة سقوط الجزيرة العربية تحت سلطان الاسلام . وتهيؤ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحاربة القوى الاخرى في العالم .

٣- فتح مكة: استراتيجية جاء الحق وزهق الباطل

ان الآية الشريفة : «وقل جاء الحق وزهق الباطل . ان الباطل كان زهوقاً» ^(٦٥) حبلٌ بالمعاني العديدة التي يمكن ان يستظهرها ذهن العالم باحكام الدين وتشريعاته . ومن تلك المعاني نظرية «حتمية ازهاق الشرك والظلم وحتمية انتصار الدين» على المدى البعيد . فتلك النظرية تعرض علينا امكانية صياغة استراتيجية الاسلام بالنسبة للعالم والتأريخ . فالدين هو الحق ، والكفر هو الباطل . ولا بد ان ينتصر الدين ويندحر الباطل ويموت . لان الحق باقٍ الى الابد ، والباطل ميتٌ الى الابد بظهور الاسلام وانتشاره في آفاق الارض . وفي الآية دلالة على ان الباطل لا دوام له ومصيره الهلاك كما قال تعالى في مكان آخر عن الباطل حيث مثله بالشجرة الخبيثة : «...مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار» ^(٦٦) .

وفي هذه المناسبة لابد من استخدام بعض المصطلحات الحديثة التي دخلت قاموس اللغة الاجتماعية والسياسية وهما اصطلاحاً : البعيد المدى «الاستراتيجية» ، والقصير المدى «التكتيك» . وهما مصطلحان اعجميان دخلا اللغة العربية . فالمعروف في الاوساط العلمية : ان التكتيك هو حركة ميكانيكية لاجسام وضعت في مسار بواسطة الخطة الاستراتيجية . وبتعبير اوضح ان الاعمال التي تتطلب زمناً طويلاً في الانجاز تحتاج الى خطة وتصميم مسبق ، وتحتاج ايضاً

الى من يقوم بالحركة الآن هو ما يسمى بالمدى القصير او التكتيك . فحركة السيارة او العربة هو تكتيك لخطه يضعها السائق من اجل الوصول الى المدينة المقصودة «الاستراتيجية» .

واذا كانت الحرب تكتيكاً قصير المدى ، فان التخطيط لها واستثمار نتائجها في النصر هو استراتيجية بعيدة المدى . وقد كان فتح مكة من هذا القبيل . فقد كان الفتح جزءاً من خطة مستقبلية بعيدة المدى لنشر الاسلام خارج حدود الجزيرة العربية ليصل العالم الواسع كله .

وبصورة اخرى ، فان النهوض باعباء الرسالة السماوية من اجل نشرها في العالم الى يوم القيامة لا يمكن ان يتم ما لم يحتاز المسلمون مرحلة الانتصار النهائي على الشرك في الحروب التكتيكية التي كان يخوضها علي عليه السلام جنباً الى جنب مع رسول الله ﷺ ، ثم ينتقلون الى مرحلة الاستراتيجية البعيدة المدى . فهنا انتقل المسلمون من مرحلة الدائرة المحلية الى مرحلة الدائرة العالمية . فالاسلام انذار وبشارة ﴿...كافة للناس﴾^(٦٧) ، بعد ان كان الانذار محصوراً بـ ﴿...ام القرى ومن حولها﴾^(٦٨) ومن قبلهم بـ ﴿...عشيرتك الاقربين﴾^(٦٩) .

ان رسول الله ﷺ كان يخطط لاهداف استراتيجية بعيدة المدى في المعارك التي كان يخوضها ، لانه كان قائداً عسكرياً ملهماً من الطراز الاول ، ولانه كان ﷺ مكلفاً بدعوة الناس جميعاً الى الاسلام . وكان علي عليه السلام الى جنبه دائماً الوسيلة القوية «التكتيك» التي تحقق نبؤات المصطفى ﷺ وطموحاته في نشر الدين على بقاع المعمورة . والاستراتيجية لا يمكن ان تحقق اهدافها ما لم يكن التكتيك فعالاً وحيوياً .

ولاشك ان تكتيك المعركة في ذاك الوقت كان ينصب على شجاعة المقاتل بالدرجة الاولى وبطولته القصوى في انتزاع النصر من العدو ؛ لان معارك الاسلام الاولى ضد الشرك كانت معارك برية بسلاح رئيسي واحد هو السيف . فلم تكن

هناك معارك جوية وبحرية وبرية كما هو الحال اليوم مع عشرات الانواع من الاسلحة المعقدة . ولذلك فان اي معركة اسلامية تقع بدون وجود بطل استثنائي مقدم كعلي عليه السلام لا يُكتب لها النصر . فلم يحقق المسلمون شيئاً في معارك غاب عنها علي عليه السلام كمعركة ذات السلاسل ، ومعركة خيبر قبل استلامه عليه السلام الراية ، ومعركة مؤتة .

ان فلسفة الزمان والمكان تدعونا للايمان بان نزول الرسالة السماوية في ذلك الوقت وفي تلك البقعة من الارض ، كان له معانٍ سامية تبقى مع التاريخ والبشرية الى يوم القيامة . فقد كان ذلك الزمان وسطاً بين تأريخ سابق وتأريخ لاحق ، وكان ذلك المكان ولا يزال قلب العالم قديماً وحديثاً . وبذلك ، فان احداثاً جسيمة - كاحداث الاسلام ومعاركه ضد الشرك - ستبقى في ضمير البشرية يمكن فهمها واستيعاب معانيها الجليلة الى آخر يوم يعيش الانسان فيه على وجه الارض . ولا شك ان احداثاً جسيمة كذلك كانت تقتضي وجود بطل عظيم مطيع يزود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المخاطر ، ويستوعب اهداف الرسالة ، وعلى استعداد تام للتضحية من اجل مبدئه . فكان علي عليه السلام يمثل ذلك الرجل المثالي الذي تفهمه البشرية في كل وقت وتفهم بطولته النادرة وتضحياته الجسيمة من اجل الاسلام .

وبلحاحظ فلسفة الزمان والمكان لا بد من الايمان بان اساليب القتال تتغير وتتبدل من زمن لزمان ومن مكان لمكان ، الا ان الثابت الذي نفهمه في كل جيل هو اخلاقية الحرب وتعامل المحاربين فيها وطبيعة دوافعهم الخيرة . واذا فهمنا ذلك وآمنا بان اخلاقية الاسلام في الحروب كانت القمة في الكمال ، استطعنا فهم بطولة علي عليه السلام وتضحياته في سبيل مبدئه وعقيدته . واذا كان قول النبي صلى الله عليه وسلم للامام عليه السلام : «ايه ايه . جاء الحق وزهق الباطل . ان الباطل كان زهوقاً» يُفسر بان الحق قد انتصر وسوف ينتصر ، وان الباطل قد سُحق وسوف ينهزم في كل مرة يتواجد فيها مؤمنون مخلصون متفانون ، فاننا لا بد ان نؤمن بان تلك هي اهداف استراتيجية

بعيدة المدى للإسلام ولرسائله السماوية. ومن هنا نفهم ان فتح مكة كان البوابة العظمى للانفتاح على البشرية في القلب والعقل والادراك على طول الزمن.

● وهناك دوران مهمان للإمام علي عليه السلام في مكة، تعرّض لهما السيّد

الأعرجي وللضرورة نذكرهما:

○ اخلاقية رد الامانات الى الناس

اقام علي عليه السلام بمكة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله الى المدينة يردّ الودائع ويقضي الديون^(٧٠). وكان وضعه عليه السلام مع المشركين في مكة خطيراً للغاية، فما الذي دعاه لذلك؟

إنّ الحديث عن رد الامانات الى الناس يقودنا الى الحديث عن الاخلاقية الدينية عند علي عليه السلام والتي تعلّمها من رسول الله صلى الله عليه وآله.

فلاشك ان اهم ثمار الشخصية الاخلاقية التي كان يحملها عليه السلام هو أن سلوكه بين الناس كان ترجمة عملية لمفاهيم الدين. فهو الاسلام المتحرك في المجتمع، ومن هنا كان سلوكه الاخلاقي متطابقاً مع النظرية الاخلاقية للسماء. ومن الطبيعي فان السلوك الاخلاقي في رد الامانات والودائع وقضاء الديون يساهم في نشر الانسجام الديني والاخلاقي بين الناس. ومع ان مجتمع مكة كان مشركاً، الا ان العديد من افراده كانت عندهم القابلية على اعتناق الاسلام اذا لمسوا من الدين تغييراً في حياتهم الاجتماعية والاخلاقية.

فكان رد الامانات التي كانت بعهد رسول الله صلى الله عليه وآله الى الناس مهمة - من الناحية الاخلاقية - الى درجة ان تلك الاهمية كانت متناسبة مع حجم الخطورة التي كان يواجهها علي عليه السلام وهو في مكة دون مناصر. ورد الامانات تعدّ من القيم الاخلاقية التي يحنّ لها المجتمع الانساني ايّ كان منشؤه وايّ كانت اهدافه وطموحات اعضائه ومنتسبيه. ولاشك ان فضيلة الوفاء برد الامانة كان قد

امضاها الدين الحنيف ، بينما اوكل رسول الله ﷺ علياً عليه السلام بتنفيذ تلك المهمة الصعبة . ومن هنا نفهم امضاء الدين الاتفاق الاجتماعي حول الوفاء برد الامانة ، لانها عمل خير يؤدي - عاجلاً او آجلاً - الى استتباب الامن الاجتماعي والاقتصادي بين الناس ، وازهار الروحية المثلى للمسلم الملتزم بتعاليم الاسلام . وبذلك فقد عمل الاسلام في انارة الامور التالية :

اولاً: ان الوفاء برد الامانات كان عملاً اخلاقياً امضى فيه الاسلام عمل رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها . حيث اؤتمن ﷺ باموال الناس وحاجاتهم ، ولذلك شاع عنه ﷺ بانه الصادق الامين .

ثانياً: لم تؤخذ في قضية الوفاء برد الامانة حجم الخسارة والربح من حيث احتمالية مقتل علي عليه السلام من قبل مشركي قريش او انزال مطلق الاذى به عليه السلام . وبذلك يعد الوفاء برد الامانة من الاعمال الاخلاقية التي تنظر الى قيمة العمل ، لا الى حجم الربح والخسارة .

ثالثاً: ان الوفاء برد الامانات طُبّق على المجتمع الوثني الكافر . حيث ان اغلب الذين ائتمنوا محمداً ﷺ بعد البعثة ولم يهاجروا الى المدينة وبقوا في مكة كانوا من الذين لم يسلموا بعد . ولذلك بقي علي عليه السلام في مكة لردها . ولو اسلموها هاجروا . نعم بقي عدد قليل من المسلمين في مكة في الحفاء . ولكن لسان دليل الروايات المتعلق بهذه المسألة لا يخص تلك القلة ، بل ان ظهور اللفظ يدل على اطلاقها على المسلمين وغيرهم . وفيه قوله تعالى : ﴿ اِنْ اِلٰهٌ اٰمَرَكُمْ اَنْ تُوَدُّوا الْاٰمَانَاتِ اِلَىٰ اَهْلِهَا ﴾ (٧١) . ورد الامانة الى الكافر فضلاً عن المسلم تعدد قيمة اخلاقية مثلى تبناها الاسلام ، وحث اتباعه والمؤمنين به على تطبيقها في حياتهم .

رابعاً: متانة الرابط بين الاخلاق والدين . فالاسلام هو الذي أمر برد الامانات الى اهلها ، حتى لو كان اصحابها من المشركين . فيكون الوفاء برد الامانات من القيم الدينية الاجتماعية . ذلك أن الدين واحكامه الشرعية تدعوان

الى القيم الاخلاقية الفاضلة ، وضرورة تطبيقها على النظام الاجتماعي .
خامساً: كان الوفاء برد الامانات من قبل الدين احتراماً للفرد المؤمن ،
ولا يمثل احتراماً لسلطة المشركين من قريش . وبذلك فقد كان الحكم هنا تحكيمياً
للحق على الباطل على مستوى شريحة خاصة من الافراد من الذين وضعوا ثقتهم
برسول الله ﷺ .

وبكلمة أخيرة ، فان الوفاء برد الامانات الى اهلها كشف عن قدرة الدين
الفعالة على التمييز بين الابعاد الموضوعية والذاتية للقيم الاخلاقية . فقد كانت
تضحية الامام ﷺ في البقاء ثلاثة ايام متواصلة في مكة تضحية ذاتية ، رغم المخاطر
المحيطة به ، من اجل ان يبقى موضوع الوفاء برد الامانات حكماً ثابتاً يلتزم به
المؤمنون الى يوم القيامة .

○ علي ﷺ وسورة براءة: «لايؤدي عني الا رجل من اهل بيتي»

رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك في شهر رمضان من السنة التاسعة
للهجرة . وفي ذي الحجة من نفس السنة تحرك المسلمون بأمر رسول الله ﷺ لاداء
فريضة الحج وكان علي امرتهم ابي بكر . فلما «نزلت سورة التوبة (براءة) قيل له : يا
رسول الله ، لو بعثت بها الى ابي بكر . فقال ﷺ : لا يؤدي عني الا رجل من اهل
بيتي . ثم دعا علي بن ابي طالب (رضوان الله عليه) ، فقال له : اخرج بهذه القصة من
صدر براءة ، وأذن في الناس يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى ، انه لا يدخل الجنة كافر ،
ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ
عهد فهو الى مدته ... فعندما كان يوم النحر قام علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) ،
فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ . فقال : ايها الناس ، انه لا يدخل الجنة
كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند
رسول الله ﷺ عهد فهو الى مدته . وأجل الناس اربعة اشهر من يوم أذن فيهم ،
ليرجع كل قوم الى ما منهم او بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة الا أحد كان له

عند رسول الله ﷺ عهد الى مدة، فهو له الى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان» (٧٢).

وسورة براءة امرت بنقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد العام الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم، والعهود الخاصة بينه وبين بعض قبائل العرب، وتحذث عمن تحلف من المنافقين عنه في تبوك، فكشفت سرائر الناس خصوصاً المنافقين. فكان علي عليه السلام البديل الوحيد لرسول الله ﷺ في تبليغ تلك السورة المبعثرة المقشقة الحافرة، بكل قوة، في مكة. فهو لا يخاف مشركاً ولا كافراً ولا شجاعاً ولا فارساً ولا راجلاً، بل انه ارعب في ساحات الوغى ابطال المشركين وقتلهم شر قتلة. وكان اطهر الناس بعد النبي ﷺ واكثرهم خشوعاً وتعلقاً بالله سبحانه واكثرهم زهداً وتعففاً عن الدنيا.

ولذلك كان علي عليه السلام ابلاغ المؤمنين في توصيل سورة (براءة) الى عالم ذلك الزمان، من اجل ايقاع اقصى التأثير بهم، ليؤمنوا وتخضع قلوبهم لذكر الله سبحانه.

الهوامش :

- (١) مجمع البيان الحديث، ٢ : ٦١١.
- (٢) خاتم النبيين، ٢ : ٦٢٠ - الطبري، ٢ : ١٦٣.
- (٣) خاتم النبيين، ٢ : ٦٢٧ - البحار، ٢١ : ٩٤ وكل من ذكرها من المؤرخين.
- (٤) الارشاد للشيخ المفيد : ٧١.
- (٥) البحار، ٢١ : ١٣٢ طبعة بيروت.
- (٦) البحار، ٢١ : ١١٦.
- (٧) البحار، ٢١ : ١١٦.
- (٨) الطبري، ٢ : ١٦٤.

- (٩) نفس المصدر.
- (١٠) اقتبس هذا من مجلّة ميقات الحجّ العدد الثاني.
- (١١) ناشد: طالب ومذكّر. والاتلد: القديم.
- (١٢) يريد ان بني عبد مناف امهم من خزاعة، وكذلك قصي امه فاطمة بنت سعد الخزاعية.
- (١٣) أعتد: حاضر، والمدد: العون.
- (١٤) تجرد: شمر وتهيأ للحرب، وسيم: طلب منه وكلف. الخسف: الذل. وتريد: تغير الى السواد.
- (١٥) الفيلىق: العسكر الكثير.
- (١٦) كداء: موضع باعلى مكة.
- (١٧) الوتير: اسم ماء باسفل مكة لخزاعة. والهجد: النيام.
- (١٨) عندما خسر ابو سفيان كل شيء اراد الضرب على وتر الرحم والدم، وهو الذي قاتل رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام من بني هاشم اشد القتال. لكنه اليوم يتحدث عن علاقة بني امية ببني هاشم من ناحية الرحم والاجداد!
- (١٩) سيرة ابن هشام ٤: ٣٩.
- (٢٠) سيرة ابن هشام ٤: ٤٥ - ٤٦.
- (٢١) سيرة ابن هشام ٤: ٤٧.
- (٢٢) سيرة ابن هشام ٤: ٤٩.
- (٢٣) سيرة ابن هشام ٤: ٥٢.
- (٢٤) سدانة البيت: خدمته.
- (٢٥) سيرة ابن هشام ٤: ٥٤ - ٥٥.
- (٢٦) مفتاح النجاء، البدخشي: ٤٦.
- (٢٧) مسند احمد، رواه احمد بن حنبل باسناده عن ابي مريم عن علي عليه السلام ١: ٨٤.
- (٢٨) سورة الاسراء: آية ٨١.
- (٢٩) المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٦٦.
- (٣٠) سيرة ابن هشام ٤: ٧٢.
- (٣١) ميلغة الكلب: شيء يحفر من خشب، ويجعل ليلغ فيه الكلب. وكان يستعمل عند اهل البادية واصحاب الغنم.
- (٣٢) سيرة ابن هشام ٤: ٧٢ - ٧٣.
- (٣٣) سورة اسراء: آية ٨١.
- (٣٤) سورة التوبة: آية ٣٣.
- (٣٥) سورة طه: آية ١١٤.
- (٣٦) سورة الكهف: آية ٤٤.

- (٣٧) سورة الحج: آية ٦.
 (٣٨) سورة يونس: آية ٣٢.
 (٣٩) سورة الحج: آية ٦٢.
 (٤٠) سورة الشمس: آية ٧-٨.
 (٤١) سورة آل عمران: آية ٧١.
 (٤٢) سورة النحل: آية ٧٢.
 (٤٣) سورة الكهف: آية ٥٦.
 (٤٤) سورة غافر (المؤمن): آية ٥.
 (٤٥) سورة النساء: آية ٢٩.
 (٤٦) سورة العنكبوت: آية ٥٢.
 (٤٧) سورة المؤمنون: آية ٧١.
 (٤٨) سورة الاسراء: آية ٨١.
 (٤٩) سورة البقرة: آية ٢٥٦.
 (٥٠) سورة البقرة: آية ٢٥٦.
 (٥١) سورة النور: آية ٢٥.
 (٥٢) سورة الانعام: آية ٦٢.
 (٥٣) سورة يونس: آية ٣٢.
 (٥٤) سورة الكهف: آية ٤٤.
 (٥٥) سورة طه: آية ١١٤.
 (٥٦) سورة الحج: آية ٦.
 (٥٧) سورة النور: آية ٢٥.
 (٥٨) سورة البقرة: آية ٢٦.
 (٥٩) سورة البقرة: آية ١١٩.
 (٦٠) سورة البقرة: آية ٢١٣.
 (٦١) سورة المائدة: آية ٤٨.
 (٦٢) سورة التوبة: آية ٣٣.
 (٦٣) سورة النصر: آية ١-٣.
 (٦٤) سورة سبأ: آية ٢٨.
 (٦٥) سورة الاسراء: آية ٨١.
 (٦٦) سورة ابراهيم: آية ٢٦.

- (٦٧) سورة سبأ: آية ٢٨.
- (٦٨) سورة الانعام: آية ٩٢.
- (٦٩) سورة الشعراء: آية ٢١٤.
- (٧٠) الطرائف، ابن طاووس ١: ٣٤.
- (٧١) سورة النساء: آية ٤.
- (٧٢) سيرة ابن هشام ٤: ١٩٠ - ١٩١.

الإمام علي عليه السلام بأقلام المعاصرين

ماجد محمّد علي

مقدّمة

لم تختلف أمة في دنيا الناس على عظيم من عظمائها كما اختلفت الأمة الإسلامية حول شخصية الإمام علي عليه السلام ولعل سرّ هذا الاختلاف هو حكمة وجود الاختلاف نفسه بين بني البشر، وذلك لتجلية فلسفة التدافع والابتلاء، وإتمام رحلة التكامل والارتقاء التي يقضي الإنسان عمره كلّها كادحاً لقطعها نحو خالقه سبحانه ﴿يا أيّها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾.

وكلماً اشتدّ الاختلاف، تعمّق الوعي وألقيت الحجّة وتكشّفت الحقيقة، رغم

ما في ذلك من ألم ومرارة ومعاناة لا بدّ من دفع ضريبتها لمن يريد الوصول إلى الحقيقة، فيتكامل من يتكامل ويتسافل من يتسافل، وفي رحلة كدح ومكابدة سيكون شعارها يوم الحساب ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

لم نكن في هذا العرض الموجز راغبين في تقديم قراءة واحدة لشخصية الإمام علي عليه السلام بأقلام الكتّاب الشيعة القدماء والمعاصرين، وإنّما صار الخيار أن نقدّم هذه القراءة بأقلام أخرى حُسِبَ بعضها على التشييع وبعضها لم يُحسب... فكان منها مثلاً (سلطة الحق)

للمفكر الشيوعي المعروف عزيز السيّد جاسم، وأخرى للكاتب المصري الأستاذ صالح الورداني، ومثلها للكاتب المغربي إدريس الحسيني وعلى شاكلتها قراءة الشيخ معتصم سيد أحمد من السودان، وقراءة للكاتب المصري عبد الكريم الخطيب في كتابه «علي بن أبي طالب - بقيّة النبوة وخاتم الخلافة» لنعيش ساعة أو ساعتين مع ما كتبه هؤلاء من مشارب مختلفة وأقطار مختلفة في العالم الإسلامي، وحول شخصية عظيمة ألهمها أناس وعبدوها، فيما شتمها آخرون بعد رحيلها، ثمانين عاماً كاملة، تُمنح الدهر كلّ بعد ذلك خلوداً وعزّاً ومجداً.

فإلى بعض القطرات التي ابتلت بها أصابع هؤلاء الكتّاب من بحر هذه الشخصية الفريدة، وإلى بعض السطور ممّا اقتطفناه نحن من إنصافهم وموضوعيّتهم وشرف كلماتهم وبحثهم عن الحقيقة والحقّ.

السيف والسياسة: صالح الورداني: هذا هو عنوان كتاب معروف للكاتب والصحفي المصري الأستاذ

صالح الورداني، وقد وسمه بعنوان آخر مرادف هو «صراع بين الإسلام النبوي والإسلام الأموي» مؤكّداً أنّ السياسة بدأت تلعب لعبتها بعد وفاة الرسول مباشرة حيث انشطر الإسلام شطرين وتوزّع على خطّين (خط الإسلام القبلي) و (خط الإسلام النبوي) - حسب تعبيره - وراح الأخير مشتبكاً في ساحة المواجهة يُصارع السيف تارةً، والسياسة تارةً أخرى ويصارعها معاً تارةً ثالثة.

يؤكد الكاتب في معرض كتابه أنّ رائد الإسلام النبوي في هذه المعركة هو الإمام علي عليه السلام ويصفه بالقول:

«هذه الشخصية الرّبّانية تربّت على يد الرسول ﷺ وارتوت من معينه، وهذا أمر له دلّالته وانعكاساته على شخصية الإمام، فترية الرسول له ثمّ مصاهرته إنّما يعني الاصطفاء، فكما أنّ الرسول تمّ اصطفاؤه فإنّ عليّاً أيضاً تمّ اصطفاؤه»^(١).

ويروح الأستاذ الورداني يستدلّ على الاصطفاء هذا من أقوال النبي ﷺ نفسه التي منها:

«أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى»^(٢).

و«عليّ منّي وأنا منه»^(٣).

و«من كنت مولاه فعليّ مولاه»^(٤).

و«لا يحبّه إلّا مؤمن ولا يبغضه إلّا منافق»^(٥).. ويضيف الكاتب قائلاً:

«ويكفي في حقّ عليّ شموله بقوله تعالى:

«إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً» معلقاً: وهذا النصّ دليل ساطع وبرهان قاطع على ربانيّته»^(٦). كما يؤيّد بأنّ علي بن أبي طالب هو الأفقه من بين جميع صحابة النبي، فيقول:

«وقد تفوّق الإمام علي بفقهه على جميع الصحابة ولم يضاهاه في ذلك أحد حتّى إنّ عمر بن الخطّاب الذي يشهدون له بالفقه والعلم شهد لصالح عليّ وأقرّ بتفوّقه عليه»^(٧)، ويضيف:

«وهناك شهادات للإمام علي على لسان كثير من الصحابة وعلى رأسهم عمر نفسه الذي كان يستعين بعليّ في كلّ معضلة وكان يتعوّذ بالله من معضلة

ليس فيها (أو لها) أبو الحسن»^(٨).

وفي دليل آخر، أو أدلّة أخرى على اصطفاء علي عليه السلام واختياره من قبل النبي في إعداد خاصّ وتربية خاصّة، يشير الورداني في كتابه هذا إلى هذه الحقيقة قائلاً:

«يروي ابن عبّاس: دفع رسول الله ﷺ الراية إلى عليّ وهو ابن عشرين سنة»^(٩).

«وقال الرسول ﷺ يوم خيبر: لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله؛ فلما كان الغد دعا عليّاً فدفعها إليه»^(١٠).

«وكان الصحابة - والكلام كلّ هنا للاستاذ صالح الورداني - يردّدون: لاسيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي. وقد قتل أشهر فرسان العرب يوم الخندق وأصاب المشركين بنكسة معنوية كبيرة»^(١١).

ويستدلّ الكاتب على الدور الذي أنيط بعليّ وعلى المهمّة التي اختُزن لها في مسلسل الرسالة السماوية بقوله:

«وشهادة الرسول ﷺ لعليّ في حجة

الوداع أمام أكبر حشد من الصحابة والمسلمين في تاريخ الدعوة إنما تؤكد هذه الخاصية وهذا الدور الذي وكل إليه، وهي تؤكد من جانب آخر شرعية هذا الدور وارتباط خطوات الإمام ومواقفه المستقبلية بمحدود الشرع وبالإسلام النبوي»^(١٢) مضيفاً:

«يروى أن علياً نشد الناس قائلاً: من سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدیر خم إلا قام. فقام اثنا عشر بدرية فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يقول لعليّ يوم غدیر خم: أليس الله أولى بالمؤمنين؟ قالوا: بلى، قال: اللهم من كنت مولاه فعليّ مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(١٣).

ويبدو من دراسة السيّد الورداني لهذا الاصطفاء وتحليله له أنه أراد التمييز بين الإسلاميين المذكورين لئلا يُنذر الرماد في عيون المسلمين ولكي لا تلتبس عليهم خطوط الإسلام النبوي عن الآخر الأموي، فيقول مندداً بمن يحاول تسطيح الفكرة أو عدم التمييز بينهما:

«إن محاولة رفع بني أمية، أو التقليل

من شأن الإمام علي، أو مساواته بمعاوية كما هي عقيدة (البعض) ليس فقط تؤدي إلى التمويه على حقيقة الصراع الذي دار بين الإمام وخصومه كما هو الهدف الظاهر منها، وإنما سوف تؤدي إلى التمويه على حقيقة الإسلام النبوي الذي يمثلّه الإمام نيابةً عن الرسول ﷺ وبالتالي سوف تكون النتيجة ارتفاع الإسلام القبلي، إسلام بني أمية وعلو مكائته على حساب الإسلام النبوي»^(١٤).

وهذا ما هو حاصل فعلاً - كما يرى الكاتب - وما تبرّم منه ويتبرّم متأماً متوجّعاً حيث يقول:

«وتلك هي النتيجة التي استقرت عليها الأمة بعد وقعة صفين وبعد اختفاء الإسلام النبوي وسيادة الإسلام القبلي على يد بني أمية، ذلك الإسلام الذي تُعبّر عنه عقيدة أهل السنة، والذي تحوّل إلى دين الأغلبية بدعم الحكومات المتعاقبة من عصر بني أمية وحتى اليوم»^(١٥) وهو الإسلام المزيف الذي روج لمفاهيم عجيبة غريبة وصفها أمّها «لا تخرج عن كونها أطروحات

وللخروج من هذا المأزق ولتأكيد حقانية الإمام علي عليه السلام في اصطفايته وريادته أو ضرورة ريادته (أي ريادة منهجه) للإسلام النبوي يوصي الورداني بأن الباحث عن الحق يجب أن يتبع النص وليس أقوال الرجال؛ لأن الثاني يجعل بين الباحث والنص وسائط، وهؤلاء يجعلون (الباحث رهين الرجال لا رهين النص) حسب تعبيره - وحتى في مسألة هؤلاء الوسائط يشير الكاتب إلى أن النص الشيعي، أو التراث الشيعي يعتمد على آل البيت، فيما يعتمد الآخر على الصحابة، وفيما يرفض التراث الشيعي التعايش مع الحكم يؤكد تراث الآخر على التعايش معهم، وقاعدة الشيعة تركز على متن الرواية فيما يعتمد الآخر على سندها وهكذا^(٢٠).

ومن هنا جاء نص رواية مالك أو تم الاحتفاظ بها، والقائلة «إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله وسنتي» وحُجبت، أو اختفى نص رواية مسلم التي تقول «كتاب الله وعترتي»^(٢١). أمّا فكرة (عدالة الصحابة) التي

فرضتها السياسة وباركها الفقهاء^(١٦) مشيراً إلى بعض هذه المفاهيم بقوله: «لماذا يحاول الفقهاء إجبار الأمة على الاعتقاد بضرورة الصلاة وراء كل بر وفاجر؟ ولماذا تحيز فقهاء السلف لرأي يناقض القرآن والعقل؟»^(١٧).

وعلى طريقته في التنديد والتحليل والإثارة وإفلات نظر جمهور المسلمين إلى المسألة الجوهرية في سرّ تمزّق وحدة المسلمين، وسرّ عدم موفقيتهم في الوصول إلى الهدف المنشود، يقول الورداني ويتساءل:

«كنت على الدوام أطرح على نفسي السؤال التالي: هل ما بين أيدينا تراث أم دين؟»^(١٨) ويضيف:

«ليس هناك ما يُسمّى بشيعة أو سنة أو شافعية أو مالكية أو أحناف أو حنابلة.. فكلّ هذه تسميات تأريخية من اختراع السياسة.. والحق أنّ هناك إسلام حق وإسلام باطل وإسلام ربّاني وإسلام حكومي.. ولكن الذي ساد على مرّ التاريخ هو الإسلام الحكومي، والذي اختفى هو الإسلام الربّاني»^(١٩).

أجورهم من الحكّام، ومن ثمّ فإنّ ولاءهم يتّجه على الدوام نحو الحاكم وليس نحو الجماهير، وفتاواهم تصدر لحساب الحاكم لا لحساب الجماهير...» (٢٣).

ومن هنا تأتي ضرورة الاصطفاف مع الجماهير قبل الحكّام، والعمل على إقناع الحكّام بتحقيق مطالب الأمّة، وليس إلزام الأمّة بتحقيق مصالح الحكّام، وانطلاقاً من وصية الإمام علي (عليه السلام) لواليه على مصر مالك الأشتر والتي جاء فيها:

«وليكن أحبّ الأمور إليك أوسطها في الحقّ وأعظمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإنّ سخط العامة يجحف برضا الخاصّة، وإن سخط الخاصّة يفتقر مع رضا العامة» (٢٤).

إدريس الحسيني - نموذج آخر
في كتابه (الخلافة المقتضية) فقد عبّر عن تقديره وإجلاله لشخصية الإمام علي (عليه السلام) - موضوع بحثنا - ودور هذا الإمام العظيم في ترسيخ كيان الإسلام ولو على حساب حقّه الشخصي وسكوته عن أولئك الذين اغتصبوا

فنّدها الاستاذ أحمد حسين يعقوب في كتابه الشهير (نظرية عدالة الصحابة) وضعف عدالة الكثير منهم بالأرقام والوثائق التاريخية المعتبرة، والتي غمطت حقّ علي (عليه السلام) باعتباره واحداً من (الصحابة) فقط دون أي امتياز، فإنّ الورداني فنّد هو الآخر هذه الفكرة مفنداً معها فكرة الإجماع التي أفرزتها السياسة قائلاً:

«إنّ الهدف من فكرة الإجماع هو نفس الهدف من فكرة العدالة، كلاهما يدفع الأمّة إلى الاستسلام للخط السائد وإضفاء المشروعية عليه. وكما أنّ فكرة العدالة من اختراع السياسة، فإنّ فكرة الإجماع أيضاً من اختراع السياسة» (٢٢).

إنّ مواجهة الهدف هو الذي قاد المؤسسة الدينية الشيعية لأن تقف في حالة صدام مع الواقع الظالم أو الحكّام الظلمة رافضة مبدأ الطاعة المذكور، فيما جاءت المؤسسة الدينية للآخر عكس هذا الاتجاه، فهي كما يقول الورداني: «مؤسسة مرتبطة بالحكّام وواقعة في دائرة نفوذهم ويتقاضى الفقهاء منهم

الخلافة - حسب تعبيره - فيقول:

«أدرك الإمام علي عليه السلام بعد كل ما وقع أنه قد وقع في مأزق وداخل شراك خطر، فالعرب تظاهرت عليه واستضعفته وتيار الاغتصاب لم يركب الخلافة فحسب، وإنما طوّق بيت الإمام عليه السلام وحاصره بعد أن مدّ جسور التعاون مع المنافقين...».

وهذا يعني أنّ على الإمام أحد طريقين لفكّ هذا الحصار وتدمير هذا التعاون غير المقدّس: فهو إمّا أن يثور ويجهز على هذا التيار المتحالف ضده مع ما في ذلك من مجازفة قد تأتي على الإسلام كلّ ورجاله المخلصين، وإمّا أن يصبر حتّى يعيد الأمور إلى نصابها.

يقول إدريس الحسيني في هذا السياق:

«... أمّا الخيار الأوّل فهو يسير على علي عليه السلام وهو من أرعب بسيفه العرب واهتزّ لشجاعته الأبطال، وتيار الاغتصاب كان مدرّكاً لكلّ ذلك، غير أنّهم أدركوا أنّ أبا الحسن لا يُقاتل في أمر لا مصلحة للشرع فيه، أدركوا ذلك على مدى سنوات من الجهاد الذي كان

يتزعّمه. ولذلك تجاسروا عليه وأبدوا بطولاتهم المزيّفة...» أمّا الخيار الثاني، والقول للكاتب طبعاً، «والإمام علي وهو ينتظر، لم يقف مكتوف اليدين، لم يكن انتظاره سلبياً كما يبدو للكثير.. كان نشيطاً يعمل حسب ما تسمح به الظروف متحرّكاً خلف الحصار المفروض عليه^(٢٥).. (كان مقدّراً سلام الله عليه) أنّ الذين التقّوا حوله لم يكونوا على نفس الدرجة من الإخلاص (وربّما الوعي)..»

ويذكر اليعقوبي أنّه اجتمع جماعة إلى علي بن أبي طالب يدعونه إلى البيعة فقال لهم:

«اغدوا عليّ محلّقين الرؤوس فلم يغدأ إلا ثلاثة نفر»^(٢٦).

وهنا يقول الإمام علي عليه السلام: «لو وجدت أربعين ذوي عزم لناهضتهم» ثمّ قال قولته المشهورة: «فرايت الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذئ وفي الحلق شجى»^(٢٧).

وحين اشتدّ الحصار، وكثر الابتعاد عن الدين وتحوّل الخلاف إلى صراع حقيقي بين ما كان يفعله عثمان وما يريده

الإمام، راح الإمام يعلن اعتراضه على عثمان بشكل واضح وصريح. يقول السيد إدريس الحسيني في هذا الإطار: «لقد كان ثمة صراع حقيقي بين عليّ وعثمان، وبلغ بالإمام أنه بدأ يُبدي اعتراضه الصريح على عثمان ولا يأبه بأيّ تهديد منه، كيف يسكت علي وهو لم يسكت قبلها، إذ سكت إلا مراعاةً لحُرمة الإسلام وحواريي الرسول ﷺ. أما وقد بدأ عثمان يختلف في الدين ويستهزئ بشريعته، وينزل من مقام حواري الرسول ويرفع من شأن الطلقاء»^(٢٨)، «فلم يكن السكوت أحجا وليكن ما يكون»^(٢٩).

ولعل أكثر مواقف الصراع بين الرجلين هو ما يذكره التاريخ عن نفي عثمان لأبي ذر ووقوف الإمام مع الثاني في تشييعه له وتوديعه، وما ينقله الكاتب إدريس الحسيني عن كتب التاريخ المعتبرة، إذ يقول:

«إنّه عندما أزمع عثمان على تسيير أبي ذر الغفاري رضي الله عنه إلى الربذة ومنع الناس أن يسيروا معه، فلما طلع عن المدينة ومروان يسير عنها طلع عليه

علي بن أبي طالب ومعه ابنه وعقيل أخوه وعبدالله بن جعفر وعمار بن ياسر، فاعترض مروان فقال: يا علي إنّ أمير المؤمنين (عثمان) قد نهى الناس عن أن يصحبوا أباذر في مسيره ويشيّعوه. فإذا كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتُك، فحمل عليه علي بن أبي طالب بالسوط وضرب بين أذني راحلته، وقال: فَنَحْ نَحَاكَ اللهُ إِلَى النَّارِ. ومضى مع أبي ذر فشيّعه ثم ودّعه وانصرف. فلما أراد الانصراف بكى أبو ذر، وقال: رحمكم الله أهل البيت إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرتُ بكم رسول الله ﷺ. فشكا مروان إلى عثمان ما فعل علي بن أبي طالب، فقال عثمان: يا معشر المسلمين من يعذرني من علي؟ ردّ رسولي عمّا وجّهته له، وفعل كذا، والله لنعطينه حقّه. فلما رجع عليّ استقبله الناس، فقالوا له: إنّ أمير المؤمنين عليك غضبان لتشيعك أبا ذر، فقال: غضب الخيل على اللجم»^(٣٠).

وفي محاولة جادة من قبل الاستاذ إدريس الحسيني لإعادة كتابة التاريخ، والانعتاق من الموروث المؤدلج

والمصبوغ بأصباغ الحكومات ومعجون السياسة، أي محاولة إعادة الحق إلى نصابه بعد تغييب متعمد أو غير متعمد دام قروناً عديدة، وخاصة فيما يتعلق بمنهج الإمام علي عليه السلام مقارنة بمنهج غيره، يقول الكاتب:

«لقد كان وما يزال أغلب المؤرخين والناقدين للتراث، يسبحون في بحر التكرار، وبينون إبداعاتهم النقدية على عناصر وهمية، ومعطيات جاءت بها رغبة الخلفاء وطمع المؤرخين. وإذا ما انتبهنا إلى الماضي ومجريات أحداثه سوف يتبين لنا الأمر على درجة كاملة من الوضوح، فالسياق التاريخي الذي ظهر فيه التدوين والتأريخ هو نهاية العصر الأموي والعصر العباسي، وهو سياق شهد غوياً خطيراً ومنظماً لتيارات مختلفة الاتجاه، وشهد - أيضاً - صراعاً سياسياً حاداً تفتق عن صراعات أيديولوجية. ولما كانت السلطة طرفاً في هذا الصراع، كان من الطبيعي أن تستثمر إمكانياتها وموقعها كسلطة صاحبة القرار في سبيل تدمير الأطراف الأخرى، وتشكيل أيديولوجية الدولة.

وكان الدين دائماً هو الضحية الأساس. لأنّ تشكيل الايديولوجية هذه لا يستقيم إلا بإجراء سلسلة من التحريفات ليكتمل التناغم والانسجام بين الاثنين..» (٣١).

خلاصة الذي أراد ويريد الكاتب إدريس الحسيني قوله في كتبه الثلاثة: (الانتقال الصعب)، (الخلافة المغتصبة) وآخرها (لقد شيعني الحسين) أنّ الإمام علياً عليه السلام استشهد مهزوم الحقّ مظلوماً، لم يعرف التاريخ حقه والمؤرخون بعد، ولئن كانت حُلّت أزمة التاريخ بعد توفر الدراسات العلمية الدقيقة فإنّ أزمة المؤرخين لم تحلّ بعد، وهذا ما يقتضي استنهاض هؤلاء لإنصاف دينهم ورسالتهم ودعوتهم لدراسة التاريخ بعيداً عن الايديولوجية الجاهزة، ومحاولة التعرّف على الرجال من خلال الحقّ وليس العكس.

**علي بن أبي طالب - سلطة الحقّ:
عزيز السيّد جاسم**

جاء هذا العنوان أو هذا الكتاب بقلم عزيز السيّد جاسم عضو اللجنة

شخصيته من بطون كتب التراث إلى حيث نبض الحياة وعراكمها - حسب تعبير الكاتب أيضاً - ليتحقق الهدف الأكبر من دراسة هذه الشخصيات الخالدة وهو التواصل بين التراث وهمومنا المعاصرة، أي كي لا يبقى هؤلاء العظماء مجرد قمم شاهقة في سماء الناس معلّنين في الهواء للإعجاب والانبهار والتجارة بالسير والكلمات والمواقف.

يقول الكاتب في مقدّمة كتابه هذا: «ثمة قادة عسكريون كبار، ومفكّرون، وفقهاء عظماء، وبلغاء وزهاد وعباقر، وعلماء وأدباء. وفي التاريخ هناك الاسكندر العظيم يعشق الفلسفة، فيأخذ معه (ارسطو) استاذة، وهناك (افلاطون) الفيلسوف واستاذة سقراط، وهناك بوذا وكونفوشيوس، وقادة الثورات والمصلحون، كلّ متخصص في ميدانه، أمّا علي بن أبي طالب، فهو الحاوي على جميع سمات العبقريات المتعدّدة، فهو الخليفة القائد، وهو المحارب العظيم، وهو الفيلسوف، وهو الاستاذ في العدل والمؤسس لعلم

المركزية للحزب الشيوعي العراقي في الستينيات ومسؤول صحيفة (الثورة) العراقية في الخمسينيات، فراح يلقي أضواء جديدة على إمام المتّقين ومدينة العلم وبابها - حسب تعبيره - ويوضّح لماذا وكيف اصطفاه الرسول ﷺ ليصبح وريث علمه والمحافظ على سلالته؟

ويستعرض الكاتب في كتابه هذا حياة الإمام علي عليه السلام واقفاً على أهمّ أحداثها بالتحليل والدراسة ابتداءً من جهاده مع الرسول ﷺ مروراً بمحنتي الجمل وصفين وحتى استشهاده موضحاً أهمّ صفات أو سمات شخصية هذا الإمام العظيم الأخلاقية والفكرية والنفسية، وكذلك سياساته الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ومنهج حكمه الذي يُعتبر أو يتمحور العدل فيه درّة لم يتخلّ عنها حتّى مع قاتله (٣٢)، وينتهي الكاتب مع الإمام في اسلوب الإمام الخطابي وبلاغته الفذة التي عبّر عنها أو عبّر عنها البلقاء والفصحاء أنّها تحت كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، ثمّ أفصح الكتاب عن شخصية الإمام كقدوة تحتذى، محرّكاً سيرته وملاحم

النحو، وهو الفقيه، القاضي، العالم بالحساب والفلك، وهو أمير البلاغة والشاعر، والحكيم والمحافظة لثراث محمد رسول الله ﷺ وهو الأخلاق الرفيع، والأتموزج في كل شيء» (٣٣).
ويضيف:

«يستطيع المرء أن يتعلم أشياء كثيرة من علي أو يعلم عنه ولكنه لا يستطيع أن يكون مثله.. فكان في زمنه وحيداً إلا من قلة مخصصة إخلاصاً نادراً، ومن أنصار ومؤيدين يجتمعون ويتفرقون لأمر أو أمور كان علي أعلم بها من غيره. وحين خذلت المحنة في زمنه، أنصفه التاريخ، إذ أصبح أفواج المحبين من رجال الفكر والكفاح الإنساني، والعدل والمعرفة، يتصلون به بحسب الفكر والإيمان ونسبها، وأصبح حب علي بن أبي طالب حقيقة موضوعية يقر بها المحب والمبغض» (٣٤).

أمّا لماذا ناوأه المناوئون وناجزه المناجزون، واعترض عليه المعارضون، فقد اختصر ذلك عزيز السيد جاسم بأروع اختصار وأوجزه بأجمل إيجاز قائلاً:

«كان الرجل وحيداً في عبقرياته، عجباً في مسلكه، لذلك لم يكن جميع أعدائه من طينة واحدة، فبعض الذين حاربوه كانوا يرون فيه عدوهم الأكبر، أي عدو باطلهم، أو كفرهم أو شركهم أو ظلمهم، وبعض الذين حاربوه رأوا فيه المقياس الذي يكشف عن بعدهم من الحق والعدل، رأوا - من خلاله - هزلهم في حين كانوا يحسبون أنفسهم مهمين. فإذا بهم في الضالة، بالمقارنة مع شخصية علي. وكانوا يهيئون أنفسهم لدور كبير بين أتباعهم، فيأفل نجمهم أمام شمس علي النيرة، فحاربوه لافتضاحهم بالمقارنة ولعجزهم عن الارتفاع إلى مستوى الحق والصدق...» مضيفاً:

«أمّا الذين تركوا معسكره - وهم كثرة - فإنهم إنما فعلوا ذلك لأنهم لم يطبقوا عدله، وحقه وصدقته» مستشهداً بمقولة الاستاذ عباس محمود العقاد الذي يُفسّر هذه الظاهرة قائلاً:

«وهكذا فُرِضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغربية في ديارها وبين آلا وأنصارها، فالعلاقة بينه وبين كبار

للتاريخ والناس لكي يغترف كل غارٍ
غرفة، ويقول كل محلّ قوله، وهذا هو
العمق وحياة التاريخ والخلود...
يقول عزيز السيّد جاسم في هذا
السياق:

«لقد حسم اغتيال الإمام علي
المناقشة.. وقطع الطريق أمام محاولته
التصدّي للهجمة المضادة، ووجد في
الموت فوزه الأكبر وهو يرقب مغادرة
روحه: «فزت وربّ الكعبة» واستمرّ
الناس فيما همّ عليه من صراعات
سياسية ودنيوية ودينية
ومصلحية»^(٣٦).

ويصف الكاتب عجزه عن دراسة
هذه الشخصية العظيمة بالحبّ العظيم له
وكيف أنّه (سلام الله عليه) جدير
بالحبّ والاحترام والإكرام من قبل كلّ
إنسان حرّ ذي ضمير نجيب - حسب
تعبيره... وكيف أنّ كلّ شيء يمكن أن
يختتم إلا الكتابة عن علي فإنّها لا
تختتم. ولا يجد الكاتب مناصاً
للتعويض عن عجزه هذا إلا الاستشهاد
ببعض كلمات وصية الإمام عليه السلام لولده
الحسن حيث يجد فيها ناموساً فكرياً

الصحابة كانت علاقة الزمالة التي ينوب
فيها الواجب مناب الإلفة. والعلاقة بينه
وبين الخصوم كانت علاقة حسد غير
مكفوف وبغضٍ غير مكتوم، والعلاقة
بينه وبين سواد العامة كانت علاقة
غرباء يجهلون ولا ينفذون إلى لبابه.
وإن قاربه الناس معجبين، وباعده
أناس نافرين. تلك أيضاً آية الشهيد». ثمّ
يعلّق السيّد عزيز السيّد جاسم
على هذا ويروح يتساءل:

«هل كان ممكناً نجاح شخصية علي
بن أبي طالب - في عصرها - نجاحاً
سياسياً على ما هو عليه من (الحقّانية)
التامة والعدل التام؟» ويضيف:

«لقد أحبه - في زمنه - أناس حبّاً
خارقاً وبالع بعضهم في الحبّ فألهوه
وكفروا، فأمر بالقذف بهم في النار،
وهم غير نادمين. وهذا أمر عجيب
نادر. يفرض نفسه في طلب التحليل
لظاهرتة الغريبة المثيرة»^(٣٥).

هذه التساؤلات وغيرها، وهذا
التدافع في تحليل شخصية الإمام، وهذا
الاستغراق في دراسة مواقفه ومواقف
الناس منه وموقفه من الناس ترك

وأخلاقياً، ودليلاً للضمير، ودستوراً للناس، وخاصة حين يسمعه يقول في هذه الوصية الخالدة:

«يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك، وكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تُحب أن تُظلم، واحسن كما تحب أن يُحسن إليك واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك... وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك...».. ويروح الكاتب في معظم فصول الكتاب يضع عناوين شاخصة معبرة يستظهر من خلالها دلالات واضحة على عظمة الإمام وعدم تكرار نمودجه في دنيا الناس، فيضع عنوان الفصل الأول مثلاً: «مشيئة الرب» مؤكداً أن للإمام علي مواقف وصفات وسمات لم يشاركه أحد فيها من دنيا الناس على الإطلاق. ويأتي عنوان الفصل الثالث «شجاعة علي: البدء المتطابق» وما يحمله هذا العنوان من دلالة التطابق بين علي الإنسان وعلي النموذج الفريد، وكيف أن جميع الذين أسلموا لم يكونوا بطبيعة الحال مؤمنين، ولم يحافظ جميع

الذين أسلموا على جوهر الإسلام، فمنهم من ارتدّ مكشوفاً، ومنهم من كانت ردّته خفية أو حتى لا شعورية.. مع أن الإسلام في زمن الابتداء كان ذروة التربية وثورة التربية»^(٣٧) إلا علي الذي تطابق إسلامه مع إيمانه ولم يحد لحظة أو قيراطاً.

ويأتي عنوان الفصل الخامس والسادس على التوالي: «السياسة العسكرية لعلي بن أبي طالب، وتاريخ لأوليات سياسية» ويقول العنوان الثاني:

«من المؤكّد مع أن اللوحة الاجتماعية العامة للكثير من الصراعات في زمن الجاهلية كانت تشير إلى صراعات اقتتالية بين أبناء العمومة في العشيرة الواحدة، بأن أشهر الحروب وأخطرها كانت حروباً من النوع المذكور، فحرب (البسوس) التي استمرّت ما يقارب الأربعين عاماً كانت حرباً بين (بكر) و(تغلب) ابني وائل بسبب ناقة كانت تملكها امرأة عجزوز من بكر تدعى البسوس، وكذلك كانت حرب (داحس والغبراء) وهي حروب

وللأجيال والتاريخ، فيقول:
«ولا يهَمُّ البشرية أن يقال هذا
حاكم قوي، وذاك حاكم ضعيف، فقد
حفل التاريخ الإسلامي مثلاً بآلاف
الأمثلة في ذلك دون فائدة تُذكر»
ويضيف:

«إنَّ البشرية بحاجة إلى الحاكم
النبراس الذي يقدِّم للمجتمعات ثماراً
أبدية في العدل وفي الفكر، وفي
الممارسة. أي أنَّ المقياس في تقويمات
ك هذه، هو مقياس موضوعي يخصَّ
الفوائد الوطيدة للبشر، وليس مقياساً
فردياً، كما يجنح عادة بعض الكتاب
والمؤرِّخين إلى تفصيل الخصائص
الشخصية والعائلية للحاكم...» (٣٩).

ولا يقتصر هذا الخلط على الكتاب
والمؤرِّخين والنخب السياسية
والاجتماعية، بل إنَّه يمتدُّ ويكون خطره
أفزع حين يعمَّ كلَّ مساحة الناس ممَّن
سمَّاهم الإمام (عليه السلام) «الهمج الرعاع: أتباع
كلِّ ناعق (الذين) يميلون مع كلِّ ريح،
ولم يستضيئوا بنور العلم. ولم
يلجأوا إلى ركنٍ وثيق».

وهنا يدعو السيّد جاسم إلى تحرير

قيس بن عيس وذيان ابني بغض بن
وريث بن غطفان، واستمرَّت أيضاً
أربعين عاماً..» ليؤكد أنَّ جذور هذه
الأوليات هي تلك حتّى شاءت تلك
المقدّمة (الدramاتيكية) - حسب
تعبيره - أن توقّر ما توقّر بين بني عبد
شمس وبني عبد مناف (٣٨).

وحين يصل الكاتب إلى الفصل
السابع من كتابه يضع عنوانه المفصح
المعبر: «سلطة الحقّ في رفض السلطة»
ليكون عنوان الكتاب نفسه، وفيه، أي
في هذا الفصل يضع الكاتب ديباجته
من كلامٍ صريح واضح للإمام (عليه السلام) يقول
فيه:

«أما والذي فلق الحبة وبرأ
النسمة، لولا حضور الحاضر وقيام
الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله
على العلماء أن لا يقاروا على كظة
ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيتُ حبلها
على غاربها...» ويشير عزيز السيّد
جاسم أنَّ السلطة ليست مهمّة محدّد
ذاتها وأنها ليست هدفاً للعطاء محدّد
ذاته وإنّما هي مهمّة بمقدار النتائج التي
يحققها صاحب السلطة للناس

النفس البشرية من هذه الرعوية والهمجية والغوغائية، والتي هي كما يسميها طبيعة حيوانية غير مهذبة فيقول: «وشخص عليّ تشخيصاً فذاً تلك المجاميع من الجماهير، التي هي من طراز الهمج الرعاع، وهي مجاميع لا تشكّل جوهر المجتمع، وليست هي الجماهير بتمامها بل هي شرائح اجتماعية رهينة شروطها الفكرية الذاتية وبنت التخلف الطويل المقيم.. وأولئك الهمج الرعاع أعداء كلّ تقدّم، وتطوّر، واستقرار، وهم يعاكسون إرادة الحقّ، ومسار العلم، واتجاه العدل، ويعطون الشرعية التهريجية للظالمين، فهم خدمهم الذين يُنفذون إرادتهم الطغيانية، وهم لا مانع لديهم من استبدال سلطان بآخر، فهم مع الأقوى والمنتصر. وكان عليّ في رؤيته متنبئاً بما سيجمله (الشرق) من كوارث سياسية، سببها الصراعات الدامية حول السلطة، ودور الهمج الرعاع في تأجيجها وفي دفعها إلى الثورة...»^(٤٠).

هؤلاء الهمج الرعاع الذين ينعقون مع كلّ ناعق ويميلون مع كلّ ربح والذين

لا ينصرون حقّاً ولا يخذلون باطلاً ويحدّدون مواقفهم (مع مَنْ غلب) كما يقول التاريخ هم الذين ملأوا قلب الإمام عليّ قبحاً وشحنوا صدره غيضاً.. والأسوأ منهم هم أعوان الظلمة وحواشيهم وبطانتهم من الذين تنقل الروايات أنّ منادي يوم القيامة يعلو صوته منادياً: «أين أعوان الظلمة قبل الظلمة» باعتبارهم أذرع السلطان وأدواته التنفيذية الذين مكّنوا الظالم وحكّموه وتحكّموا به...

هذا التشخيص الواعي للإمام عليّ بن أبي طالب (سلام الله عليه) هو الذي جرّعه ألوان الغصص، فلا هو قادراً على مجارة الهمج الرعاع أو مسايرتهم في أهوائهم وأطماعهم، ولا هو قادر عن التخلّي عنهم وهو المسؤول عن تربيتهم وتأديبهم... فلا هم أطاعوه ليرتاح من زجرهم وتقريعهم ولا فهموه لكي يستقرّ على قرار... فبقي حياته كلّها مقارعاً مستغيثاً نادياً حظّه وحظّهم إذ ابْتُلِيَ بهم وابتلوا به كما يقول ﷺ وحيث أرادهم لدينه وأرادوه لدينهم، وشتان بين الإرادتين...

علي بن أبي طالب، بقيّة النبوة، وخاتم الخلافة: عبد الكريم الخطيب
هذا هو العنوان الذي اختاره عبد
الكريم الخطيب لكتابه وذيله بحديث
شريف للنبي الأكرم ﷺ يقول فيه: «يا
علي لا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَبْغُضُكَ إِلَّا
مُنَافِقٌ»، ثم راح يدوّن في تقديمه لكتابه
هذا قائلاً:

«إنّ تاريخ العظماء ليس مجرد حياة
وموت، وأحداث وقعت فيما بين الحياة
والموت فضبطتها صحف التاريخ، وختم
عليها الزمن بخاتمه، وإنّما تاريخ حياتهم
ميراث كريم تتوارثه الإنسانية كلّها،
وتقتدي بما فيه من عظات وعبر،
وتقطف من مجانيه، ما تطول يدها
وتبلغ همّتها من قدوة صالحة ومثّل
كريم»^(٤١).

وحين يصل إلى الإمام علي عليه السلام بعد
زفراّت طرحها على ما حلّ بالمسلمين
من اختلاط مروياتهم عن صحابة
رسول الله وكيف (اختلط فيها الحقّ
بالباطل والصدق بالكذب، والواقع
بالخيال) - حسب تعبيره - راح يقول:
«... وعلي - كرّم الله وجهه - هو

بقيّة النبوة، وخاتم خلافة النبوة،
وحياته كلّها معركة متّصلة في سبيل الله،
وإثثار سخيّ لإعزاز دين الله، وإعلاء
راية الإسلام التي حملها رسول الله،
والتفّ حولها المهاجرون والأنصار،
فكانوا جند الله وكتيبة الإسلام...
واحتملوا تبعات الجهاد في سبيل الله،
صابرين مصابرين... أمّا عليّ، فقد كان
صدره درعاً واقياً لدعوة الإسلام، من
أوّل يوم الإسلام إلى أن تداعت
حصون الشرك، وذهبت معالمه...
وأضاف:

«وكان سيفه شهاباً راصداً، يرمي
أعداء الإسلام بالمهلكات، ويشيع في
جموعهم الخزي والخذلان، ويُلْبِس
أبطالهم وصناديهم المذلّة والهوان، حتّى
ليكون سيفه علماً يسمّى (ذا الفقار)
وحقّ ليكون صاحب السيف مثلاً
يحدّث الناس به في مواقف البطولات
الخارقة فيقال (فتيّ ولا كعليّ)»^(٤٢).

وحين يأتي إلى موضوع
الخلافة - ككاتب يرى رأياً آخر -
لا يجد مناصاً من التصريح بالحقيقة
رغم مرارتها فيقول:

«فقد كانت الخلافة أقرب إليه بعد رسول الله ﷺ من أيّ صحابي آخر» ولكنّه يضيف:

«فلما تمت البيعة لأبي بكر، توقّف قليلاً وأمسك يده عن البيعة له بالخلافة، حتّى إذا رأى القبائل تتنادى بالردّة والخروج عن طاعة الخليفة الجديد، بادر فسّد هذه الثغرة، وأعطى الخليفة كلّ ولائه ونُصحته» (٤٣).

ويأتي عبد الكريم الخطيب إلى فتنة الخليفة الثالث عثمان بن عفّان وابن عمّه مروان ويفتح ملفّها ولا يستطيع غلقه فيقول:

«أسلم الحكم (والد مروان) عام الفتح إسلام الطلقاء، وكان طريد رسول الله ﷺ ولعينه... وقد قال فيه البلاذري: إنّ الحكم بن العاص كان جاراً لرسول الله ﷺ في الجاهلية وكان أشدّ جيرانه له أذى في الإسلام... وكان قدومه إلى المدينة بعد فتح مكّة، وكان مغموصاً عليه في دينه (أي مطعوناً عليه ومتّهماً في دينه)» (٤٤).

وبعد رحيل النبي ﷺ كلّم عثمان أبا بكر في ردّ الحكم وولده فكان جوابه

«ما كنتُ لأوي طرداء رسول الله» ولما استُخلف عمر، قال قول أبي بكر، ولما استُخلف عثمان أدخلهم المدينة فأنكر عليه المسلمون إدخالهم المدينة، ثمّ وليّ الحكم صدقات قضاة (حيّ في اليمن) - والكلام للخطيب طبعاً - فبلغت ثلاثمائة ألف درهم، فوهبها له حين أتاه... ومات الحكم (طريد رسول الله) في خلافة عثمان فصلّي عليه عثمان وضرب على قبره فسطاطاً» (٤٥).

وعن مروان بن الحكم ينقل الخطيب ما ذكره ابن سعد في طبقاته حين قال: «فلم يزل مروان مع ابن عمّه عثمان ابن عفّان، وكان كاتباً له، وأمر له عثمان بأموال، وكان عثمان يتأوّل في ذلك صلة قرابة، وكان الناس يتقمون على عثمان تقريبه مروان وطاعته له، ويرون كثيراً ممّا ينسب إلى عثمان لم يأمر به، وأنّ ذلك عن رأي مروان، دون عثمان، فكأنّ الناس شتّعوا بعثمان، لما كان يصنع بمروان ويقرّبه» (٤٦).

ومن هنا جاء تعليق الإمام علي عليه السلام على الفتنة التي أودت بحياة عثمان مخاطباً الثوّار: «جزعتم فأسأتم الجزع،

واستأثر فأساء الأثرة».

«والحقُّ أنَّ عليّاً كان أوفر الناس حظّاً، وأطولهم صحبةً لرسول الله ﷺ، فنذُ وُلد عليّ، وهو بين يدي محمد، قبل النبوة وبعدها. لم يفترق عنه في سلم أو حرب، وفي حلٍّ أو سفر، بل كان بين يدي النبي، وتحت سمعه وبصره إلى أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى، وهو على صدر عليّ، حيث سكب آخر أنفاسه في الحياة»^(٤٧) ويضيف:

«فقد كان علي بطل الإسلام دون منازع... وكان فقيه الإسلام، وعالم الإسلام، وحكيم الإسلام، غير مدفوع عن هذا أو منازع فيه...» إلى أن يقول: «ولو أنَّ إنساناً غير علي بن أبي طالب، امتحن بما امتحن به من شدائد وأهوال، لتبلدت مشاعره، وعطّلت ملكاته، ولما وجد العقل الذي يفكر ويقدر ولا اللسان الذي ينطق ويبين! ولكنّها النفس الكبيرة العميقة، تمرّ بها الأحداث المزلزلة، والكوارث المكرّبة، كما تمرّ الأعاصير بالجبال الشامخة فتتطاحن عندها وتتخاشع بين يديها، وتتكسر متداعية تحت

قدميها...»^(٤٨).

وفي مقاربة معبرة بين زواج الخليفة عثمان من بنتي رسول الله ﷺ رقية وأمّ كلثوم ومنحه لقب (ذي النورين)، وبين زواج الإمام علي من فاطمة عليها السلام يقول عبد الكريم الخطيب أو يكتب قائلاً:

«.. فإنّ في زواج عليّ من فاطمة شيئاً أكثر من هذا الذي ظفر به عثمان! فأولاً، فاطمة (رض) اختُصت من بين أخواتها بهذه الدرجة الرفيعة التي رفعها الله إليها فجعلها في مقام مريم ابنة عمران، حيث وصفها الرسول ﷺ بأنّها خير نساء العالمين، وثانياً: أنَّ فاطمة - وحدها من دون أبناء النبي وبناته - هي التي كان منها سبطا رسول الله ﷺ الحسن والحسين ومنهما كلّ نسل رسول الله. وإذ ننظر إلى هذا الأمر - والكلام للخطيب - مع ضمنية ما سبق من مواقف في هذا المقام، نجد أنّ ذلك الموقف متسق مع ما سبقه، جار على الغاية المنجحة له، والبالغة بآبني طالب، ما أراد الله له من كرامة وتكريم!

موقف يُلتمس فيه شخص الرسول، لا رسالة الرسول، إذا قيل ذلك في (علي) فإنه لا يعطي أكثر من دلالة واحدة، هي أن علياً أقرب الناس إلى الرسول، وألصقهم به وأولاهم، فيما يمس ذاته، ويتصل بشخصه»^(٥٠).

وعن عدل (علي) وترفعه عن حطام الدنيا واندكاه بمبادئ الدين وعدم اهتمامه بما تقوله السياسة ورجالها فيه، يقول عبد الكريم الخطيب:

«روي أنه حين تفرق أصحاب علي بعد مقتل الخوارج ودخل مسجد الكوفة فخطبهم، وكشف لهم عن الحال التي صاروا إليها، وما ينتظرهم من ذل على أيدي أهل الشام بعدها، قام إليه بعض أصحابه فقال:

«يا أمير المؤمنين... أعط هؤلاء هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي، ممن يتخوف خلافه على الناس وفراقه، إن هذا هو الذي كان يصنعه معاوية بمن أتاه، وإنما عامة الناس همهم الدنيا، ولها يسقون، وفيها يكدحون، فاعط هؤلاء الأشراف، فإذا استقام ذلك ما تريد

فهذا رسول الله ﷺ يكون له بنين وبنات ثم يختارهم الله جميعاً إلى جواره في حياة الرسول، عدا فاطمة (رض)، ثم لا يقف الأمر عند هذا، بل يكون من حكمة الله ألا يعقب أحد من أبناء الرسول وبناته ولداً، ومن كان له ولد من بناته مات هذا الولد صغيراً.. وهكذا يصبح الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لا يرى له ولداً غير فاطمة، ولا نسلًا متصلاً إلا ما كان من فاطمة وعلي»^(٤٩).

ويأتي الخطيب إلى قضية حساسة يحاول أن يتجاوزها بفدلكة وذكاء وذلك عند تمييزه بين شخص الرسول ورسالته، فيقطع الطريق على الرأي الآخر القائل بأن الإمام علياً عليه السلام إنما هو امتداد لرسالة الرسول وإن كان لشخصه فيه النصيب الأوفى، فيقول في هذا الإطار معترفاً ممرراً:

«فإذا قيل: إن علياً أخو النبي وزوج ابنته فاطمة، سيّدة نساء العالمين، وأبو السبطين، ريحانتي شباب الجنة، الحسن والحسين.. ثم إذا قيل: إن علياً هو الشخص القائم مقام الرسول في كل

عُدْتُ إِلَى أَحْسَنَ مَا كُنْتُ عَلَيْهِ مِنْ الْقِسْمِ» (٥١).

وبواصل الخطيب رؤيته هذه معلّقاً: «هذه هي السياسة التي كان يمكن أن يغلب بها الإمام، وأن يستكثر بها من الأنصار والأتباع! ولكنه يأبى بأن يستجيب لهذا الرأي، ويردّ على أصحابه قائلاً:

«أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور.. فوالله لا أفعل ذلك ما لاح في السماء نجم، والله لو كان المال مالي لسويت بينهم! فكيف وهي أموالهم». هذا هو حكم الدين - والتعليق هنا للخطيب طبعاً - ودعوة الحق والعدل! ولكن أين الناس من الدين، ومن الحق والعدل؟! لقد تعثّرت أقدامهم على هذا الطريق وثقل خطوهم عليه، وتقطّعت بهم الأسباب دونه... أتريدون شاهداً؟ وهل شاهد بعد أن نرى عليّاً وحده في الميدان، لا يقوم تحت رايته غير خمسين رجلاً؟» (٥٢).

لكن المؤلم المؤسف أنّ الخطيب نفسه وفي طول الكتاب وعرضه استمرّ مدارياً متهبياً يقترب من قول الحقيقة

الساطعة وينسلّ منها، وتسطع شمسُه فتضللّها غيمة الموروث وغمامة الحكم الجاهز وكأنيّ به يريد أن يقول شيئاً ولكن الضريبة باهضة والموقف صعب والحقّ مرّ ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

الحقيقة الضائعة: الشيخ معتصم سيد أحمد:

رغم أنّ (الحقيقة) لا تضيع ولن تضيع، وإن كانت ضُيعت أو عُيِّيت لهذه الفترة أو تلك، إلا أنّ (الحقيقة) عند الاستاذ والكاتب السوداني الشيخ معتصم سيد أحمد قد ضاعت، أي ضاعت عليه هو نفسه فراح يبحث عنها في كتابه هذا بمجدية وصدق وإخلاص حتّى عثر عليها موفقاً مسدداً إن شاء الله.

ولعلّ أوّل ما يبدأ به الكاتب في بحثه عن الحقيقة هو تنقيبه الدقيق وفحصه الأكثر دقّة لمتون وأسانيد الحديث الشريف: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وسنّتي، أو عترتي أهل بيتي» وصراعه بين هذين الاثنين

لم يبلغ الرسالة»^(٥٤) ويضيف:
(وإنّ هذا الأمر، هو مردّ خلاف
عظيم بين الناس، بل إنّ الرسول خاف
على نفسه من الناس ولذا طمأنه الله
تعالى بقوله عزّ من قائل: ﴿والله
يعصمك من الناس﴾»^(٥٥).

ومن استجلاء معاني هذه الآيات
البينات وغيرها يروح الاستاذ معتصم
يلقي باللائمة على المؤرّخين الذين
يكتمون الحقائق ولا ينقلونها إلى
الناس، وهذا ما يقصده بضياغ الحقيقة
إذ يقول:

«وما تعانيه الأمة الإسلامية اليوم
من فرقة وشتات وتمزّق في الصفوف ما
هو إلّا نتاج طبيعي للانحرافات التي
حدثت في التاريخ من تدليس المؤرّخين
وكتّمهم للحقائق.. من أجل مصالح
سياسية (ودنيوية).. وهو مخطّط
استهدف مدرسة أهل البيت على كافّة
الأصعدة والمستويات ليشكّل تياراً
آخر ذا مظهر إسلامي في قبال الإسلام
الحقيقي الأصلي»^(٥٦).

ولم تكن المسألة مسألة مصالح
سياسية فقط وإنّما مسألة رعب ورهبة

(سنّي أم عترتي) وارتياحه في اكتشاف
الخيطة الدقيق بين سنّة رسول الله ﷺ
وعترته أهل بيته وعلى رأسهم أو في
مقدّماتهم الإمام أمير المؤمنين علي بن
أبي طالب عليه السلام.

وبعد فراغه من هذا البحث الذي
قال: إنّ كلفه «مجهوداً فكرياً ونفسياً،
وجعلني أعيش صراعات مع ضميري
وأخرى مع زملائي وأساتذتي في
الجامعة»^(٥٣) وانتهاه إلى أنّ الآية
القرآنية الكريمة ﴿إنّما وليكم الله
ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون
الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾
إنّما نزلت في علي عليه السلام وإنّ لها دلالة
خاصّة - حسب رؤية الكاتب - راح
غائصاً في تقصّيها والبحث في مغزاها
وأسباب نزولها.

بعدها راح الكاتب يبحث في مغزى
الآية القرآنية الكريمة الأخرى: ﴿يا
أيّها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من
ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته
والله يعصمك من الناس﴾ وكيف أنّ
هذا الأمر الإلهي الواجب تبليغه صار
يوازي تبليغ الرسالة فإذا لم يبلغه فكأنّما

(فيها غلظة)» إلى أن يقول (أي الكاتب):

«وما فعله المؤرّخون الثلاثة هو من أبشع أنواع كتم الحقائق، وهو يكشف بكلّ وضوح عدم أمانتهم العلمية»^(٥٨). ولم يتردّد الكاتب في ذكر بعض فقرات هذه الرسالة التي (فيها غلظة) وينقلها عن مروج الذهب للمسعودي، وجاء فيها:

«من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي معاوية بن صخر، وبعد الثناء على النبي وكيف أنّ الله أرسله رحمة وبعثه رسولا ومبشّراً ونذيراً، فكان أوّل من أجاب وأناب وآمن وصدّق وأسلم وسلم أخوه وابن عمّه علي بن أبي طالب: صدقه بالغيب المكتوم وآثره على كلّ حميم، ووقاه بنفسه كلّ هول وحارب حربه وسالم سلمه... لا نظير له... اتّبعه ولا مقارب له في فعله، وقد رأيته تُساميه وأنت أنت، وهو هو، أصدق الناس نيّة، وأفضل الناس ذريّة، وخير الناس زوجة... وأنت اللعين ابن اللعين لم تنزل أنت وأبوك تبغيان لرسول الله ﷺ الغواية وتجهدان

وخوف لمن يجرأ ويكشف الحقيقة إذ «كان مجرد التظاهر بالحبّ لعلي بن أبي طالب وأهل بيته كفيل بهدم الدار وقطع الرزق، حتّى تتبّع معاوية شيعة علي قائلاً: اقتلوهم على الشبهة والظنّة، وحتّى بات ذكر فضائلهم جريمة لا تُغتفر...»^(٥٧).

وأكثر ما يجرح قلب الكاتب ويمزّق فؤاده في مواقف هؤلاء المؤرّخين هو جنابة التكتّم على مظلومية الإمام علي (عليه السلام) وحذفهم لرسائل عديدة مهمّة كان (عليه السلام) بعثها إلى معاوية وحذف أخرى بين هذا الأخير ومحمد بن أبي بكر، وراح الكاتب يندّد بموقف الطبري كمثال قائلاً:

«أخفى المؤرّخون وأولهم الطبري الرسائل التي جرت بين محمد بن أبي بكر ومعاوية بن أبي سفيان.. فاعتذر الطبري بعدما ذكر إسناد الرسالتين، بأنّ فيهما ما لا يتحمّل العامة سماعه، ثمّ جاء من بعده ابن الأثير وفعل ما فعله الطبري، ثمّ سار على نهجهم ابن كثير فأشار إلى رسالة محمد ابن أبي بكر، وحذف الرسالة وقال

في إطفاء نور الله، تجمعان على ذلك الجموع وتبذلان فيه المال، وتؤلبان عليه القبائل، وعلى ذلك مات أبوك وعليه خلفته...» إلى أن يقول:

«فكيف يا لك الويل! تُعدل أو تقرن نفسك بعلي وهو وارث رسول الله ﷺ ووصيته وأبو ولده؛ أول الناس اتباعاً وأقربهم به عهداً، يخبره بسرّه، ويطلعه على أمره، وأنت عدوّه وابن عدوّه، فتمتّع في دنياك ما استطعت بباطلك وليمدك ابن العاص في غوايتك، فكأنّ أجلك قد انقضى وكيدك قد وهن ثمّ يتبين لمن تكون العاقبة العليا...» (٥٩).

أمّا رسالة معاوية في الردّ على محمد بن أبي بكر، فقد جاء فيها، ما تهيب عن ذكره المؤرّخون الثلاثة المذكورون سابقاً، ولكن الشيخ معتصم أورد بعضاً من نصوصها كما جاء في مروج الذهب أيضاً. نذكر فقرات منها خدمةً للقارئ الكريم وبدون تعليق:

«من معاوية بن صخر، إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر... ذكرت ابن أبي طالب، وقديم سوابقه وقربته

إلى رسول الله ﷺ ومواساته إياه في كلّ هول وخوف فكان احتجاجك عليّ وعيبك لي بفضل غيرك لا بفضلك، فاحمد ربّاً صرف هذا الفضل عنك وجعله لغيرك، فقد كنّا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقّه لازماً لنا مبروراً علينا، فلما اختار الله لنبيّه عليه الصلاة والسلام ما عنده، وأتمّ له ما وعده، وأظهر دعوته وأبلغ حجّته، وقبضه الله إليه صلوات الله عليه، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتزّه حقّه وخالفه على أمره، على ذلك اتّفاقاً واتساقاً، ثمّ إنّها دعوه إلى بيعتها فأبطأ عنها وتلكأ عليهما، فهما به الهموم وأرادا به العظيم. ثمّ إنّّه بايعهما وسلّم لهما وأقاما لا يشركانه في أمرهما ولا يطلعانه على سرّهما حتّى قبضهما الله...» إلى أن يقول:

«أبوك مهّد مهاده وبنيّ لملكه وساده، فإنّ يك ما نحن فيه صواباً فأبوك استبدّد به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك قبل ما خالفنا ابن أبي طالب وسلّمنا إليه، ولكن رأينا أباك فعل ذلك به قبلنا فأخذنا بمثله، فعبّ

يستر أمرك فقد سكت عنه الطبري وابن الأثير وابن كثير...»^(٦١).

وهكذا هو التاريخ والمؤرخون على امتداد العصور والأزمان، يُظهرون نصف الحقيقة، ويسدلون الستار على نصفها الآخر فيتكون الناس في طرائق شتى لا يهتدي فيها الضال ولا يستيقن المهتدي، وكل ذلك من أجل مصالح خاصة أو مواقف سياسية مدفوعة الثمن تروح ضحيتها الحقيقة أو المؤرخ، وما أعظم المؤرخ الذي يروح ضحية للحقيقة! وما أعظم الحقيقة التي لا يعتمها مؤرخ ولو غيَّبها الزمن والسلطين وسنين طويلة من عمر الدهر الخؤون!

أباك بما بدا لك أو دع ذلك. والسلام على من أناب»^(٦٠).

وهنا لا يملك الشيخ معتصم نفسه فيروح مديعاً ما استقرَّ سريره واستصرخ وجدانه فيقول:

«وقد عرفتُ بذلك السرَّ الذي منع الطبري وابن الأثير وابن كثير من نقل هذه الرسالة؛ لأنَّها تكشف واقع الصراع والخلاف الذي حدث بين المسلمين في أمر الخلافة، التي هي حقُّ علي - كما يرى طبعاً -» ويضيف:

«فهذا معاوية يعترف بذلك ولكنه يعتذر بأنَّ خلافته هي امتداد لخلافة أبي بكر وشنَّع بذلك على ابنه... ولكن لا عليك يا معاوية - والكلام للكاتب - فإنَّ لم يسكت محمد بن أبي بكر ولم

الهوامش :

- (١) السيف والسياسة - صالح الورداني، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ: ١٠٦.
- (٢) انظر البخاري ومسلم - كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي... وانظر الترمذي.
- (٣) أنظر صحيح البخاري.
- (٤) أنظر مسند أحمد ج ١.
- (٥) أنظر مسلم كتاب الإيمان.

- (٦) السيف والسياسة: ١٠٧ عن مسلم: كتاب فضائل الصحابة - مناقب علي وآل البيت .
- (٧) نفس المصدر السابق: ١٠٧ عن: طبقات ابن سعد ج ٢، ومسند أبو داود الطيالسي .
- (٨) نفس المصدر السابق: ١٠٨، عن: طبقات ابن سعد، ومستدرك الحاكم، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، وسير أعلام النبلاء للذهبي .
- (٩) نفس المصدر: ١١٠ عن الطبراني .
- (١٠) نفس المصدر: ١١٠ عن البخاري مسلم، باب فضائل علي، ومسند أحمد ج ٢ .
- (١١) نفس المصدر: ١١٠ .
- (١٢) نفس المصدر: ١١١ .
- (١٣) نفس المصدر السابق: ١١١ عن مسند أحمد ج ١ .
- (١٤) نفس المصدر السابق: ١١٢ .
- (١٥) نفس المصدر السابق: ١١٢ .
- (١٦) الخدعة، صالح الورداني، طبعة ١٩٩٥: ٣٠ .
- (١٧) نفس المصدر السابق: ٢٩ حتى وصل الأمر حسب قول الورداني أيضاً إلى «أن تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك» عن كتاب «الامارة وطاعة الأمير» صحيح مسلم .
- (١٨) الخدعة، المصدر السابق: ٣٩ .
- (١٩) نفس المصدر السابق: ٤٥ .
- (٢٠) نفس المصدر السابق: ٤٥ - ٥٠ .
- (٢١) نفس المصدر السابق: ٦٦ .
- (٢٢) نفس المصدر السابق: ١٠٢ .
- (٢٣) نفس المصدر السابق: ١٥٣ .
- (٢٤) نهج البلاغة ج ٣ .
- (٢٥) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٢٦، وهم - كما هو معروف - أبو ذر والمقداد وسلمان .
- (٢٦) المصدر السابق نفسه .
- (٢٧) شرح نهج البلاغة ١: ١٥١ .
- (٢٨) الخلافة المغتصبة: ١٠٣ .
- (٢٩) مروج الذهب ٢: ٣٥٢ .
- (٣٠) الخلافة المغتصبة، مصدر سابق: ١٠٤، عن مروج الذهب ٢: ٣٥١ .
- (٣١) نفس المصدر السابق: ٢٣٦ .
- (٣٢) من تقرير الناشر للكتاب في ظهر الطبعة الثانية .
- (٣٣) علي بن أبي طالب، سلطة الحق: عزيز السيد جاسم - مقدمة الطبعة الثانية: ١٠ .

- (٣٤) نفس المصدر السابق: ١١.
- (٣٥) نفس المصدر السابق: ١١.
- (٣٦) نفس المصدر السابق: ١١.
- (٣٧) نفس المصدر السابق: ٤١.
- (٣٨) نفس المصدر السابق: ١٢٢.
- (٣٩) نفس المصدر السابق: ١٦٦.
- (٤٠) نفس المصدر السابق: ١٦٨.
- (٤١) علي بن أبي طالب، بقية النبوة، وخاتم الخلافة، عبد الكريم الخطيب، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٥: ٨.
- (٤٢) نفس المصدر السابق: ٢١.
- (٤٣) نفس المصدر السابق: ٢٢.
- (٤٤) نفس المصدر السابق: ٤٥.
- (٤٥) نفس المصدر السابق: ٤٦ عن أنساب الأشراف للبلاذري ٥: ٢٧.
- (٤٦) نفس المصدر السابق: ٤٦.
- (٤٧) نفس المصدر السابق: ٥٨.
- (٤٨) نفس المصدر السابق: ٨٨.
- (٤٩) نفس المصدر السابق: ١٢٦.
- (٥٠) نفس المصدر السابق: ١٢٨.
- (٥١) نفس المصدر السابق: ٥٦٦ عن: الإمامة والسياسة: ١ - ١٦٠.
- (٥٢) نفس المصدر السابق: ٥٦٧.
- (٥٣) الحقيقة الضائعة: الشيخ معتصم سيد أحمد، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ: ١٠٩.
- (٥٤) نفس المصدر السابق: ١٦٥.
- (٥٥) نفس المصدر السابق: ١٦٥.
- (٥٦) نفس المصدر السابق: ١٧٢.
- (٥٧) نفس المصدر السابق: ١٧٣.
- (٥٨) نفس المصدر السابق: ١٧٩.
- (٥٩) نفس المصدر السابق: ١٧٩ - ١٨٠ عن مروج الذهب للمسعودي ٣: ٢٠ تحقيق محمد محيي الدين، دار المعرفة - بيروت.
- (٦٠) نفس المصدر السابق: ١٨١ عن مروج الذهب ٣: ٢١.
- (٦١) نفس المصدر السابق: ١٨١.

